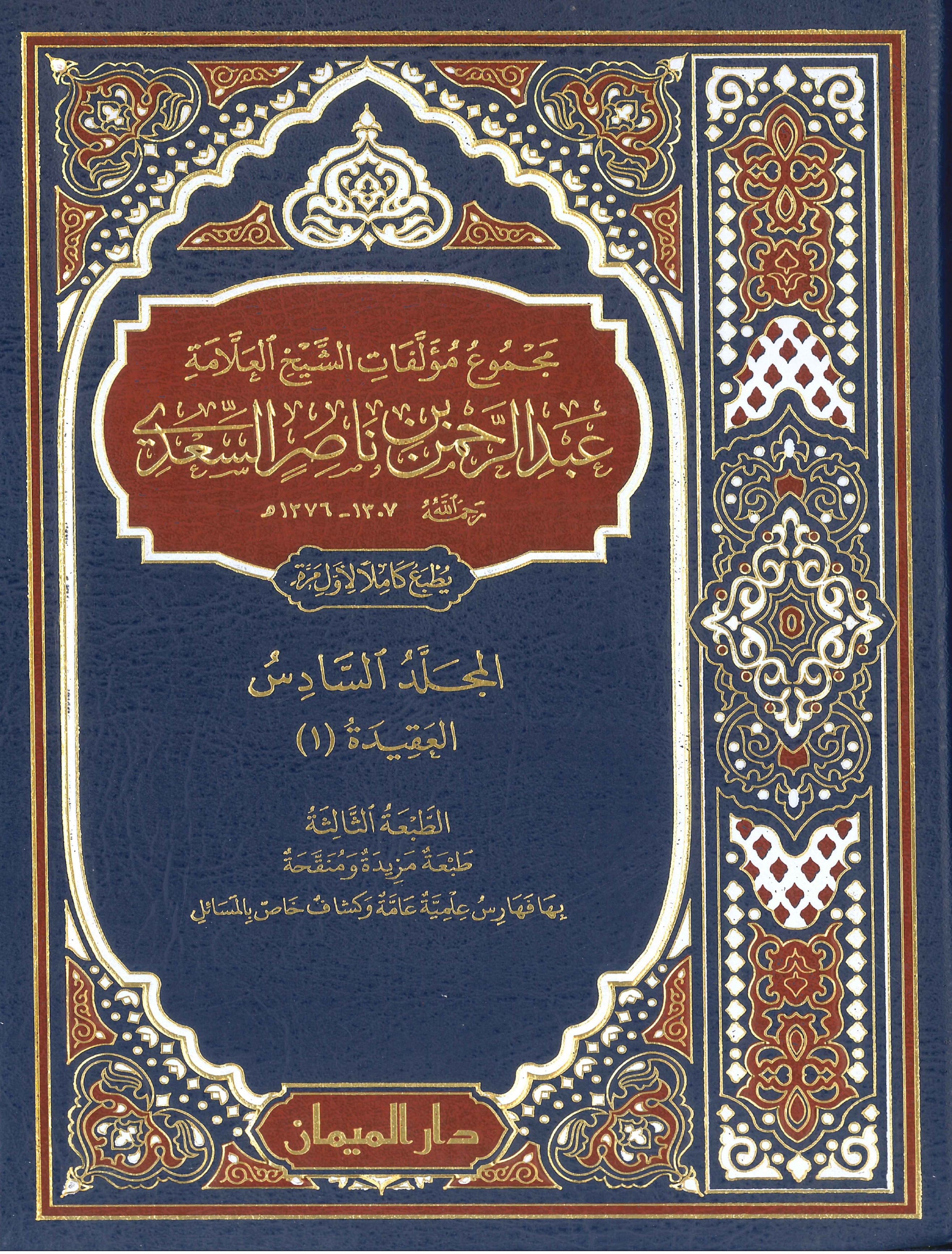
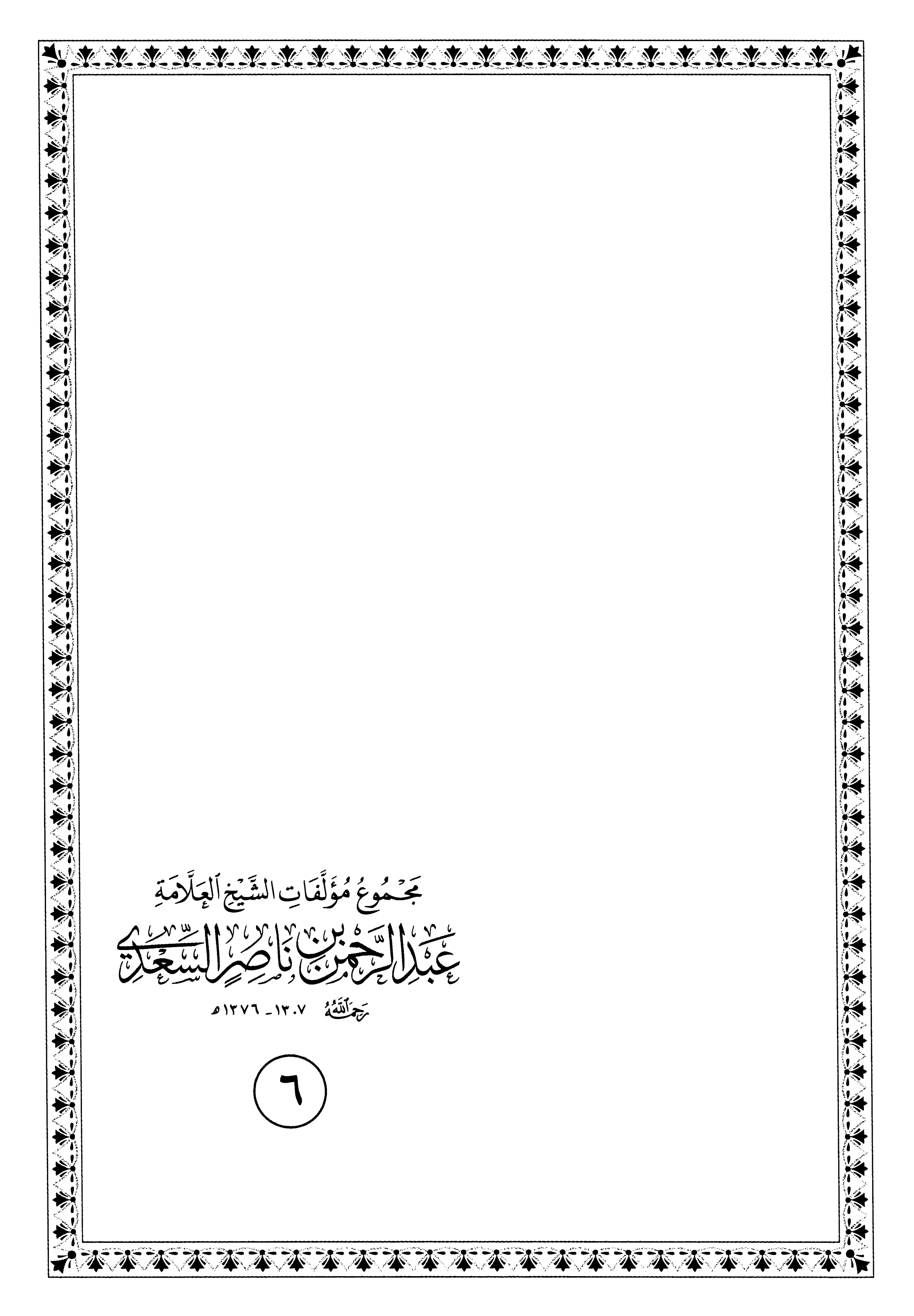


مجموع مؤلفات الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله ١٣٠٧ - ١٣٧٦هـ
يطبع كاملاً لأول مرة
المجلد السادس
العقيدة (١)
الطبعة الثالثة
طبعة مزيدة ومنقحة
بها فهارس علمية عامة وكشاف خاص بالمسائل
دار الميمان



مجموع مؤلفات الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله ١٣٠٧ - ١٣٧٦هـ
٦

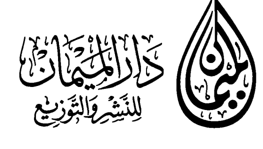
© دار الميمان للنشر والتوزيع، ١٤٤٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السعدي، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر
مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي./
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - ط٣.- الرياض، ١٤٤٣هـ
٣٠ مج.
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٣٧٨-٠٠-٧ (مجموعة)
٩٧٨-٦٠٣-٨٣٧٨-٠٦-٩ (ج٦)
١- الإسلام - مجموعات أ. العنوان
ديوي ٢١٠,٨ ١٤٣٣/٨٣٩٠

رقم الإيداع: ١٤٣٣/٨٣٩٠
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٣٧٨-٠٠-٧ (مجموعة)
٩٧٨-٦٠٣-٨٣٧٨-٠٦-٩ (ج٦)

الطبعة الأولى ١٤٣٢هجري - ٢٠١١م
الطبعة الثانية ١٤٣٦هجري - ٢٠١٥م
الطبعة الثالثة ١٤٤٤هجري - ٢٠٢٢م

جمعه ورتبه وصفه وحققه وضبطه على أصوله وصنع فهارسه وكشافاته
قسم تحقيق التراث والنشر العلمي
دار الميمان للنشر والتوزيع

واتساب: 07111 48 55 966+
Info@DarAlMaiman.com
www.DarAlMaiman.com
DarAlMaiman



مَجمُوعُ مُؤلَّفَاتِ الشَّيخِ العَلَّامَةِ

عَبدِالرَّحمٰن بن نَاصِرالسَّعدِي

رَحِمَهُ ٱللَّهُ ١٣٠٧ - ١٣٧٦هـ

(يُطبَعُ كَامِلًا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ)

إشرَافُ ومُتَابعَة وتَنسِيق

مُحَمَّد بن عَبدِ الرَّحمٰن السَّعدِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ — مُسَاعِد بن عَبدِ الله السَّعدِيّ

سُلَيمَان بن عَبدِ الله المَيمَان — أَيمَن بن عَبدِ الرَّحمٰن الحنَيحِن

المجلَّدُ السَّادِسُ

العَقِيدَةُ (١)

الطَّبعَةُ الثَّالِثَةُ

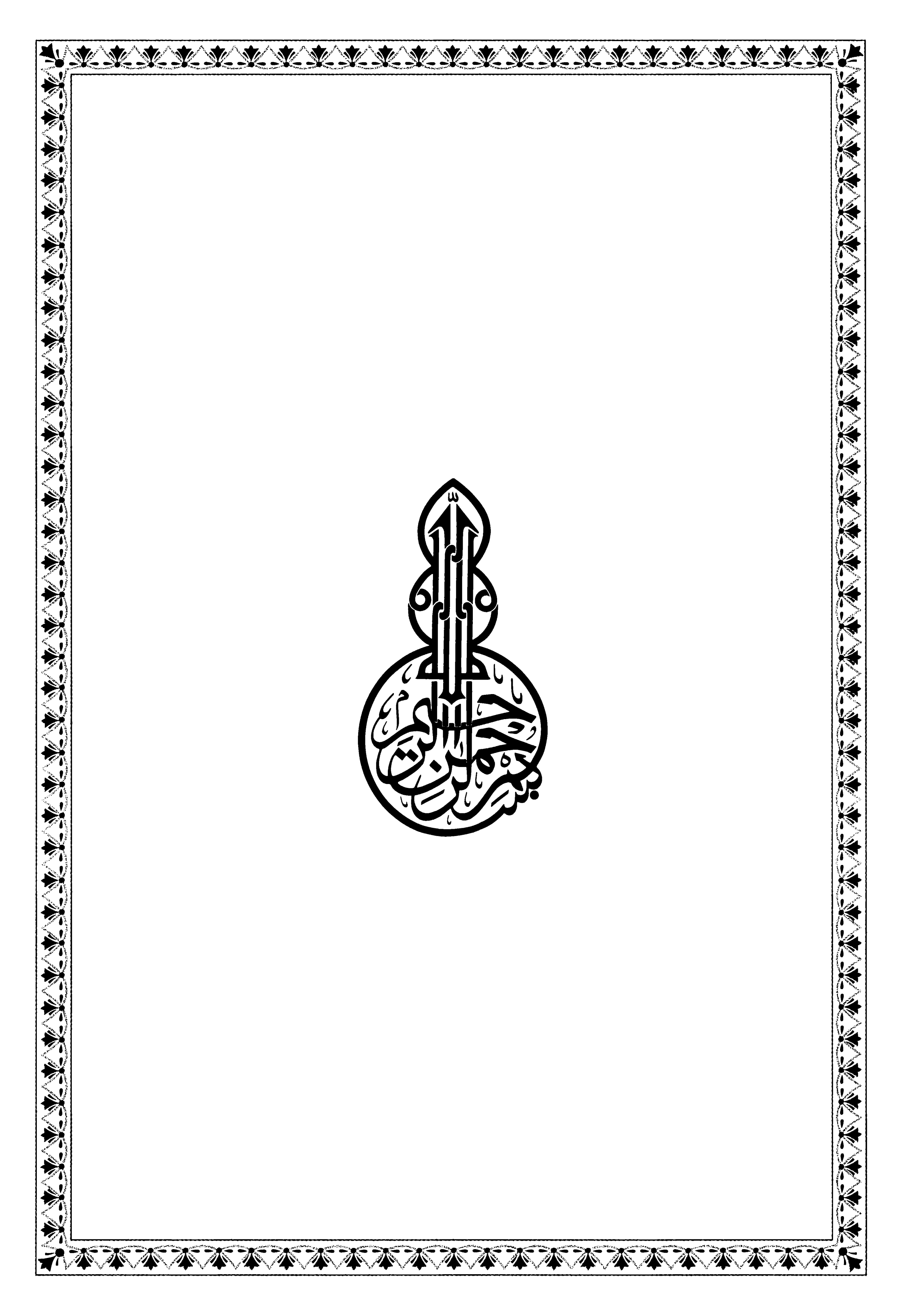
طَبعَةٌ مَزِيدَةٌ وَمُنَقَّحَةٌ

بِهَا فَهَارِسُ عِلمِيَّةٌ عَامَّةٌ وَكَشَّافٌ خَاصٌّ بِالمَسَائِلِ



دَار المَيمَان لِلنَّشرِ وَالتَّوزِيع

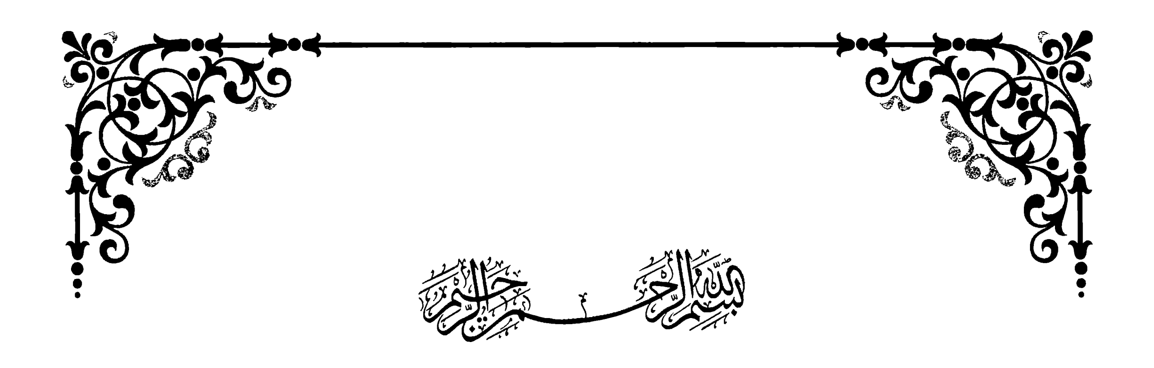
السُّعُودِيَّة - الرِّيَاض



مجموع مؤلفات ابن سعدي (١٥)

الأدلة القواطع والبراهين
في إبطال أصول الملحدين

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله



الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. اللهم صل وسلم على محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن الله تعالى بعث رسله مبشرين ومنذرين، وجعلهم الهداة والأئمة إلى كل علم صحيح نافع ودين صحيح، وإلى كل صلاح وخير، وخص محمدًا ﷺ بأن جعله خاتمهم وإمامهم، وأنزل عليه الكتاب والحكمة؛ فيهما الهدى والحق والنور، وفيهما العلوم النافعة والحقائق الصادقة، والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والآداب العالية، إليهما ينتهي كل علم وحق وكمال. وقد وضح الله ورسوله فيهما المسائل والدلائل والحقائق اليقينية والبراهين القطعية، فمن تمسك بهما واهتدى بهما سعد في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عنهما أو عارضهما ضل عن الهدى وشقي ونال الصفقة الخاسرة.

وأعظم الناس انحرافًا عنهما ملاحدة الفلاسفة وزنادقة الدهريين، وهم أكبر أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وهم شرار الخلق، الدعاة إلى الضلال والشقاء، فإنهم تصدوا لمحاربة الأديان كلها، وزين لهم الشيطان علومهم التي فرحوا بها واحتقروا لأجلها ما جاءت به الرسل، ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣]. وقد أصلوا لباطلهم أصولا يقلد فيها بعضهم بعضًا، وهي في غاية الفساد، يكفي اللبيب مجرد تصورها عن إقامة البراهين على نقضها، لكونها مناقضة للعقل والنقل، ولكنهم زخرفوها وروجوها فانخدع بها أكثر الخلق.

أعظمها عندهم أصل خبيث منقول عن معلمهم الأول «أرسطو» اليوناني المعروف بالإلحاد والجحد لرب العالمين والكفر به وبكتبه ورسله.

وهذا الأصل الذي تفرع عنه ضلالهم أنه من أراد الشروع في المعارف الإلهية فليمح من قلبه جميع العلوم والاعتقادات، وليسع في إزالتها من قلبه بحسب مقدوره، وليشك في الأشياء ثم ليكتف بعقله وخياله ورأيه. وكملوا هذا الأصل الخبيث بحصرهم للمعلومات بالمحسوسات، وما سوى ما أدركوه بحواسهم نفوه. وهذا أصل أفسد عليهم علومهم وعقولهم وأديانهم. وقد بين الناس على اختلاف نحلهم بطلان أصولهم، وأن أهلها قد خالفوا جميع الرسل وجميع العقلاء.

ومن أبلغ من تكلم عليها وأبطلها شرعًا وعقلًا شيخ الإسلام ابن تيمية، فإنه بين عدة وجوه في فسادها وبطلانها، كل وجه منها كافٍ في إبطالها، فكيف إذا اجتمعت؟ فننقل كلامه عليها ثم نتمم ذلك بما ييسره الله.

قال رحمه الله في نقض التأسيس لما ذكر عن هذا المعلم الملحد هذا الأصل الخبيث، والكلام على هذا من وجوه:

أحدها: أن هذا الكلام هو وما ذكر معه من الحجة أشبه بكلام أهل الجهل والضلال، ومن لا يدري ما يخرج منه من المقال، من كلام أهل العلم والعقل والبيان. وهو أشبه بكلام قصاص الجهال، والمغالطين من كلام العلماء والمجادلين بالحق. وما أحسن ما قال الإمام أحمد في بشر المريسي: كان صاحب خطب، ولم يكن صاحب حجج. بل هذا الكلام دون كلام أهل الخطب والحجج.

الوجه الثاني: أن يقال: ألم يكن في آثار الأنبياء والمرسلين ما يستغنى به في أعظم المطالب وأشرف المعارف، عما يروون عن معلم المبدلة الصابئين الذين انتقلوا عن الحنيفية الثابتة بالعقل والدين وهو رأس هؤلاء الدهرية.

الوجه الثالث: أن جميع العقلاء الذين خبروا كلام أرسطو وذويه في العلم الإلهي قد علموا أنهم أقل الناس نصيبًا في معرفة العلم الإلهي وأكثر اضطرابًا وضلالًا؛ فإن كلامه وكلام ذويه في الحساب والعدد ونحوه من الرياضيات مثل كلام بقية الناس، والغلط في ذلك قليل نادر وكلامهم في الطبيعيات دون ذلك، وكلامهم في ذلك غالبه حق وفيه باطل، وأما كلامهم في الإلهيات ففي غاية الاضطراب ومع قلته كثير الضلال عظيم المشقة، وهذا أمر يعرفه كل من له نظر صحيح في العلوم الإلهية فلا يستدل بكلام هؤلاء في العلم الإلهي وحالهم هذه الحال. وقد اعترف أساطين الفلسفة بأن العلم الإلهي لا سبيل لهم إلى العلم واليقين فيه وإنما يؤخذ فيه بالأولى والأخلق والأحرى فيه، فإذا كانوا معترفين بأنهم ليس عندهم علم ولا يقين في العلم الإلهي كيف يستدل بكلامهم فيه؟

الوجه الرابع: ما معنى قوله: فليستحدث لنفسه فطرة أخرى؟ والفطرة هي الخلقة التي فطر الله عباده عليها أتريد أن تبدل خلقته وما فيها من قوى الإدراك والحركة، فهذا غير مقدور للبشر فإن الله فطر عباده عليها، أم تريد أن يترك ما فطر عليه من المعارف والعلم ويستحدث لنفسه معارف تخالف ذلك؟ وهذا الذي يصلح أن تريده، فهذا أمر بتبديل فطرة الله التي فطر عباده عليها، وهي طريقة المبتدعين المبدلة لفطرة الله وشرعته كما قال ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة..**». الحديث[1]. فأهل الكتاب المنزل بدلوا وحرفوا من كتاب الله ما بدلوه وحرفوه، وهم مع الصابئة والمشركين القائمين بالنظر العقلي بدلوا من فطرة الله التي فطر العباد عليها وغيروا منها ما غيروا، ولهذا قيل: إن أرسطو هذا بدل طريقة الصابئة الذين كانوا قبله مؤمنين بالله واليوم الآخر الذين أثنى عليهم القرآن. والله سبحانه خلق عباده على الفطرة التي فطرهم عليها، وبعث إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، فصلاح العباد وقوامهم بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة. وهؤلاء بدلوا وغيروا فطرة الله وشرعته - خلقه وأمره - وأفسدوا اعتقادات الناس وإرادتهم - إدراكهم وحركاتهم، قولهم وعملهم - من هذا وهذا، كما بدل

(١) البخاري (١٣٨٥)، مسلم (٢٦٥٨).

بنو إسرائيل القول الذي أمروا به، والعمل الذي أمروا به.

الوجه الخامس: أن الرسول إذا أخبرنا بشيء من صفات الله وجب علينا التصديق به وإن لم نعلم ثبوته بعقولنا، ومن لم يقر بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذين قال الله فيهم: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ومن سلك هذا السبيل فهو في الحقيقة غير مؤمن بالرسول، ولا متلقٍّ عنه الأخبار بشأن الربوبية، ولا فرق عنده أن يخبر الرسول بشيء من ذلك أو لم يخبر به، فإن ما أخبر به إذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به. انتهى كلامه رحمه الله.

الوجه السادس: أن يقال: هذه الوصية مخالفة لما بعث الله به رسله وأنزل كتبه، فإنه بعث رسله مذكرين للعباد ما فطروا عليه من الإقرار بوحدانية الله ووجوب شكر نعمه، وافتراض الحب الكامل والتعظيم التام لله، المتفضل بالنعم الظاهرة والباطنة، ومذكرين لهم بالأمر بما فطرت العقول على استحسانه؛ كالصدق والبر والإحسان والأخلاق الجميلة، وبالنهي عما فطرت العقول على استقباحه؛ من الكذب والظلم والعدوان وجميع الأخلاق الرذيلة، فكيف يؤمر الناس أن يمحوا من قلوبهم وفطرهم هذه الأمور؟ وهل هذا إلا نهي عن جميع مواد السعادة والفلاح والصلاح، وأمر بكل منكر وفحشاء وسوء وشر وفساد؟ وفي هذا من تقويض دعائم الخير والصلاح، والاستبدال بها أصول الشر والفساد والفوضى في العلوم والعقائد والأخلاق، ما لا منتهى لشره وضرره.

الوجه السابع: أن يقال: هذه الوصية تتضمن محو العلوم الصحيحة، والمعارف النافعة، والإيمان الصحيح، والاستبدال عن ذلك بأنواع الجهالات والضلالات والغي، ورفض الإيمان بالكلية. فإن الإنسان في الأصل خلق ظلومًا جهولًا؛ ليس فيه هدى، ولا علم صحيح، ولا برهان ويقين في المطالب العالية المقصودة، إلا من جهة الطرق التي بعث الله بها رسله وأنزل بها كتبه. ولهذا كانت النبوة والرسالة يضطر إليها المكلفون أعظم من ضرورتهم إلى الطعام والشراب وما به قوام حياتهم المادية. فالعلم والهدى الإجمالي والتفصيلي هو هدى الله،

فلا يليق برحمة الله وحكمته وحمده أن يترك العباد مهملين سدًى بلا رسالة وتعريف لهم ما يصلحهم حالًا ومآلًا، فأرسل الرسل وأنزل الكتب حكمة منه ورحمة، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فيقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]، فجميع الهدى والعلوم النافعة الموجودة في الأرض، والمعارف النافعة، والإيمان الصحيح، وتوابع ذلك من آثار النبوة والرسالة: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. فمن تمسك بوصية هذا الملحد الضال فقد أمر بمحو ما جاءت به الكتب، وأرسلت به الرسل، وأن يستبدل بذلك وساوس النفوس ووحي الشيطان، فهذه الوصية الباطلة مقصودها الأعظم جحد ما جاءت به الرسل، وأهلها أحق الناس بالدخول تحت قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧٠، ٧١].

الوجه الثامن: أن يقال: هذا الكلام باطل شرعًا وعقلًا.

أما الشرع: فجميع الكتب المنزلة من السماء وجميع الرسل جاءت بتقرير ما وضع الله في فطر الخلق؛ من الاعتراف بوحدانية الله وكماله المتنوع وصدقه وصدق رسله وتقرير الحق والحقائق النافعة في القلوب؛ اعتقادًا وتخلقًا وتصديقًا ودعوة إليها وهداية لها من جميع الوجوه. ومن المعلوم أن هذه الوصية الباطلة منافية لذلك غاية المنافاة، مادة للجهالات البسيطة والمركبة وأنواع الضلالات، وداعية إلى الشقاء في الدنيا والآخرة. ودلالة الشرائع على هذا الأمر أعظم وأوضح من أن تفصل، بل هذا روح الشرائع السماوية والشرائع النبوية.

وأما العقل: فإن أهل العقول الصحيحة متفقون على أن أفضل المغانم والمكاسب ما كسبته القلوب وحصلته من العلوم الصحيحة والمعارف النافعة والإيمان الصادق والأخلاق العالية، التي من اتصف بها صار من علية الخلق وأكملهم وأرفعهم درجة ومقامًا، فمن أوصى بترك ذلك ومحوه من القلوب والحث على الشك والتشكيك فقد جاء لأهل

العقول بما لا يعرفونه، بل ينكرونه أشد الإنكار، ويرونه من فظائع المنكرات، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وماذا بعد العقائد الصحيحة إلا العقائد الباطلة؟ وماذا بعد الأخلاق الفاضلة إلا الأخلاق الرذيلة السافلة؟ وماذا بعد الرشد إلا الغي والفساد؟

الوجه التاسع: أن يقال: هذا الأصل الخبيث يعود إلى تسلسل محو ما يقع في القلوب من كل علم صحيح وفاسد، ومن كل معرفة حاصلة في القلب، فهو أعظم معول لهدم العلوم كلها؛ لأن لازم ذلك يوجب ألا يثبت في القلوب شيء من العلوم الصحيحة، بل لا تزال الشكوك والمكابرات تنفي ما يقع في القلوب حتى تنحل العلوم وتنحل الأخلاق، ويتدرج بذلك إلى مذهب الإباحية والانطلاق في الفوضى وأغراض النفوس الخبيثة الضارة، ولا يبقى دون ذلك مانع علمي ولا مانع خلقي. وهذا أعظم معول للشيوعية المفسدة للدين والدنيا، وبهذه الطريقة فشا الإلحاد.

الوجه العاشر: أن يقال على وجه التنزل: أيهما أولى محو ما يقارب في القلوب وما اتصفت به من الاعتقادات الصحيحة الناشئة عما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، ثم بعد ذلك يوجهه صاحبه بزعمه إلى طلب الحقائق من غير أساس صحيح يبنى عليه ولا معارف نافعة يعتمد عليها؟ وقد علم ما يرد على القلوب الفارغة الساذجة الخالية من كل شيء من أنواع الوساوس والخيالات الفاسدة والضلالات المتنوعة، وأنها عند انطلاقها من الحق الصحيح اعتقادًا وتخلقًا تأتي بالغرائب المزعجة والخيالات المضحكة، أي هذه الحالة التي لا يرتضيها من له مسكة من عقل، وحالة قلب ملآن من العلوم الصحيحة والمعارف النافعة والإيمان الصادق القوي المستمد من معين الرسالة ومن هدى الله الذي هدى به الخلق، وفيه من الفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال ما يميز به الحقائق إذا وجهت صاحبه إلى طلب الحقائق والحق من أبوابها واستخراج المعارف من طرقها، فهذا القلب السليم عنده من اليقين والنور ما يهتدي به إلى المطالب العالية، فمن سوى بين الحالتين والقلبين فليبك على ذهاب عقله بعد ذهاب دينه. فالعلوم التي لها أساس قوي

تعتمد عليه ولها براهين قطعية تستمد منها وتهتدي بها، وصاحبها عنده من الأصول ما يفرق به بين الحق والباطل؛ هي التي يعتبرها أولو الألباب، وينافسون في تحصيلها، ويرون إدراكها أجل نعمة أنعم الله بها عليهم. وهؤلاء الملحدون يوصون بتركها ومحوها من القلوب التي يلج الباطل فيها من غير معارض يعارضه من العلم واليقين والإيمان. فالعلوم والمعارف والأدلة والبراهين محال أن تكون صحيحة نافعة حتى تستنير بنور الوحي وبرهان الحقيقة، وتبني علومها وأعمالها على الإيمان.

الوجه الحادي عشر: أن هؤلاء يعاندون الله ورسوله أعظم معاندة، فالله يقول: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣] وفي الصحيح أنه ﷺ قال لمن قال له: قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»[(١)]. أي على الإيمان. وهؤلاء الملحدون يقولون: امحوا هذه الأصول والعقائد التي لا أصح منها ولا أنفع ولا يسعد العبد غيرها من قلوبكم، وشكوا لتستحدثوا علومًا وعقائد جديدة تجيش بها القلوب المنحرفة والآراء الفاسدة والضمائر التي أعرضت عن الحق وعارضته وتوجهت إلى الباطل، وهذا لا ريب أنه مشاقة ومحاربة لله ورسله.

الوجه الثاني عشر: أن محو العلوم الصحيحة والعقائد الحقة من القلوب وطلب الشك فيها محال غير ممكن، ومن حاول ذلك فهو مكابر، فالحقائق الصحيحة المبنية على البراهين الحقة الواضحة لا يمكن إزالتها من القلوب بوجه؛ لأن الحق إذا تمت معرفته احتل القلوب وثبت فيها واستقر وصارت له السيطرة على كل باطل، وزهق الباطل عند مقابلته. ولهذا قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النمل: ١٤]. وقال: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ

---

(١) مسلم (٣٨).

مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال عن اليهود: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٦]. وقال عن كفار المشركين: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. فهؤلاء الملحدون إنما غرضهم الوحيد صد الناس عما جاءت به الرسل، ومقاومة ذلك بكل طريق، فرأوا هذا طريقًا راج على الأغمار وضعفاء البصائر، ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]. أما أولو البصائر والألباب فإنهم يسعون لإزالة ما وقع ويقع في القلوب من الشبهات والشهوات المعارضة للحق؛ فإن الشبهات والشهوات الواردة على القلوب تضعف علمها ويقينها وإيمانها. ودواء ذلك أن يقابل بالعلم الصحيح والبراهين الصادقة، فإن الشكوك لا ثبوت لها عند ذلك، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد: ١٧]. وكذلك إزالة ما يقع في القلوب من الشهوات والأغراض الفاسدة التي يقدمها صاحبها على الحق والتعصب للمقالات بغير مستند صحيح، فدواء ذلك بتوجيه القلب لقصد الحق الصرف والإخلاص لله وقوة الرغبة فيما عند الله وتقديمه على هوى النفوس، فهذا هو المطلب الصحيح لكل موفق؛ أن يكون فطنًا في إدراك الحق وفي نفي الشبهات المنافية له، وأن يكون حسن القصد في ترجيح ما يرجحه الدليل الصحيح من المقالات.

الوجه الثالث عشر: أن المقصود الأعظم من تأصيل هذا الأصل الخبيث الكفر بما جاءت به الرسل والانحلال عنه، وإلا فأهله من أكذب الناس، فإنهم متمسكون غاية التمسك بما عليه أئمتهم الملحدون، وأقوالهم وعقائدهم مقدمة عندهم على ما جاءت به الرسل ويتعصبون لها غاية التعصب، فلو كانوا صادقين محقين لوجب عليهم أن يمحوا من قلوبهم أقوال أئمتهم وعقائدهم التي ما زالوا متمسكين بها ومقلدين لها تقليدًا أعمى، فالغرض من كلامهم معروف، وهو قصدهم الانحلال من الدين الصحيح والتمسك بأقوال هؤلاء الضالين.

الوجه الرابع عشر: قال الشيخ: ومن المعلوم أن الله لا يحب الجهل ولا الشك ولا الحيرة ولا الضلال، وإنما يحب الدين والعلم واليقين. وقد ذم الحيرة بقوله: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١]. وقد أمرنا أن نستهديه الصراط المستقيم المتضمن للعلم بالحق والعمل به، والقرآن هو الشفاء والهدى والنور، والشك والحيرة ليست محمودة باتفاق المسلمين، وغاية ما يكون أن من لم يكن عنده علم بالشيء فالواجب عليه أن يسكت ويطلب العلم من طرقه، وهؤلاء الملحدون الشاكون المشككون الذين يأمرون الناس بمحو الحق الذي في القلوب لتتوجه القلوب إلى غيره مخالفون للكتاب والسنة ولإجماع العقلاء المعتبرين، متابعون لأئمتهم الضالين. انتهى.

الوجه الخامس عشر: أنه لو فرض وقدر أن الإنسان يمحو من قلبه كل عقيدة ويصير القلب خاليًا من الحق والباطل، ثم يزن بعقله المستقيم العقائد الصحيحة النافعة التي جاءت بها الرسل بما يضادها من العقائد الأخر ويزنها بحق وعدل وإنصاف وفهم صحيح فإنه يظهر له الفرق العظيم، ويتضح له أن من سوَّى بين ما جاءت به الرسل وبين غيره كالمسوي بين الليل والنهار والضياء والظلمة، فكيف بمن فضل الإلحاد على دين رب العباد؟! فإن الحق بطبيعته وبراهينه يمحق الباطل ولا يبقى له معه قرار.

الوجه السادس عشر: أن الأمور اليقينية والحقائق الصادقة يستحيل أن تقدح فيها الشبهات والتشكيكات بوجه من الوجوه، وقد علم بالأدلة والبراهين المتنوعة، نقلًا وعقلًا وفطرة أن ما جاءت به الرسل هو الحق واليقين والدين الحق، وبراهين ذلك لا تحصى كثرة وقوة ووضوحًا، وقد صنفت الكتب الكبار والصغار من أصناف الطوائف في تحقيق صدق الرسل وصحة ما جاءوا به وأنه الحق والهدى، وأن كل ما نافاه وخالفه إذا قيس به وقرن معه اضمحل وبطل، ولم يكن له إليه نسبة بوجه من الوجوه؛ فمتى علم المنصف ذلك عرف أنه

ليس بعد الحق إلا الضلال والمحال، وأن تأصيل هؤلاء الملحدين هذا الأصل الفاسد من أكبر ما يدل على فساد أديانهم، وسفاهة عقولهم، وسوء مقاصدهم.

الوجه السابع عشر: أن العلوم النافعة التي اتفق عليها أتباع الرسل وأهل الهدى مدارها على أمرين:

أحدهما: أن يعرف ما أخبرت به الكتب السماوية والرسل عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر وسائر الغيوب، وما أخبرت به وحكمت به من الأحكام التي يتعبد المكلفون بها ويتعاملون، ويعتقد ذلك ويعمل به.

الثاني: معرفة براهين ذلك العقلية والسمعية والنظرية، والوقوف على أسرارها وحكمها. فهذه العلوم النافعة التي خلق الله لها الخلق وأرسلت بها الرسل وتتوقف السعادة والفوز والفلاح عليها، فالسعي في إزالتها من القلوب أعظم معاندة ومشاقة ومحاربة لله ورسله، وإنما المطلوب الأعلى حصولها في القلوب وثبوتها. فتبًّا لطائفة زائغة قدمت مقالات الملاحدة على كلام الله ورسوله.

الوجه الثامن عشر: أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا بمحق ما يقع في القلوب مما ينافي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتوابع ذلك، وإزالة كل شبهة تعرض للقلوب تقدح في هذا الأصل أو تخل به بالبراهين القاطعة الواضحة، ليكون الإيمان صحيحًا والقلب سليمًا من الشبهات والشكوك والإرادات الفاسدة، والقرآن والسنة مملوءان من ذلك، وهؤلاء الملحدون يريدون نقيض ذلك، فهم أئمة الكفر والجحود حادُّوا الله ورسله أعظم محادة.

الوجه التاسع عشر: أن من أعظم الأصول التي جاءت بها جميع الرسل، خصوصًا خاتمهم وإمامهم محمدًا ﷺ - الإيمان بالقضاء والقدر، مع الحث على فعل جميع الأسباب النافعة في الدين والدنيا. والكتاب والسنة مملوءان من ذلك، وأن جميع الحوادث

مربوطة بقضاء الله وقدره، ونواصي العباد بيده، وأنه لا حول للعباد ولا قوة لهم إلا بالله، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يدفع السيئات إلا هو، وأن جميع النعم الباطنة والظاهرة كلها من الله. فهذا الأصل الكبير قرره الكتاب والسنة في مواضع كثيرة، وهو أصل توحيد الربوبية، وقصد تقريره في القلوب، واعتقاده الكامل المثمر لكل خير. وهؤلاء الملحدون يريدون ويحاولون من الخلق أن يجحدوا قضاء الله وقدره، ويعتقدوا أنه لا حاجة إلى الاستعانة برب العالمين رأسًا؛ لأنهم جحدوه وعطلوا أفعاله بالكلية، واعتقدوا أن الأفعال كلها للطبيعة. وكفى بقول جهلًا وضلالًا أن يصل إلى هذا الحد الفظيع.

الوجه العشرون: أن هؤلاء الملحدين حصروا العلوم المدركة في دائرة ضيقة، فما أدركوه بحواسهم وتجاربهم أثبتوه، وما لم يدركوه بذلك نفوه وأنكروه. فأنكروا من أجل ذلك علوم الغيب كلها، وجحدوا ربوبية الله وأفعاله، وعطلوه من صفاته وأفعاله، إذ لم يدخل ذلك تحت مداركهم القاصرة. وهذا باطل شرعًا وعقلًا:

أما الشرع فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل تبطل قولهم وحصرهم العلوم بمدركات الحس الظاهرة ونفيهم لما عداها، وتثبت بالبراهين اليقينية من علوم الغيب ومن العلوم التي لا تدرك إلا بالوحي من الحقائق النافعة الصحيحة والمعارف الصادقة ما لا نسبة لعلومهم كلها إليها من أولها إلى آخرها.

قال الشيخ: وهم يعترفون أن علوم الأنبياء لا يمكن أن توزن بميزان صناعتهم، فأكثر الحقائق النافعة يعترفون أنه لا سبيل إلى وزنه بها، فهي يوزن بها المتاع الخسيس، دون الحقائق النافعة والأمر النفيس الذي ليس للنفوس عنه عوض، وليس سعادتها إلا فيه. فهم لم يزنوا بالقسطاس المستقيم، ولم يستدلوا بالآيات البينات التي هي العلوم الحقيقية والحكمة اليقينية التي فاز بالسعادة عالمها وخاب بالشقاوة جاهلها. وأهل المنطق متفقون على أنه لا يفيد إلا أمورًا كلية مقدرة في الذهن لا في الخارج، والعلوم الموروثة عن الأنبياء

أجل وأعظم من أن يكون لها التفات أو حاجة إلى علمهم، بل إدخال علمهم في العلوم الصحيحة يطول العبارة ويبعد الإشارة ويجعل القريب من العلم بعيدًا، واليسير منه عسيرًا، ولا يفيد إلا كثرة الكلام والتشقيق، مع قلة العلم والتحقيق. والأمور الموجودة المحققة تعلم بالحس الباطن والظاهر، وتعلم بالقياس التمثيلي، وتعلم بالقياس الذي ليس فيه قضية كلية ولا شمول ولا عموم. انتهى.

وأما العقل فجميع العقلاء المعتبرين يثبتون للعلوم مدارك غير مدارك الحس، فإن مدارك العلوم: الحس، والعقل، والأخبار الصادقة. فالأخبار الصادقة أعلاها وأصدقها وأحقها بالحق خبر الله وخبر رسله، وفي ذلك تبيان لكل شيء، وهدى للخلائق، وتوضيح للحقائق، وتنبيه للعقول على توجيهها لكل علم نافع. ويلزم على قول هؤلاء الملحدين إبطال ذلك كله حتى يدركوه بحواسهم، وهذا ميراث محقق من مكذبي الرسل الذين ردوا ما جاءت به الرسل بمجرد استبعادات، وأنكروا ما لم يحيطوا به علمًا، وهم لا يزالون ينقضون دليلهم الذي تمسكوا به فيثبتون تجارب ونظريات ثم تحصل تجارب ونظريات أخرى لهم ولقومهم تنفي ما أثبتوه وتثبت ما نفوه، ولا يزالون هكذا في أمر مريج حين كذبوا بالحق. وقد ذكر الله الأسباب التي دعت أمثال هؤلاء إلى تكذيب الحق، وهو الجهل بما لم يحيطوا بعلمه، والتبجح بما عندهم من العلوم المخالفة لعلوم الرسل، والكبر الذي في قلوبهم ما هم ببالغيه، وتقليد أئمتهم الضالين. فضعف التمييز، وتقليد أئمة الملاحدة، والإعراض عما جاءت به الرسل من أكبر الأسباب التي مكنت هؤلاء من لزوم الباطل.

الوجه الحادي والعشرون: أن هؤلاء الماديين الملحدين لما سدوا على أنفسهم بهذا الأصل الخبيث أكمل الطرق الموصلة للعلوم النافعة وأصحها وأهداها وأقومها وأوضحها، وهي العلوم التي جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب السماوية وفطر الله عليها عقول العباد إلا من فسدت فطرته بالعقائد الفاسدة، فسد هؤلاء هذا الباب النافع العظيم على أنفسهم وأتباعهم، وحصروا علومهم ومعارفهم في الأسباب المادية فقط، وتوسعوا فيها ومهروا

واخترعوا وبلغوا حيث انتهت إليه معارفهم وأفهامهم، وانقطعت بذلك صلتهم بالله ورسله وكتبه وبعلوم الرسل وبالهداية الصحيحة المثمرة لصلاح الظاهر والباطن وسعادة الدنيا والآخرة، فوقعوا في أمر مريج، وتخبطت نظرياتهم. وكلما اتفقوا أو أكثرهم على نظرية عن انتظام الأسباب بعضها ببعض وارتباطها الوثيق حاروا في المواد الأولية وفي سبب الأسباب، فينقضون ما اتفقوا عليه، ويبطلون ما كانوا أسسوه، ولا يزالون كذلك ما داموا لم ينفذوا من الأسباب إلى مسببها، ومن المخلوقات إلى خالقها. فما داموا كذلك فإنهم لا يستطيعون الاستقرار على رأي جامع لجماعتهم ومسعد لهم في الدنيا والآخرة. ونهاية ما يصلون إليه ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]. نسوا الله فنسيهم وتركهم في طغيانهم وغيهم وضلالهم يعمهون ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [غافر: ٨٣].

الوجه الثاني والعشرون: أنهم حين أصلوا هذا الأصل الباطل الذي جعلوه ميزان العلوم كلها تجرءوا جراءة فظيعة على تحليل حياة الرسل بناء على هذا الأصل، وتجرهموا بعقولهم[1] الفاسدة وعلومهم القاصرة إلى القدح بالرسل وإسقاط منزلتهم من قلوب السماعين لهم المستجيبين لدعوتهم حتى أبطلوا بذلك الوحي والرسالة والمعاد، وأنكروا الرب تصريحًا وتعريضًا، وتدرجوا بذلك إلى القدح في جميع الأديان، ولم يجعلوا للرسل ميزة على غيرهم، بل فضلوا طواغيتهم وفلاسفتهم عليهم. فأصل هذه آثاره الخبيثة، وهذه ثمراته السمية المنتنة الحنظلية، كيف يليق بمن له أدنى معقول أن يصغى إليه أو يبني عليه شيئًا من علومه ومعارفه؟ فإنه مفسد للأديان والعلوم، ومخبط للأذهان، فهو أعظم أصول الغي والضلال. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

الوجه الثالث والعشرون: أن العلوم المدركة بالحس إذا نسبت إلى علوم الرسل - كالعلوم المتعلقة بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأحوال الآخرة، والجزاء على

(١) كذا، ولعل الصواب: «تجرهم عقولهم».

الخير والشر وأمور الغيب، والإخبار بما كان وما يكون، وما يسعد النفوس ويشقيها - كانت كقطرة في بحر لجي. فأمور الغيب التي تتوقف على إخبار الرسل ووحي الله وهدايته العامة والخاصة أبطلها هؤلاء الملاحدة؛ إذ ضيقوا دائرة المعلومات جدًّا في مدركات حواسهم، فلهذا حاروا واضطربوا ولم يستقر لهم قرار على أقوال تتفق عليها آراؤهم، لأنهم أنكروا العلم الحقيقي النافع الذي يزكي النفوس ويسعدها ويرقيها في مدارج الكمال.

ومن المنكر والزور تخصيصهم علومهم القاصرة باسم العلم، فحيث أطلقوا «العلم» أرادوا به علوم الفلسفة وما نتج عنها، ونفوا العلم عما سواها، وهذا من باب المكابرات وقلب الحقائق، وإلا فالعلم الحقيقي الذي أثنى الله عليه في كتابه علوم الرسل وهداية الوحي المنزل من عند العليم الخبير، وما سواها فإما علوم ضارة، وإما قليلة النفع، وإما نافعة في أمور الدنيا دون أمور الدين. وقد نفخت روح الكبر في قلوب أصحابها واحتقروا لأجلها العلوم النافعة في الدين والدنيا، فما أضرها وأضر ثمراتها، ونعوذ بالله من علم لا ينفع.

الوجه الرابع والعشرون: أنه عن هذا الأصل الخبيث الباطل حكموا حكمًا فظيعًا باطلًا، وهو أن الرجوع إلى الماضي رجعية فاسدة، وأنه يجب إهدار كل قديم. وهجنوا بعباراتهم المتنوعة كل قديم ليتصلوا بذلك للقدح فيما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، وقالوا: إن البشر لم يبلغوا سن الرشد إلا في هذا الوقت الذي طغت فيه علوم المادة وانحلت الأخلاق وشاعت الإباحية والفوضوية الضارة المهلكة، حتى تفاقم الشر وعم الطغيان واضمحل الخير، وهذا من أعجب العجائب، كيف يكون الرسل صلوات الله وسلامه عليهم - وخصوصًا سيدهم وإمامهم محمدًا ﷺ وعليهم أجمعين - ومن اهتدى بهداهم من أئمة الهدى ومصابيح الدجى وخواص الخلق لم يبلغوا سن الرشد، وهم الذين كانوا على الهدى المطلق وبهم هدى الله البشر وأرشدهم إلى كل علم نافع صحيح وعمل صالح وخير ورشد وصلاح، كيف يكونون هم وأتباعهم ومن سلك طريقهم من الهادين المهديين المهتدين لم يبلغوا سن الرشد، وهؤلاء الزنادقة الملاحدة هم الذين بلغوا سن الرشد؟! سبحانك هذا

بهتان عظيم. ويكفي تصور هذا القول وتصور أحكامه ولوازمه معرفة ببطلانه، فإن أكبر الدلائل على رشد الرشيد وسفه السفيه تصرفاته ونتائج أعماله وثمراتها.

انظر إلى أحوال الرسل وأتباعهم كيف هدَوْا إلى كل عقيدة صالحة نافعة وإلى كل خلق جميل وعمل صالح، وكيف نهَوْا وحذروا عما يضاد ذلك ويناقضه، وكيف نشروا الصلاح والرحمة والحكمة على البلاد والعباد، وكيف تم بإرشادهم الصلاح الذي ليس بعده صلاح والسعادة العاجلة والآجلة والفلاح، فهل تجد علمًا نافعًا أو خلقًا فاضلًا أو خيرًا ناميًا أو شرًّا مدفوعًا أو ضررًا مرفوعًا إلا بسبب الرسل وإرشادهم وهدايتهم وسعيهم؟

أما هؤلاء الملحدون الماديون فعلى العكس من ذلك، فإن آثار علومهم وأعمالهم هبطت بالبشر والإنسانية إلى أسفل سافلين، وشقوا في دنياهم كما شقوا في دينهم وعقولهم. وهذه المخترعات التي تكبروا بها وطغوا وبغوا هل توسلوا بها إلى الخير والحياة الطيبة والرحمة، أم صارت أكبر نكبة على البشر وأعظم مصيبة عليهم وعلى غيرهم؟ فأين الرشد وأين العقول وأين الأحلام الصحيحة من قوم هذا وصفهم ووصف أعمالهم المطابق لأحوالهم الذي لا يمكن أحدًا إنكاره؟ ولكن الكبر والأشر والنظر القاصر والبهرجة روجت باطلهم فجرفت جمهور البشر الذين لا بصيرة لهم ولا عقول صحيحة، وإنما معهم التقليد الأعمى والزهو والغرور. فيا من عافاه الله من هذه البلية ومنَّ عليه بهداية الرسل، احمد الله حمدًا كثيرًا، واشكره شكرًا متتابعًا، فإن الله أنعم عليك بنعم لا يقادر قدرها ولا يبلغ كنهها، وسل ربك الثبات على الإيمان الصحيح المؤيد بالعقل الصريح والفطرة السليمة والطرائق المستقيمة.

الوجه الخامس والعشرون: أنه لا عاصم من الفوضوية وانطلاق النفوس في أغراضها وشهواتها السبعية البهيمية إلا الاعتصام بالحق الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب؛ من توحيد الله وعبادته والحث على الأخلاق الجميلة والتحذير من ضدها. وهؤلاء الملحدون لما أعرضوا وعارضوا الحق الذي جاءت به الرسل وقاوموه أشد المقاومة بخيلهم ورجلهم وشياطينهم، وفتحوا باب الاستغناء بما تقذف به القلوب من الأفكار التابعة للشهوات

النفسية، اندفعت أفكارهم وإراداتهم وشهواتهم إلى شهوات الغي وإعطاء النفوس مناها، ولم تقف عند حد فاستباحت كل قول وفعل محرم، ووقعوا في الإباحية المحضة، وصارت الحيوانات على نقصها أحسن حالا منهم.

ثم مع هذا الشر العريض والفساد الكثير زين لهم الشيطان ما كانوا يعملون، فجعلوا يدعون إلى هذه الأخلاق السافلة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. انظروا إلى أعمالهم إن كنتم مرتابين، وتأملوا آثارهم إن كنتم تعقلون، كم هدموا من محاسن وفضائل، وكم أقاموا من شرور ورذائل! ولا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، ولا تغترر بما أعطيه هؤلاء الملحدون من إدراكات وقوة ذكاء وفطنة وأعمال، فإن الذكاء وتوابعه إذا لم يصرف فيما خلق له العبد، وإذا أنكر صاحبه أوضح الأشياء وأحقها، كان ضررًا كبيرًا على صاحبه مآله الهلاك كما قال تعالى عن أمثال هؤلاء: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. فذكر أن جحودهم لآياته أوجب لهم ألا ينتفعوا بما أوتوا من هذه الإدراكات، وصارت النعم جالبة للنقم. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣]. فهم عظموا علومهم التي تبجحوا بها وتكبروا وقاوموا الرسل وسخروا بما جاءتهم به الرسل فانحرفت علومهم إلى الباطل ونزل بهم ما كانوا به يستهزئون.

الوجه السادس والعشرون: قال الشيخ: ما أخبرت به الرسل من الغيب هي أمور موجودة ثابتة أكمل وأعظم مما نشهده نحن في هذه الدار، وتلك أمور محسوسة تشاهد وتحس، ولكن بعد الموت وفي الدار الآخرة، ويمكن أن يشهدها في هذه الدار من يختصه الله بذلك؛ ليست عقلية قائمة بالعقل كما تقوله الفلاسفة، ولهذا كان الفرق بينها وبين الحسيات التي نشهدها أن تلك غيب وهذه شهادة، وكون الشيء غائبًا أو شاهدًا أمر إضافي بالنسبة إلينا، فإذا

غاب عنا كان غيبًا وإذا شهدناه كان شهادة. وليس هو فرقًا يعود إلى أن ذاته تعقل ولا تشاهد ولا تحس، بل كل ما يعقل ولا يمكن أن يحس بحال فإنما يكون في الذهن، والملائكة يمكن أن يشهدوا ويروا، والرب تعالى يمكن رؤيته بالأبصار، والمؤمنون يرونه في القيامة وفي الجنة كما تواترت بذلك النصوص. انتهى.

وهذا يبطل أصل الملاحدة الذين يحصرون المعلومات بمدركاتهم الخاصة القاصرة، فإنه ثبت بالبراهين القوية صدق الأنبياء عليهم السلام، وقد تواترت عنهم هذه الأمور وحصل اليقين التام لجميع من صدقهم، فإنكار الملحدين لذلك إبطال لأعظم المعلومات بأقوى البراهين وأصحها وأوضحها، وذلك مكابرة منهم ومباهتة.

وقال الشيخ: واستدلال الملاحدة على إلحادهم بقوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]. على أن العالم لا يتغير، بل لا تزال الشمس تطلع وتغرب لأنها عادة الله، فيقال لهم: انخراق العادات أمر معلوم بالحس والمشاهدة بالجملة، وقد أخبر في غير موضع أنه سبحانه لم يخلق العالم عبثًا وباطلًا، بل لأجل الجزاء، فكان هذا من سنته الجميلة، وهو جزاؤه الناس بأعمالهم في الدار الآخرة كما أخبر به من نصر أوليائه وعقوبة أعدائه، فبعث الناس للجزاء هو من هذه السنة، وهو لم يخبر بأن كل عادة لا تنتقض، بل أخبر عن السنة التي هي عواقب أفعال العباد بإثابة أوليائه ونصرهم على الأعداء، فهذه هي التي أخبر أنه لن يوجد لها تبديل ولا تحويل، كما قال: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وذلك لأن العادة تتبع إرادة الفاعل، وإرادة الفاعل الحكيم هي إرادة حكيمة فتسوي بين المتماثلات، ولن يوجد لهذه السنة تبديل ولا تحويل، وهو إكرام أهل ولايته وطاعته، ونصر رسله والذين آمنوا على المكذبين. فهذه السنة تقتضيها حكمته، سبحانه وتعالى، فلا انتقاض لها، بخلاف ما اقتضت حكمته تغييره فذاك تغييره من الحكمة أيضًا، ومن سننه التي لا يوجد لها تبديل ولا تحويل. لكن في هذه الآيات رد على من يجعله يفعل بمجرد إرادة ترجح

أحد المتماثلين بلا مرجح، فإن هؤلاء ليس له عندهم سنة لا تتبدل ولا حكمة تقصد، وهذا خلاف النصوص والعقول، فإن السنة تقتضي تماثل الآحاد، وأن حكم الشيء حكم نظيره، فيقتضي التسوية بين المتماثلات وهذا خلاف قولهم. اهـ.

الوجه السابع والعشرون: قال الشيخ: ما جاءت به الرسل، صلوات الله عليهم، لا يعرفه هؤلاء الفلاسفة وليسوا قريبين منه، بل كفار اليهود والنصارى أعلم منهم بالأمور الإلهية، لا فرق بين العلوم النقلية ولا العقلية الصحيحة التي جاءت بها الرسل، فهذه العقليات الدينية الشرعية الإلهية هي التي لم يشموا رائحتها، ولا في علومهم ما يدل عليها. وأما ما اختصت الرسل بمعرفته وأخبرت به من الغيب فذاك أمر أعظم من أن يذكر ترجيحه على الفلسفة فإذا كان أشرف العلوم لا سبيل للفلاسفة إلى معرفتها بطريقهم كما قرر وتقرر واعترفوا به، لزم أمران:

أحدهما: أنه لا حجة لهم على ما يكذبون به مما ليس في قياسهم دليل عليه.

الثاني: أن ما علموه خسيس بالنسبة إلى ما جهلوه، فكيف إذا علم أنه لا يفيد النجاة ولا السعادة؟ والرسول أخبر عن أمور معينة، مثل نوح وخطابه لقومه وأحواله المعينة، ومثل إبراهيم وأحواله المعينة، ومثل موسى وعيسى وأحوالهما المعينة، وليس شيء من ذلك يمكن معرفته بقياسهم؛ لا البرهاني ولا غيره، فإن أقيستهم لا تفيد إلا أمورًا كلية، وهذه أمور خاصة. وكذلك أخبر عما كان وسيكون بعده من الحوادث المعينة، حتى أخبر عن التتر بما ثبت في **الصحيحين** من غير وجه أنه قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك؛ صغار الأعين ذلف الأنوف**[1] **حمر الخدود ينتعلون الشعر، كأن وجوههم المجان المطرقة**[2]»[3]. فهل يتصور أن قياسهم وبرهانهم يدل على آدمي معين أو أمة معينة فضلًا عن أن يوصف بهذه الصفات قبل ظهورهم بنحو سبعمائة سنة؟

---

(١) قصر الأنف وانبطاحه.

(٢) أي التراس التي ألبست العقب شيئا فوق شيء.

(٣) البخاري (٢٩٢٨)، ومسلم (٢٩١٢).

وكذلك إخباره بخروج النار التي خرجت سنة ٦٥٥هـ وسائر ما أخبر به من الأمور الماضية والمستقبلة والأمور الحاضرة مما يعلمون أنه يمتنع أن يعرف ذلك بالقياس البرهاني وغيره، فإن ذاك إنما يدل على أمر مطلق لا على شيء معين، وليس مع الفلاسفة ما ينفي وجود ما يمكن أن يختص به بعض الناس بالباطن كالملائكة والجن، ولا معهم ما ينفي تمثل الأرواح أجسامًا حتى ترى بالحس الظاهر وما أشبه ذلك، فليس معهم في نفي هذه الأمور الثابتة بإخبار الأنبياء وببراهين أخر إلا الجهل المحض، فقد كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، مع أن عامة أساطين الفلاسفة يقرون بذلك، وكذلك أئمة الأطباء. وطريق هؤلاء الملاحدة لا يفرق بين الحق والباطل بخلاف طريق الأنبياء. انتهى.

وقال في سبب إلحاد بعض الملحدين: من أضر الأمور على العبد أن يكون متميزًا عن العامة ببعض العلوم الطبيعية أو غيرها، فإذا جاءته العلوم الدينية النافعة التي لم تدخل في علمه نفاها فخسر دينه وصار علمه الجزئي لبعض المعلومات وبالًا عليه. وهكذا تجد من عرف نوعًا من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه يبقى بجهله نافيًا لما لا يعلمه، وبنو آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما صدقوا به وأثبتوه. قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]. وهذا لأن الغالب على الآدميين صحة الحس والعقل، فإذا أثبتوا شيئًا وصدقوا به كان حقًّا بخلاف ما نفوه، فإن غالبهم أو كثيرًا منهم ينفون ما لا يعلمون ويكذبون بما لم يحيطوا به علمًا. ويتفرع على هذا الأصل الباطل: الجهل بالإلهيات وبما جاء به الرسل، والجهل بالأمور الكلية المحيطة بالموجودات، وبهذا ضل زنادقة الفلاسفة وغيرهم كما أنكروا الجن والملائكة وأمور الغيب، إذ لم تدخل تحت علومهم القاصرة، فجحدوها وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وجاءتهم الرسل بالبينات والبراهين ففرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. انتهى.

الوجه الثامن والعشرون: أن يقال لهؤلاء الملحدين المنكرين لأمور الغيب التي أخبر الله بها ورسوله: لم أنكرتموها؟ فيجيبون بأنها لم تدخل تحت علومنا التي بنيناها على

إدراكات الحواس والتجارب. فيقال لهم: قدروا أنها لم تدخل في ذلك، فإن طرق العلوم اليقينية كثيرة، وأكثرها لا تدخل تحت إدراكاتكم، فإن إدراكاتكم قاصرة حتى باعترافكم، فإنكم تعترفون أن مدركاتكم خاصة ببعض المواد الأرضية وأسبابها وعللها، ومع ذلك لم تدركوها كلها باعترافكم وأعمالكم فإنكم لا تزالون تبحثون وتعملون التجارب التي تنجح مرة وتخفق مرات، فإذا كانت هذه حالكم في الأسباب والمواد الأرضية التي يشترك بنو آدم في إدراكها ويفترقون في مقدار الإدراك، فكيف تنفون بقية العوالم؛ عوالم السماوات، وعوالم الغيب، وما هو أعظم من ذلك من أوصاف رب العزة وعظمته، وأنتم لم يتصل شيء من علومكم بذلك؟ فإن هذا النفي باطل بإجماع العقلاء، وإنما هذا مكابرة.

وإذا قلتم وأنتم تقولون بلسان المقال ولسان الحال: إن أئمتكم ورؤساءكم قالوا ذلك وأنكروه، فيقال: أولا: رؤساؤكم قد تضاربت أقوالهم وتناقضت مقالاتهم ولم يثبتوا على مقالة واحدة، ولم يزالوا في خبط واختلاط وإحداث نظريات ونقضها واتفاق وافتراق، ولو قدر على وجه الفرض اتفاقهم على الإنكار فكيف يؤخذ بأقوال من لم يعرف صدقهم بل عرف كذبهم وخطؤهم في ذلك ولا يؤخذ بأقوال الرسل من أولهم إلى آخرهم الذين ثبت صدقهم بالبراهين اليقينية والآيات القواطع، وثبت علمهم الذي تتضاءل معه علوم جميع البشر، ولم يصل أحد إلى العلم الصحيح والهداية إلا من جهتهم، وهم متفقون على ذلك؟ والكتب السماوية المنزلة عليهم وأتباعهم الذين عرفت هدايتهم ودرايتهم، وعرف أن الواحد من أئمة هؤلاء الهداة يقاوم الفلاسفة من أولهم إلى آخرهم.

فقد اتفقت الرسل والأنبياء وأتباعهم، وأدلة العقول الصحيحة والفطر السليمة التي لم تغيرها العقائد الفاسدة على الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وجميع ما يجب الإيمان به من الغيوب، وهؤلاء الملحدون ليس معهم نقل ولا عقل صحيح، إنما معهم ظنون كاذبة وآراء خاطئة ونظريات مضطربة وتقليد أعمى للضالين الحائرين ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٦ - ٨]. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

الوجه التاسع والعشرون: أن هؤلاء الملحدين كاذبون في دعواهم إثبات كل ما دخل تحت حواسهم، فإنه قد تواترت آيات الرسل وشاهدها الخلق العظيم، واعترفوا وخضعوا لها وشاهدوا ما فعله الله في الأرض، من نصر الرسل وأتباعهم ونجاتهم، وإهلاك الأمم المكذبة. وهذه وقائع كثيرة لا يمكن إحصاؤها، ولم يشتهر ويتواتر شيء كاشتهارها وتواترها، ولم يعترف البشر بشيء من الأشياء أعظم من اعترافهم بها؛ لأنهم شاهدوها رأي عين ونقلتها الأمم قرنًا بعد قرن، وهؤلاء يكابرون ويباهتون ويجحدون ما اعترفت به الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم، فهم تابعون لأئمتهم الذين قال الله عنهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ [النمل: ١٤].

الوجه الثلاثون: أنك إذا تصورت قول هؤلاء الملحدين الماديين الذين زعموا أن الحوادث كلها من أولها إلى آخرها حوادث الطبيعة، ومع ذلك هذه الطبيعة لا شعور لها بما يصدر منها من أفعال، وإنما هي آلة محضة، ومع ذلك تصدر عنها الأفعال العظيمة التي هي في غاية الإبداع والإتقان، وفي نهاية الحكمة والرحمة، وفي غاية الارتباط الوثيق الذي استقامت به الأمور وصلحت الأحوال من دون مدبر لها ولا خالق ولا فاعل، فمن تصور هذا القول حق تصوره عرف أنه قول يشبه أقوال المجانين الذين سلبت عقولهم، وهَذَوْا بما لا شعور لهم فيه، وعرف كل عاقل بصير أن نفس مقالاتهم تدل أكبر دلالة على كذبهم وافترائهم، فضلًا عن دلالات البراهين النقلية والقواطع العقلية وما فطر الله عليه الخلق من الاعتراف بوحدانية الله وتفرده بكل كمال، وأنه الفاعل لما يريد، وأنه مبدع السماوات والأرض ومودع فيها من بدائع حكمته وأسرار حمده وسعة عظمته ورحمته وعموم بره وفضله، وأنه لا يخرج موجود ولا حادث عن قدرته ومشيئته، وأن رسله صادقون في كل ما أخبروا به وشرعوه، والحمد لله

على أكبر النعم وهو الاعتراف بالحق الذي جاءت به الرسل، والعافية من هذا البلاء الذي هو أكبر المصائب على العبد، وهو اتباع كل ملحد مارق من العقل والدين.

الوجه الحادي والثلاثون: أن يقال لرؤساء الملحدين وأذكيائهم - فضلًا عن عوامهم ومقلديهم -: أنتم لا تزالون في علومكم التي افتخرتم بها، لا تزالون تحدثون نظريات تتفق عليها آراؤكم أو أكثرها وتقررونها وتعتقدونها وتجزمون بصدقها، ثم مع تكرار أفكاركم وأنظاركم عليها تشكون فيها، وربما تجزمون ببطلانها وتحدثون ما يضادها من النظريات التي باتفاقكم أن النظرية تقبل التحليل والشك والقدح فيها، وهي عرضة للاضمحلال. وكم قد أبطلتم منها ما كنتم ترونه حقًّا، وكم كذبتم ما كنتم به مصدقين، فعلومكم العالية عندكم وهذه حالها ومآلها. كيف يسوغ من له أدنى معقول أن يجعلها معارضة لما جاءت به الرسل من الحقائق الصادقة التي اتفقت عليها الرسل ونزلت بها الكتب وأيقن بها الأئمة الفضلاء والهداة المهتدون؟

الوجه الثاني والثلاثون: قد تقرر عند جميع الأمم - سوى هذه الطائفة التي كابرت وباهتت - صدق الرسل بما كانوا عليه من الأخلاق العلية والأوصاف الرفيعة، وبما جاءوا به من الدين الحق الذي أصلح الله به الدين والدنيا وهدى به العباد إلى كل خير وصلاح وفلاح خاص وعام عاجل وآجل، وأيدهم بالآيات البينات والبراهين القاطعات التي تواترت تواترًا لم يقاربه شيء من المتواترات، حتى تناقلتها الأمم والقرون، وصارت في مقدمة الحقائق وفي أعلى مراتب الصدق، وخصوصًا إمامهم وسيدهم محمدًا ﷺ فإن جميع الخلق شهدوا بصدق ما جاء به واعترفوا به وخضعوا - أولياؤه وأعداؤه - ولو لم يجئ إلا بهذا القرآن الذي تحدى الله به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة واحدة لبلاغته العظيمة وأسلوبه الجميل الجليل وأحكامه التي هي أحسن الأحكام، وإخباره عن الغيوب الماضية والمستقبلة المتعلقة بالخلق والمتعلقة بالخالق، فمن عرف شيئًا من أحوال الرسل وصدقهم وأخبارهم وأحكامهم؛ عرف أن من أنكر ما جاءت به الرسل قد كابروا المحسوسات وباهتوا

المعقولات وعاندوا العلوم الصحيحة وردوا المعارف اليقينية، وأنهم بلا شك معاندون للحق أو مقلدون للمعاندين تقليدا أعمى، فهم كما قال الله عن أئمتهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]. فإذا لم يؤمنوا ويصدقوا بما جاءت به الرسل ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]. أما أولو الألباب فقد قال الله عنهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]. ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

الوجه الثالث والثلاثون: أن يقال لهؤلاء الملاحدة: ما جاء به محمد ﷺ من الدين والشرع وحي من الله، جاء على يد الرسولين جبريل ومحمد صلى الله عليهما وسلم، وهو مؤيد بشهادة الآيات والبراهين القاطعة، والعقول تهتدي به وتسترشد إلى جميع المطالب العالية فتشهد بكمال حسنه، وتعترف بحاجتها وضرورتها العظيمة إلى إرشاده وتستنير به، وتعرف أنه لا سبيل لها إلى الوصول إلى تفاصيل ما أخبر به من الغيوب المفصلة، وأنه ليس في علومها ما يدل على ذلك، فسلمت لما جاء به الوحي والشرع، ولم تعبأ بعقول بنيت على الشبه والخيالات، فإنها لو جمعت حكم جميع الأمم ونسبت إليها لم يكن لها إليها نسبة، وهذه الشريعة متضمنة لأعلى المطالب بأقرب الطرق وأتم البيان، وهي متكفلة بتعريف الخليقة ربها وفاطرها المحسن إليها بأنواع الإحسان بأسمائه وصفاته وأفعاله، وتعريف الطريق الموصل إلى رضاه وإبطال ما يضاد ذلك وينافيه، فابتداؤها من الله وانتهاؤها إليه سالمة من هذيانات الملحدين وافتراء المفترين.

وقد أكمل الله الدين لنبيه وأمته فلم يحوجه هو ولا أمته إلى عقل ونقل سواه، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. ولا يمكن أن يعارضه عقل صحيح ولا علم صادق. ومن تأمل ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة وجدها شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها وثبوت نقيضها، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بما تعرفه العقول جملة وتفصيلًا، أو تعرفه جملة ولا تهتدي إلى تفصيله،

أو تخبر بأمور لا تهتدي إليها العقول بمجردها لا جملة ولا تفصيلًا، ومحال أن تخبر بما تحيله العقول الصحيحة. وهذا يعرفه كل من له خبرة بالشريعة الإسلامية وخبرة بمقالات الأمم، وقد تتبع كبار العلماء وأساطين الحكماء وفحول أهل النظر ذلك فوجدوه كذلك في جميع الحقائق التي جاءت بها الرسل، وبرهنوا أن كل ما خالفها هو ضلالات وجهالات وخيالات، حتى باعتراف من أنصف من هؤلاء الملحدين فضلًا عن أولي الألباب والبصائر وأهل العقول الوافية المغتذية بالوحي والهداية النبوية، فإنهم علموا علم اليقين أن جميع ما جاءت به الرسل من أمور الغيب ومن الأحكام الشرعية والقدرية والجزائية هو حق اليقين فتيقنوه بقلوبهم وشهدت به ألسنتهم وهدوا به الخليقة، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. وقوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]. وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]. ولما ذكر صفات أولي الألباب قال عنهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

الوجه الرابع والثلاثون: أن أصل بلاء المشركين والملحدين قياس الرب العظيم بالمخلوق الناقص الحقير، ولم يعترفوا أن الله ليس كمثله شيء، وأن له المثل الأعلى في السماوات والأرض، وأن له العظمة كلها والكبرياء كله والمجد والحمد والجلال، وأن ما للخلق من أولهم إلى آخرهم من قوة وعظمة وأوصاف فإنها تضمحل غاية الاضمحلال ولا يبقى لها نسبة بوجه من الوجوه إذا نسبت إلى عظمة الله وجلاله وكماله، وإلا فلو علموا أن الله تعالى هو الخالق لجميع الموجودات، أعيانها وأوصافها وأفعالها، ومن سواه مخلوق، وأنه مالك الملك المطلق، ومن سواه عبد مملوك، وأنه العليم الذي أحاط علمه بكل شيء، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، العزيز الذي علا على

كل شيء وقهر المخلوقات كلها ودانت لعزته وقدرته، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء، الحكيم في كل ما خلقه وحكم به شرعًا وقدرًا وجزاء، إلى آخر ما وصلت إليه معارف الرسل وأتباعهم من أوصافه فلا يحصي أحد ثناء عليه، لو علموا شيئًا من ذلك لعرفوا أن قولهم واعتقادهم أبطل الباطل، وأشنع الكذب، وأعظم الجراءة على الله والمكابرة لآياته وبراهينه التي خضعت لها الخليقة ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥]. فهؤلاء الملحدون لمَّا لم تصل معارفهم الضئيلة إلى شيء من ذلك وحصروها في بعض الأسباب، ولم ترتق إلى مسبب الأسباب، ولم يصلوا من المخلوقات إلى خالقها؛ ظنوا أن ما وصلوا إليه هو غاية العلم ونهاية المعرفة جهلًا وضلالًا، ومنهم من كان كذلك ظلمًا وعنادًا. فيا أيها المؤمن بالله احمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر النعم، والسلامة من عقوبة الإلحاد التي هي أكبر النقم.

الوجه الخامس والثلاثون: أن هؤلاء الدهريين لمَّا كانوا يقولون: ما هي إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، وما هي إلا الطبيعة تتولد عنها الموجودات والحوادث؛ حصروا مداركهم؛ في هذه الحياة الدنيا، فأدركوا منها ما أدركوا وجحدوا ما سوى ذلك من أمور الغيب وما أخبرت به الرسل من الغيوب والأحكام، فضاقت دائرة علوم هؤلاء الملحدين وامتلأت قلوبهم من الكفر والكبر والسخرية بعلوم الرسل، وساءت قصودهم، وختم الله على مداركهم القلوب والأسماع والأبصار فلم ينتفعوا بها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعًا وَأَبۡصَٰرًا وَأَفۡـِٔدَةً فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ

ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦]. فنعوذ بالله من هذا الكبر الذي هبط بصاحبه إلى هذه الدركات ومنعه من الوصول إلى العلوم النافعة والسعادة والفلاح، وحسن له ما هو عليه من العلوم الناقصة والأعمال القباح.

ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: المعلومات المعاينة التي لا تدرك إلا بالخبر أضعاف أضعاف المعلومات التي تدرك بالحس والعقل، بل لا نسبة بينها بوجه من الوجوه، ولهذا كان إدراك السمع أعم وأشمل من إدراك البصر، فإنه يدرك الأمور المعدومة والموجودة والحاضرة والغائبة. والمعلومات التي لا تدرك بالحس والأمور الغائبة عن الحس نسبة المحسوس إليها كقطرة من بحر، ولا سبيل إلى العلم بها إلا بالخبر الصادق. وقد اصطفى الله من خلقه أنبياء أنبأهم من أنباء الغيب بما يشاء، وأطلعهم منها على ما لم يطلع عليه غيرهم، فليس كل ما أخبر به الأنبياء يمكن معرفته بدون خبرهم بل ولا أكثره، ولهذا كان أكمل الأمم علمًا أتباع الرسل وإن كان غيرهم أحذق منهم في علم النجوم والهندسة وعلم الكم المتصل والمنفصل ونحوها من العلوم التي لمَّا جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وآثروها على علوم الرسل.

وهي كما قال الواقف على نهايتها: ظنون كاذبة وعلوم غير نافعة، فنعوذ بالله من علم لا ينفع، وإن نفعت فنفعها بالنسبة إلى علوم الأنبياء كنفع العيش العاجل بالنسبة إلى الآخرة ودوامها، فليس العلم في الحقيقة إلا ما أخبرت به الرسل عن الله طلبًا وخبرًا، فهو العلم المزكي للنفوس، المكمل للفطر، المصحح للعقول، الذي خصه الله باسم «العلم» وسمى ما عارضه «ظنًّا» لا يغني من الحق شيئًا وخرصًا وكذبًا. وإذا تأملت ما عند المعارضين لنصوص الأنبياء بعقولهم رأيته كله خرصًا، وعلمت أنهم هم الخراصون، وأن العلم في الحقيقة ما نزل به الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي أقام الله به حجته، وهدى به أنبياءه وأتباعهم، وأثنى عليهم به، وذكر الآيات الدالة على هذا. انتهى.

الوجه السادس والثلاثون: أن آيات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومعجزاتهم التي

شاهدها الخلق العظيم، وتناقلتها القرون، واجتمعت عليها الدلالات المتنوعة: دلالة العقل، ودلالة الحس، واضطرار الخلق الذين شاهدوها أنها من عند الله ومن آياته وبراهينه، تهدم الأصل الذي أصله الملاحدة حيث لم يثبتوا إلا ما دل عليه الحس، فإن أكثر المحسوسات إذا نسبت لآيات الأنبياء ومعجزاتهم لم يكن لها إليها نسبة من هذه الجهة، فضلًا عن بقية الاستدلالات عليها، فهي من أقوى الطرق وأوضحها وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله.

قال ابن القيم رحمه الله: وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحس ودلالة العقل، ودلالتها ضرورية بنفسها، ولهذا يسميها الله «آيات بينات»؛ فإن انقلاب عصا تقلها اليد ثعبانًا عظيمًا يبتلع ما يمر به ثم يعود عصًا كما كانت، وكذلك اليد، وفلق البحر طرقًا والماء قائم بينهما كالحيطان، ونتق الجبل من موضعه ورفعه على قدر العسكر العظيم فوق رءوسهم، وضرب حجر مربع بعصًا فتسيل منه اثنتا عشرة عينًا تكفي أمة عظيمة، وإخراج الناقة لصالح، وتصوير طائر من طين ثم ينفخ فيه النبي فينقلب طائرًا ذا لحم وريش وأجنحة يطير بمشهد من الناس، وإنزال العقوبات المتنوعة على المكذبين للأنبياء ثم نجاة النبي ومن معه من المؤمنين، وإيماء الرسول إلى القمر فينشق نصفين بحيث رآه الحاضر والغائب ويخبر به كما يراه الحاضرون، وكذا بقية الآيات التي شاهدها الناس من النبي ﷺ وهي متنوعة جدًّا، وأمثال ذلك من الآيات من أعظم الأدلة على الصانع وصفاته وأفعاله، وصدق رسله واليوم الآخر، وهذه من طرق القرآن التي أرشد الله إليها عباده ودلهم بها، كما دلهم بما يشاهدون من أحوال الحيوانات والنبات والمطر والسحاب والحوادث التي في الجو، وأحوال العلويات من السماء والشمس والقمر والنجوم، وأحوال النطفة وتقلبها طبقًا بعد طبق. انتهى.

وفي هذا إبطال لقول من يستهين بمعجزات الأنبياء ويجاري الملحدين في تحليلها تحليلًا يعلم بالضرورة بطلانه، وأنه قدح في الضروريات والمحسوسات، ولكن التقليد الأعمى والخضوع للملاحدة وموافقتهم على كثير من أصولهم الباطلة أوصلهم إلى حالة

الاستهانة بآيات الأنبياء وخوارق ما أجرى الله على أيديهم مما هو معلوم بالحس والعقل والخبر والمشاهدة، ومنقول نقلًا متواترًا لا يشبهه شيء من المتواترات، والله تعالى ينوع آياته ويجعلها في كل فن وتصريف لتقوم الشواهد على توحيده وصدق رسله، ليحيا من حيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، وليعلم العباد أن قدرته تعالى يصرف بها الأمور بأسباب يعرفها العباد وأسباب لا يعرفون وجهها، وإنما يعرفون نتيجتها وفائدتها الدالة على صدق رسله وكذب أعدائه وبطلان قولهم الذي خالفوا فيه الرسل. والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

الوجه السابع والثلاثون: أن يقال لهؤلاء الملحدين الدهريين ما قالته الرسل لأسلافهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[إبراهيم: ١٠]. فالله تعالى وجوده أظهر الموجودات، وهو واجب الوجود، وغيره وجد بعد العدم. وهو تعالى فاطر السماوات والأرض، فكل الموجودات الحاضرة والسابقة واللاحقة، وجميع الحوادث في جميع الأوقات كلها بخلقه وتسخيره وتدبيره وتصريفه، أوجدها بعد العدم، أمدها بكل ما تحتاج إليه، وحفظها من الزوال والاضمحلال، وهو يحييها ويميتها ويعدمها ويبقيها ويتصرف فيها بكمال الحكمة وبديع العناية، قد شهدت بوحدانيته جميع الموجودات، وخضعت لعظمته جميع الكائنات، وافتقرت إليه جميع البريات في كل شئونها، كل يوم هو في شأن؛ شئون يبديها ولا يبتديها.

وقد قامت البراهين القواطع التي لا تعد ولا تحصى على هذا الأمر، وشهدت به الكتب والرسل وأتباعهم وأولو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة، لا يمكن أحد له مسكة من عقل أن ينكر هذا إلا هؤلاء الملحدون الذين فسدت عقولهم ومرجت أخلاقهم واقتدوا بكل شيطان مريد، كفرعون وأشباهه الذي قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]. وحيث خاطب موسى عليه السلام حين أمره بالإيمان: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا

﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]. فاستدل عليه بجميع الكون، ناطقه وصامته، وأنه الذي انفرد بخلقه لم يشاركه في ذلك مشارك، وهدى كل مخلوق إلى مصالحه ومنافعه المشاهدة.

فهذا البرهان جميع العقلاء يعترفون به، ولا ينكره إلا كل مكابر مباهت، مثل فرعون وأئمة هؤلاء، ولهذا لما جاءه موسى وخاطبه ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إنكارًا له ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٤]. فكل عاقل لا بد أن يعترف به، ومن لم يعترف به فإنه إما مجنون أو معاند مباهت، أو ضال مقلد تقليدا أعمى، فقال فرعون، مموها على أهل مجلسه: ألا تسمعون ما يقول موسى؟ فقال موسى: ربكم ورب آبائكم الأولين، إنكارًا عليهم أنهم أنكروا أمرًا لم يزالوا ولا يزالون إليه مضطرين مفتقرين كل وقت، وهو ربوبية الله لهم ولآبائهم الأولين التي لا يمكن إنكارها، فهو الذي رباهم بخلقه ونعمه صغارًا وكبارًا، هم وأصولهم وفروعهم وسائر الخلق، ولكنهم باهتوا. ومن مباهتتهم ومكابرتهم رميه لموسى بالجنون، وهو يعلم أنه أكمل الناس عقلًا، وهو الذي أقامه وأقعده وأحرجه في أحواله كلها، فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]. فلما رآه يكابر ويجحد ربوبية الله للخلق التي لا يمكن المكابرة فيها قال له: ﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَىۡءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠]. ظاهر واضح قوي دال على صدقي وصحة ما جئت به، وإن الجاحدين هم المبطلون، فذكر الآيات وما جرى له مع فرعون وكيف اعترف السحرة كلهم أنه من عند الله وأثر فيهم وآمنوا الإيمان الصحيح الصادر عن قوة وبصيرة وخبرة تامة ولم يبالوا بالمعارضات وما أصابهم من فرعون، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون. فهذه في الحقيقة حالة هؤلاء الملحدين مع جميع الرسل. ولقد قص الله علينا من نبئهم ما فيه عبرة للمعتبرين وحجة على المعاندين، وكم في الكتاب والسنة من الدلالات العقلية والنقلية على ذلك، فمن جحد ذلك أو شك فيه فبأي حقيقة يعترف؟ ومن أنكره فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟ ﴿وَيۡلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرًا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧، ٨].

الوجه الثامن والثلاثون: أن يقال لهؤلاء الملحدين الماديين: هاتوا برهانكم وميزانكم الذي تزعمون أنه ميزان الحقائق، وقابلوه بميزان الحق اليقين وهو ميزان الدين. زنوا الحقائق مفصلة حقيقة حقيقة، واعرضوها على ذوي العقول الصحيحة والأذهان والمعارف الصادقة فإنه يتضح عند ذلك أنهم كانوا كاذبين مبطلين.

أول ذلك أن يقال: قابلوا بين أي موجود من الموجودات التي اختصصتم بإثباتها أو التي اشترك بنو آدم في إثباتها وبين وجود الخالق، فإن وجود الخالق جل جلاله وتقدست أسماؤه وجود واجب، مستحيل وممتنع ثبوت نقيضه، فهو أعظم الموجودات وأظهرها، بل لا وجود لشيء من الأشياء إلا بإيجاده، ووجود ما سواه من المخلوقات والحوادث مفتقر غاية الافتقار إلى ربه، ليس لشيء منها من نفسه وجود، فليس لها إلا العدم، فهي حادثة بعد العدم ومضطرة إليه كل وقت بعد الوجود، لو قطع عنها الأمور التي حفظها بها وأبقاها لاضمحلت، والله تعالى وجوده مركوز في العقول والفطر، معلوم بالضرورة وبالطرق التي هي أقوى الطرق الدالة على الحق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]. فحصر الحق فيه إذ هو الحق الواجب في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ولا حق لشيء من الأشياء إلا باستناده إليه، فهو واجب الوجود الموجد لكل موجود.

فوا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحِدُ

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩]. عن الحق الذي هو أظهر الأشياء وأوضحها، ولكن العلة والسبب الذي حملهم على هذه المجادلة الباطلة قوله عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٧٠]. فتكذيبهم بجميع الكتب المنزلة من عند الله، وبجميع الرسل، منعهم من قبول الحق الذي لا حق غيره وتركهم في ضلالهم وطغيانهم يعمهون، ثم ذكر وعيده لهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧٠، ٧١]. زنوا أيها العقلاء ما ثبت لربكم

العظيم من الوحدانية في أوصاف الكمال، والتفرد بكل جلال وجمال، والتفضل بكل خير ونعم جزال، وما شاهدته الخليقة من عنايته وحكمته وإتقانه المخلوقات في غاية الإحكام والانتظام العجيب الذي حسب العقول والأفهام، إذ تهتدي إلى ما بثه في المخلوقات من حسن الخلق وبديع الصنع ولطيف الانتظام وقيام المنافع التي لا تحصى المترتبة على ذلك، ثم انظروا إلى ما نشره من رحمته التي وسعت كل شيء، فما من مخلوق يستغني عن رحمة خالقه طرفة عين، فما بالعباد من نعمة ظاهرة ولا باطنة خفية أو جلية إلا من الله، وهو الذي لا يأتي بالخير والحسنات إلا هو، ولا يدفع السوء والسيئات إلا هو، وهذا من أكبر الأدلة على سعة علم الله ورحمته وشمول حكمته وعظمة اقتداره.

وانظر ما في العالم العلوي والسفلي من الحوادث والتدبيرات المتنوعة والأفعال العظيمة، وما تدل عليه من عظمة مدبرها وجلاله وكبريائه ومجده، وأنه المتفرد بالوحدانية والكمال الذي لا غاية له. وهذه أمور معلومة بالضرورة والمشاهدة، فهل يستوي من أثبت ما دلت عليه من وحدانية الله وثبوت أوصافه وأسمائه الحسنى ومن جحد ذلك وأنكره ورد الأدلة القواطع وكابر وعاند وجادل بالباطل؟ وهل يستوي الأمر بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، والقيام بحمده وذكره وشكره والإنابة إليه التي هي أفرض الفروض التي جاءت بها الرسل وأفضل ما قام به العباد واكتسبته القلوب وأعظم سبب يوصل إلى كل خير وسعادة ومطلوب، أم الأمر بضد ذلك من الشرك بالله والاستكبار عن عبادته وتعلق القلب بالخلق والوقوف مع المادة وعبادتها؟

وهل يستوي ما أمرت به الرسل من الصدق في الأقوال والأفعال، والنصيحة لله ورسوله وكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، والأمر بالبر والصلة والقيام بحقوق الجيران والأصحاب والمعاملين ومن يتصل بهم العبد على اختلاف طبقاتهم؟ أم الأمر بضد ذلك؟ وهل يستوي الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، والتعاون على البر والتقوى، أم الأمر بضد ذلك؟ وهل

تستقيم الأمور كلها وتصلح الأحوال إلا بالتزام ذلك والعمل به؟ وهل يمكن القيام بأصول الإيمان وشرائع الإسلام والوفاء بالحقوق والعقود والعهود والورع عن المحارم القولية والفعلية إلا مع الإيمان بالله واليوم الآخر الذي هو أساس الخيرات والصلاح المطلق؟ وهل إذا أطلق الملحدون الماديون على هذه الأصول العظيمة والشرائع الجميلة النافعة التي لا ينفع غيرها: أنها رجعية ترجع بالناس إلى الوراء، وأنها قديمة، والقديم يجب أن يزهد فيه ويحذر عنه؟ هل هذا القول منهم والدعاية الخبيثة إلا من أكبر الأدلة على ضعف عقولهم وسفاهة آرائهم وكذبهم الصريح؟ وهل يستغني العباد عنها في حالة من أحوالهم؟ وهل هي إلا أكبر نعمة وأجل كرامة أكرم الله بها العباد: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. فمن وزن بعقله الصحيح ما جاءت به الرسل وأمرت به وأرشدت إليه؛ من معرفة الله وعبادته والإنابة إليه، والأمر بالقيام بجميع الحقوق كلها على وجه العدل والفضل والإحسان، وما نهت عن ضده، ثم نظر إلى ما يدعو إليه أهل الإلحاد - عرف أن الخير والفلاح والصلاح الديني والدنيوي العاجل والآجل، الظاهر والباطن، مع ما دعت إليه الرسل، وأن الملحدين ترمي دعوتهم إلى الانحلال من كل خلق جميل والحث على كل خلق رذيل، ومآلها الفوضوية التامة والانطلاق مع شهوات النفوس حتى تكون البهائم أشرف منهم وأنفع، وهذا هو الواقع بلا ريب، ولسان حالهم ومقالهم يصرح بذلك، فنسأل الله أن يتم علينا وعلى المسلمين نعمه، وأن يثبتنا على دينه ويزيدنا من فضله وكرمه.

ومن أعجب العجائب أن كثيرًا من الكتاب العصريين والسياسيين الذين يسعون في معالجة كثير من مشاكل الحياة ويطلبون حلها من جميع النواحي، ومشكلة الإلحاد الذي

جرف بتياره أكثر الناشئة لم يسعوا في حلها ومداواتها بالرجوع إلى الإيمان الصحيح واليقين النافع والصلاح المطلق من جميع الوجوه، بل تركوهم في ضلالهم يعمهون وفي غيهم يترددون، وازدادت المشكلات التي يريدون حلها مشكلات أخرى تعذر حلها كما هو المأمول، فكل مشكلات الحياة إذا لم تبن على الإيمان والدين الصحيح ازدادت تعقدًا وعظم ضررها وبعد خيرها، فلو أنهم أسسوا معالجاتهم المتنوعة على الدين الصحيح، ووجهوا النشء إلى عقيدته والتخلق بأخلاقه؛ لأثمرت مساعيهم كل زوج كريم، ولتوجهت الوجوه والأعمال إلى الخير والصلاح، وانصرفت عن الشر والأضرار والأعمال القباح، فالفساد لا يسود إلا إذا عدم الإيمان الذي ينافيه ولا يجامعه.

الوجه التاسع والثلاثون: أن يقال لهؤلاء الملاحدة الماديين: من الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة والكثيرة، ومن الذي أحكمها هذا الإحكام البديع، ومن الذي نظم حركاتها العجيبة التي تحار الأفكار في حسنها وحسن نظامها؟ فسيجيبون: أن هذا كله أثر المصادفة، وأعمال الطبيعة العمياء التي ليس عندها علم ولا قدرة ولا إرادة ولا غيرها من الأوصاف. وهذا قولهم الذي صرحوا به واقتدوا فيه بالمتمردين من أئمتهم الضالين، فحينئذ يتضح لك أن عقول هؤلاء أقرب إلى عقول المجانين منها إلى عقول الصبيان الذين لا يعقلون؛ فلو تركت هذه العوالم العظيمة ساعة واحدة، بل لحظة واحدة للمصادفة والفوضوية، لزالت السماوات والأرض واختبطت العوالم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

وإذا أورد عليهم بعض الإيرادات الصحيحة المبطلة لقولهم أجابوا بأنه يحتمل كذا ويحتمل كذا؛ احتمالات في غاية الضعف والوهى.

فيا عجبًا لمن اغتر باحتمالات عقول قد تبين سفاهة أهلها وجراءتهم وهجومهم على أشرف العلوم وأعظم الحقائق فأبطلوها وأنكروها، ولا يغرنك كما غرهم مهارتهم في بعض علوم الهندسة والطبيعة والمخترعات الصناعية؛ فإنها لا تغني من الحق شيئًا ولا تدل على

فضل أهلها الفضل الحقيقي ولا شرفهم: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. والله تعالى جعل للعقول حدًّا لا تتعداه ولا تتمكن من مجاوزته، وما أدركته وتدركه من المعلومات فهو قليل جدًّا في جانب ما لا تعلمه من هذه العوالم، فكيف تتجاوز هذه العوالم التي قصرت العقول عن إدراكها حتى تجحد الرب العظيم الذي هذه العوالم كلها داخلة في ملكه وتصريفه وتدبيره؟! ثم ترجع إلى هذه المخلوقات وما فيها من الحوادث فتدعي أنها وليدة المصادفة من غير خالق خلقها ولا محدث أحدثها ولا حكيم ابتدعها ونظمها، سبحانك هذا بهتان وجرم عظيم: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]. فكيف بمن جحده ونفاه بالكلية؟

الوجه الأربعون: أن يقال: من أكبر الخيانات للعلم والحقيقة أن تكون بحوث علماء الطبيعة والمواد والعناصر مبتورة مقطوعة الصلة بالله وبدينه، فإنهم يبحثون في الموجودات بحوثًا ضافية كثيرة ويستخرجون منها فوائد كثيرة، ولكنهم مع ذلك لا نجدهم يذكرون الله فيها ولا يقدرون قدر خالقها ومدبرها، ولا يشكرون من أنعم بها، ولا يذكرون مشيئة الله وإرادته وقدرته فيها، حتى يظن الظانون، بل يظن كثير من هؤلاء الباحثين أن هذه الموجودات التي وقع البحث فيها هي حاصل الوجود لا وجود سواها، فيقعون في الجحود والإنكار الصريح، ويصيرون في خبط وخلط من جهة العقيدة الصحيحة: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]. فإهمال أصل الأصول من علمهم وذكرهم وتوجههم وتوجيههم أضل خلقًا كثيرًا، فلو أنهم قاموا بما يجب عليهم وعلى الخلق من بناء المعلومات على حقائقها وأصولها، والموجودات على موجدها، والنعم على مسديها والمتفضل بها؛ لهدوا إلى صراط مستقيم، وسلموا من الخيانة وطرق الجحيم.

الوجه الحادي والأربعون: أن الله أيد رسوله محمدًا ﷺ بأمرين عظيمين قائمين إلى يوم القيامة، كل واحد منهما يشتمل على براهين كثيرة قطعية تدل على وحدانية الله وصدق رسوله؛ أحدهما شهادة الله له، والثانية هذا القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. فأما شهادته لرسوله ولما جاء به فبقوله الذي أنزله في كل كتاب وعلى لسان كل رسول، وشهد به وتيقنه أهل البصائر والألباب، وبفعله تعالى بما أيده به من القوة والنصر والتأييد، وإظهار دينه على الدين كله، وبما أنزله في شرعه من الأخبار الصادقة النافعة والحكم والأحكام والهداية والإرشاد للصلاح المطلق في جميع الأمور، فما بقي خير إلا أمر به ولا شر إلا نهى عنه وحذر، ولا طيب إلا أحله، ولا خبيث إلا حرمه، وذلك في الأصول والفروع، وبما جبل رسوله عليه من الأخلاق الحميدة التي هي أعلى الأوصاف وأكملها، فجمع الله فيه وله من الخير والأوصاف الجميلة ما كان متفرقًا في الكمل من الخلق، وفي جميع الشرائع، وهي مشاهدة محسوسة يعترف بها المؤمنون به ويعرفها غيرهم لا يمتري فيها إلا جاهل أو مكابر.

وأما شهادة هذا القرآن فإن الله منذ أنزله إلى أن تقوم الساعة قد تحدى به الإنس والجن، وأنهم لم يأتوا ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله فيما يقدحون به في هذا الدين لبلاغته العظيمة وحسن أسلوبه وإخباره بالغيوب وما حكم به من الأحكام الأصولية والفروعية وما هدى وأرشد إليه من الصلاح والفلاح والكمال الديني والدنيوي، وما حذر عنه من الشر والأضرار والعقوبات العاجلة والآجلة، وما كان فيه من الأحكام التي تصلح لكل زمان ومكان، وما شرع من الحقوق العادلة بين الخلق أفرادهم وجماعاتهم، إلى غير ذلك من آيات القرآن التي لا يمكن أن يعارضها علم صحيح ولا عمل نافع، وكل خير لا شر فيه فإنه من أحكامه ومما دل عليه، فليأت المنكر بمثال واحد صحيح خارج عن هذا الأصل.

فمجرد وقوف الناظرين على هاتين الشهادتين العظيمتين والتأمل بما اشتملتا عليه من البراهين القاطعة على ما لله من الوحدانية وصفات الكمال والجلال كله وعلى صدق

ما جاء به الرسول، يكفي وحده في إبطال ما ناقضته من أقوال الملحدين، لأنه إذا اتضح الحق علم يقينًا أن ما خالفه باطل، فماذا بعد الحق إلا الضلال: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦]. وقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

فالحمد لله على ما بينه لعباده من الآيات التي لا تزال مشاهدة ولا تزال متصرفة متنوعة، شاهدة بصدقه وصدق رسله، وكذب الكافرين به المكذبين لرسله.

الوجه الثاني والأربعون: النظر الصحيح إلى ما يأمر به الدين والإيمان من تلقي أحوال الحياة والتطورات المتنوعة، وما يتلقاه أهل الإلحاد والإيمان بالمادة والطبيعة. فإنه لا بد للأفراد والجماعات من حصول نعم ومسار ومحن ومضار، فالإيمان والدين الصحيح يأمر عند النعم والمسار بشكر المنعم والثناء عليه بها والاستعانة بها على مقاصد الحياة الدينية والدنيوية وأداء حقوق النعم من كل وجه، وعند المكاره يأمر بالصبر والرضا والاحتساب ورجاء الأجر، مع السعي في دفعها قبل نزولها، وتخفيفها أو دفعها بعد نزولها فيكتسب المؤمن الخير وراحة القلب في كل الحالات وهذه هي الحياة الطيبة، مع ما يرجو ويطمع فيه من الثواب العاجل والآجل.

أما الملحدون فلما كانت الدنيا هي غايتهم؛ لها يعملون ولها يطلبون، ولا غاية لهم سواها ولا إيمان لهم بغيرها، فإنهم يتلقون التطورات المختلفة كما تتلقاها البهائم بقلوب جشعة ونهم كنهم الأنعام أو أعظم؛ لا يشكرون على النعماء، بل يكفرون ويبطرون ويطغون، ولا يصبرون على المحن بل يجزعون ويألمون كما تألم البهائم، فتجتمع عليهم الآلام الظاهرة والآلام القلبية الباطنة. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢]. فآثار الإيمان الصحيح في العاجل والآجل خير وسعادة وفلاح، وآثار الجحود شر وضر وعواقب وخيمة.

الوجه الثالث والأربعون: يقول الملحدون: الترقي شامل لكل شيء. وقصدهم بذلك إبطال الأديان، وأن أفكارهم المنحرفة عن الحق ما زالت تترقى حتى في نبذهم الدين واختيارهم للجحود، وهذا تكذبه الأديان كلها، والواقع يشهد بكذبه، وأهل العقول الصحيحة متفقون على أن الترقي المشاهد الآن إنما هو منحصر في الصناعات والمخترعات وما يحدث عنها من الأمور المادية، وأما ترقي الأرواح والأخلاق فإنه بالعكس، فإن المادة التي يشترك فيها البر والفاجر والمؤمن والكافر قد ترقت ترقيًا عظيمًا وخصوصًا في هذا القرن، وأما الأديان والأخلاق فإنها في هذا الوقت هبطت هبوطًا عظيمًا. ولهذا لما كان النوع الأول خاليا من الدين والإيمان صار هذا الترقي الدنيوي الصناعي ضرره كبيرًا من وجهين:

أحدهما: أنه صار سببًا لاغترار كثير من الخلق، وظنوا بجهلهم أن الترقي الدنيوي دليل على أن أهله أولى بكل خير من غيرهم. وجهلوا بل ضلوا ضلالًا مبينًا، فإن الإنسان قد يكون من أمهر الخلق في أمور الطبيعة وهو من أجهل الخلق في الدين والأخلاق والأمور النافعة في العاجل والآجل.

الوجه الثاني: أن هذه المخترعات - حيث خلت من روح الدين ورحمته وحكمته - صارت نكبة عظيمة على البشر بما ترتب عليها من الحروب التي لا نظير لها والقتل والتدمير وتوابع ذلك، وعجز ساستها وعلماؤها أن ينظموا للبشر حياة مستقرة عادلة طيبة، بل لا يزالون ينتقلون من شقاء إلى شقاء آخر، وهذا أمر حتم لا بد منه، وجريان الأحوال يدل عليه، فالخير كله في الدين الصحيح، والشر كله في الإنكار والجحود. والله أعلم. يؤيد هذا ويوضحه توضيحًا بينًا واقعًا:

الوجه الرابع والأربعون: وهو أن الماديين - رؤساءهم وعلماءهم - لا زالوا مكرسين علومهم وجهودهم وأعمالهم في حل مشكلات الحياة وقد عجزوا عنها كل العجز، فكلما حلوا مشكلة نتج عنها مشكلات، وكلما وجهوها من جهة تبين فيها النقص والخلل والاضطراب. أما هذا الدين الإسلامي الذي جاء به محمد ﷺ فإنه هو الطريق الوحيد الذي

تنحل به جميع مشكلات الحياة، واحدة بعد الأخرى، وتزول به الشرور والأضرار، وتحصل به الخيرات.

ولنذكر نموذجًا من المشكلات التي اضطرب فيها الخلق اضطرابًا عظيمًا ولا سبيل لهم إلى الراحة والاستقرار حتى يفيئوا إلى الدين. فمن أعظمها مشكلة العلم، فإنه إذا صح صحت العقائد والأفكار وصلحت الأعمال المبنية عليه، وقد كانت شريعة الإسلام تحض على العلم وترغب فيه، وتأمر بل تفرض على العباد أن يتعلموا جميع العلوم النافعة في أمور دينهم وفي أمور دنياهم، ومع حضها وترغيبها في العلوم فقد تكفلت ببيانها وتفصيلاتها، فقد بين الله في كتابه وعلى لسان رسوله جميع ما يحتاجه العباد من علوم العقائد والأخلاق والأحكام والأصول والفروع والعلوم المتعلقة بالأفراد والجماعات.

أما العلوم الدينية فقد فصلتها تفصيلًا بعدما أصلتها تأصيلًا، والعلوم الدنيوية أسست لها الأصول والقواعد وهدت إليها وأرشدت لها العباد، فما من علم نافع إلا بينته. وبهذا يسير العلم الصحيح على الطريق المستقيم، ويتساعد علم الدين وعلم الدنيا وما يتعلق بالروح وما يتعلق بالجسد: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]. قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾[الأحزاب: ٤] فجمع في هاتين الآيتين بين علم المسائل الصحيحة وهي الحق النافع، وبين علم البراهين والدلائل وهو هداية السبيل الموصلة إلى كل علم، المبرهنة عن جميع المعارف. وأما الماديون فهم يخصون بالعلم؛ علوم الدنيا التي هي وسائل لغيرها، ويقدحون وينكرون العلوم الدينية التي لا تنفع علومهم بدونها ولا يترجح خيرها على شرها حتى تستند وتعتمد عليها، وبهذا تخبطت علومهم وبقوا في أمر مريج متناقضين، متضاربة آراؤهم غير مستقرة أفكارهم، فلم يحلوا مشكلة العلم بوجه من الوجوه، بل علومهم القاصرة أطغتهم واستكبروا بها عن علوم الرسل وعن الحق الصريح المبين.

ومن المشكلات: مشكلة الغنى والفقر، وقد تقدم أن هذا الدين حلها حلًّا تتم به الأمور وتحصل الحياة الطيبة، وأنه كما أمر بسلوك الطرق المشروعة في أسباب الرزق، المناسبة

لكل زمان ومكان وشخص، فقد أمر بالاستعانة بالله في تحصيلها، وأن تجتنب الطرق غير المشروعة، وأن نقوم بواجبات الغنى المتنوعة، وكذلك عند حلول الفقر أمر بالصبر وتلقي ذلك بالتسليم وعدم التسخط، مع السعي في طلب الرزق بأنواع المكاسب والأعمال، ونهى عن البطالة والكسل الذي يضر في الدين والدنيا، ومع أمره بالصبر وفعل الأسباب الدافعة للفقر والمخففة له فقد نهى عن ظلم الخلق في دمائهم وأعراضهم وأموالهم والتوثب على حقوقهم بغير حق، كما هو دأب الفقراء الذين لا دين لهم.

ومن ذلك مشكلات السياسات الكبار والصغار أمر بحلها، وذكر الطرق الموصلة إلى ذلك بفعل ما توضحت مصلحته وترك ما تبينت مفسدته، والمشاورة في الأمور المشكلة والمشتبهة في كل قليل وكثير، وهذه أصول لا يمكن بسطها في هذه الرسالة المختصرة، ولكن نموذج منها يكفي اللبيب.

ومن ذلك مشكلات الحقوق والمعاملات، فقد أتى الدين فيها بغاية العدل، وأمر بالقيام بالحقوق على اختلاف أنواعها: الحقوق الراتبة والحقوق العارضة، وهي في أكمل ما يكون من الحسن، وبها يندفع الضرر والشر والخصام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وبالجملة فما من مشكلة كبيرة ولا صغيرة إلَّا إذا بنيت على الشريعة الإسلامية المحضة تمت أمورها واستقامت أحوالها، وصلحت من جميع الوجوه، لا فرق بين مكافأة المحسنين في الدنيا والآخرة ومعاقبة المجرمين كذلك. والله أعلم.

الوجه الخامس والأربعون: أن هؤلاء الملحدين روجوا إلحادهم بتحسين ما هم عليه بأوصاف إذا سمعها الجاهل هالته واغتر بها وظن صدقها، وكل منصف عارف يعرف كذبها وبطلانها، فزعموها تجديدًا ورقيًّا وتقدمًا إلى الأمام، وما أشبه ذلك من العبارات التي يغتر بها الجاهلون. وأما البصير العاقل فيعلم أن كل تقدم ورقي روحي ومادي فالدين قد أتى به على أكمل الوجوه وأسلمها من الضرر والفساد، فإن الدين كما أمر بإصلاح الدين فقد أمر

بإصلاح الدنيا الإصلاح الحقيقي النافع، عاجلًا وآجلًا، عكس ما كذب عليه أعداؤه بأنه مخدر مفتر.

فالدين أعظم قوة تدفع العباد إلى التقدم الصحيح كما قد فصل في موضع آخر، فمحاسن الدين الإسلامي أرسى من الجبال الرواسي، وأغلى من النجوم الدراري، وأجلى نورًا من الشمس المشرقة، لا يقابلها ضدها ولا يقاومها الباطل المبهرج: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. ولولا أن الباطل قد زخرف وروج بالعبارات والدعايات المتنوعة، ونصرته الدول المنحرفة لم يقبله عاقل ولا أصغى إليه لبيب، ولعرف الناس أنه أعظم ظلمة من الليل وأضعف من كل ضعيف. وإذا أردت أن تعرف ذلك فقابل بين أصول الدين ومسائله وما يرغِّب فيه وما يحذر عنه، وبين ما يناقضها من أقوال أهل الإلحاد، تجد أقوالهم تضمحل وتتلاشى ويظهر بطلانها بهذه المقابلة، فإن الضد يعرف بضده، فلولا الليل ما عرف النهار، ولولا الباطل لما ظهرت براهين الحق هذا الظهور في قوتها وحقيقتها ووضوحها وصدقها وحسنها، وهذا من الحكمة في مقابلة الباطل للحق، كما أن من الحكمة أن يتبين الصادق من الكاذب والمؤمن من ضده والصحيح من الفاسد: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]. وبهذه المقابلة وظهور الحق تجد الحق يشبه بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض في غاية الإحكام والإتقان: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وتجد الباطل يبطل بعضه بعضًا وأهله في غاية التناقض، بل تجد الواحد منهم متناقضًا متهافتة أقواله.

ثم انظر إلى الحق ووضوحه ووضوح ما دل عليه من الكتاب والسنة وما يؤيد ذلك من الفطر المستقيمة والعقول الصريحة قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]. فالحق مسائله هي الصادقة النافعة، وأحسن التفسير تفسيره وحدوده الواضحة.

وأما ضده فإن مسائله باطلة وضلال، وحدوده في غاية القلق والالتواء والصعوبة والهذر

الكثير الذي ليس له حاصل ولا معاني يحصلها القارئ بسهولة، وإذا وصل إليه وجده: ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠]. ظلمة الضلال، والجهل المركب والبسيط، وظلمة الكبر والغرور.

الوجه السادس والأربعون: أن يقال: إنه ممتنع كل الامتناع، ومستحيل أن تتهذب النفوس وتكتسب الفضائل بعلوم المادة المحضة وأعمالها، والتجارب والمشاهدة أكبر برهان على ذلك، فإنها مع تطورها وتبحرها عجزت كل العجز عن تهذيب النفوس وإصلاحها الذي يتوقف عليه صلاح البشر، وإنما الذي يتكفل بهذا الإصلاح ويتولى هذا التهذيب الصحيح ويوجه الأفكار إلى العلوم الصادقة ويوجه الأعمال إلى الخير ويزجرها عن الشر هو ما جاء به الدين الإسلامي، فهو مصلح للعقائد والأخلاق ومهذب للأفكار وحاثّ على الفضائل وزاجر عن الرذائل، فروح ما دعا إليه الدين الإيمان بالغيب الذي يدخل فيه الإيمان بالله وبما له من الأسماء الحسنى والصفات والأفعال، ويدخل فيه الإيمان بالملائكة وبالجزاء العاجل والآجل على الأعمال حسنها وسيئها التي لا تعرف إلا من جهة الرسل، فعلم بهذا أنه يتعذر الإصلاح الحقيقي بغير الإيمان الصحيح والدين الإسلامي، فعلوم المادة وإن ارتقت فوق ما يعلمه الناس أضعافًا مضاعفة فإنها لا تبلغ قريبًا من علوم الأنبياء، ولا تصل إلى ما وصلت إليه، ولا تذعن لها النفوس، ولا يكون لها من التأثير على النفوس ما لعلوم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فإن النفوس لا تذعن إلا عند إيمانها بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبدون ذلك يمتنع الإذعان كما هو معلوم من الطباع البشرية.

الوجه السابع والأربعون: القرآن العظيم أكبر البراهين والأدلة الدالة على وحدانية الله وكماله، وصدق رسله، بأنواع إعجازه، ببلاغته وأسلوبه وتأثيره، وإخباره بالغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلة، واتفاقه وعدم اختلافه، وتشريعه، وإصلاحه جميع ما يحتاجه البشر،

وأنه على اتساع علوم الطبيعة والعلوم العصرية لم يأت علم صحيح ينقض شيئًا من أصوله، وإخباره بعلوم لم تكن موجودة وقت تنزيله، وكون الذي أتى به لم يكن يقرأ كتابًا ولا يخطه بيمينه ولا تعلَّم من أحد، بل زكى به العباد، وكمل به الفضائل، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

وهذه المجملات تحتاج إلى تفصيل كثير، فمن نظر إلى هذا جزم جزمًا لا يمترى فيه بأنه تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وبهذه الوجوه وغيرها أحدث في الأرض انقلابًا عظيمًا لم يعهد له مثيل، وكانت قد ملئت الأرض من الشرور المتنوعة فأزالها، وتلوثت القلوب بالعقائد الخبيثة والأخلاق الرذيلة فاقتلعها وأحل محلها الهداية والمعارف والرشد والإصلاح، فهو الدليل والبرهان، وهو الحجة على توالي الزمان ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[التوبة: ٣٣]. فالقرآن زلزل بتأثيره عقائد الجاحدين وأقضَّ مضاجعهم، وبدل عقائد المؤمنين وأخلاقهم وأعمالهم بعقائد هي أصلح العقائد وأنفعها، وأخلاق هي أحسن الأخلاق وأحمدها، وأعمال هي أكمل الأعمال.

الوجه الثامن والأربعون: من عرف حال النبي محمد ﷺ وما هو عليه من الأخلاق العالية، وما أعطي من العلوم النافعة الشاملة لكل ما يحتاجه الخلق، وما أيد به من الآيات والبراهين المتنوعة من كل وجه لا تعد ولا تحصى، كل جنس من آياته، بل كل نوع، بل كل فرد منها؛ يدل أكبر دلالة على أنه رسول الله حقًّا وأن ما جاء به حق وما خالفه باطل، فوقوف العاقل البصير على بعض آيات الرسول في نفسه وفي شرعه وفيما أيد به يعرف به بطلان أقوال الملحدين، وبطلان مذهب الماديين المنكرين لله ولرسله ودينه، وأن هذا الإنكار منهم أكبر برهان على ضلالهم وجهلهم البليغ بالحق المبين، وتفصيل هذا الوجه يستدعي مجلدات، ولهذا كل نوع من آيات الرسول صنفت فيه المؤلفات على حدته فازداد به المؤمنون إيمانًا وقامت الحجة على المعاندين المنكرين، وقد قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. ولكن هؤلاء الماديين

يشاهدون من آيات الله ما يضطر كل عاقل إلى الإيمان واليقين، وهم يتلمسون لها التحريفات والتحليلات الباطلة ليدخلوها في علمهم القاصر وينكروا بذلك قدرة الله، خصوصًا في هذه الأوقات التي ارتقت فيها علوم المادة ارتقاء هائلًا وهو من أعظم الأدلة على وحدانية الله وكمال قدرته وحكمته ورحمته، ولكن هؤلاء كما قال الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. فصارت علومهم ضررًا عليهم، وخطرًا عظيمًا على جميع البشر؛ ضررًا عليهم لأنهم تكبروا بها وفرحوا بها واحتقروا واستهزءوا بما جاءت به الرسل، وصارت خطرًا على جميع البشر بما يترتب وسيترتب عليها من الفناء والخراب والتدمير؛ تدمير النفوس وتدمير الأخلاق، نسأل الله العافية والسلامة بمنه وكرمه.

الوجه التاسع والأربعون: أن يقال لهؤلاء الملحدين القادحين في الدين: قد علم أولو الألباب والنهى وأهل البصائر والعقول أن دين الإسلام، الذي جاءت به الرسل ثم جاء به محمد ﷺ مكملًا متممًا معممًا هو دين الفطرة السليمة والحكمة العلمية والعملية والعقل والفكر والبرهان والحجة والحرية الصحيحة والاستقلال الصحيح، كما وصفه الله ورسوله في آيات كثيرة وأخبار صحيحة، وكما هو المعروف المشاهد المحسوس في هذا الدين، واشتماله على هذه الأوصاف العظيمة يعلم به علمًا يقينيًّا لا شك فيه أنه الحق، وما ناقضه فهو الباطل، فهذه الأوصاف التي وصف بها الدين وحققتها المطابقة والمشاهدة تضطر العقلاء إلى الجزم بأخباره، والتحقق بأخلاقه وآدابه، وسلوك جميع ما أرشد إليه من الهدايات المتنوعة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الوجه الخمسون: أن الإصلاح العلمي الواسع لأمور الدين ولأمور الدنيا، بأنواعه من جميع الوجوه التي جاء بها محمد ﷺ مع تنفيذه عملًا - من أكبر الأدلة على وحدانية الله، وأنه الحق، وقوله حق، ورسله حق، ودينه هو الحق، فإن البشر - الأمم السابقين واللاحقين - لم يشهدوا لهذا الإصلاح نظيرًا ولا مقاربًا بوجه من الوجوه، والاستقراء والتتبع أكبر شاهد

لهذا الأمر. وهذا البرهان الواسع الكبير مما تضمحل معه جميع أصول الملحدين، فكيف إذا انضم إلى ما قبله وما بعده وما لم نذكره من البراهين القواطع والآيات السواطع والحمد لله رب العالمين، وجميع علوم البشر على اتساعها وتفوقها لا تفي بهدايتهم إن لم تستند إلى تعاليم الدين. وإذا شككت في هذا فانظر آثارها وما ترتب عليها من الشرور التي تفاقم شرها وتعذر حسمها وعظمت فجائعها وقلت رحمتها وعدلها، وهي كلما اتسعت بوجهها ومخترعاتها ازداد ضررها العظيم واضمحل ما يرجوه العقلاء من خيرها العميم؛ لأنها بنيت على الكفر والإلحاد، والجحد لدين رب العباد، فصارت ملازمة للشرور والفساد.

الوجه الحادي والخمسون: قال الله تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾[النحل: ٢٢]. فذكر وحدانيته التي هي أظهر الأشياء وأوضحها، وأن الناس انقسموا نحو هذه الحقيقة قسمين:

قسم سد على نفسه باب الإيمان بالآخرة فانسدت حوله أبواب الهداية فصارت قلوبهم منكرة لأظهر الأمور وأعظمها الذي وجوده وصفاته أوصاف واجبة لازمة يستحيل ضدها، وحين أنكرت قلوبهم استكبروا عن الانقياد لربهم ظاهرًا وباطنًا فهم ملحدون متمردون، وصفهم الإنكار والاستكبار، ومن كان على هذا الوصف فإنه قد برهن على مكابرته ومباهتته ولو جاءته كل آية وبرهان لم يؤمن ولم ينقد.

وأما القسم الثاني: فهم المؤمنون بالآخرة الذين يعلمون أن البشر لم يخلقوا سدى مهملين، بل خلقوا بالحق وللحق والجزاء بأعمالهم، فهؤلاء قلوبهم معترفة بالله مؤمنة بوحدانيته؛ وحدانية الذات ووحدانية الصفات، وهم خاضعون لله منقادون له ظاهرًا وباطنًا، وبهذا الاعتراف والانقياد بلغوا من الفضل والكمال البشري ما شهد لهم به الواقع والتاريخ، والمحسوس من الكمال العلمي والعملي والرشاد والإرشاد، فالبصير العاقل بمجرد ما ينظر إلى الفرق بين الفريقين في أحوالهم وأوصافهم وآثار أعمالهم يعترف ويستيقن بيقينهم وصدقهم وصدق ما بنوا عليه إيمانهم وأعمالهم ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ

فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٣]. ففي هذا الجانب الرسل العظام وأصحابهم الكرام وأئمة الهدى والأحبار وطبقات العلماء وأكابر العارفين وجميع طبقات المؤمنين الذين هم نور الوجود وحياة الدنيا والدين، بهم قام الدين وبه قاموا، وبهم صلحت الأحوال وهم أهل الهدى والسعادة والخير والفلاح والخير المتنوع من كل وجه. وفي الجانب الأخير: كل ملحد زنديق وكل جبار عنيد الذين قال الله في وصفهم ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٤١، ٤٢] فمن لم يؤمن بالله وبآياته ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [الجاثية: ٦ - ٩] جزاء لهم على استهانتهم بآيات الله واستهزائهم بها، وبهذا الإنكار والاستهزاء سلبوا منافع عقولهم ومرجت أخلاقهم وسفهت آراؤهم وصارت البهائم أحسن حالة منهم حتى ولو كان لهم أذهان وذكاء وعقول كما قال الله عن أمثال هؤلاء: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

الوجه الثاني والخمسون: ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقولوا هذا: خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك فلينته وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وليقل: آمنت بالله»[1].

وهذا مصداقه ما وقع من ملاحدة الماديين الذين لا يزالون يخوضون في مادة المخلوقات ولهم نظريات متنوعة كلها خاطئة، لأن مبناها على الخرص والظن الذي لا يغني من الحق شيئًا، بل على خلاف المعلوم شرعًا وعقلًا وفطرة فيتكلمون في علل الموجودات علة بعد أخرى ولم ينفذوا منها إلى موجدها وخالقها بل أطلق عليه كثير من هؤلاء المتجرئين أنه علة

(١) البخاري (٧٢٩٦)، ومسلم (١٣٤).

العلل، فقطع النبي ﷺ بهذا الكلام الصادق الحكيم بكذبهم ونبه على جهلهم وجراءتهم، وأرشد المؤمنين إلى قطع هذه الشكوك والتشكيكات بالانتهاء والوقوف على أن جميع الموجودات كلها تنتهي إلى موجد واحد أحد، فرد صمد، الأول الذي ليس قبله شيء، الموجد لكل شيء، وأمر بالتعوذ من الشيطان الذي يدفع إلى القلوب المريضة هذه الشكوك والأسئلة الفاسدة وبالإيمان بوحدانية الله تعالى وأنه ليس له مثيل ولا نديد ولا مشارك في شيء من كماله. وبما أرشد إليه ﷺ يندفع ما قاله الملحدون ويبطل ما ذهب إليه الماديون المتخرصون الذين ينكرون ما لا يعلمون بل يجحدون ما هم به مستيقنون، وما زال الشيطان يزين لهم الشكوك والتشكيكات حتى غمرهم الضلال فهم في غيهم يعمهون.

الوجه الثالث والخمسون: أن هؤلاء الملحدين ما زال بهم إلحادهم وغرورهم وضلالهم حتى زعموا أن الإنسان سيعلم كل شيء ويقدر على كل شيء، ووصفوه بأوصاف الرب، وهذا أمر لم يصل إليه أحد من بني آدم إلا هؤلاء الزنادقة الذين لم يخجلوا من مكابرة المحسوسات ومباهتة المشاهدات، فإن كل أحد يعلم حق العلم أن الإنسان ناقص من كل وجه، وأن ما به من علم وقدرة فبتعليم الله وإقداره، وأن الله قد جعل لعلم الإنسان وقدرته حدًّا لا يتجاوزه ولا يمكن أن يتجاوزه، لأنه في طور البشر. فكما أن الله هو الذي خلقه ولم يكن شيئًا مذكورًا فهو الذي أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا وجعل له السمع والبصر والفؤاد وآلات العلم وأسباب القدرة البشرية. وأما القدرة الربانية والعلم الإلهي فمن زعم أن أحدًا من الخلق يشارك الله في شيء منها فهو مبرسم[1] مجنون وإنما اغتر ضعفاء العقول بما شاهدوه من معلومات البشر ومقدوراتهم ومخترعاتهم حتى أدهشتهم، وجزموا أنهم أدركوها بحولهم وقوتهم، وأنه ليس لقدرة الله فيها أثر، ولا لتعليمه لهم فيها أثر، فالله خلقكم وما تعملون، والله وحده الذي علم الإنسان ما لم يعلم، فما حصل من قدرة البشر فبإقداره، وما حصل لهم من علم ديني ودنيوي فبتعليمه.

(١) مرض معروف وورم في الدماغ يتغير منه عقل الإنسان ويهذي.

ومع ذلك فعلومهم وقدرهم مهما بلغت وترقت فإنها تضمحل إذا نسبت إلى علم الله وقدرته، ولهذا قال الرسل والملائكة الذين هم أعلم الخلق: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] وقال موسى للخضر حين رأى عصفورًا نقر بمنقاره من البحر: ما نقص علمي وعلمك وعلم سائر الخلق من علم الله إلا كما نقص البحر من نقرة هذا العصفور. وفي الصحيح مرفوعًا أن الله يقول: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منكم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر**»[1] فتبًّا لمن زعم مشاركة المخلوق الضعيف القاصر من جميع الوجوه للرب العظيم المتفرد بالكمال من جميع الوجوه، وما أعظم جهلهم وضلالهم وعنادهم وجراءتهم، والله تعالى للطاغين بالمرصاد.

الوجه الرابع والخمسون: أن يقال لهؤلاء الملحدين ما قاله الله لإخوانهم المكذبين، الذين هم دونهم بدرجات مبطلًا كل احتمال يوجه للقدح في الرسول وفيما جاء به لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٢٩، ٣٠] إلى آخر الآيات هل هذا الرسول محمد ﷺ الذي جاء بالقرآن العظيم وبالشرع المبين شاعر أو كاهن أو متقول أو ساحر أو ما أشبه ذلك، مما تضاربت به أقوالهم؟ أو هو أصدق الخلق وأبرهم وأنصحهم وأعلمهم، وأخشاهم لله وأجمعهم لكل فضيلة وأبعدهم من كل رذيلة كما أجمع على ذلك كل من عرفه من مؤمن وكافر وهذا هو الواقع؟ أم الذي أوجب لهم الرد والتكذيب أحلامهم وعقولهم؟ فبئست الأحلام والعقول التي تجحد أكبر الأشياء وأوضحها، وتكذب بالحق وتنهج المناهج الباطلة وترضى لأنفسها بالشرك والاستكبار.

فعقول وأحلام هذه آثارها مسلوبة النفع مكفول لها الشر والضرر، أم الذي حملهم على هذا التكذيب لا حد له ولا يتورع صاحبه عن محرم ولا يمتنع عن جريمة، والطغيان مرد

(١) مسلم (٢٥٧٧).

لأصحابه مهلك لهم لا محالة أم يقولون: إنه ﷺ تقول هذا القرآن الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]. ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤] وهذا التحدي قائم من حين نزله الرب العظيم إلى أن تقوم الساعة لم يستطع ولن يستطيع كل منكر له مكذب له أن يأتي بمثله من جميع الوجوه اللفظية والوجوه المعنوية.

أم الذي حملهم على التكذيب والاستكبار أنهم مخلوقون من غير شيء بل دفعتهم الطبيعة وأوجدتهم المصادفة؟ فهذا قول السخف والجنون والمكابرة المعلوم بطلانه بالضرورة من كل عاقل، أم خلقوا السماوات والأرض وما فيها من العوالم التي لا يعلمها إلا الله؟ فإنهم مع الناس يعترفون أنهم أضعف شيء وأعجز شيء أم عندهم خزائن رحمة ربك يعطون من شاءوا ويمنعون من شاءوا ويحكمون بما شاءوا، فهم مسيطرون على الملك والمملكة؟ كل هذا يعترفون ببطلانه فهم يعترفون أنهم فقراء مماليك لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا ولا دفعًا للمكاره ولا جلبًا للمصالح. أم الذي حملهم على هذا البهت والتكذيب الكيد للرسول ولدينه ونصر باطلهم حتى بالطرق التي يعرف كل عاقل بطلانها؟ وهذا هو الواقع، وأن الذي ينتصر للباطل وقد صمم على ذلك لو جاءته كل آية لم يؤمن ولم يهتد، لأنه وطن نفسه على نصر الباطل ومقاومة الحق، أم الذي حملهم على ذلك أن لهم إلهًا غير الله له من أوصاف الربوبية والإلهية ما يستحق به أن يعبد مع الله ويرد الحق لأجله؟ فسبحان الذي اعترفت المخلوقات بعظمته وسلطانه عما يشركون، فهو الإله الحق المبين الذي له جميع أوصاف الكمال، وبيده التدبير للعالم العلوي والسفلي الذي لا يستحق العبادة إلا هو، والذي لا يأتي بالحسنات والخيرات إلا هو، ولا يدفع السوء والسيئات إلا هو، الذي ليس له ند ولا كفؤ بوجه من الوجوه، فذكر تعالى كل احتمال يوجهه أعداء الرسول إلى رسالته ورد ما جاء به وأن ذلك باطل قد أبطلته العقول السليمة والفطر المستقيمة. وهذه الاحتمالات التي ذكرها الله عن أولئك قد قالها هؤلاء الملحدون الماديون من غير حياء ولا خجل، تشابهت قلوبهم في الكفر فتشابهت أقوالهم، فلا دين

ولا خلق ولا عقل ولا حياء من الخلق في هذه الجراءات والعظائم والمنكرات التي قالوها، فلم يبق إلا أن يعذبهم الله، قال الله تعالى في آخر هذه الاحتمالات: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٣].

الوجه الخامس والخمسون: أن يقال لهم: من الذي خلق الأرض والسماوات والشمس والقمر والكواكب وجميع ما بث فيهما من دابة، والذي أنزل من السماء رزقا فأنبت به من كل زوج كريم متاعًا للعباد ولأنعامهم، ومن الذي أحكمها غاية الإحكام، وأودع فيها من بدائع حكمته ولطيف صنعته وأنواع جوده وكرمه ورحمته وجعلها أدلة وبراهين على وحدانيته وقدرته وعظمته، ومن الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكمل ظاهره وباطنه بالقوى المتعددة التي يحتاج إليها، وعلمه كيف يهتدي إلى مصالح دينه ودنياه، فعلمه البيان العلمي والبيان اللفظي والبيان الرسمي حتى تم له من الخير والصلاح والهدى ما لم يتم لغيره، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض يستدل بآياتها ويستخرج منافعها ويستدر خيراتها؟ فإن قالوا: هذا عمل الطبيعة، وهذا فعل المصادفة فقد برهنوا على حماقتهم وجهلهم الذي لم يبلغه ضلال أحد، فأي عمل للطبيعة التي توجب هذه الآثار العظيمة؟ وأي أثر جعلها تعمل هذه الأعمال؟ وأي عقل وفكر هداها إلى هذه الأمور؟

أما أهل العلم والبصائر والألباب، بل وجميع من له نوع من العقل، فسيقولون: هذا تقدير العزيز العليم، وهذا صنع الله الذي أتقن كل شيء وأحسن خلقه، بديع السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

الوجه السادس والخمسون: قد شاهد الخلق من جزاء الله للطائعين، وهم الرسل وأتباعهم، وعقابه للعاصين المكذبين له ولرسله، آيات بينات وبراهين قاطعات، شاهدوها رأي عين، ومن لم يشاهدها فقد تناقلتها القرون قرنًا بعد قرن وتواترت تواترًا لم يتواتر له نظير من كل وجه، فمن الذي أرسل الطوفان العظيم الذي غشي الأرض والجبال وأهلك الله به المكذبين لنوح أجمعين، ونجاه ومن معه في الفلك المشحون؟ ومن الذي أرسل على عاد الريح العقيم

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾؟ [الذاريات: ٤٢]. ونجى الله من هذا العذاب هودًا ومن معه من المؤمنين؟ ومن الذي أرسل الصيحة والرجفة على ثمود فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ونجى الله صالحًا ومن تبعه من المؤمنين؟ ومن الذي جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وقلب على قوم لوط ديارهم، وأهلك قوم شعيب بعذاب الظلة؟ ومن الذي فلق البحر حتى صار اثني عشر طريقًا وعبره موسى وقومه ناجين، وأهلك الله فرعون ومن معه أجمعين؟ ومن أيد موسى بالعصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم، وفجر له الحجر اثنتي عشرة عينًا ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾[البقرة: ٦٠]. وأعطاه من الآيات ما فيه بلاء مبين؟ ومن الذي أعطى عيسى آيات بينات مشاهدات جعله يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله؟ ومن الذي أيد محمدًا ﷺ بالآيات البينات والنصر العظيم، وشق له القمر، وسلم عليه الشجر والحجر، وكم أجاب الله دعوته في إنزال الغيث وإمساكه، وفي شفاء الأمراض المتنوعة، وأنبع الماء من بين أصابعه فروى الخلق الكثير، وبارك في الطعام الذي باشره حتى أشبع الخلق الكثير، وعصمه من الناس وقد تكالبوا عليه من كل جانب، وحفظه وحفظ ما جاء به؟ فبعض هذه الآيات توجب لكل منصف أن يعترف بوحدانية الله وكماله وصحة ما جاءت به الرسل وبطلان ما ذهب إليه أعداء الرسل في كل زمان ومكان. وذلك أن الباطل يعرف تارة بتصويره وتقريره وببيان أدلته الواهية وشبهه الساقطة، وتارة يعرف ببيان الحق ووضوح براهينه السمعية والعقلية المشاهدات والمحسوسات والمتواترات. فإذا علم الحق علم أن ما سواه باطل، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأنى يصرف الملحدون، وإلى أي شيء يذهبون؟ والحمد لله على عافيته من هذا البلاء العظيم المفضي إلى العذاب الأليم.

الوجه السابع والخمسون: أن الملاحدة يتشبثون لتأييد باطلهم بشبه باطلة تروج على من لا بصيرة له، ويروجها المأجورون من الزنادقة المنتسبين للإسلام، يقولون: انظروا إلى حال المسلمين وما هم عليه من الضعف، وأنهم متأخرون في أمور الحياة، والذي أخرهم دينهم. فيروجون هذا من وجوه متنوعة، وهذا مما يعلم أن المستدل به مبطل، وذلك أن الواجب أن تنظر إلى الدين الإسلامي في نفسه وما هو عليه من الإحكام والحسن العظيم، وما فيه من

الهدايات إلى كل خير والذود عن كل شر وضرر. وتنظر أيضًا إلى حالة القائمين به المنفذين لتعاليمه وأحكامه في أنفسهم وفي العباد، كما كان عليه المسلمون في الصدر الأول، فإنك ترى فيه ما يبهج الناظرين، وتقوم به الحجة على المعاندين. وأما النظر إلى المسلمين التاركين لهدايته وإرشاده وتعاليمه العالية، المنحرفين عنه من وجوه كثيرة، فهذا ظلم ووضع للشيء في غير موضعه، فكما لا يقدح ولا يضر العلوم النافعة إذا انتسب إليها وادعاها من لم يتصف بها ولا يحتج بحالهم على ذم العلم، فهذا أبلغ وأولى ولهذا كان الوسيلة الوحيدة إلى عود المسلمين إلى عزهم ومجدهم وكمالهم وعودهم إلى دينهم الصحيح وتمسكهم بإرشاداته الدينية والدنيوية ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥]. فحال المسلمين اليوم في تفرقهم وتشتتهم وتركهم جمهور مقومات دينهم حتى انحلوا وضعفوا صار فتنة للكفار والمنافقين، وحجابًا حائلًا وشبهة لمن يريد التلبيس، فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

الوجه الثامن والخمسون: قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦] وهذا أمر مشاهد محسوس: أكثر أهل الأرض ضلال منحرفون دعاة إلى الضلال بأنواع الدعايات التي نهايتها أن تصل إلى هذا الذي ذكره الله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فجميع ما يحتجون به على باطلهم ظنون خاطئة وتخرصات ونظريات فاسدة. واعتبر ذلك بنظريات علل الوجود التي لا يزالون يحدثون عنها بأحاديث متناقضة، ولا يزالون يحدثون نظريات وتجربات في علة العلل فيبطلونها،لأنه محال أن يستقر لهم قول صحيح في ذلك حتى يؤمنوا بخالق الوجود وموجد العلل والمعلولات والقادر على كل شيء، الذي جميع الذوات والعناصر والأسباب والمسببات كلها منقادة لمشيئته وحكمته، ليس لها من الأمر شيء، وإنما هو حكيم في وضعها مواضعها وتنزيلها منازلها، وكذلك اعتبر هذا بخرصهم الباطل وقولهم بشمول الترقي لكل موجود عمومًا وللإنسان خصوصًا في أخلاقه ودينه وآدابه وأعماله وصناعته، حتى أخذها المغترون عنهم قضية مسلمة، وهي لا تحتاج إلى نظر كثير، بل يعلم

بالبداهة والضرورة أن الترقي إنما هو في الأوقات القريبة في علوم الصناعات والمخترعات، وبهذا اغتروا وغروا غيرهم.

أما الترقي في الأفكار الصحيحة والعلوم الصادقة النافعة والأخلاق الفاضلة فإنها هبطت هبوطًا لا يمكن التعبير عنه، وإذا أردت أن تعرف ذلك يقينًا فخذ نموذجًا من الأمثلة وقس أفكارهم وعلومهم وأخلاقهم بالأفكار الراقية والعلوم الصادقة والأخلاق الفاضلة. مثال ذلك أن أفكار الماديين حصروها في المادة ولم يلتفتوا بالكلية إلى غيرها، فأدركوا منها ما وصلت إليه أفكارهم، فهذه أفكارهم في أمور ضيقة أوجبت لهم جحد ما سواها وضيقت علومهم وأكسبتهم الشقاء العاجل والآجل. وأما الأفكار الدينية فإن أهل الدين الصحيح استعملوا أفكارهم فيما هيئت له وخلقت له، علموا أن الله خلقهم لمعرفته وعبادته وحده لا شريك له، وأنهم إذا قاموا بذلك أتم الله عليهم نعمته وأسعدهم سعادة أبدية وفلاحًا دائمًا. ومع ذلك فقد سخر لهم ما في السماوات والأرض، وأدر عليهم الأرزاق ليتوصلوا بها إلى المقصود مما خلقوا له فيصلح دينهم ودنياهم وليحيوا في هذه الدار حياة طيبة، فبالله عليك هل تنسب تلك الأفكار الدينية إلى هذه الأفكار الجليلة العلية؟ وقد ترتبت علوم الفريقين على هذه الأفكار المتباينة، فالماديون قصروها على علوم المادة فتم لهم منها ما تم، والمؤمنون عرفوا الله بأسمائه وصفاته وأحكامه ودينه، ظاهره وباطنه، فعلومهم الجليلة لا يمكن أن يقاس بها أو يقاربها شيء من العلوم الأخر. ومع ذلك فقد شاركوا علماء المادة في علمهم الذي يحتاجون إليه في إصلاح دينهم ودنياهم، فإن دينهم قد جاء بالإصلاحات المتنوعة كما تقدم.

وأما الأخلاق فأهل الإلحاد والمادة انحلت منهم الأخلاق انحلالًا ذائبًا حتى صاروا كالبهائم بل أضل منها وأخس، مرجت أخلاقهم وذهبت عهودهم واستباحت كل محرم، وانطلقوا في شهوات الغي لا يثنيهم عنها دين ولا خلق ولا حياء من الله ولا من خلقه كما هو معروف من أحوالهم، فذهب دينهم ولم تستقم دنياهم فيعيشوا فيها عيشة طيبة هادئة،

خسروا الدنيا والآخرة، وأما المؤمنون فإن أخلاقهم كل خلق مستحسن عقلًا وشرعًا وعرفًا، وهي الأخلاق التي تجعل صاحبها في المراتب العالية والأوصاف الجميلة الحميدة كما هو معروف منهم مشاهد.

الوجه التاسع والخمسون: أن الشريعة الإسلامية قد حكمت على الخلق أحكامًا جميلة لا يمكن إصلاح الأمور إلا بها؛ لأنها توجه الظواهر والبواطن إلى الخير، وتذودهم عن الشرور، أما باطنها فلأن المتصفين بها الملتزمين للدين على وجهه قد توجهت قلوبهم إلى القيام بالدين، واعتبروه أفرض الفروض وأوجب الواجبات، راجين بذلك فضل الله وثوابه، محتسبين خيره، ومن خرج عن هذا منهم فقد جعلت له الشريعة من الحواجز والروادع والحدود ما يعينه على التزامه في عقائده وأخلاقه وآدابه وحقوقه الجميلة المعترف بحسنها عند العقلاء. وذلك السبيل الوحيد إلى إصلاح المجتمع واستقامة الأحوال وسلوك الصراط المستقيم. وأما القوانين الملحدة فإن غايتها إذا قويت أن تسيطر على بعض الظواهر، وأما الأخلاق والبواطن والإيمان والأمن على الأرواح وعلى الأموال والحقوق فهيهات أن تقوم بها قوانين إلحادية تهدف وتقصد أن يكون البشر كالبهائم، إباحيين فوضويين في أفكارهم وإرادتهم ومراداتهم، وتفضي إلى الشرور وتنتهي إلى الحروب، وهذا أمر لا يرتاب فيه عاقل. ومما يؤيد هذا أن الأحكام الدينية التي أرشد إليها الشارع باقية ببقاء البشر، صالحة لكل زمان ومكان، بل لا تصلح الأمور إلا بها، وأما قوانين البشر وأنظمة السياسيين التي لم تبن على الدين فإنها موقتة بحسب ما يرون من مصالحهم ومضارهم في الوقت الذي هم فيه، ثم تتغير وتتبدل وربما غيّرها واضعوها؛ لأنها من صنيع البشر، وصنعهم كله ناقص، والشريعة الإسلامية من صنع العزيز الحكيم العليم الذي أحاط بكل شيء علمًا، وعلم مصالح العباد في كل الأوقات والأحوال فشرعها صالحة لهم موافقة لمصالحهم دافعة لمضارهم، وهذا من أعظم البراهين على إبطال جميع الأصول والأنظمة والأساسات المناقضة للدين، والله أعلم.

واعلم أنه لا يوجد قانون صحيح أخذت به الأمم إلا وهو في الدين على أكمل ما يكون

وأصح ما يكون وأسلم ما يكون من النقص، فليأت المرتاب بمثال واحد خارج عن هذا الأصل إن كان صادقًا.

الوجه الستون: قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠١]. فذكر - جل جلاله - أمرين عظيمين يمتنع ويستحيل وجود الكفر مع معرفتهما إلا من معاند ومكابر، فلا عبرة به ولا حيلة في هدايته:

أحدهما: آيات الله التي تتلى على العباد وفيها الآيات البينات والحجج القاطعات المتنوعة من كل وجه، فمن عرف القرآن وتأمله، ورأى اتفاقه وعدم اختلافه وأحكامه وبلاغته وصدق ما أخبر به من الغيب والشهادة وحسن ما شرعه وحكم به عرف أنه من عند الله، وأن البشر، بل الإنس والجن والخلائق لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وكذلك من عرف الرسول محمدًا ﷺ وما هو عليه من الكمال المتنوع الكامل في روحه وخلقه، الكامل في عقله ومعرفته، والكامل في إنسانيته بجميع مظاهرها، الذي اجتمع به الكمال الإنساني من كل وجه، من عرفه على هذ الوجه عرف وتيقن أنه رسول الله حقًّا ونبيه صدقًا، وامتنع مع ذلك أن ينكر رسالته، بل تحقق صدقها وبطلان ما ناقضها والله أعلم. وقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]. ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]. فتعجب تعالى ممن يكفر به وهو يشاهد - وكل أحد له عقل يشاهد - أنه الخالق للموجودات عمومًا وللآدمي خصوصًا الموجد له بعد العدم، المتصرف فيه بالأحكام القدرية والأحكام الشرعية وأحكام الجزاء، فكيف يستسيغ أحد بعد هذا البرهان أن يعدل إلى الإلحاد والكفر والإنكار؟ ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وهو الذي يطعم ولا يطعم وهو الغني بذاته، والكون كله فقير إليه بذاته من كل وجه.

الوجه الحادي والستون: أن هؤلاء الملاحدة الماديين فسدت عقولهم، مداركها وأعمالها

وسلوكها، وذلك أن صحة العقل أن يدرك الحق، وأن يعمل به ويسلك الطريق النافع، وهؤلاء أنكروا وجحدوا الحق، فإن الله هو الحق، وقوله حق ودينه حق ووعده ووعيده حق، قامت على ذلك البراهين القاطعة الكثيرة التي هي أقوى البراهين وأصدقها، وشهد بذلك لنفسه وشهد به خيار الخلق من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، وشهد به جميع العقلاء، وعليه فطرت الخليقة. فمن أنكر هذا فهو إما معاند مكابر قد فسد سلوكه وعمله وقصده التي هي ثمرة العقل، وإما مشتبه عليه الأمر، فهذا أعظم الناس على الإطلاق جهلًا وضلالًا؛ لأنه ضل بأوضح الأشياء واشتبه عليه الليل والنهار والضياء والظلمة، وكل من فسد إدراكه أو سلوكه أو كلاهما فإن أقواله لاغية باتفاق العقلاء، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وكل من يقبل قول هؤلاء الملحدين فهو أحد رجلين: إما جاهل بحقيقة أمرهم، وإما ظالم يريد علوًّا في الأرض وفسادًا، أو جامع بين الوصفين. وهذه حال أتباع فرعون الذين قال الله فيهم: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف: ٥٤]. وحال القرامطة مع رؤسائهم، وحال الكفار والمنافقين في أئمتهم الذين ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١]. اهـ.

الوجه الثاني والستون: أن قول هؤلاء الملحدين الماديين إذا تصور على حقيقته جزم العاقل ببطلانه وقال: كيف اشتبه هذا على أحد؟ ويتعجب من اعتقادهم إياه. قال شيخ الإسلام: ولا ينبغي للإنسان أن يعجب، فما من شيء يتخيل من أنواع الباطل إلا وقد ذهب إليه فريق من الناس. ولهذا وصف الله أهل الباطل بأنهم أموات، وأنهم: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ [البقرة: ١٨]. فهم لا يفقهون ولا يعقلون، وأنهم: ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات: ٨، ٩]. وأنهم في ريبهم يترددون ويعمهون. انتهى كلامه. فصورة قول هؤلاء الملاحدة أن جميع الموجودات وجدت بغير موجد، وجدت مصادفة من طبيعة عمياء لا علم لها ولا قصد ولا شيء من الشعور العلمي ولا الشعور الإرادي، فلو صورت المحالات والممتنعات بأوضح من هذا التصوير وأشده مكابرة للعقول لم يهتد المصور إلى تعبير عن شيء ممتنع أبلغ من هذا المنطق الجنوني، وهذا من جزاء من جاءه الحق فرده، ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

الوجه الثالث والستون: أنه قد تقرر في الفطر والعقول أن الله له الكمال المطلق والحمد المتنوع. وأنه أكبر وأعظم وأعلى وأعلم من جميع الموجودات ولا تنسب إليه بوجه من الوجوه، وهذا متقرر مستقر في قلوب جميع أهل الأديان، وغيرهم من جميع العقلاء المعترفين بوجود الله، وأنه ليس كمثله شيء في جميع أوصافه وأفعاله، ولم ينكر هذا إلا فرقة وشرذمة من زنادقة الفلاسفة الدهريين المارقين من الديانات والمعقولات ; فجميع أجناس البشر معترفون لله تعالى بهذه العظمة، وإن اختلفت طرائقهم وتباينت دياناتهم وتنازعوا في الأصول أو في الفروع، فهذا الأصل لا ينكره منهم منكر، ولا يجحده إلا المعاندون الذين خرجوا من الشرع والعقل والفطرة، وإن كان لهم عقول وأفئدة أدركوا بها ما أدركوا من علوم المادة؛ حيث وجهوا جميع قواهم ومجهوداتهم إليها، ولكنهم لم تغن عنهم هذه العقول شيئًا في أنفع الأشياء، بل كانت حجة عليهم، فما علموه من علوم الكون حجة عليهم فيما أنكروه مما هو مقصود أصلي، وعلوم الكون كلها وسيلة إليه، فانقطعوا في الوسائل عن المقاصد، وبالدليل عن المدلول، وبالكون عن المكون، وبالصنعة عن صانعها، وبقوا في غيهم وضلالهم وطغيانهم يعمهون.

والله تعالى له المثل الأعلى، وهو معطي الموجودات جميع ما فيها من القوى والإدراكات والصفات، وهو أحق بالكمال من كل موجود، فالذي علم الإنسان ما لم يعلم من العلوم الواسعة المتنوعة، وأقدره على كثير من مواد الطبيعة وعناصرها، وجعل له السمع والأبصار والأفئدة، هذه الأمور وغيرها لم تحصل للبشر إلا بإيجاده وإمداده وتعليمه وتسخيره، أفبهذه النعم الجليلة والفوائد السابغة يكفر به الكافرون، ويجحده الجاحدون. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

الوجه الرابع والستون: أن كل برهان ودليل أبطل الله به الشرك وقرر به التوحيد فهو برهان على بطلان الإلحاد والجحود؛ لأن المشركين يعترفون بالله ويعلمون أنه الخالق الرازق المدبر، ولكنهم يشركون في عبادتهم فيعبدون الله ويعبدون غيره، فأبطل الله شركهم بأمور كثيرة:

منها: أن اعترافهم بتوحيد الربوبية يوجب لهم أن يقوموا بتوحيد الإلهية والعبادة.

ومنها: أن الله تعالى، كما هو المنفرد بالنعم وجلب الخيرات ودفع السوء والسيئات، فهو الذي يجب أن يعبد وحده لا شريك له، ويحمد ويشكر ويثنى عليه.

ومنها: أن شواهد الفقر والحاجة على جميع المخلوقات ظاهرة من كل وجه، فهم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد، فيجب أن ينزلوا فقرهم وفاقتهم وضرورتهم بمن لا يأتي بالإيجاد والإمداد إلا هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته.

ومنها: أن من سواه لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، لا يدفعون المكاره ولا يجلبون المحاب، ومن كان على هذا الوصف فعبادته باطلة، فإذا بطل الشرك بالله وتقرر وجوب الإخلاص لله ثبتت وحدانية الله وتفرده بكل كمال، واضمحل قول الجاحدين كما اضمحل قول المشركين.

الوجه الخامس والستون: أن البراهين الدالة على رسالة محمد ﷺ ورسالة سائر الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أكبر البراهين على إبطال قول الملحدين وآيات الرسل عمومًا ومحمد خصوصًا - لا تعد ولا تحصى، متنوعة من كل وجه، توجب العلم الضروري بصدقهم وصحة ما جاءوا به، وهؤلاء الملحدون أكبر أعداء الرسل في كل زمان ومكان، فلا يجتمع الإيمان بالرسل مع اعتناق مذهب الماديين المنافي للرسالة وللعقول والفطر. والله أعلم.

الوجه السادس والستون: البراهين الدالة على البعث كلها تبطل أصول الملحدين، وقد استدل تعالى على البعث بقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وبأنه كما بدأ الخلق من العدم فإنه سيعيدهم للجزاء، وبإحياء الله الأرض بعد موتها، واستدل بكمال قدرته، واستدل بحكمته، وأنه لا يليق به أن يترك الخلق سدى، لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون، وبغير ذلك من البراهين، وهذه أمثلة ونماذج لهذه الأصول الثلاثة: التوحيد، والرسالة، والبعث، وكل واحد من هذه الأصول

لو بسطت براهينه لبلغت شيئًا كثيرًا، فكل واحد منها قد وصل إلى علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، وهي تهدم أساس التعطيل والإلحاد، وتوجب على العباد الاعتراف بما خلقوا له من الإيمان بالله وكتبه ورسله، وعبادته وحده لا شريك له، ومن المعلوم أن الماديين الملحدين يباهتون وينكرون ذلك كله.

الوجه السابع والستون: قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. هذه الآية دلت على كمال علم الرسول محمد ﷺ، وكمال تعليمه للخلق، وكمال تنفيذه للهدى والصلاح الذي جاء به، فهل في إمكان أحد من البشر - الأولين والآخرين - وجود هذه العلوم العالية النافعة الواسعة في شخص واحد، وحصول التعليم منه لأناس كانوا قبل ذلك في غاية الجهل والضلال المبين، حتى انتقلوا من هذا الجهل والضلال إلى العلم الواسع والهدى المتنوع؟ ثم مع هذا العلم والتعليم الممتنع وجوده - أو وجود ما يقاربه - في شخص واحد نفذ ﷺ في الخلق هذه التعاليم والإصلاحات الدينية والدنيوية فاستقامت به الأمور وصلحت الأحوال، إن في ذلك لعبرة للمعتبرين، وآيات لأولي الألباب، حيث بعث هذا النبي الأمي الذي لا يقرأ كتابًا ولا يخط بيمينه ولا جالس أحدًا من العلماء السابقين فتعلم منهم، فجاء بعلوم الأولين والآخرين وبما فيه صلاح الدنيا والدين، فزالت به الجهالات والضلالات، وتقشعت عن القلوب به الظلمات، وحصل كمال الرشد والهدى، وزال عن أمته أسباب الهلاك والردى، شهد بهذا الأولياء والأعداء، واتفق الخلق على أنه لم يوجد أحد يقاربه من العظماء، وكيف يقاربه أحد أو يدانيه وكل خصلة من خصال الكمال له منها أعلاها وأرفعها، وبه كملت العقول والبصائر، ولا يقدح في هذا إلا كل مباهت مكابر. ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

الوجه الثامن والستون: لما علم المستعمرون الملحدون أن الإسلام الحقيقي والدين

الإسلامي أقوى حصن وأعظم سلاح لمقاومتهم، وقد عرفوا ذلك من قديم الزمان، وحملوا حملات متنوعة، فرجعوا على أعقابهم مهزومين لم ينالوا خيرًا، وعرفوا حق المعرفة أنه من المحال السيطرة على الإسلام وعقائده وأخلاقه، فعملوا مؤامرات واسعة متنوعة، وساعدوها بالقوة، ودرسوا الإلحاد في المدارس التي اغتفلوا أهلها، وذهبوا يهجنون جميع تعليمات الإسلام وما يدعو إليه من الأخلاق وما يحكم به من الأحكام، وقالوا: إنها رجعية ترجع بالناس إلى الوراء عن التقدم المطلوب، وأوجدوا لهم من أرباب المطامع المأجورين ومن البلهاء المغرورين من يستعينون به على مطلوبهم والتزهيد في الدين من كل وجه. ولكن – ولله الحمد – قد علم أهل البصائر مقاصدهم وعرفوا الخونة ممن ينتسب إلى ملة الإسلام وهو أعظم عدو للإسلام في صورة صديق، وبرهن العلماء العارفون أن كل ما قيل في توهين الدين وتخديره فهو باطل، وأن القائلين بذلك زنادقة منافقون يقولون ما يعلمون خلافه، وأن السبيل الوحيد إلى الصلاح والتقدم الصحيح النافع من جميع الجهالات هو الأخذ بتعاليم الإسلام بعقائده وأخلاقه وأعماله وأحكامه، وأن البشر لا يمكن أن يحيوا حياة طيبة ويعيشوا في الدنيا عيشة هادئة إلا بالدين، وأن الإلحاد أعظم نكبة طرقت البشر، وأن آثاره الشر الكبير والإباحية والفوضوية وتقويض دعائم العمران والسير إلى الهلاك والشقاء. فمتى رأيت من ينعق بذم الرجعية وذم كل قديم ويأمر بنبذ ذلك فاعلم أنه أحد رجلين: إما ملحد قصده بذلك التوسل إلى جحد أديان الرسل ونبذ ما جاءوا به، وإما مغرور مخدوع مقلد لهم، قد غرته هذه المدنية الزائفة وأعجبه رونقها وظن بجهله أنها شيء، وهؤلاء كاذبون في ذلك، فإن أقوال زنادقتهم الأولين عندهم بالمحل الأعلى ولا يكادون يخالفونهم، ويعظمونهم أكبر مما يعظمون الأنبياء، بل ليس للأنبياء في قلوبهم شيء من التعظيم الصحيح، وإذا أردت أن تعرف كذبهم بالبداهة فهل العلوم النافعة والأعمال الصالحة والعقائد الصادقة والأخلاق الفاضلة إلا وقد جاء بها الدين على أكمل الوجوه وأحسنها وأنفعها؟ وتتبع ذلك في أصول الدين وفروعه وظاهره وباطنه، هل تجده إلا مشتملًا على كل خير، هاديًا إلى كل رشد وصلاح، حاثًّا على كل فلاح؟

الوجه التاسع والستون: من محاسن الإسلام وقيامه بكل إصلاح أنه ليس عقائد وأخلاقًا فقط، وإنما هو - مع ذلك - موجه وحاكم وصاحب دولة وجهاد، فالدين الإسلامي - بعقائده وأخلاقه وآدابه وتوجيهاته وحكمه وسلطته وحمايته الحقوق الخاصة والعامة، كما هو مشروح مفصل - من أكبر الأدلة على أنه تنزيل من حكيم حميد، عليم بكل شيء، إذ شرع لهم هذا الدين الذي لم يبق خيرًا إلا دل عليه وحث عليه، ولا شرًّا إلا حذر منه، ولا حقًّا إلا أقامه، ولا عدلًا إلا جعل له مسالك وطرقًا يقوم عليها. فهو دين ودولة، وجامع بين مصالح الدين والدنيا، وبين التسامح والتيسير، وبين العزة والقوة والمقاومة لكل معاند محاد معاد للدين وأهله، عكس ما نبذه الملحدون أنه دين بلا دولة وآخرة لا دنيا معها، فإنهم قالوا ذلك ليتوسلوا إلى تثبيط أهله عن مقاومة المعتدين، وبذلك يمهدون الطريق للأعداء المستعمرين الظالمين، فهؤلاء الذين قالوا ذلك كذبوا وظلموا وكادوا للإسلام وأهله وكانوا أجراء وسماسرة للأعداء، والله أعلم.

الوجه السبعون: أن من أكبر أسباب الإلحاد الإعراض عن علوم الدين، وإلا فمن عرف ما جاء به الكتاب والسنة وعلم ما جاء به دين الإسلام ولو معرفة متوسطة استحال أن يقع معه الإلحاد جهلًا وضلالًا، فإن الدين - بطبيعته وما اشتمل عليه من البراهين - يضطر صاحبه إلى الإقرار والاعتراف بوحدانية الله وصدق رسله وبطلان ما ناقض ذلك، فلا تجد ملحدًا إلا معرضًا من أعظم الجاهلين أو معاندًا عارفًا من أكبر المباهتين المكابرين.

ومن المصائب الكبيرة أن كثيرًا من العصريين ليس عنده بصيرة ولا معرفة بالدين لا قليلة ولا كثيرة، وإنما عنده إقبال على الصحف المشتملة على الخير والشر، وكثير منها تدعو إلى الإلحاد بأساليب وطرق متنوعة، فتصادف هؤلاء الذين يظنون أنفسهم عارفين وهم من أجهل الجاهلين، وتملأ أذهانهم من الآراء السخيفة والنظريات المخيفة، وليس عندهم من العلم والدين ما يصدهم ويمنعهم من الاندفاع مع هذا التيار المادي، وما أكثر الهالكين بهذه الطريقة، وليس لهؤلاء دواء إلا الإقبال على معرفة الدين وعلومه وآدابه وأخلاقه، فنسأل

الله السلامة والعافية، ولا يعرف الدين بتتبع أحوال من ينتسب إليه وهو منحرف عنه، فإن هذا من أعظم الظلم وأنكر المنكر، وقد صار هذا المسلك طريقًا لأعداء الإسلام الظاهريين والباطنيين، فقد حملوا الإسلام أوزار من ينتسب إليه من ملوك جائرين وأمراء مستبدين وأدعياء منحرفين عن عقائده وأخلاقه ومتفلتين عن أحكامه حتى صاروا أعظم حجاب للمغترين وأعظم حجة للمعاندين العارفين.

وإنما الواجب معرفة الإسلام من منابعه وينبوعه الأصلي، وهو كتاب الله وسنة رسول الله القولية والفعلية وعمل الخلفاء الراشدين والصالحين من أمة محمد، فإن هذا هو الدين، وهو الأنموذج الصحيح لمن يريد الإنصاف. أما من يريد الاعتساف، وقصده معروف، فإنه يزور على ضعفاء العقول والبصائر بهذه التمويهات، وينسب إلى الدين ما هو منه بريء، وإذا كانت فنون العلم - كالطب والحساب والهندسة وما أشبهها - لا يقدح فيها من انتسب إليها وهو جاهل بها، فكيف بهذا الدين الذي تفرعت عنه جميع العلوم النافعة والمعارف الراقية والأخلاق العالية وقد ثبتت أصوله حتى كانت أثبت من الرواسي، وأضاء نوره حتى أنار ما بين الخافقين، واتسعت آفاق إصلاحاته حتى شملت إصلاح الأفراد والجماعات والحكام والمحكوم عليهم والظاهر والباطن والدنيا والآخرة؟ فتبًّا لمن قدح فيه بحال من ينسب إليه وهو أبعد الناس عنه، سبحانه هذا بهتان عظيم.

الوجه الحادي والسبعون: أن مدار هؤلاء الملحدين على تحكيم عقولهم وعرض العلوم والحقائق عليها، فما وافقها قبلوه وما ناقضها نفوه وأنكروه، فعارضوا بها عقول جميع العقلاء وعلوم الأنبياء وأتباعهم، وعقولهم قد عرف فسادها وتناقضها وتهافتها، فهذا الأصل الذي بنوا عليه كل شيء أصل منهار متهافت في غاية الفساد والاضطراب، وقد فتحوا به للناس المغترين بهم باب الفوضى في الآراء والنظريات حتى صار كل طائفة، بل كل شخص منهم، يدعي أن الصواب معه والخطأ مع غيره، ولهذا تجرأ كل جاهل على القدح فيما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب السماوية، حتى امتلأت الدنيا من الإلحاد والدعوة إلى المادية

المحضة، واستجاب لدعوتهم رعاع الخلق الذين لا علم عندهم ولا دين ولا أخلاق، وخيف أن يقع - ولابد من وقوعه - ما أخبر به النبي ﷺ حيث ثبت عنه أنه قال: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله. ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق**»[1] وصرنا في وقت القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر من كثرة الإلحاد والدعوة إليه وكثرة المعارضات الباطلة والميل بالكلية إلى الدنيا وزخارفها ورئاساتها، حتى صار كثير من الكتاب العصريين يدعون إلى عمارة الدنيا والإقبال بالقلب والقالب عليها ونسيان الآخرة، ويحرفون لذلك نصوص الكتاب والسنة، فانحرفوا بهذا انحرافًا عظيمًا وضلوا وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سبيل الله، ولو أنهم دعوا الخلق إلى ما أمر الله به المؤمنين وما أمر به المرسلين بالأكل من الطيبات والتمتع المباح من الدنيا وطلبها الطلب الجميل والتوسل بذلك إلى المقصود الأعظم وهو إصلاح الدين والقيام بعبودية الله التي خلق الله لها الخلق وأن يجعلوا ما متعوا به من النعم معونة لهم على ما خلقوا له، لكان خيرًا لهم وأقوم وأصلح للعاجل والآجل، ولنالوا السعادتين، ولسلموا من الفساد وانهيار العقائد والأخلاق، ولكنهم متعوا ونعموا وبطروا ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٥ - ٤٧]. ولهذا نسأل الله العافية، تجد أمثال هؤلاء الساقطين يتهكمون بالجزاء الدنيوي والأخروي ويسخرون من المؤمنين القائمين بواجباتهم الذين هم في الحقيقة أعلى الناس علوما وأخلاقا وأعمالا ومقامات، وهؤلاء المؤمنون لا يغبطون ما متع به هؤلاء الملحدون من أموال وأولاد، ويتلون عند ذلك قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦]. ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

---

(١) مسلم (١٤٨).

الوجه الثاني والسبعون: إذا أردت أن تعلم علم اليقين أن أهل الإلحاد ليس عندهم عقل كما لا دين لهم، وأنه ليس عندهم إلا المكابرة والجحود في قدحهم في القديم أو العتيق، أو ما أشبه ذلك من عباراتهم السخيفة كالرجعية وشبهها، فاعرض نموذجًا من تفاصيل ما يدعو إليه الدين ويحث عليه وما يحذر عنه تعرف بها أن المنكرين لها في فساد من عقولهم، وانعكاس من آرائهم، وسفاهة من علومهم وخسة من أخلاقهم، وأن كل قول أو عقيدة أو خلق أو عمل ليس عليه أمر الدين فهو مردود شرعًا وعقلًا وفطرة. ليس هذا مجرد دعوى، وإنما هو مما يتفق عليه العقلاء، فالدين الإسلامي - الذي هو دين محمد ﷺ وجميع الرسل - يدعو إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم والآخر، والاعتراف بوحدانية الله وتفرده بكل كمال، وتفرده بالخلق والرزق والنعم الظاهرة والباطنة، والقيام بعبودية الله ظاهرًا وباطنا، والتوجه إليه وحده، وخوفه ورجائه وحده، والإنابة إليه في جميع النوائب والملمات، والشكوى إليه في كل المهمات، والقيام بحمده وشكره، واللهج بذكره ودعائه، والتعلق به وحده في كل شيء، وترك التعلق بالمخلوقين، فهل هذا خير أم الكفر بالله والجحود والتعطيل لأوصافه وكفر نعمه والطغيان والاستكبار عن عبادته وتعلق القلوب بالمخلوقين رغبة ورهبة ورجاء كما هو حال الملحدين؟

والدين الإسلامي يدعو إلى الصدق في الأقوال والأفعال، وإلى البر والنصح للخلق كلهم. والقيام بحق الوالدين والأقارب ومن للإنسان بهم تعلق وصلة، ومن لهم حق عليه، ويأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج بيت الله الحرام والقيام بشرائع الدين، وأهل الإلحاد يقولون ويفعلون ما يناقض ذلك.

والدين الإسلامي يأمر بالعدل في المعاملات كلها، والقيام بالحقوق كلها، وينهى عن الظلم في الدماء والأموال والأعراض والوفاء بالعهود والعقود، ومراقبة الله في حال قيام العبد بها ليوفيها حقها ويبتعد عن شرورها ومفاسدها خوفًا من الله ورجاء لثوابه.

وأهل الإلحاد يأمرون بضد ذلك، وليس في ضمائرهم خوف ولا مراقبة لله، وإنما

هي تشبه أفئدة البهائم بل أضل، فحيث ما دفعتهم إلى الأغراض الخسيسة والظلم واغتنام الخيانات وتضييع الأمانات اندفعوا إليها، ليس عندهم دين ولا خلق ولا مراعاة ذمة، إنما هي الإباحية المحضة، وليس عندهم خشية إلا من مخلوق أقوى منهم، فهؤلاء كالأنعام بل هم أضل، وهؤلاء لم تنفعهم إدراكاتهم ولا مشاعرهم نفعًا يجدي.

وبالجملة، الدين الإسلامي يدعو إلى كل خلق جميل وعمل صالح وهدى مستقيم وطريق قويم وصلاح متنوع، فكل من خالفه وقع في ضد هذه الأمور الجميلة، وسقط في مهاوي الهلاك والأخلاق الرذيلة، فلقد تعس وانتكس من عبر عن عقائد الدين وأخلاقه وأعماله التي لا حياة للوجود إلا بها بالرجعية، والرجوع إلى القديم، والعبارات الوسخة التي هي أكبر معبر عن سخافة عقول معبريها وسقوطهم في كل رذيلة وخلوهم من كل فضيلة ولقد قال إخوانهم السابقون عن القرآن ومن جاء به: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠] ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

الوجه الثالث والسبعون: ذكرنا فيما سبق أن أعظم ما يبطل الإلحاد معرفة دين الإسلام والعمل به، وأنه بطبيعته وبراهينه وآياته يضمحل معه كل باطل من كل وجه، خصوصًا أقبح الباطل وأشنعه وأشده منافاة للعقل والدين وهو الإلحاد، وقد عرف أهله هذا منه وأنه لا بقاء له مع الدين فتوسلوا بتنحية الدين عن المتعلمين، وأبعدوه عن المدارس، فإن لم يتمكنوا جعلوا التعليم في الدين ضعيفًا أو اسمًا بلا مسمى، فهم عند التمكن ينحون الدين جملة ويدخلون في تعليم المدارس أصول الإلحاد فيخرج المتعلمون ملحدين صرفًا، فإن لم يمكنوا من إدخال الإلحاد فيها اجتهدوا في إضعاف علوم الدين، واقتصروا على العلوم العصرية ليذهب من قلوب الناشئة حب الدين ويسهل توجيههم إلى نبذه والاستبدال به ضده، فإن البصيرة في الدين إذا ضعفت، والقلوب إلى غيره توجهت، انهارت الأديان

والأخلاق كما هو مشاهد معلوم في كل المدارس التي على الوصف الذي ذكرنا. فيتعين على المسلمين وعلى ولاة أمورهم أن يعتنوا غاية الاعتناء بعلوم الدين وأخلاقه، فإن هذا من أفرض الفروض، وبه يحصل كل خير ويندفع أعظم شر، فإن الناشئين في المدارس إذا خرجوا منها وقد تمكنوا من علوم الدين وصار عندهم بصيرة صحيحة فيه فإنهم ينفعون أمتهم وينفعون غيرهم، وإلا فليعلموا أنهم رعاة، وكل راع مسئول عن رعيته، فهم مسئولون عن الناشئة المتعلمين في المدارس فإذا لم يثقفوهم ثقافة دينية صاروا أكبر سلاح للأعداء على أمتهم، فكيف إذا انصرفت قلوبهم عن الرغبة في علوم الدين وأخلاقه إلى الاقتداء الضار بأعداء الإسلام في علومهم وسلوكهم وعاداتهم؟ فإنه ما شاع الإلحاد في البلاد الإسلامية إلا بهذه الطريقة، فكيف إذا نصرتها قوة الولاة وصاروا هم العون الأكبر لانحراف المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات وطردوا عنها الدين أو أضعفوه؟ فنرجو الله أن يوفق ولاة المسلمين المرجوع إليهم لهذا الأمر العظيم الذي خطره كبير وشره مستطير، وإلا فلا يلومن إلا أنفسهم إذا خسروا الدين والدنيا، والله المستعان.

الوجه الرابع والسبعون: قال شيخ الإسلام رحمه الله: الرب تعالى أعرف من أن ينكر، وأعظم من أن يجحد، ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]؟. وهو الغني بذاته عن جميع الموجودات، فإن افتقار كل ما سوى الله هو حكم وصفة ثبتت لما سواه، فكل ما سواه - سواء سمي محدثًا أو ممكنًا أو مخلوقًا أو غير ذلك - هو مفتقر محتاج إليه لا يمكن استغناؤه عنه بوجه من الوجوه ولا في حال من الأحوال، بل كما أن غنى الرب من لوازم ذاته ففقر الممكنات من لوازم ذاتها، وهي لا حقيقة لها إلا إذا كانت موجودة، فإن المعدوم ليس بشيء، فكل ما هو موجود سوى الله فإنه مفتقر إليه دائمًا حال حدوثه وحال بقائه وهذا يوجب افتقاره إليه دائمًا. انتهى.

فعلم بهذا أن جراءة المخلوق الفقير على إنكار الرب الغني القائم بنفسه القائم بكل موجود، أو إنكار وحدانيته أو حق من حقوقه من أسخف الجنايات وأطمها، وأن هذا

المخلوق الفقير من وجه قد تعدى حده وطوره، قال الشيخ: وإذا كانت الرسل والأنبياء ومن اتبعهم - وهم أمم لا يحصي عددهم إلا الله - قد أخبروا بوحدانية الله وتفرده بصفات الكمال وهم مستيقنون ذلك لا يرتابون فيه، وهم عدد كثير أضعاف أضعاف أي تواتر قدر، قد اتفقت أقوالهم وأفعالهم وهدايتهم على ذلك، علم أنه هو الحق الذي لا ريب فيه وما سواه باطل. انتهى.

الوجه الخامس والسبعون: قال شيخ الإسلام في رده قول الفلاسفة ومن تبعهم من المنحرفين في قولهم: إن العقل يجب تقديمه على السمع، وإذا تعارض الشرع والعقل وجب تقديم الشرع؛ لأن العقل مصدق للشرع في كل ما أخبر به، لأن العقل دل على أن الرسول ﷺ يجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر، والعقل يدل على صدق الرسول دلالة عامة مطلقة. انتهى.

ووجه خضوع عقل العقلاء المعتبرين للشرع أنهم شاهدوا من براهين الرسالة وآياتها المتعددة المتنوعة ما يضطرهم اضطرارًا لا محيد لهم عنه أن محمدًا رسول الله حقًّا، فلو قدمنا شيئًا مما قيل إنه معقول على ما جاء به الرسول لعلمنا أنه معقول فاسد، لئلا يلزم تناقض قضايا العقل، فأعظم القضايا التي حكم بها العقل قضية صدق الرسول ﷺ، فمتى أنكر هؤلاء الملاحدة هذه القضية الكبرى اليقينية قطعنا أنهم معاندون للعقل، كما أنهم معاندون للشرع، وإذا تقرر أن العقل دل دلالة عامة مطلقة على صدق الرسول في كل خبر وحكم كان إيراد المورد على بعض جزئيات الشريعة معلوم الفساد، وكان علمنا العام بصدق الرسول في كل شيء يقضي على جميع الجزئيات، ونهاية الأمر أن يكون الذي وقع فيه الإشكال من المشتبهات، والمشتبهات يتعين ردها إلى المحكمات، وهو الأصل العظيم المحكم الذي تواردت عليه جميع البراهين اليقينية، وهو صدق الرسول وصحة ما جاء به. والله أعلم.

قال الشيخ: وإذا كان الأمر كذلك فإذا علم الرجل بالعقل أن هذا رسول الله، وعلم أنه أخبر بشيء ووجد في عقله ما ينازعه في خبره، كان عقله يوجب عليه أن يسلم موارد النزاع

إلى من هو أعلم به منه، وألا يقدم رأيه على قوله ويعلم أن عقله قاصر بالنسبة إليه، وأنه أعلم بالله وأسمائه وصفاته واليوم الآخر منه، وأن التفاوت الذي بينهما في العلم بذلك أعظم من التفاوت الذي بين العامة وبين أهل العلم بالطب، فإذا كان عقله يوجب أن ينقاد لطبيب يهودي فيما أخبره به من مقدرات الأغذية والأشربة والأضمدة والمسهلات واستعمالها على وجه مخصوص - مع ما في ذلك من الكلفة والألم - لظنه أن هذا أعلم بهذا مني وأني إذا صدقته كان أقرب لحصول الشفاء لي، مع علمه بأن الطبيب يخطئ كثيرًا، وأن كثيرًا من الناس لا يشفى بما يصفه الطبيب، بل يكون استعماله لما يصفه سببًا في هلاكه، ومع ذلك يقبل قوله ويقلده وإن كان ظنه واجتهاده يخالف وصفه، فكيف حال الخلق مع الرسل عليهم الصلاة والسلام، والرسل صادقون مصدقون، لا يجوز أن يكون خبرهم على خلاف ما أخبروا به قط، وأن الذين يعارضون أقوالهم بعقولهم عندهم من الجهل والضلال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال، فكيف يجوز أن يعارض ما لم يخطئ قط بما لم يصب في معارضة له قط؟ انتهى.

وقال أيضًا: والذين ادعوا في بعض المسائل أن لهم معقولًا صريحًا يناقض الكتاب قابلهم آخرون من ذوي المعقولات فقالوا: إن قول هؤلاء معلوم بطلانه بصريح المعقول، فصار ما يدعى معارضة للكتاب من المعقول ليس فيه ما يجزم بأنه معقول صحيح إما بشهادة أصحابه عليه وشهادة الأمة، وإما بظهور تناقضهم ظهورًا لا ارتياب فيه، وإما لمعارضة آخرين من أهل هذه المعقولات لهم، بل من تدبر ما يعارضون به الشرع من العقليات وجد ذلك مما يعلم بالعقل الصريح بطلانه، والناس إذا تنازعوا في العقول لم يكن قول طائفة لها مذهب حجة على أخرى، بل يرجع في ذلك إلى الفطر السليمة التي لم تتغير باعتقاد بغير فطرتها ولا هوى، وإذا كان فحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر إلى الغاية وهم ليلهم ونهارهم يكدحون في معرفة هذه العقليات ثم لم يصلوا فيها إلى معقول صريح يناقض الكتاب، بل إما إلى حيرة وارتياب وإما إلى اختلاف بين الأحزاب، فكيف غير هؤلاء ممن لم يبلغ مبلغهم في الذكاء والذهن ومعرفة ما سلكوه من العقليات؟ فهذا وأمثاله مما يبين أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه لم يعارضه إلا بما هو

جهل بسيط أو جهل مركب؛ فالأول: ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ [النور: ٣٩]. والثاني: ﴿ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ [النور: ٤٠]. وأصحاب القرآن والإيمان في نور على نور؛ وذلك لأن الآيات والبراهين دالة على صدق الرسل وأنهم لا يقولون على الله إلا الحق، وأنهم معصومون فيما يبلغون عن الله من الخبر والطلب، لا يجوز أن يستقر في خبرهم عن الله شيء من الخطأ كما اتفق على ذلك جميع المقرين بالرسل من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم، فوجب أن كل ما يخبر به الرسول عن الله صدق وحق لا يجوز أن يكون في ذلك شيء مناقض لدليل عقلي ولا سمعي، فمتى علم المؤمن بالرسول أنه أخبر بشيء من ذلك جزم جزمًا قاطعًا أنه حق، وأنه لا يجوز أن يكون في الباطن بخلاف ما أخبر به، وأنه يمتنع أن يعارضه دليل قطعي ولا عقلي ولا سمعي، وأن كل ما ظن أنه عارضه من ذلك فإنما هو حجج داحضة، وشبه من جنس شبه السوفسطائية، وإذا كان العقل العالم بصدق الرسول قد شهد له بذلك وأنه يمتنع أن يعارض خبره دليل صحيح، كان هذا العقل شاهدًا بأن كل ما خالف خبر الرسول فهو باطل، فيكون هذا العقل والسمع جميعًا شهدا ببطلان العقل المخالف للسمع. انتهى.

وقال رحمه الله حين تكلم عن الفلاسفة: ثم إنه ليس عندهم من المعقول ما يعرفون به أحد الطرفين، فيكفي في ذلك إخبار الرسل عن خلق السماوات والأرض وحدوث هذا العالم، والفلسفة الصحيحة المبنية على المعقولات المحضة توجب عليهم تصديق الرسل فيما أخبروا به، وتبين أنهم علموا ذلك بطريق يعجزون عنها، وأنهم أعلم بالأمور الإلهية والمعاد وما يسعد النفوس ويشقيها منهم، وتدلهم على أن من اتبع الرسل كان سعيدًا في الآخرة ومن كذبهم كان شقيًّا في الآخرة، وأنه لو علم الرجل من الطبيعيات والرياضيات ما عسى أن يعلم وخرج عن دين الرسل كان شقيًّا، وأن من أطاع الله ورسوله بحسب طاقته كان سعيدًا في الآخرة وإن لم يعلم شيئًا من ذلك. ولكن سلفهم أكثروا الكلام في ذلك لأنهم لم يكن عندهم من آثار الرسل ما يهتدون به إلى توحيد الله وعبادته وما ينفع في الآخرة، وكان الشرك مستحوذًا عليهم، وكان منتهى عقلهم أمورًا عقلية كلية، كالعلم بالوجود المطلق وانقسامه إلى علة ومعلول وجوهر وعرض، وتقسيم الجواهر ثم تقسيم الأعراض، وهذا هو

عندهم الحكمة العليا والفلسفة الأولى، ومنتهى ذلك العلم بالوجود المطلق الذي لا يوجد إلا في الأذهان دون الأعيان، ليس فيها علم بموجود معين لا بالله وبملائكته ولا بغير ذلك، وليس فيها محبة لله ولا عبادة له، فليس فيها علم نافع ولا عمل صالح ولا ينجي النفوس من عذاب الله فضلًا عن أن يوجب لها السعادة.

الوجه السادس والسبعون: قال شيخ الإسلام: من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه يجب على الخلق الإيمان بالرسول إيمانًا مطلقًا جازمًا عامًّا بتصديقه في كل ما أخبر به وطاعته في كل ما أمر، وأن كل ما عارض ذلك فهو باطل، وأن من قال: يجب تصديق ما أدركته بعقلي ورد ما جاء به الرسول لرأيي وعقلي، وتقديم عقلي على ما أخبر به الرسول مع تصديقي بأن الرسول صادق فيما أخبر به، فهو متناقض فاسد العقل ملحد في الشرع. وأما من قال لا أصدق ما أخبر به حتى أعلمه بعقلي فكفره ظاهر، وهو ممن قيل فيه: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣]. ومن عارض ما جاءت به الرسل برأيه فله نصيب من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ [غافر: ٣٤]. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ [غافر: ٥٦]. والسلطان هو الكتاب المنزل من السماء، فكل من عارض كتاب الله المنزل بغير كتاب الله الذي قد يكون ناسخًا له أو مفسرًا له كان قد جادل في آيات الله بغير سلطان أتاه. انتهى.

الوجه السابع والسبعون: جميع الأمم - أهل الأديان من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم حتى المشركين - متفقون على إثبات ربوبية الله، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الخالق لكل شيء، الرازق المدبر لكل شيء، وأئمتهم في هذا الأنبياء والمرسلون وأهل الهدى من العلماء الربانيين، أهل العلوم الغزيرة والعقول الوافية والمعارف الصافية، الأولين منهم والآخرين على هذا الأصل العظيم، متفقون على علم وبصيرة ويقين، قد اطمأنت قلوبهم بذلك وسكنت نفوسهم به وصار في قلوبهم أكبر الحقائق وأصحها وأوضحها.

وخالفهم من هذا شرذمة من زنادقة الدهريين الذين يقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وسلك سبيلهم زنادقة الماديين، وهم لم ينكروا ذلك عن علم دلهم عليه ولا سمع ولا عقل ولا فطرة، إنما هو مجرد استبعادات وجحود ومكابرات، ومع ذلك فأقوالهم فيما يثبتون من النظريات والقول في العلل غير متفقة، كل فريق بنظرياتهم الخاطئة فرحون، ولإخوانهم من الزنادقة معارضون، فدعهم في طغيانهم يعمهون، وفي اضطرابهم وتخالفهم يترددون، وفي غيهم وجهلهم وسفاهة عقولهم وما انتهت إليه معارفهم في هذا الأمر من المضحكات يمرحون، واحمد الله الذي عافاك من هذه البلية الشنعاء والطامة الكبرى، وقل معترفًا بنعمة الله متبجحًا بفضل الله: آمنت بما أنزل الله من كتبه السماوية، وآمنت بجميع الأنبياء والمرسلين، وشهدت بما شهد به لنفسه وشهد به خيار خلقه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

الوجه الثامن والسبعون: أن الله ضرب الأمثال في كتابه لتقرير التوحيد وتقرير الرسالة والمعاد وإبطال قول من ينفيها أو يقدح في شيء منها، والأمثال أقيسة عقلية تنبه العقول والفطر على تقرير الحق والاعتراف به وإبطال الباطل، وكلها تبطل أقوال المشركين والمكذبين للرسل من مشركين وملحدين ومنحرفين كقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]. وقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩]. إلى غير ذلك من الأمثلة المقررة لهذه الأصول العظيمة المبطلة لأقوال المبطلين والمعطلين، وكذلك ما ضربه الرسول محمد ﷺ من الأمثلة المقررة لأصول الدين.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: والكتاب والسنة يدل بالأخبار تارة ويدل بالبينة تارة

والإرشـاد والبيان للأدلة العقلية تارة، وخلاصة ما عند أرباب النظر العقلي في الإلهيات من الأدلة اليقينية والمعارف الإلهية قد جاء به الكتاب والسنة مع زيادات وتكميلات لم يهتد إليها إلا من هداه الله بخطابه. فكل ما قد جاء به الرسـول من الأدلة العقلية والمعارف اليقينية فوق ما في عقول جميع العقلاء من الأولين والآخرين. انتهى.

وقال أيضًا: معلوم بالسـمع اتصاف الله بالأفعال الاختيارية القائمة به: كالاسـتواء إلى السـماء وعلى العرش والقبض والطي والإتيان والمجيء والنزول، ونحو ذلك، بل والخلق والإحياء والإماتة، فإن الله وصف نفسه بالأفعال اللازمة والمتعدية والفعل المتعدي مستلزم للفعل اللازم، فإن الفعل لا بد له من فاعل، سواء كان متعديًا إلى مفعول أو لم يكن. والفاعل لا بد له من فعل سـواء كان فعله مقتصرًا عليه أو متعديًا إلى غيره، والفعل المتعدي إلى غيره لا يتعدى حتى يقوم بفاعله إذ كان لا بد من الفاعل، وهذا معلوم سـمعًا وعقلًا، والله تعالى حي قيوم لم يزل موصوفًا بأنه يتكلم بما شاء فعال لما يشاء. انتهى.

الوجه التاسـع والسـبعون: قـال اللـه تعالـى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]. وقـال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]. فأخبر أنه يقول الحق وهو الصـدق فيما أخبر به، والعدل فيما حكم به، وأنه يهدي السـبيل فيبين لعباده البراهين والأدلة الدالة على الحق، ويري العباد آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحـق، وما أخبر به من الحـق، ودل عليه بالبراهين من العلـوم النافعة والمعارف الصادقة مما يقرر به جميع الأصول التي هدى بها عباده على ألسـنة رسله، وما أجاب به كل مبطل أورد الشـبه على الحق - الجواب القاطع لشـبهته المبطل لحجته، فهو ظاهر واضح للعباد، وهو من الحقائق التـي لا يمكن تغييرها ولا تبديلها ولا قيام علم صحيح ينافيها. بل كل ما خالفها وناقضها علمنا بطلانه على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل.

أما على وجه الإجمال فالله يقـول الحق: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] فكل ما ناقض ذلك فهو باطل فماذا بعد الحق إلا الضلال.

وأما على وجه التفصيل فما يأتي المبطلون بمثل يقدحون فيه بالحق إلا أبطله الله وذكر من البراهين السمعية والعقلية ما يبطله. وقد تتبع العلماء الأعلام جميع ما أورده المبطلون مسألة مسألة فوضحوا بطلانها من جهة الدلالة الشرعية السمعية ومن جهة الدلالة العقلية، وتحدوا أهل الباطل تحديًا صحيحًا أنهم لا يأتون بمثل يقدحون فيه بالحق إلا أبطلوه بالبراهين اليقينية. والله أعلم.

الوجه الثمانون: قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وهذا برهان عقلي قاطع صوره الله لعقول العقلاء، وأنه يدل على ربوبية الله ووحدانيته وتوحده وتفرده بالتدبير، فإنه لو فرض معه إله آخر فإما أن يعارضه ويقاومه، وحينئذ فلا يخلو إما أن يحصل مراد أحدهما فيكون هو الرب، أو يمتنع مراد كل منهما وهو محال؛ لأنه يدل على عجز كل منهما، أو يوجد مراد الجميع وهذا محال؛ لأنه يقتضي عجز كل واحد منهما مع الانفراد لا مع الاجتماع؛ فتعين أن المنفرد بالوحدانية والخلق والتدبير هو الله الواحد القهار، فإذا كان ما ادعاه المشركون من مشاركة غير الله مع الله يقتضي في العقل المحال وخراب الوجود فكيف يكون حال الدهريين الماديين الذين يزعمون ويفترون أن الطبيعة هي التي أوجدت جميع الموجودات ذواتها وأفعالها وصورها، وهي مع ذلك لا حياة لها ولا علم ولا قدرة، هل فوق هذا المحال محال؟ وهل يتصور أبلغ من هذا الضلال؟

الوجه الحادي والثمانون: قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤]. ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]. فهاتان الآيتان العظيمتان، اللتان تجمعان آيات كثيرة وبراهين قاطعة، توصل إلى كمال العلم واليقين، وصحة ما جاء به الأنبياء والمرسلون، وتبطل كل شرك وإلحاد وجحود آياته المشهودة وآياته المسموعة، فمن تأمل هذه المخلوقات وما احتوت عليه من التدابير

الحكيمة، وتفكر في آيات الله القرآنية التي فصلها الله أحسن تفصيل، وأحكم فيها الأحكام وأصل الأصول المحكمة، وجعلها هداية عامة ورحمة شاملة، ودعوة إلى كل خير وصلاح، وسببًا إلى كل رشد وهدى وفلاح - علم علمًا لا يمترى فيه أن الذي دبر المخلوقات وفصل الآيات هو الرب العظيم، الذي تتضاءل عظمة المخلوقات بأسرها عند عظمته، وأنه المتوحد بالربوبية والإلهية وسائر صفات الكمال، وأن رسله صادقون مصدقون، وأن أعداء الرسل في مكابرة ومباهتات وعناد، وفي غي وجهل وضلال.

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]. على أحسن خلق خلق وأبدعه وأجمعه لجميع المحاسن وأدله على حكمة خالقه وعظمته وكبريائه ووحدانيته؟ فتبارك الله رب العالمين، وقد ألزم الله المكذبين وقررهم باعترافهم واعتراف الخلق كلهم بتفرد الله بالخلق والتدبير فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ إلى قوله ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣١ - ٣٥]. كما أخبر أن في إنزال القرآن يتلى عليهم كفاية تامة عن جميع البراهين، كفاية لتقدير الحق وإبطال كل باطل قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

الوجه الثاني والثمانون: نذكر كلامًا جامعًا مفصلًا يعترف به كل من له معقول صحيح في القول في المعقولات، قاله شيخ الإسلام، به يتضح غاية الاتضاح أن جميع الملحدين خرجوا عن العقليات الصحيحة، وأنه ليس معهم إلا مجرد دعاوى باطلة.

قال رحمه الله: المعقول هو المعقول الصريح الذي يعرفه الناس بفطرهم التي فطروا عليها، من غير أن يتلقاه بعضهم عن بعض، كما يعلمون تماثل المتماثلين واختلاف المختلفين، أعني اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد والتباين، فإن لفظ الاختلاف يراد به هذا وهذا، وهذه المعقولات في العلميات هي التي ذم الله من خالفها بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ

أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. وأما ما يسميه بعض الناس «معقولات» ويخالفه فيه كثير من العقلاء فليس هذا هو العقليات التي يجب لأجلها رد الحس والسمع وينبني عليه علوم بني آدم، بل المعقولات الصحيحة الدقيقة الخفية ترد إلى معقولات بديهية أولية، بخلاف العقليات الصريحة، فإن هذا معلوم بفطرة الله، فإذا جاء في الحس أو في الخبر الصحيح ما يظن أنه يخالف ذلك علم أنه غلط، فكل من أخبر بما يخالف صحيح المنقول أو صريح المعقول يعلم أنه وقع له غلط، وإن كان صادقًا فيما يشهده في الحس الباطن أو الظاهر، لكن الغلط وقع في ظنه الفاسد المخالف لصريح العقل لا في مجرد الحس، فإن الحس ليس فيه علم بنفي أو إثبات، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون، لا يقولون على الله إلا الحق. ولا ينقلون عنه إلا الصدق، فمن ادعى في أخبارهم ما يناقض صريح المعقول كان كاذبًا، بل لا بد أن يكون ذلك المعقول ليس بصريح أو ذلك المنقول غير صحيح، فما علم يقينًا أنهم أخبروا به يمتنع أن يكون في العقل ما يناقضه، وما علم يقينًا أن العقل حكم به يمتنع أن يكون في أخبارهم ما يناقضه. انتهى.

وهذا تفصيل عظيم يعترف به جميع أذكياء العقول المنصفين، ويتحدى به المؤمنون أهل العلم كل ملحد ومارق يزعم خلاف ذلك في جميع المسائل، وقد تكفل بهذا التحدي على وجه التفصيل هذا الشيخ الإمام في كتابه العقل والنقل وأبطل كل مسألة أصولية أو فروعية زعم بعض المتحذلقين مخالفتها للعقل، وبين أن العقل الصريح موافق للنقل الصحيح في جميع المسائل والدلائل، والحمد لله على شرعه الكامل وخلقه الحسن، فإنه تمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا، ومن أصدق من الله قيلًا، وأحسن منه حديثًا؟ ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون، الذي أحسن كل شيء خلقه، صنع الله الذي أتقن كل شيء.

الوجه الثالث والثمانون: قد تقرر مما تقدم أن أهل الجحود والإلحاد لم يصلوا في علومهم إلا إلى جهل مركب أو جهل بسيط أو جحود مع العناد، لأن رؤساءهم وأساطينهم، أهل الذكاء والفطنة الذين أفنوا أوقاتهم في هذه البحوث، لم يصلوا إلى يقين تطمئن له قلوبهم،

بل إما إلى حيرة وارتياب، وإما إلى اختلاف كثير واضطراب، وإما إلى مكابرة من هؤلاء الأحزاب، كما عرف ذلك من مقالاتهم. فإذا كان هؤلاء هم الرؤساء فكيف بمقلديهم الذين لم يبلغوا عشر معشارهم في الذكاء والفطنة والبحث؟ فهم كما قال عنهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ ﴾ [النور: ٣٩]. إلى آخر الآيات. والمؤمنون بالله وكتبه ورسله على نور من ربهم ويقين من إيمانهم، حيث بنوا علومهم ومعارفهم وإيمانهم وأعمالهم على الأصول الصحيحة الثابتة، وهي نصوص الكتب المنزلة من السماء ونصوص الأنبياء وآيات الله في الأنفس والآفاق والعقول السليمة والفطر المستقيمة، ففازوا بخير الدنيا والآخرة، ورجع الآخرون بالصفقة الخاسرة؛ فنسأل الله الرب الكريم أن يرزقنا علمًا ويقينًا وإيمانًا وطمأنينة به وبذكره، وسلوكًا للصراط المستقيم المشتمل على العلم بالحق والعمل به، الموصل إلى كل خير وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، ونسأله ونرجوه أن ينصر دينه وكتابه ورسله وعباده المؤمنين، وأن يصلي على رسوله محمد ﷺ أفضل صلاة وأزكاها وأتمها، ويسلم عليه تسليمًا كثيرًا هو وجميع الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم من طبقات المؤمنين. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتحصل البركات.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وذلك في ١٤ رجب سنة ١٣٧٢هـ.

وتم نقله من خط المؤلف الشيخ عبد الرحمن في ٦ رمضان سنة ١٣٧٢هـ، بقلم الفقير إلى الله عبد الله بن سليمان العبد الله السلمان غفر الله له ولوالديه.



النصيحة الربانية

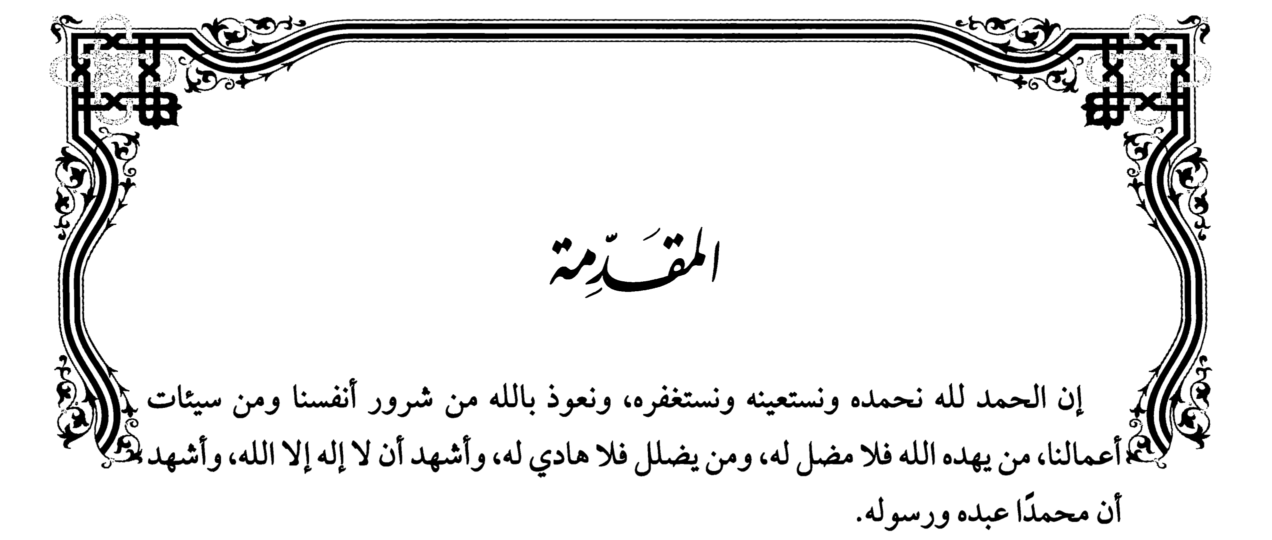
في الرد على

المغترين بدعاة الإلحاد والمدنية الغربية

(انتصار الحق)

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

تم الاعتماد في تحقيق هذا الكتاب على عدة طبعات
أبرزها نشرة الدكتور
عبد الله الطيـــار



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

هذه صورة محاورة بين رجلين كانا متصاحبين رفيقين مسلمين، يدينان بالدين الحق، ويشتغلان في طلب العلم جميعًا.

فغاب أحدهما عن صاحبه مدة طويلة ثم التقيا، فإذا هذا الغائب قد تغيرت أحواله وتبدلت أخلاقه، فسأله صاحبه عن ذلك؟

فإذا هو قد تغلبت عليه دعاية الملحدين الذين يدعون لنبذ الدين ورفض ما جاء به المرسلون. فحايله صاحبه وقلبه لعله يرجع عن هذا الانقلاب الغريب فأعيته الحيلة في ذلك، وعرف أن ذلك علة عظيمة ومرض يفتقر إلى استئصال الداء ومعالجته بأنفع الدواء.

وعرف أن ذلك متوقف على معرفة الأسباب التي حولته والطرق التي أوصلته إلى هذه الحالة المخيفة وإلى فحصها وتمحيصها وتخليصها وتوضيحها، ومقابلتها بما يضادها ويقمعها على وجه الحكمة والسداد.

الاحتجاج على الدين بتفريط المسلمين ظلم مبين:

- فقال لصاحبه مستكشفًا له عن الحامل له على ذلك:
- يا أخي، ما هذه الأسباب التي حملتك على ما أرى؟

- وما الذي دعاك إلى نبذ ما كنت عليه؟

فإن كان خيرًا كنت أنا وأنت شريكين، وإن كان غير ذلك فأعرف من عقلك ودينك وأدبك أنني وأنك لا ترضى أن تقيم على ما يضرك.

- فأجابه صاحبه قائلًا:

لا أكتمك أني قد رأيت المسلمين على حالة لا يرضاها ذوو الهمم العلية؛ رأيتهم في جهل وذل وخمول!

وأمورهم مدبرة وأحوالهم سيئة وأخلاقهم منحلة!

وقد فقدوا روح الدين والدنيا جميعًا!!

ورأيت في الجانب الآخر هؤلاء الأجانب قد ترقوا في هذه الحياة وتفننوا في الفنون الراقية والمخترعات العجيبة المدهشة والصناعات المتفوقة.

فرأيتهم قد دانت لهم الأمم، وخضعت لهم الرقاب، وصاروا يتحكمون في الأمم الضعيفة بما شاءوا ويعدونهم كالعبيد والأجراء.

فرأيت فيهم العز الذي بهرني، والتفنن الذي أدهشني.

فقلت في نفسي: لولا أن هؤلاء القوم هم القوم وأنهم على الحق والمسلمون على الباطل لما كانوا على هذا الوصف الذي ذكرت لك. فرأيت أن سلوكي سبيلهم واقتدائي بهم خير لي وأحسن عاقبة فهذا الذي صيرني إلى ما رأيت!!

- فقال له صاحبه حين أبدى ما كان خافيًا:

إذا كان هذا هو السبب الذي حولك إلى ما أرى فهذا ليس من الأسباب التي يبني عليها أولو الألباب والعقول عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم ومستقبل أمرهم.

فاسمع يا صديقي تمحيص هذا الأمر الذي غرك وحقيقته:

إن تأخر المسلمين فيما ذكرت ليس ناشئًا عن دينهم، فإنه قد علم كل من له أدنى نظر وبصيرة أن دين الإسلام يدعو إلى الصلاح والإصلاح، في أمور الدين وفي أمور الدنيا، ويحث على الاستعداد، من تعلم العلوم والفنون النافعة.

ويدعو إلى تقوية القوة المعنوية والمادية لمقاومة الأعداء، والسلامة من شرهم وأضرارهم، ولم يستفد أحد منفعة دنيوية فضلًا عن المنافع الدينية إلا من هذا الدين.

وهذه تعاليمه وإرشاداته قائمة لدينا تنادي أهلها: هلم إلى الاشتغال بجميع الأسباب النافعة التي تعليكم وترقيكم في دينكم ودنياكم.

أفبتفريط المسلمين تحتج على الدين؟!... إن هذا لهو الظلم المبين!

أليس من قصور النظر ومن الهوى والتعصب النظر في أحوال المسلمين في هذه الأوقات التي تدهورت فيها علومهم وأعمالهم وأخلاقهم، وفقدوا فيها جميع مقومات دينهم، وترك النظر إليهم في زهرة الإسلام والدين في الصدر الأول، حيث كانوا قائمين بالدين، مستقيمين على الدين، سالكين كل طريق يدعو إليه الدين، فارتقت أخلاقهم وأعمالهم حتى بلغت مبلغًا ما وصل إليه ولن يصل إليه أحد من الأولين والآخرين، ودانت لهم الدنيا من مشارقها إلى مغاربها وخضعت لهم أقوى الأمم وذلك بالدين الحق والعدل والحكمة والرحمة، وبالأوصاف الجميلة التي كانوا عليها؟!

أليس ضعف المسلمين في هذه الأوقات يوجب لأهل البصائر والنجدة منهم أن يكون جدهم ونشاطهم وجهادهم الأكبر متضاعفًا، ويقوموا بكل ما في وسعهم لينالوا المقامات الشامخة ولينجوا من الهوة العميقة التي وقعوا فيها؟

أليس هذا من أفرض الفرائض وألزم اللازمات في هذه الحال؟ فالجهاد في حال قوة المسلمين وكثرة المشاركين فيه له فضل عظيم يفوق سائر العبادات، فكيف إذا كانوا على هذه الحالة التي وصفت؟ فإن الجهاد لا يمكن التعبير عن فضائله وثمراته.

ففي هذه الحال يكون الجهاد على قسمين:

أحدهما: السعي في تقويم المسلمين وإيقاظ هممهم وبعث عزائمهم وتعليمهم العلوم النافعة، وتهذيبهم بالأخلاق الراقية، وهذا أشق الأمرين وهو أنفعهما وأفضلهما.

والثاني: السعي في مقاومة الأعداء وإعداد جميع العدد القولية والفعلية والسياسية، الداخلية والخارجية، لمناوأتهم والسلامة من شرهم!

أفحين صار الأمر على هذا الوصف الذي ذكرت، وصار الموقف حرجًا تتخلى عن إخوانك المسلمين وتتخلف مع الجبناء والمخالفين؟

فكيف مع ذلك تنضم إلى حزب المحاربين؟!

الله الله يا أخي، لا تكن أقل ممن قيل فيهم: ﴿تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

قاتلوا لأجل دينكم أو ادفعوا لأجل قومكم ووطنكم!

لا تكن مثل هؤلاء المنافقين.

فأعيذك يا أخي من هذه الحال التي لا يرضاها أهل الديانات ولا أهل النجدات والمروءات.

فهل ترضى أن تشارك قومك في حال عزهم وقوة عددهم وعنصرهم، وتفارقهم في حال ذلهم ومصائبهم، وتخذلهم في وقت اشتدت فيه الضرورة إلى نصرة الأولياء ورد عدوان الأعداء؟

فهل رأيت قومًا خيرًا من قومك أو شاهدت دينًا أفضل من دينك؟

حضارة ظاهرها مزخرف مزوق وباطنها خراب:

فقال المنصوح:

الأمر هو ما ذكرت لك، ونفسي تتوق إلى أولئك الأقوام الذين أتقنوا الفنون والصناعات، وترقوا في هذه الحياة!

قال له صاحبه وهو يحاوره:

رفضت دينًا قيمًا كامل القواعد ثابت الأركان مشرق البرهان، يدعو إلى كل خير ويحث على السعادة والفلاح، ويقول لأهله هلم إلى كل صلاح وإصلاح، وإلى كل خير ونجاح، واسلكوا كل طريق يوصلكم إلى السعادة الدنيوية والأخروية.

دينا مبنيًّا على الحضارة الراقية الصحيحة التي بنيت على العدل والتوحيد، وأسست على الرحمة والحكمة والعلم والشفقة وأداء الحقوق الواجبة والمستحبة.

وسلمت من الظلم والجشع والأخلاق السافلة.

وشملت بظلها الظليل وإحسانها الطويل وخيرها الشامل، وبهائها الكامل، ما بين المشارق والمغارب، وأقر بذلك الموافق والمنصف المخالف.

أتتركها راغبًا في حضارات ومدنيات مبنية على الكفر والإلحاد، مؤسسة على الطمع والجشع والقسوة وظلم العباد، فاقدة لروح الإيمان ورحمته، عادمة لنور العلم وحكمته؟!

حضارة ظاهرها مزخرف مزوق، وباطنها خراب، وتظنها تعمر الوجود، وهي في الحقيقة مآلها الهلاك، والتدمير؟

ألم تر آثارها في هذه الأوقات، وما احتوت عليه من الآفات والويلات، وما جلبته للخلائق من الهلاك والفناء والتدمير؟

فهل سمع الخلق منذ أوجدهم الله لهذه المجازر البشرية التي انتهى إليها شوط هذه الحضارة نظيرًا أو مثيلًا؟

فهل أغنت عنهم مدنيتهم وحضارتهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما

زادتهم غير تتبيب؟

فلا يخدعنك ما ترى من المناظر المزخرفة والأقوال المموهة، والدعاوى الطويلة العريضة، وانظر إلى بواطن الأمور وحقائقها، ولا تغرنك ظواهرها!

وتأمل النتائج الوخيمة، والثمرات الذميمة فهل أسعدتهم هذه الحضارة في دنياهم التي لا حياة لهم يرجون غيرها؟!

أما تراهم يتنقلون من شر إلى شرور؟! ولا يسكنون في وقت إلا وهم يتحفزون إلى شرور فظيعة ومجازر عظيمة؟

فالقوة والمدنية والحضارة والمادة بأنواعها إذا خلت من الدين الحق فهذه طبيعتها وهذه ثمراتها وويلاتها ليس لها أصول وقواعد نافعة، ولا لها غايات صالحة.

ثم هب أنهم متعوا في حياتهم واستدرجوا فيها بالعز والرياسة ومظاهر القوة والحياة، فهل إذا انحزت إليهم وواليتهم يشركونك في حياتهم ويجعلونك كأبناء قومهم؟

كلا والله، إنهم إذا رضوا عنك جعلوك من أرذل خدامهم!

وآية ذلك أنك في ليلك ونهارك تكدح في خدمتهم، وتتكلم وتجادل وتخاصم على حسابهم، ولم ترهم رفعوك حتى ساووا معك أدنى قومهم وبني جنسهم!!

فالله الله يا أخي في دينك وفي مروءتك وأخلاقك وأدبك!!

والله الله في بقية رمقك!!

فالانضمام إلى هؤلاء- والله – هو الهلاك!

الرفقة الصالحة وخطر البعد عنها:

فقال له المنصوح:

لقد صدقت فيما قلت، ولكن لي على هذا المذهب أصحاب مثقفون... ولي

على هذا الرأي شبيبة مهذبون، قد تعاقدت معهم على التمسك بالإلحاد واحتقار المستمسكين بدين رب العباد، قد أخذنا نصيبًا وافرًا من اللذات، واستبحنا ما تدعو إليه النفوس من أصناف الشهوات فأنى لي بمقاطعة هؤلاء السادة الغرر؟

وكيف لي بمباينتهم وقد اتصلت بهم غاية الاتصال؟!

فالآن يتنازعني داعيان:

داعي الحق بعدما بان سبيله واتضح دليله.

وداعي النفس والاتصال بهؤلاء الأصحاب المنافي للحق غاية المنافاة. فكيف الطريق الذي يريحني ويشفيني؟

وما الذي عن هذا الأمر يسليني؟

فقال له صاحبه الناصح:

ألم تعلم أن من أوجب الواجبات وأكبر فضائل الرجل اللبيب أن يتبع الحق الذي تبين له ويدع ما هو فيه من الباطل، وخصوصًا عند المنازعات النفسية والأغراض الدنيوية؟ وأن الموفق، إذا وقع في المهالك، طلب الوسيلة إلى تحصيل الأسباب المنجية؟

أما علمت أن من نعمة الله على العبد أن يقيض له الناصحين الذين يرشدونه إلى الخير ويأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر ويسعون في سعادته وفلاحه؟

ثم من تمام هذه النعمة أن يوفق لطاعتهم ولا يتشبه بمن قال الله فيهم: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

ثم اعلم أنه ربما كان الإنسان إذا ذاق مذهب المنحرفين وشاهد ما فيه من الغي والضلال ثم تراجع إلى الحق، الذي هو حبيب القلوب، كان أعظم لوقعه وأكبر لنفعه!

فارجع إلى الحق صادقًا وثق بوعد الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

مقارنة بين حال الملحدين وحال المؤمنين:

فقال المنصوح:

لا يخفى عليك يا أخي أن الباطل إذا دخل في القلوب وتمكن منها لا يخرج بسهولة، فأريد أن توضح لي توضيحًا تامًّا بطلان ما عليه هؤلاء الملحدون، فإنهم يقيمون الشبه المتنوعة في ترويج قولهم ليغتر به من لا بصيرة له!

- فقال له الناصح:

اعلم أن الحق والباطل متقابلان، وأن الخير والشر متنافيان.

وبمعرفة واحد من الضدين يظهر حسن الآخر أو قبحه.

فأنبئك على وجه الإجمال والتنبيه اللطيف:

إذا أردت أن تقابل بين الأشياء والمتباينات فانظر إلى أساسها الذي أسست عليه، وإلى قواعدها التي انبنت عليها.

وانظر إلى آثارها ونتائجها وثمراتها المتفرعة عنها.

وانظر إلى أدلتها وبراهينها التي بها ثبتت، وانظر إلى ما تحتوي وتشتمل عليه من الصلاح والمنافع ومن المفاسد والمضار.

فعند ذلك إذا نظرت لهذه الأمور بفهم صحيح وعقل رجيح، ظهر لك الأمر عيانًا.

فإذا عرفت هذه الأصول فهذا الدين الحق الذي دعت إليه الرسل عمومًا وخاتمهم وإمامهم محمد ﷺ خصوصًا، قد بني وأسس على التوحيد والتأله لله وحده، لا شريك له حُبًّا وخوفًا ورجاء وإخلاصًا وانقيادًا وإذعانًا لربوبيته واستسلامًا لعبوديته.

قد دل على هذا الأصل الذي هو أكبر جميع أصول الأدلة العقلية والفطرية.

ودلت عليه جميع الكتب السماوية، وقرره جميع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من أهل

العلوم الراسخة والألباب الرزينة والأخلاق العالية والآداب السامية.

كل أولئك اتفقوا على:

أن الله منفرد بالوحدانية منعوت بكل صفة كمال، موصوف بغاية الجلال والعظمة والكبرياء والجمال.

وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وأنه منزه عن كل صفة نقص، وعن مماثلة المخلوقين.

وأنه لا يستحق العبادة والحمد والثناء والشكر إلا هو.

فالدين الإسلامي على هذا الأصل أسس وعليه قام واستقام.

وأما ما عليه أهل الإلحاد فإنه ينافي هذا الأصل غاية المنافاة.

فإنه مبني على إنكار البارئ رأسًا، فضلًا عن الاعتراف له بالكمال وعن القيام بأوجب الواجبات وأفرض الفروض وهو عبوديته وحده لا شريك له.

فأهل هذا المذهب أعظم الخلق مكابرة وإنكارًا لأظهر الأشياء وأوضحها فمن أنكر الله فبأي شيء يعترف؟ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

وهؤلاء أبعد الناس عن عبودية الله والإنابة إليه، وعن التخلق بالأخلاق الفاضلة التي تدعو إليها الشرائع، وتخضع لها العقول الصحيحة.

ومع خلو قلوبهم من توحيد الله والإيمان به وتوابع ذلك فهم أجهل الناس، وأقلهم بصيرة ومعرفة بشريعة الإسلام وأصول الدين وفروعه، فتجدهم يكتبون ويتكلمون ويدعون لأنفسهم من العلم والمعرفة والثقافة واليقين ما لا يصل إليه أكابر العلماء، ولو طلب من أحدهم أن يتكلم عن أصل من أصول الدين العظيمة الذي لا يسع أحدًا جهله، أو على حكم من الأحكام في العبادات والمعاملات والأنكحة لظهر عجزه ولم يصل إلى ما وصل إليه كثير من صغار طلبة العلم الشرعي.

فكيف يثق العاقل - فضلًا عن المؤمن - بأقوالهم عن الدين؟ فأقوالهم في مسائل الدين لا قيمة لها أصلًا.

ولو سبرت حاصل ما عليه رؤساؤهم لرأيتهم قد اشتغلوا بشيء يسير من علوم العربية، وترددوا في قراءة الصحف التي على مشربهم، وتمرنوا على الكلام الذي من جنس أساليب كثير من هذه الصحف الرديئة الساقطة فظنوا بأنفسهم وظن بهم أتباعهم الاضطلاع بالمعارف والعلوم.. فهذا أسمى ما يصلون إليه في العلم.

أما الأخلاق:

فلا تسأل عن أخلاق من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يعتقد الأديان الصحيحة.

فإن الأخلاق نتائج الاعتقادات الصحيحة والفاسدة، فغاية ما عند هؤلاء التملق القولي والفعلي، والخضوع الكاذب للمخلوقين.

وهم مع هذا الخضوع السافل تجد عندهم من العجب والكبر واحتقار الخلق والاستنكاف عن مخالطة من يستنقصونهم شيئًا كثيرًا، فهم أوضع خلق الله وأعظمهم كبرًا وتيهًا.

ثم إنهم يستعينون على هذا الخلق المسمى عندهم بالثقافة، بالتصنع، والتجمل بالملابس، والفرش، والزخارف، ويفنون كثيرًا من أوقاتهم بذلك وقلوبهم خراب خالية من الهدى والأخلاق الجميلة، فالجمال الظاهر الباطل ماذا يغني عن الجمال الحقيقي؟

ثم إذا لحظت إلى غاياتهم ومقاصدهم فإذا هي أغراض دنية ومقاصد سفلية ومطامع شخصية.

وإذا سبرت أحوالهم رأيتهم إذا اجتمعوا تظنهم أصدقاء مجتمعين فإذا افترقوا فهم الأعداء: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

وما وصفت لك من أحوالهم - وأنت تعرف ذلك - قليل من كثير.

فكيف ترضى أن يكون هؤلاء أحبابك وأصدقاءك ترضى لرضاهم وتسخط لسخطهم، وتقدمهم على حظوظك الحقيقية وسعادتك الأبدية؟

فانظر إلى صفاتهم نظر التحقيق والإنصاف، وقارن بينها وبين نعوت البررة الأخيار الذين امتلأت قلوبهم من محبة الله والإنابة إليه والإيمان وإخلاص العمل لأجله، وفاضت ألسنتهم بذكر الله والثناء عليه. واشتغلت جوارحهم في كل وسيلة تقربهم إلى الله وتدنيهم من رضوانه وثوابه ونفع الخلق.

أشجع الناس قلوبًا وأصدقهم قولًا وأطهرهم أخلاقًا وأزكاهم عملًا وأقربهم إلى كل خير وأبعدهم من كل شر.

يكفون عن الخلق الأذى ويبذلون لهم ويصبرون منهم على الأذى، أفتقدم على هؤلاء الأنجاب الغرر من ملئت قلوبهم من الشك والنفاق وفاضت على ظاهرهم، فاكتسبوا لذلك أرذل الأخلاق؟

يقومون بالنفاق والرياء ويقعدون بالتملق والإعجاب والكبرياء، وصفهم القسوة والطمع والجشع.

ونعتهم الكذب والغش والبهرجة والخنوع.

قد منعوا إحسانهم كل مخلوق واتصفوا بكل فسوق.

قد خضعوا في بحوثهم العلمية لكل مارق.

وتبعوا في أخلاقهم كل رذيل وفاسق.

الطريق للسعادة الدنيوية والأخروية:

قال المنصوح:

والله ما تعديت في وصفهم مثقال ذرة، ولكني أريد أن تدلني على طريق يجمع بين

السعادة الدنيوية والسعادة الأخروية؛ لأن نفوس من تربى وتخلق بأخلاق هؤلاء لا ترجع عما ألفته إلا بأمر قوي، إما بترغيب وهوى يجذبها، وإما بترهيب وخوف يقمعها.

فقال له صاحبه الناصح:

والله لقد أدركت في هذا الدين مطلوبك، وفيه والله كل مرادك ومرغوبك، فإنه الدين الذي جمع بين سعادة الدنيا والآخرة، وفيه اللذات القلبية والروحية والجسدية، ولا تفقد من مطالب النفوس الحقيقية شيئًا إلا أدركته، ولا من أنواع المسرات شيئًا إلا حصلته، ففيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وسأوضح لك ذلك:

فاعلم أن أصول اللذات المطلوبة هي:

أولًا: راحة القلوب وسكونها وطمأنينتها، وفرحها وبهجتها وزوال همومها وغمومها.

ثانيًا: القناعة والطمأنينة بما أوتيه العبد من المطالب الجسدية.

ثالثًا: استعمال ذلك على وجه يحصل به السرور والاغتباط.

فهذه الأمور الثلاثة، من رزقها واستعملها على وجهها فقد نال كل ما تعلق به طمع الطامعين، فإن جميع اللذات ترجع إلى ما ذكرنا.

فأما لذات القلوب وحصول سرورها وزوال كدرها:

فإنما أصل ذلك بالإيمان التام بما دعا الله عباده إلى الإيمان به.

من الإيمان بتوحده بجميع نعوت الكمال وامتلاء القلب من تعظيمه وإجلاله ومن التأله له وعبوديته.

والإنابة إليه وإخلاص العمل الظاهر والباطن لوجهه الأعلى.

وما يتبع ذلك من النصح لعباد الله ومحبة الخير لهم وبذل المقدور من نفعهم والإحسان إليهم.

والإكثار من ذكر الله والاستغفار والتوبة.

فمن أوتي هذه الأمور فقد حصل لقلبه من الهداية والرحمة والنور والسرور وزوال الأكدار والهموم والغموم ما هو نموذج من نعيم الآخرة.

وأهل هذا الشأن لا يغبطون أرباب الدنيا والملوك على لذاتهم ورياساتهم بل يرون ما أعطوه من هذه الأمور يفوق ما أعطيه هؤلاء بأضعاف مضاعفة.

وهذا النعيم القلبي لا يعرفه حق المعرفة إلا من ذاقه وجربه فإنه كما قيل:

من ذاق طعم نعيم القوم يدريه ومن دراه غـدًا بالروح يشريه

فهذه إشارة لطريق هذا النعيم القلبي الذي هو أصل كل نعيم.

وأما الأمر الثاني:

فإن الله أعطى العباد القوة والصحة وما يتبع ذلك من مال وأهل وولد وحول وغيرها.

والناس بالنسبة لهذه الأشياء نوعان:

قسم صارت هذه النعم في حقهم محنا ونقما.

وقسم صار في حقهم نهما وخيرات ومنحا.

أما أهل الدين الحقيقي فقد قابلوا هذه النعم وتلقوها على وجه الشكر لله والاغتباط بفضله وتناولوها على وجه الاستعانة بها على طاعة المنعم.

وعلموا أنها من أكبر الوسائل لهم إلى رضا ربهم وخيره وثوابه إذا استعملوها فيما هيئت له وخلقت لأجله.

وقد رضوا بها عن الله كل الرضا؛ فإنهم علموا أنها من عند الله الذي له الحكمة التامة في جميع أقضيته وأقداره، وله الرحمة الواسعة في جميع تدابيره، وله النعمة السابغة في كل عطاياه وهو أرحم بهم من الخلق أجمعين.

فحيث علموا العلم اليقيني صدورها ممن هذا شأنه قنعوا بما أعطوه منها، من قليل وكثير كل القناعة، وسكنت قلوبهم عن التطلع والتطلب لما لم يقدر لهم.

ومتى حصلت الطمأنينة والقناعة والرضا عن الله بما أعطى فقد حصلت الحياة الطيبة.

فإذا أدركت حق الإدراك نعتهم هذا عرفت أن نعيم الدنيا في الحقيقة هو نعيم القناعة برزق الله، وطمأنينة القلوب بذكر الله وطاعته.

وأن الواحد من هؤلاء لو لم يكن عنده من هذه الأمور - وهي القوة والصحة والمال والأهل والولد وتوابع ذلك - إلا الشيء القليل لكان في راحة وسرور من جهتين:

جهة القناعة وعدم تطلع النفس وتشوفها للأمور التي لم تحصل.

وجهة ما ترجوه من ثواب الله العاجل والآجل على هذه العبادة القلبية التي تزيد على كثير من العبادات البدنية.

فإن التعبد لله بمعرفة نعمه والاعتراف بها والرضا بها والرجاء لله أن يديمها ويتمها وأن يجعلها وسيلة إلى نعم أخرى وأن يجعلها طريقًا للسعادة الأبدية لا ريب أن هذه الأحوال القلبية من أفضل الطاعات وأجل القربات، فكم من فرق بين سرور هذا الذي تعبد بروح الدين وحصلت له الحياة الطيبة، وبين من تلقى هذه النعم بالغفلة وعدم الاعتراف بنعمة المنعم وشقي بهمومها وغمومها، وكان إذا حصل له شيء من مطالب النفوس لم يرض به بل تشوف إلى غيره وتطلع لسواه فهذا يتنقل من كدر إلى كدر آخر؛ لأن قلبه قد تعلق تعلقًا شديدًا بمطالب الجسد، فحيث جاءت على خلاف ما يؤمله ويريده قلق أشد القلق، وهو لا يزال في قلق مستمر، لأن المطالب النفسية متنوعة جدًّا، فلو وافقه واحد لم يوافقه الآخر.

وربما اجتمع في الشيء الواحد سرور من وجه، وحزن من وجه آخر، فصفوه ممزوج بكدره، وسروره مختلط بحزنه، فأين الحياة الطيبة لهذا؟! وإنما الحياة الطيبة لأرباب البصائر والحجا الذين يتلقونها كلها بالقبول والقناعة والرضا.

وأما الأمر الثالث، وهو جهة استعمال هذه النعم:

فصاحب الدين الصحيح:

يتناولها على وجه الشكر لله على نعمه والفرح بفضله.

وينوي بها التقوي على ما خلق له من عبادة الله وطاعته.

وينفقها محتسبًا بها رضا الله وفضله وخلفه العاجل والآجل.

ويعلم أنه إذا أنفق على نفسه وأهله أو ولده أو من يتصل به فإنما نفقته صادفت محلها ووقعت موقعها.

فلم يتثاقل كثرة النفقة في هذا الطريق لأنه يقول معتقدًا: هذا أولى ما بذلت فيه مالي، وهذا ألزم ما قمت به من الواجبات والفروض، وهذا خير ما قمت به من المستحبات، وهذا أعظم ما أرجو له الخلف من الله حيث يقول وهو الكريم الوفي: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

ولا يزال نصب عينيه احتساب الأجر في سعيه بكسبه، وفي مصرفه أجناس ذلك وأنواعه وأفراده متفطنًا لقوله ﷺ: «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعله في في امرأتك**»[1].

فمن كان هذا وصفه فإن لذاته الدنيوية هي اللذات الحقيقية السالمة من الأكدار مما يرجو من الثواب العاجل والآجل من الله.

ومن كانت هذه صفته سهل عليه الأخذ من حلها ووضعها في محلها، ويسرت له أموره غاية التيسير.

وأما من استعمل هذه النعم على وجه الشره والغفلة، ولم يفكر في الاعتراف بفضل الله

(١) البخاري (٥٦)، ومسلم (١٦٢٨).

في كل الأوقات وبنعم الله، ولم يفرح بالنعم لأنها من فضل الله بل فرح بها فقط لموافقة غرضه النفسي ولا نوى بها الاستعانة على طاعة الله، ولا احتسب في نيلها وصرفها على المنفق عليهم الأجر والثواب.

فمن كان هذا وصفه فإن الكدر والحزن له بالمرصاد!

فإنه إذا فاتته بعض الشهوات النفسية حزن!

وإن أدرك ما أدركه منها ولم يكن على ما في خاطره من كل وجه حزن! وإن أراد منه ولده ومن يتصل به نفقة أو كسوة واجبة أو مستحبة حزن، ولم تخرج منه إلا بشق الأنفس!

وإن خرجت منه خرج معها بضعة من سرور قلبه، لأنه يحب بقاء ماله ويحزن لنقصه على أي وجه كان، وليس عنده من الاحتساب ما يهون عليه الأمر!

هذا إن كان غير بخيل، فإن كان شحيح النفس مطبوعًا على البخل فإن حياته مع أولاده وأهله والمتصلين به حياة شقاء وعذاب وأكدار متواصلة وأحزان مستمرة.

لا إيمان عنده يهون عليه النفقات، ولا نفس سخية لا تستعصي عن نيل المكرمات فيا له من عذاب حاضر وعذاب مستمر.

فأين هذا من ذاك الذي حصلت له الحياة الطيبة بأكملها؟

هذا كله بالنظر إلى هذه الأمور الثلاثة التي هي أصل اللذات عند العقلاء، قد اتضح لنا أن صاحب الإيمان الصحيح هو الذي فاز باللذات الحقيقية وسلم من المكدرات.

مقارنة بين حال المؤمن وغير المؤمن عند المصائب:

ثم إذا عطفنا النظر إلى الطوارئ البشرية التي لا بد لكل عبد منها، وهي المصيبات التي تعتري العباد: من الأمراض المتنوعة وموت الأحبة وفقد الأموال ونقصها ووقوع المكاره بمن تحب وزوال المحاب، وغيرها من أنواع المصائب، دقيقها وجليلها.

رأيت المؤمن حقًّا قد تلقاها بقوة وصبر واحتساب، وقد قام لها بارتقاب الأجر والثواب، وعلم أنها تقدير العزيز العليم، وأنها أقضيته صدرت من الرب الرحيم، فهان عليه أمرها وخفت عليه وطأتها.

فإنه إذا فكر فيما فيها من الآلام الشاقة قابلها بما تتضمنه من تكفير السيئات وتكثير الحسنات ورفعة الدرجات والتخلق بأخلاق الكرام والقوة والشجاعة، وإذا أنهكت بدنه وماله رآها مصلحة لقلبه وروحه، فإن صلاح القلوب بالشكر لله على نعمائه والصبر على بلائه، وانتظار الفرج من الله إذا ألمت الملمات، واللجوء إلى الله عند جميع المزعجات المقلقات.

فأقل الأحوال عند هذا المؤمن أن تتقابل عنده المصائب والمحاب والأفراح والأتراح.

وقد تصل الحال بخواص المؤمنين إلى أن أفراحهم ومسراتهم عند المصيبات تزيد على ما يحصل فيها من الحزن والكدر الذي جبلت عليه النفوس.

فأين هذه الحال من حال من تلقى المصيبات التي لا بد للخلق منها بقلب منزعج مرعوب وخشعت نفسه المهينة لما فيها من الشدائد والكروب، فبقيت الحسرات تنتاب قلبه وروحه، وزادت مصائب قلبه على مصائب بدنه؟

ليس عنده من الصبر وارتقاب الثواب ما يخفف عنه الأحزان، ولا من الإيمان ما يهون عنه الأشجان، تعتريه المصائب فلا تجد عنده ما يخففها، فتعمل عملها في قلبه وروحه وبدنه وأحواله كلها.

القلب مليء من الهم والغم والألم، والخوف السابق واللاحق قد ملأ نفسه فانحل لذلك لبه وانحطم، وقد ضعف توكله على الله غاية الضعف، حتى صار قلبه يتعلق بمن يرجو نفعه من المخلوقين!!

فيا لها من مصائب دنيوية اتصلت بالمصائب الدينية والخلقية وتراكم بعضها فوق بعض

حتى صار عنده أعظم من الجبال الرواسي.

فوالله لو علم أهل البلاء والمصائب بما في الإيمان والروح من التسلية والحياة الطيبة لسارعوا إليه، ولو في هذه الحال التي هم فيه مضطرون إلى ما يخفف عنهم آلامهم، ولا يجدونه إلا في الإيمان الصحيح الحقيقي وما يدعو إليه.

حال المؤمن وغير المؤمن في معاشرة الخلق:

ومما يتعلق به سرور الحياة، ونعيمها، أو همها وغمها، معاشرة الخلق على اختلاف طبقاتهم.

فمن عاشرهم بما يدعو إليه الدين استراح.

ومن عاشرهم بحسب ما تدعو إليه الأغراض النفسية، فلا بد أن يكون عيشه كدرًا، وحياته منغصة.

وتوضيح ذلك أن:

الناس ثلاثة أصناف: رئيس، ومرءوس، ونظير.

أما من له رياسة حكم، أو ثروة، وله أتباع وحاشية.

فله معهم حالان:

حالة فيما يفعله معهم.

وحالة فيما يصيبه من أتباعه من خير وشر، وموافق للطبع ومخالف له.

فإن هو حكَّم الدين والشرع في الحالتين استراح، وله أجر من الله، إذا استعمل العدل معهم، واستعمل النصح والإحسان، وقابل المسيء منهم بالعفو، وشكرهم على فعل المعروف والخير، مبتغيًا بذلك وجه الله، وأيضًا فإنه إذا تأمل فيما فعله من خير اطمأنت نفسه وانشرح صدره.

فأين هذا من الرئيس الذي لا يبالي بظلم الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ولا يبالي بسلوك طرق العدل والإنصاف، وليس له صبر على أية أذية تصيبه من رعيته؟

فهو مع أتباعه في نكد مستمر، ورعيته قد ملئت قلوبهم من مقته وبغضه، يتربصون به الدوائر والفرص، حتى إذا وقع في أقل شيء أعانوا عليه أعدى أعدائهم، فهو معهم غير مطمئن على حياته ولا على نعمته، لا يدري متى تفجؤه البلايا، ليلًا أو نهارًا!

هذه حالة الرئيس على وجه الإجمال.

وأما حالة المرءوس:

فإن أطاع الدين في وظيفته وأطاع حاكمه أو سيده، أو والده، واستعمل الآداب الشرعية في معاملته، والأخلاق المرضية، فهو مع طاعته لله ولرسوله قد استراح وأراح، وطابت عنه نفس رئيسه، وأمن عقوبته، وأمل إحسانه وبره ومحبته.

وأما من تعدى طوره، وعصى متبوعه والتوى، فإنه لا يزال متوقعًا لأنواع المضار، يمشي خائفًا وجلًا لا يقر له قرار، ولا يستريح له خاطر.

وأما حالة النظير المساوي:

فإن جمهور من تعاشرهم من الخلق إذا خالقتهم بالخلق الحسن، اطمأنت نفسك، وزالت عنك الهموم، لأنك تكتسب بذلك مودتهم، وتخمد عداوتهم، مع ما ترجوه من عظيم ثواب الله على هذه العشرة التي هي من أفضل العبادات.

فإن العبد يبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم. وحسن الخلق له خاصية في فرح النفس، لا يعرف ذلك حق معرفته إلا المجربون.

فأين حال هذا ممن عاشر الناس بأسوأ الأخلاق؟ فخيره ممنوع، وشره غير مأمون، وليس له أقل صبر على ما يناله من المكدرات.

فهذا قد تنغصت عليه حياته، وحضرته همومه وحسراته، فهو في عناء حاضر، ويخشى من الشقاء الآجل.

وأما معاشرته مع أهله وأولاده ومن يتصل به فإنه يتأكد عليه القيام بالحقوق اللازمة، تامة لا نقص فيها ولا تبرم.

فمن عامل هؤلاء بما أمر الله ورسوله، راجيًا بقيامه به ثواب ربه ورضاه، عاش معهم عيشة راضية.

ومن كان معهم في نكد وسوء خلق مع الصغير والكبير، يخرج من بيته غضبان ويدخل على أهله وولده متكدرًا ملآن، فأي حياة لمن كانت هذه حاله؟ وما الذي يرجوه حيث ضيع ما فيه فرحه ومسراته؟

وأما عشرته مع معامليه؛ فإن استعمل معهم النصح والصدق وكان سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى - حصلت له الرحمة، وفاز بالشرف والاعتبار، واكتسب مودة معامليه ودوام معاملتهم.

ولا يخفى ما في ذلك من طيب الحياة، وسرور النفس، وما في ضدها من سوء الحال وسقوط الشرف، وتنغص الحياة.

والفارق بين الرجلين هو الدين، فصاحب الدين منبسط النفس، مطمئن القلب.

فقد تبين لك أن السعادة واللذة الحقيقية بجميع أنواعها تابعة للدين.

لذة من تمسك بالدين:

واعلم يا أخي أن الدين نوعان:

أحدهما: أعمال وأحوال وأخلاق دينية ودنيوية.

وكما ذكرنا أنه لا سبيل إلى حصول الحياة الطيبة إلا بالدين.

والثاني: علوم ومعارف نافعة:

وهي علوم الشرع والدين، وما يعين عليها ويتوصل إليها به.

فالاشتغال بها من أجل العبادات، وحصول ثمرتها من أكمل اللذات، ولا يشبهه شيء من اللذات الدنيوية.

واعتبر ذلك بحال الراغبين في العلم تجد أكثر أوقاتهم مصروفة في تحصيل العلم، فيمضي الوقت الطويل، وصاحبه مستغرق فيه يتمنى امتداد الزمن، وهذا عنوان اللذة، فإن المشتاق يقصر عنده الوقت الطويل، ومن ضاق صدره بشيء يطول عليه الوقت القصير.

وذلك أن صاحب العلم في كل وقت مستفيد علومًا يزداد بها إيمانه، وتكمل بها أخلاقه، والمتصفح للكتب النافعة لا يزال يعرض على ذهنه عقول الأولين والآخرين ومعارفهم وأحوالهم الحميدة، وضدها.

ففي ذلك معتبر لأولي الألباب؛ فكم من قصة تمر عليك في الكتب تكتسب بها عقلًا جديدًا، وتسليك عند المصائب، بما جرى على الفضلاء، وكيف تلقوها بالرضا والتسليم، واغتنموا الأجر من العليم الحكيم.

والعلم يعرفك طرقًا تدرك بها المطالب، وتدفع بها المكاره والمضار.

والعقل عقلان:

عقل غريزي:

وهو ما وضعه الله في الإنسان من قوة الذهن في أمور الدين والدنيا.

وعقل مكتسب:

إذا انضم إلى العقل الغريزي ازداد صاحبه حزمًا وبصيرة.

فكما أن العقل الغريزي ينمو بنمو الإنسان حتى يبلغ أشده، فكذلك العقل المكتسب له مادتان للنمو:

مادة الاجتماع بالعقلاء والاستفادة من عقولهم وتجاربهم:

تارة بالاقتداء، وتارة بمشاورتهم ومباحثتهم.

فكم ترقى الرجل بهذه الحال إلى مراقي الفلاح.

ولهذا كان انزواء الرجل عن الناس يفوته خيرًا كثيرًا، ونفعًا جليلًا، مع ما يحدثه الاعتزال من الخيالات وسوء الظن بالناس، والإعجاب بالنفس الذي يعبر عن نقص الرجل، وربما ضر البدن، فإن مخالطة الناس تفتح أبوابًا من المصالح، وتسليك، وتقوي قلبك.

وفي ضعف القلب ضرر على العقل، وضرر على الدين، وضرر على الأخلاق وضرر على الصحة.

وينبغي للإنسان أن يعامل الناس بحسب أحوالهم، كما كان النبي ﷺ يحسن خلقه مع الصغير والكبير.

قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

أي خذ ما صفا لك من أخلاق الخلق، ودع عنك ما تعسر منها.

فيجالس أبناء الدنيا بالأدب والمروءة، والأكابر بالتوقير، والإخوان والأصحاب بالانبساط، والفقراء بالرحمة والتواضع، وأهل العلم والدين بما يليق بفضلهم.

فصاحب هذا الخلق الجليل تراه مبتهج النفس في حياة طيبة.

وأما المادة الثانية للعقل المكتسب: فهي الاشتغال بالعلوم النافعة.

فتستفيد بكل قضية رأيًا جديدًا، وعقلًا سديدًا، ولا يزال المشتغل بالعلم يترقى في العلم والعقل والأدب.

والعلم يعرفك بالله، وكيف الطريق إليه؟

يعرفك كيف تتوسل بالأمور المباحة إلى أن تجعلها عبادة تقربك إلى الله. والعلم يقوم مقام الرياسات والأموال.

فمن أدرك العلم فقد أدرك كل شيء، ومن فاته العلم فاته كل شيء. وكل هذا في العلوم النافعة.

وأما كتب الخرافات والمجون فإنها تحلل الأخلاق وتفسد الأفكار والقلوب، بحثها على الاقتداء بأهل الشر، وهي تعمل في الإيمان والقلوب عمل النار في الهشيم.

توبة ورجوع إلى الله:

فلما تلا النصيح لصاحبه هذه المواضيع، وبرهن عليها...

قال له المنصوح:

والله لقد انجلى عني ما أجد في أول موضوع تلوته علي، وانزاح عني الباطل في شرحك الأول.

وإن مجلسك يا أخي ونصيحتك بهذه الطريقة النافعة تعدل عندي الدنيا وما عليها.

فأحمد الله أولًا حيث قيضك لي، وأشكرك شكرًا كثيرًا حيث وفيت بحق الصحبة، ولم تصنع ما يصنعه أهل العقول الذين إذا رأوا من أصحابهم ما يسوءهم قطعوا عنهم حبل الوداد في الحال، وأعانوا الشيطان عليهم، فازداد بذلك الشر عليهم، وضاع بينهم التفاهم.

وإني لا أنسى جميل معروفك حيث رأيتني سادرًا في المهامه مغرورًا بنفسي معجبًا برأيي، فأريتني بعيني ما أنا فيه، وأوقفتني بحكمتك على الهلاك الذي وقعت فيه.

فالآن أستغفر الله مما مضى وأتوب إليه، وأسأله الإعانة على سلوك مرضاته، وأفزع إليه أن يختم بالصالحات أعمالي، وأحمد الله أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، فإنه مولى النعم، دافع

النقم، غزير الجود والكرم.

انتهى وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

التوضيح والبيان

لشجرة الإيمان

تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله



المقدمة

الحمد لله الذي غرس شجرة الإيمان في قلوب عباده الأخيار، وسقاها وغذاها بالعلوم النافعة، والمعارف الصادقة، واللهج بذكره آناء الليل والنهار، وجعلها تؤتي أكلها وبركتها كل حين من الخيرات والنعم الغزار. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الواحد القهار، الكريم الرحيم الغفار، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الرسول المصطفى المختار. اللهم صلِّ وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه البررة الأخيار.

أما بعد: فهذا كتاب يحتوي على مباحث الإيمان التي هي أهم مباحث الدين، وأعظم أصول الحق واليقين، مستمدًّا ذلك من كتاب الله الكريم - الكفيل بتحقيق هذه الأصول تحقيقًا لا مزيد عليه - ومن سنة نبيه محمد ﷺ التي توافق الكتاب وتفسره، وتعبر عن كثير من مجملاته، وتفصل كثيرًا من مطلقاته. مبتدئًا بتفسيره، مثنيًا بذكر أصوله ومقوماته، ومن أي شيء يستمد، مثلثًا بفوائده وثمراته، وما يتبع هذه الأصول.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

فمثل الله كلمة الإيمان - التي هي أطيب الكلمات - بشجرة هي أطيب الأشجار، موصوفة بهذه الأوصاف الحميدة؛ أصولها ثابتة مستقرة، ونماؤها مستمر، وثمراتها لا تزال كل وقت وكل حين، تغل على أهلها وعلى غيرهم المنافع المتنوعة، والثمرات النافعة.

وهذه الشجرة متفاوتة في قلوب المؤمنين تفاوتًا عظيمًا، بحسب تفاوت هذه الأوصاف

التي وصفها الله بها. فعلى العبد الموفق أن يسعى لمعرفتها، ومعرفة أوصافها وأسبابها، وأصولها وفروعها، ويجتهد في التحقق بها علمًا وعملًا. فإن نصيبه - من الخير والفلاح، والسعادة العاجلة والآجلة - بحسب نصيبه من هذه الشجرة.

الفصل الأول

في حد الإيمان وتفسيره

حدود الأشياء وتفسيرها الذي يوضحها؛ تقدم أحكامها، فإن الحكم على الأشياء فرع عن تصورها. فمن حكم على أمر من الأمور - قبل أن يحيط علمه بتفسيره، ويتصوره تصورًا يميزه عن غيره - أخطأ خطأً فاحشًا.

أما حد الإيمان وتفسيره، فهو: التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أمر الله ورسوله بالإيمان به، والانقياد ظاهرًا وباطنًا. فهو تصديق القلب واعتقاده المتضمن لأعمال القلوب وأعمال البدن. وذلك شامل للقيام بالدين كله.

ولهذا كان الأئمة والسلف يقولون: الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح. وهو: قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. فهو يشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله.

فالإقرار والاعتراف بما لله تعالى - من الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال الناشئة عن أسمائه وصفاته - هو من أعظم أصول الإيمان.

وكذلك الاعتراف بما لله من الحقوق الخاصة - وهو التأله والتعبد لله ظاهرًا وباطنًا - من أصول الإيمان.

والاعتراف بما أخبر الله به عن ملائكته وجنوده، والموجودات السابقة واللاحقة؛ والإخبار باليوم الآخر. كل هذا من أصول الإيمان.

وكذلك الإيمان بجميع الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وما وصفوا به في الكتاب

والسنة من الأوصاف الحميدة، كل هذا من أصول الإيمان.

كما أن أعظم أصول الإيمان الاعتراف بانفراد الله بالوحدانية والألوهية، وعبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين لله، والقيام بشرائع الإسلام الظاهرة، وحقائقه الباطنة. كل هذا من أصول الإيمان.

ولهذا رتب الله على الإيمان دخول الجنة والنجاة من النار، ورتب عليه رضوانه والفلاح والسعادة. ولا يكون ذلك إلا بما ذكرنا؛ من شموله للعقائد وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح؛ لأنه متى فات شيء من ذلك حصل - من النقص وفوات الثواب، وحصول العقاب - بحسبه.

بل أخبر الله تعالى أن الإيمان المطلق تنال به أرفع المقامات في الدنيا، وأعلى المنازل في الآخرة؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩]. والصديقون هم أعلى الخلق درجة بعد درجة الأنبياء في الدنيا، وفي منازل الآخرة. وأخبر في هذه الآية أن من حقق الإيمان به وبرسله؛ نال هذه الدرجة.

ويفسر ذلك ويوضحه ما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ، قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف في الجنة، كما تراءون الكوكب الشرقي أو الغربي في الأفق؛ لتفاضل ما بينهم**». فقالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: «**بلى - والذي نفسي بيده - رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين**»[1].

وإيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين في ظاهرهم وباطنهم، في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، وفي كمال طاعتهم لله ولرسله. فقيامهم بهذه الأمور، به يتحقق إيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين.

وقد أمر الله في كتابه بهذا الإيمان العام الشامل، وما يتبعه من الانقياد والاستسلام، وأثنى

(١) البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

على من قام به فقال في أعظم آيات الإيمان: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

فأمر الله عباده بالإيمان بجميع هذه الأصول العظيمة، والإيمان الشامل بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله، وبالإخلاص والاستسلام والانقياد له وحده - بقوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾. كما أثنى على المؤمنين - في آخر السورة - بالقيام بذلك فقال: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فأخبر أن الرسول ومن معه من المؤمنين آمنوا بهذه الأصول ولم يفرقوا بين أحد من الأنبياء، بل آمنوا بهم جميعًا، وبما أوتوه من عند الله، وأنهم التزموا طاعة الله، فقالوا: سمعنا وأطعنا، وطلبوا من ربهم أن يحقق لهم ذلك، وأن يعفو عن تقصيرهم ببعض حقوق الإيمان، وأن مرجع الخلائق كلهم ومصيرهم إلى الله؛ يجازيهم بما قاموا به من حقوق الإيمان، وما ضيعوه منها. كما قال تعالى عن أتباع الأنبياء - عيسى وغيره -: إنهم قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٣]. فآمنوا بقلوبهم، والتزموا بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم، وسألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين له بالتوحيد، وأن يحقق لهم القيام به قولًا، وعملًا، واعتقادًا.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]. فوصف الله المؤمنين بهذه الصفات المتضمنة للقيام بأصول الدين وفروعه، وظاهره وباطنه. فإنه وصفهم بالإيمان به إيمانًا ظهرت آثاره في عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وأنه - مع ثبوت الإيمان في قلوبهم - يزداد إيمانهم كلما تليت عليهم آيات الله، ويزداد

خوفهم ووجلهم كلما ذكر الله، وهم في قلوبهم وسرهم متوكلون على الله، ومعتمدون في أمورهم كلها عليه، ومفوضون أمورهم إليه. وهم مع ذلك يقيمون الصلاة فرضها ونفلها، يقيمونها ظاهرًا وباطنًا، ويؤتون الزكاة، وينفقون النفقات الواجبة والمستحبة. ومن كان على هذا الوصف فلم يبق من الخير مطلبًا، ولا من الشر مهربًا. ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ [الأنفال: ٤]. الذين يستحقون هذا الوصف على الحقيقة، ويحققون القيام به ظاهرًا وباطنًا. ثم ذكر ثوابهم الجزيل؛ المغفرة المتضمنة لزوال كل شر ومحذور، ورفعة الدرجات عند ربهم، والرزق الكريم المتضمن من النعم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

ففسر الله الإيمان - في هذه الآيات - بجميع هذه الخصال. فإنه أخبر بفلاح المؤمنين، ثم وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾، إلى آخر الآيات المذكورة. فمن استكمل هذه الأوصاف فهو المؤمن حقًّا. ومضمونها: القيام بالواجبات الظاهرة والباطنة، واجتناب المحرمات والمكروهات. وبتكميلهم للإيمان استحقوا وراثة جنات الفردوس التي هي أعلى الجنات، كما أنهم قاموا بأعلى الكمالات.

وهذه صريحة في أن الإيمان يشمل عقائد الدين وأخلاقه، وأعماله الظاهرة والباطنة. ويترتب على ذلك أنه يزيد بزيادة هذه الأوصاف والتحقق بها، وينقص بنقصها، وأن الناس في الإيمان درجات متفاوتة بحسب تفاوت هذه الأوصاف.

ولهذا كانوا ثلاث درجات: سابقون مقربون، وهم الذين قاموا بالواجبات والمستحبات،

وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات. ومقتصدون، وهم الذين قاموا بالواجبات، وتركوا المحرمات. وظالمون لأنفسهم، وهم الذين تركوا بعض واجبات الإيمان، وفعلوا بعض المحرمات. كما ذكرهم الله بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقد يعطف الله على الإيمان الأعمال الصالحة أو التقوى أو الصبر، للحاجة إلى ذكر المعطوف؛ لئلا يظن الظان أن الإيمان يكتفى فيه بما في القلب. فكم في القرآن من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]. ثم يذكر خبرًا عنهم. والأعمال الصالحات؛ من الإيمان، ومن لوازم الإيمان. وهي التي يتحقق بها الإيمان. فمن ادعى أنه مؤمن – وهو لم يعمل بما أمر الله به ورسوله من الواجبات، ومن ترك المحرمات – فليس بصادق في إيمانه. كما يقرن بين الإيمان والتقوى، في مثل قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

فذكر الإيمان الشامل لما في القلوب من العقائد والإرادات الطيبة، والأعمال الصالحة. ولا يتم للمؤمن ذلك حتى يتقي ما يسخط الله؛ من الكفر والفسوق والعصيان. ولهذا حقق ذلك بقوله: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾. كما وصف الله بذلك خيار خلقه بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

فهذه أكبر المنن أن يحبب الله الإيمان للعبد، ويزينه في قلبه، ويذيقه حلاوته، وتنقاد جوارحه للعمل بشرائع الإسلام، ويبغض الله إليه أصناف المحرمات. والله عليم بمن يستحق أن يتفضل عليه بهذا الفضل، حكيم في وضعه في محله اللائق به.

كما ثبت في **الصحيح** من حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ، قال: **«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا**

لله، وأن يكره أن يرجع عن دينه، كما يكره أن يقذف في النار»[1].

فذكر أصل الإيمان الذي هو محبة الله ورسوله، ولا يكتفي بمطلق المحبة، بل لا بد أن تكون محبة الله مقدمة على جميع المحاب. وذكر تفريعها: بأن يحب لله، ويبغض لله. فيحب الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين؛ لأنهم قاموا بمحاب الله، واختصهم من بين خلقه. وذكر دفع ما يناقضه وينافيه، وأنه يكره أن يرجع عن دينه أعظم كراهة، تقدر أعظم من كراهة إلقائه في النار.

وأخبر في هذا الحديث: أن للإيمان حلاوة في القلب، إذا وجدها العبد سلته عن المحبوبات الدنيوية، وعن الأغراض النفسية، وأوجبت له الحياة الطيبة. فإن من أحب الله ورسوله لهج بذكر الله طبعًا - فإن من أحب شيئًا أكثر من ذكره - واجتهد في متابعة الرسول، وقدم متابعته على كل قول، وعلى إرادة النفوس وأغراضها. من كان كذلك فنفسه مطمئنة مستحلية للطاعات، قد انشرح صدر صاحبها للإسلام، فهو على نور من ربه. وكثير من المؤمنين لا يصل إلى هذه المرتبة العالية: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢].

وكذلك في **الصحيحين** من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان»**[2].

وهذا صريح: أن الإيمان يشمل أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، والاعتقادات والأخلاق، والقيام بحق الله، والإحسان إلى خلقه. فجمع في هذا الحديث بين أعلاه وأصله وقاعدته - وهو قول: لا إله إلا الله؛ اعتقادًا، وتألهًا، وإخلاصًا لله - وبين أدناه، وهو إماطة العظم والشوكة وكل ما يؤذي عن الطريق. فكيف بما فوق ذلك من الإحسان. وذكر الحياء - والله أعلم - لأن الحياء به حياة الإيمان، وبه يدع العبد كل فعل قبيح؛ كما به يتحقق كل خلق حسن. وهذه الشعب - المذكورة في هذا الحديث - هي جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

---

(١) البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

وهذا - أيضًا - صريح في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب، واتصاف العبد بها أو عدمه. ومن المعلوم أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتًا كبيرًا. فمن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقد خالف الحس، مع مخالفته لنصوص الشارع كما ترى.

وقد ذكر النبي ﷺ الإسلام والإيمان في حديث جبريل المشهور، حيث سأله جبريل بحضرة الصحابة عن الإيمان، فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر والقدر**»[١]. وفسر الإسلام بالشرائع الخمس الظاهرة؛ لأنه - كما تقدم - إذا قرن بالإيمان غيره فسر الإيمان بما في القلب من العقائد الدينية، والإسلام أو الأعمال الصالحة بالشرائع الظاهرة. وأما عند الإطلاق إذا أطلق الإيمان، فقد تقدم أنه يشمل ذلك أجمع.

وفي **الصحيحين** من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[٢].

فأخبر ﷺ: أنه إذا تعارضت المحبتان فإن قدم ما يحبه الرسول كان صادق الإيمان وإلا فهو ناقص الإيمان. كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فأقسم تعالى أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله، ولا يبقى في قلوبهم حرج وضيق من حكمه وينقادوا له انقيادًا، وينشرحوا لحكمه. وهذا شامل في تحكيمه في أصول الدين، وفي فروعه، وفي الأحكام الكلية، والأحكام الجزئية.

وفي **الصحيحين** أيضًا عن أنس مرفوعا: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[٣]. وذلك يقتضي أن يقوم بحقوق إخوانه المسلمين الخاصة والعامة فإنه من الإيمان.

---

(١) مسلم (٨).

(٢) البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

(٣) البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

ومن لم يقم بذلك ويحب لهم ما يحب لنفسه، فإنه لم يؤمن الإيمان الواجب، بل نقص إيمانه بقدر ما نقص من الحقوق الواجبة عليه.

وفي **صحيح مسلم** من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا**»[1].

والرضا بذلك يقتضي الفرح بذلك، والسرور بربوبية الله له، وحسن تدبيره وأقضيته عليه، وأن يرضى بالإسلام دينًا، ويفرح به، ويحمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر المنن؛ حيث رضي الله له الإسلام ووفقه له، واصطفاه له ويرضى بمحمد ﷺ نبيًّا إذ هو أكمل الخلق، وأعلاهم في كل صفة كمال. وأمته وأتباعه أكمل الأمم وأعلاهم، وأرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.

فالرضا بنبوة الرسول ورسالته، واتباعه من أعظم ما يثمر الإيمان، ويذوق به العبد حلاوته. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فكيف لا يرضى المؤمن بهذا الرسول الكريم، الرءوف الرحيم الذي أقسم الله أنه لعلى خلق عظيم، وأشرف مقام للعبد انتسابه لعبودية الله، واقتداؤه برسوله، ومحبته واتباعه، وهذا علامة محبة الله: وباتباعه تتحقق المحبة والإيمان. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وفي **صحيح مسلم** من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: «**قل: آمنت بالله ثم استقم**»[2].

---

(١) مسلم (٣٤).
(٢) مسلم (٣٨).

فبين ﷺ بهذه الوصية الجامعة أن العبد إذا اعترف بالإيمان ظاهرًا وباطنًا، ثم استقام عليه - قولًا وعملًا، فعلًا وتركًا - فقد كمل أمره، واستقام على الصراط المستقيم، ورجي له أن يدخل مع من قال الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

وفي حديث ابن عباس المتفق عليه في وفد عبد القيس، حين وفدوا على النبي ﷺ حيث قالوا: مرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة، وسألوه عن الأشربة. فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع: أمرهم بالإيمان بالله وحده وقال: «**أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس**». ونهاهم عن أربع: «**عن الحنتم، والدباء، والنقير، والمزفت**[1]». وقال: «**احفظوهن، وأخبروا بهن من وراءكم**»[2].

فهذا - أيضًا - صريح في إدخاله الشرائع الظاهرة بالإيمان مثل: الصلاة والزكاة والصيام، وإعطاء الخمس من المغنم. وكل هذا يفسر الإيمان تفسيرًا يزيل الإشكال، وأنه كما يدخل فيه العقائد القلبية، فتدخل فيه الأعمال البدنية فكل ما يقرب إلى الله - من قول وعمل واعتقاد - فإنه من الإيمان.

وفي سنن أبي داود عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان**»[3].

---

(١) الحنتم: هي جرار مدهونة خضر، والدباء: القرع، والنقير: هي النخلة تنسج نسجا، والمزفت: هو الإناء الذي طلي بالزفت.

(٢) البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).

(٣) أبو داود (٤٦٨١).

فالحب والبغض في القلب والباطن، والعطاء والمنع في الظاهر. واشترط فيها كلها الإخلاص الذي هو روح الإيمان ولبه وسره.

فالحب في الله: أن يحب الله، ويحب ما يحبه من الأعمال والأوقات والأزمان والأحوال، ويحب من يحبه من أنبيائه وأتباعهم.

والبغض في الله: أن يبغض كل ما أبغضه الله من كفر وفسوق وعصيان، ويبغض من يتصف بها، أو يدعو إليها.

والعطاء يشمل عطاء العبد من نفسه كل ما أمر به مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ – ٧]. وهذا يشمل جميع ما أمر به العبد لا يختص بالعطاء المالي بل هو جزء من العطاء. وكذلك مقابله المنع.

وبهذه الأمور الأربعة، يتم للعبد إيمانه ودينه.

وكذلك ما رواه الترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم**»[1]. يدل على أن الإيمان الصحيح يحمل صاحبه على رعاية الأمانة، وينهاه عن الخيانة حتى يطمئن إليه الناس، ويأمنوه على أنفس الأشياء عندهم، وهي الدماء، والأموال.

وهذه النصوص كلها تبين معنى الإيمان وحقيقته، وأنه كما قال الحسن وغيره: ليس الإيمان بالتمني والتحلي ولكنه ما وقر في القلب، وصدقته الأعمال[2].

فالأعمال الظاهرة والباطنة تصدق الإيمان، وبها يتحقق. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

---

(١) الترمذي (٢٦٢٧)، والنسائي (٤٩٩٥).

(٢) ابن أبي شيبة (٣٠٨٦٦، ٣٦٢٢٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٦٥)، وفي الدلائل له (٢٠٥٢).

فالعبد إذا أصابته المصيبة، فآمن أنها من عند الله، وأن الله حكيم رحيم في تقديرها، وأنه أعلم بمصالح عبده هدى الله قلبه هداية خاصة للرضا والصبر والتسليم والطمأنينة. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ [يونس: ٩]. فحذف المتعلق ليشمل هدايتهم لكل خير، وهدايتهم لترك كل شر، وذلك بسبب إيمانهم. فالأعمال من الإيمان من جهة، ومن ثمرات الإيمان ولوازمه من جهة أخرى. والله الموفق.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣]. كثير من المفسرين فسروا الإيمان هنا بالصلاة إلى القبلة التي كانوا عليها؛ بيت المقدس، قبل النسخ حيث مات أناس من المسلمين قبل أن تنقل القبلة إلى الكعبة، فحصل عند بعضهم اشتباه في شأنهم، فأنزل الله هذه الآية. وذلك أن صلاتهم إلى بيت المقدس في ذلك الوقت التزام منهم لطاعة الله ورسوله وذلك هو الإيمان.

وهذه الآية فيها بشارة كبرى وهي أن الله لا يضيع إيمان المؤمنين؛ قل ذلك الإيمان أو كثر. كما ورد في **الصحيح**: أن الله يخرج من النار «**من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من إيمان**»[١].

وبشارة لكل من عمل عملا قصده طاعة الله ورسوله، وهو متأول أو مخطئ، أو نسخ ذلك العمل، فإنه إنما عمل ذلك العمل إيمانا بالله، وقصدا لطاعته، ولكنه تأول تأويلا أخطأ فيه، أو أخطأ بلا تأويل فخطؤه معفو عنه، وأجر القصد والتوجه إلى الله وإلى طاعته، لا يضيعه الله.

ولهذا قال الله عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قال الله على لسان نبيه: «**قد فعلت**»[٢].

---

(١) البخاري (٧٥١٠).

(٢) مسلم (١٢٦).

وفي الحديث الصحيح: «**إذا اجتهد الحاكم فحكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، وخطؤه مغفور له**»(١).

وكذلك من نوى عملا صالحا، وحرص على فعله، ومنعه مانع من مرض، أو سفر أو عجز أو غيرها؛ كتب له ما نواه من ذلك العمل، كما ثبت ذلك في **صحيح مسلم** من حديث أبي موسى مرفوعا: «**من مرض أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحا مقيما**»(٢). ويدخل في ذلك من أقعده الكبر عن عمله المعتاد.



(١) دلائل النبوة للبيهقي (٣٢١١).
(٢) مسند أحمد (١٩٧٥٣).

فصل

إذا ثبت بدلالة الكتاب والسنة معنى الإيمان، وأنه اسم جامع لشرائع الإسلام، وأصول الإيمان، وحقائق الإحسان، وتوابع ذلك من أمور الدين - بل هو اسم للدين كله - علم أنه يزيد وينقص، ويقوى ويضعف.

وهذه المسألة لا تقبل الاشتباه بوجه من الوجوه، لا شرعًا، ولا حسًّا، ولا واقعًا.

وذلك: أن نصوص الكتاب والسنة صريحة في زيادته ونقصانه؛ مثل قوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]. ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]. ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]. وغيرها من الآيات.

وكذلك الحس والواقع يشهد بذلك من جميع وجوه الإيمان؛ فإن الناس في علوم الإيمان، وفي معارفه، وفي أخلاقه وأعماله الظاهرة والباطنة - متفاوتون تفاوتًا عظيمًا، في القوة والكثرة، ووجود الآثار، ووجود الموانع، وغير ذلك. فالمؤمنون الكمل عندهم من تفاصيل علوم الإيمان ومعارفه وأعماله ما لا نسبة إليه من علوم عموم كثير من المؤمنين، وأعمالهم وأخلاقهم. فعند كثير منهم علوم ضعيفة مجملة، وأعمال قليلة ضعيفة. وعند كثير منهم، من المعارضات والشبهات والشهوات، ما يضعف الإيمان، وينقصه درجات كثيرة، بل تجد المؤمنين يتفاوتون تفاوتًا كثيرًا في نفس العلم الذي عرفوه من علوم الإيمان؛ **أحدهما**: علمه فيه قوي صحيح لا ريب فيه ولا شبهة، **والآخر**: علمه فيه ضعيف، وعنده

معارضات كثيرة تضعفه أيضًا. وكذلك أخلاق الإيمان يتفاوتون فيها تفاوتًا كثيرًا؛ صفات الحلم والصبر والخلق وغيرها. وكذلك في العبادات الظاهرة؛ كالصلاة، يصلي اثنان صلاة واحدة، وأحدهما يؤدي حقوقها الظاهرة والباطنة، ويعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه، والآخر يصليها بظاهره وباطنه مشغول بغيرها. وكذلك بقية العبادات.

ولهذا كان المؤمنون ثلاث مراتب: مرتبة السابقين، ومرتبة المقتصدين، ومرتبة الظالمين. وكل واحدة من هذه المراتب أيضًا أهلها متفاوتون تفاوتًا كثيرًا. والعبد المؤمن – في نفسه – له أحوال وأوقات تكون أعماله كثيرة قوية، وأحيانًا بالعكس. وكل هذا من زيادة الإيمان ونقصه، ومن قوته وضعفه. وكان خيار الأمة، والمعتنون بالإيمان منهم – يتعاهدون إيمانهم كل وقت ويجتهدون في زيادته وتقويته، وفي دفع المعارضات المنقصة له، ويجتهدون في ذلك، ويسألون الله أن يثبت إيمانهم، ويزيدهم منه من علومه وأعماله وأحواله. فنسأل الله أن يزيدنا علمًا ويقينًا، وطمأنينة به وبذكره، وإيمانًا صادقًا.

وخيار الخلق – أيضًا – يطلبون ويتنافسون في الوصول إلى عين اليقين، بعد علم اليقين، وإلى حق اليقين. كما قال الله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

والحواريون خواص أتباع المسيح ابن مريم، حين طلبوا نزول المائدة، ووعظهم عيسى عن هذا الطلب: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ١١٣]. فذكروا حاجتهم الدنيوية، وحاجتهم العلمية الإيمانية إلى ذلك.



الفصل الثاني

في ذكر الأمور التي يستمد منها الإيمان

وهذا فصل عظيم النفع والحاجة، بل الضرورة ماسة إلى معرفته والعناية به معرفة واتصافًا؛ وذلك أن الإيمان هو كمال العبد، وبه ترتفع درجاته في الدنيا والآخرة، وهو السبب والطريق لكل خير عاجل وآجل. ولا يحصل، ولا يقوى، ولا يتم إلا بمعرفة ما منه يستمد، وإلى ينبوعه وأسبابه وطرقه.

والله تعالى قد جعل لكل مطلوب سببًا وطريقًا يوصل إليه، والإيمان أعظم المطالب وأهمها وأعمها، وقد جعل الله له مواد كبيرة تجلبه وتقويه، كما كان له أسباب تضعفه وتوهيه.

ومواده التي تجلبه وتقويه أمران؛ مجمل ومفصل:

أما المجمل فهو:

التدبر لآيات الله المتلوة من الكتاب والسنة، والتأمل لآياته الكونية على اختلاف أنواعها، والحرص على معرفة الحق الذي خلق له العبد، والعمل بالحق. فجميع الأسباب مرجعها إلى الأصل العظيم.

وأما التفصيل: فالإيمان يحصل ويقوى بأمور كثيرة:

منها، بل أعظمها: معرفة أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، والحرص على فهم معانيها، والتعبد لله فيها.

فقد ثبت في الصحيحين عنه ﷺ، أنه قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا - مائة إلا واحدًا**

- **من أحصاها دخل الجنة**»[1]. أي من حفظها وفهم معانيها، واعتقدها، وتعبد لله بها؛ دخل الجنة. والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون.

فعلم أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته، ومعرفة الأسماء الحسنى هي أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها.

ومعرفتها تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات. وهذه الأنواع هي رُوح الإيمان ورَوحه، وأصله وغايته. فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته؛ ازداد إيمانه، وقوي يقينه. فينبغي للمؤمن أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وتكون معرفته سالمة من داء التعطيل، ومن داء التمثيل؛ اللذين ابتلي بهما كثير من أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول، بل تكون المعرفة متلقاة من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان. فهذه المعرفة النافعة التي لا يزال صاحبها في زيادة في إيمانه وقوة يقينه، وطمأنينة في أحواله.

ومنها: تدبر القرآن على وجه العموم فإن المتدبر لا يزال يستفيد من علوم القرآن ومعارفه، ما يزداد به إيمانًا. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وكذلك إذا نظر إلى انتظامه وإحكامه، وأنه يصدق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف تيقن أنه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وأنه لو كان من عند غير الله، لوجد فيه من التناقض والاختلاف أمور كثيرة. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وهذا من أعظم مقويات الإيمان، ويقويه من وجوه كثيرة: فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما ركب عليه من الأخبار الصادقة، والأحكام الحسنة يحصل له من أمور الإيمان خير كبير، فكيف إذا أحسن تأمله، وفهم مقاصده وأسراره؟! ولهذا كان

(١) البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم(٢٦٧٧).

المؤمنون الكمل يقولون: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وكذلك معرفة أحاديث النبي ﷺ وما تدعو إليه من علوم الإيمان وأعماله، كلها من محصلات الإيمان ومقوياته. فكلما ازداد العبد معرفة بكتاب الله وسنة رسوله؛ ازداد إيمانه ويقينه. وقد يصل في علمه وإيمانه إلى مرتبة اليقين. فقد وصف الله الراسخين في العلم، الذين حصل لهم العلم التام القوي، الذي يدفع الشبهات والريب، ويوجب اليقين التام؛ ولهذا كانوا سادة المؤمنين، الذين استشهد الله بهم، واحتج بهم على غيرهم من المرتابين والجاحدين، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧]. فالراسخون زال عنهم الجهل والريب وأنواع الشبهات، وردوا المتشابه من الآيات إلى المحكم منها، وقالوا: آمنا بالجميع - فكلها من عند الله، وما منه، وما تكلم به وحكم به - كله حق وصدق.

وقال تعالى: ﴿ لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [النساء: ١٦٢].

وقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

ولعلمهم بالقرآن العلم التام، وإيمانهم الصحيح استشهد بهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٦].

وأخبر تعالى في عدة آيات أن القرآن آيات للمؤمنين، وآيات للموقنين؛ لأنه يحصل لهم بتلاوته وتدبره من العلم واليقين والإيمان بحسب ما فتح الله عليهم منه. فلا يزالون يزدادون

علمًا وإيمانًا ويقينًا.

فالتدبر للقرآن من أعظم الطرق والوسائل الجالبة للإيمان، والمقوية له. قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

فاستخراج بركة القرآن - التي من أهمها حصول الإيمان - سبيله وطريقه تدبر آياته وتأملها كما ذكر أن تدبره يوقف الجاحد عن جحوده، ويمنع المعتدي على الدين من اعتدائه.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]. أي: فلو تدبروه حق تدبره، لمنعهم مما هم عليه من الكفر والتكذيب، وأوجب لهم الإيمان واتباع من جاء به.

وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩] أي: فلو حصل لهم الإحاطة بعلمه، لمنعهم من التكذيب، وأوجب لهم الإيمان.

ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه معرفة النبي ﷺ، ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية، والأوصاف الكاملة فإن من عرفه حق المعرفة لم يَرْتَبْ في صدقه، وصدق ما جاء به من الكتاب والسنة، والدين الحق. كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩] أي: فمعرفته ﷺ توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان ممن يؤمن، وزيادة الإيمان ممن آمن به.

وقال تعالى حاثًّا لهم على تدبر أحوال الرسول الداعية للإيمان: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وأقسم تعالى بكمال هذا الرسول، وعظمة أخلاقه، وأنه أكمل مخلوق بقوله: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١ - ٤].

فهو ﷺ أكبر داع للإيمان في أوصافه الحميدة، وشمائله الجميلة، وأقواله الصادقة النافعة،

وأفعاله الرشيدة. فهو الإمام الأعظم، والقدوة الأكمل، ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧].

وقد ذكر الله عن أولي الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا ﴾ وهو هذا الرسول الكريم: ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ ﴾ بقوله وخلقه، وعمله ودينه، وجميع أحواله: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾. أي: إيمانًا لا يدخله ريب.

ولما كان هذا الإيمان من أعظم ما يقرب العبد إلى الله، ومن أعظم الوسائل التي يحبها الله توسلوا بإيمانهم أن يكفر عنهم السيئات وينيلهم المطالب العاليات فقالوا: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ولهذا كان الرجل المنصف - الذي ليس له إرادة إلا اتباع الحق مجرد ما يراه ويسمع كلامه - يتبادر إلى الإيمان به ﷺ، ولا يرتاب في رسالته بل كثير منهم - مجرد ما يرى وجهه الكريم - يعرف أنه ليس بوجه كذاب.

وقيل لبعضهم: لم بادرت إلى الإيمان بمحمد قبل أن تعرف رسالته؟ فقال: ما أمر بشيء، فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء، فقال العقل: ليته أمر به. فاستدل هذا العاقل الموفق - بحسن شريعته، وموافقتها للعقول الصحيحة - على رسالته فبادر إلى الإيمان به.

ولهذا استدل ملك الروم هرقل - لما وصف له ما جاء به الرسول، وما كان يأمر به، وما ينهى عنه - استدل بذلك أنه من أعظم الرسل، واعترف بذلك اعترافًا جليًّا. ولكن منعته الرئاسة وخشية زوال ملكه من اتباعه، كما منعت كثيرًا ممن اتضح لهم أنه رسول الله حقًّا. وهذا من أكبر موانع الإيمان في حق أمثال هؤلاء.

وأما أهل البصائر والعقول الصحيحة، فإنهم يرون هذه الموانع والرئاسات والشبهات والشهوات تضمحل، ولا يرون لها قيمة حتى يعارض بها الحق الصحيح النافع، المثمر

للسعادة عاجلًا وآجلًا. ولهذا السبب الأعظم، كان المعتنون بالقرآن حفظًا ومعرفة، والمعتنون بالأحاديث الصحيحة - أعظم إيمانًا ويقينًا من غيرهم، وأحسن عملًا في الغالب.

ومن أسباب الإيمان ودواعيه التفكر في الكون؛ في خلق السماوات والأرض وما فيهن من المخلوقات المتنوعة، والنظر في نفس الإنسان، وما هو عليه من الصفات فإن ذلك داعٍ قوي للإيمان، لما في هذه الموجودات من عظمة الخلق الدال على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها من الحسن والانتظام، والإحكام الذي يحير الألباب، الدال على سعة علم الله، وشمول حكمته، وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله وجوده وبره. وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره، واللهج بذكره وإخلاص الدين له. وهذا هو روح الإيمان وسره.

وكذلك النظر إلى فقر المخلوقات كلها، واضطرارها إلى ربها من كل الوجوه، وأنها لا تستغني عنه طرفة عين، خصوصًا ما تشاهده في نفسك من أدلة الافتقار وقوة الاضطرار. وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء والتضرع إلى الله في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه ويوجب له قوة التوكل على ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع في بره وإحسانه. وبهذا يتحقق الإيمان، ويقوى التعبد. فإن الدعاء مخ العبادة وخالصها.

وكذلك التفكر في كثرة نعم الله وآلائه العامة والخاصة، التي لا يخلو منها مخلوق طرفة عين. فإن هذا يدعو إلى الإيمان.

ولهذا دعا الله الرسول والمؤمنين إلى شكره، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢]. فالإيمان يدعو إلى الشكر، والشكر ينمو به الإيمان. فكل منهما ملازم وملزوم للآخر.

ومن أسباب دواعي الإيمان: الإكثار من ذكر الله كل وقت، ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويغذيها وينميها. وكلما ازداد العبد

ذكرًا لله قوي إيمانه، كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر. فمن أحب الله أكثر من ذكره، ومحبة الله هي الإيمان، بل هي روحه.

ومن الأسباب الجالبة للإيمان: معرفة محاسن الدين؛ فإن الدين الإسلامي كله محاسن، عقائده أصح العقائد وأصدقها وأنفعها، وأخلاقه أحمد الأخلاق وأجملها، وأعماله وأحكامه أحسن الأحكام وأعدلها. وبهذا النظر الجليل يزين الله الإيمان في قلب العبد، ويحببه إليه. كما امتن به على خيار خلقه، بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧]. فيكون الإيمان في القلب أعظم المحبوبات وأجمل الأشياء. وبهذا يذوق العبد حلاوة الإيمان ويجدها في قلبه، فيتجمل الباطن بأصول الإيمان وحقائقه، وتتجمل الجوارح بأعمال الإيمان، وفي الدعاء المأثور: «**اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**»[1].

ومن أعظم مقويات الإيمان: الاجتهاد في التحقق في مقام الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى خلقه؛ فيجتهد أن يعبد الله كأنه يشاهده ويراه، فإن لم يقو على هذا استحضر أن الله يشاهده ويراه. فيجتهد في إكمال العمل وإتقانه، ولا يزال العبد يجاهد نفسه ليتحقق بهذا المقام العالي، حتى يقوى إيمانه ويقينه، ويصل في ذلك إلى حق اليقين - الذي هو أعلى مراتب اليقين - فيذوق حلاوة الطاعات، ويجد ثمرة المعاملات. وهذا هو الإيمان الكامل.

وكذلك الإحسان إلى الخلق - بالقول والفعل والمال والجاه وأنواع المنافع - هو من الإيمان، ومن دواعي الإيمان. والجزاء من جنس العمل. فكما أحسن إلى عباد الله، وأوصل إليهم من بره ما يقدر عليه؛ أحسن الله إليه أنواعًا من الإحسان، ومن أفضلها أن يقوى إيمانه ورغبته في فعل الخير، والتقرب إلى ربه، وإخلاص العمل له.

وبذلك يتحقق العبد بالنصح لله ولعباده. فإن «**الدين النصيحة**»[2]. ومن وفق للإحسان في عبادة ربه، والإحسان في معاملة الخلق فقد تحقق نصحه؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**لا يؤمن**

(١) مسند أحمد (١٨٣٢٤).	(٢) مسند أحمد (١٦٩٤٠).

أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، متفق عليه[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ ... الآية [المؤمنون:١ - ١٠].

فهذه الصفات الثماني، كل واحدة منها تثمر الإيمان وتنميه، كما أنها من صفات الإيمان وداخلة في تفسيره كما تقدم.

فحضور القلب في الصلاة، وكون المصلي يجاهد نفسه على استحضار ما يقوله ويفعله من القراءة والذكر والدعاء فيها، ومن القيام والقعود، والركوع والسجود- من أسباب زيادة الإيمان ونموه.

وتقدم أن الله سمى الصلاة إيمانًا، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣]. وقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فهي أكبر ناهٍ عن كل فحشاء ومنكر ينافي الإيمان، كما أنها تحتوي على ذكر الله الذي يغذي الإيمان وينميه لقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

والزكاة كذلك تنمي الإيمان وتزيده، وهي فرضها ونفلها، كما قال النبي ﷺ: «**والصدقة برهان**»[2]. أي: على إيمان صاحبها؛ فهي دليل الإيمان، وتغذيه وتنميه.

والإعراض عن اللغو الذي هو: كل كلام لا خير فيه، وكل فعل لا خير فيه - بل يقولون الخير ويفعلونه، ويتركون الشر قولًا وفعلًا - لا شك أنه من الإيمان ويزداد به الإيمان، ويثمر الإيمان.

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم، إذا وجدوا غفلة أو تشعث إيمانهم،

---

(١) البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

(٢) مسلم (٢٢٣).

يقول بعضهم لبعض: اجلس بنا نؤمن ساعة. فيذكرون الله، ويذكرون نعمه الدينية والدنيوية. فيتجدد بذلك إيمانهم.

وكذلك العفة عن الفواحش خصوصًا فاحشة الزنا، لا ريب أن هذا من أكبر علامات الإيمان ومنمياته. فالمؤمن لخوفه مقامه بين يدي ربه، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]. إجابة لداعي الإيمان، وتغذية لما معه من الإيمان.

ورعاية الأمانات والعهود وحفظها من علائم الإيمان. وفي الحديث: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**»[1]. وإذا أردت أن تعرف إيمان العبد ودينه، فانظر حاله: هل يرعى الأمانات كلها مالية أو قولية أو أمانات الحقوق، وهل يرعى الحقوق والعهود والعقود التي بينه وبين الله، والتي بينه وبين العباد؟ فإن كان كذلك فهو صاحب دين وإيمان، وإن لم يكن كذلك نقص من دينه وإيمانه، بمقدار ما انتقص من ذلك.

وختمها بالمحافظة على الصلوات، على حدودها، وحقوقها، وأوقاتها؛ لأن المحافظة على ذلك بمنزلة الماء الذي يجري على بستان الإيمان، فيسقيه وينميه ويؤتي أكله كل حين.

وشجرة الإيمان - كما تقدم - محتاجة إلى تعاهدها كل وقت بالسقي، وهو المحافظة على أعمال اليوم والليلة من الطاعات والعبادات، وإلى إزالة ما يضرها من الصخور والنوابت الغريبة الضارة، وهو العفة عن المحرمات قولًا وفعلًا. فمتى تمت هذه الأمور حيي هذا البستان وزها، وأخرج الثمار المتنوعة.

ومن دواعي الإيمان وأسبابه: الدعوة إلى الله وإلى دينه، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والدعوة إلى أصل الدين، والدعوة إلى التزام شرائعه بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبذلك يكمل العبد بنفسه، ويكمل غيره. كما أقسم تعالى بالعصر أن جنس الإنسان لفي خسر، إلا من اتصف بصفات أربع: الإيمان، والعمل الصالح اللذين بهما تكميل النفس،

---

(١) مسند أحمد (١٢٣٨٣).

والتواصي بالحق - الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والدين الحق - وبالصبر على ذلك كله، وبهما يكمل غيره.

وذلك أن نفس الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده من أكبر مقويات الإيمان، وصاحب الدعوة لا بد أن يسعى بنصر هذه الدعوة، ويقيم الأدلة والبراهين على تحقيقها، ويأتي الأمور من أبوابها، ويتوسل إلى الأمور من طرقها. وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه.

وأيضًا فإن الجزاء من جنس العمل، فكما سعى إلى تكميل العباد ونصحهم وتوصيتهم بالحق، وصبر على ذلك؛ لا بد أن يجازيه الله من جنس عمله، ويؤيده بنور منه وروح، بقوة إيمانه، وقوة التوكل. فإن الإيمان وقوة التوكل على الله، يحصل به النصر على الأعداء؛ من شياطين الإنس وشياطين الجن. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]. وأيضًا فإنه متصد لنصر الحق، ومن تصدى لشيء فلا بد أن يفتح عليه فيه - من الفتوحات العلمية والإيمانية - بمقدار صدقه وإخلاصه.

ومن أهم مواد الإيمان ومقوياته: توطين النفس على مقاومات جميع ما ينافي الإيمان؛ من شعب الكفر والنفاق، والفسوق والعصيان.

فإنه كما أنه لا بد في الإيمان من فعل جميع الأسباب المقوية المنمية له، فلا بد - مع ذلك - من دفع الموانع والعوائق، وهي الإقلاع عن المعاصي، والتوبة مما يقع منها، وحفظ الجوارح كلها عن المحرمات، ومقاومة فتن الشبهات القادحة في علوم الإيمان، المضعفة له، والشهوات المضعفة لإرادات الإيمان. فإن الإرادات التي أصلها الرغبة في الخير ومحبته، والسعي فيه - لا تتم إلا بترك إرادات ما ينافيها؛ من رغبة النفس في الشر، ومقاومة النفس الأمارة بالسوء.

فمتى حفظ العبد من الوقوع في فتن الشبهات، وفتن الشهوات تم إيمانه، وقوي يقينه، وصار مثل بستان إيمانه: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

ومتى كان الأمر بالعكس؛ بأن استولت عليه النفس الأمارة بالسوء، ووقع في فتن الشبهات أو الشهوات، أو كليهما انطبق عليه هذا المثل وهو قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى في أمرين:

أحدهما: تحقيق أصول الإيمان وفروعه والتحقق بها علمًا، وعملًا، وحالًا.

والثاني: السعي في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصها، من الفتن الظاهرة والباطنة، ويداوي ما قصر فيه من الأول، وما تجرأ عليه من الثاني؛ بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. أي: مبصرون الخلل الذي وقعوا فيه، والنقص الذي أصابهم من طائف الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، فإذا أبصروا تداركوا هذا الخلل بسده، وهذا الفتق برتقه، فعادوا إلى حالهم الكاملة، وعاد عدوهم حسيرًا ذليلًا، وإخوان الشياطين ﴿ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]. الشياطين لا تقصر عن إغوائهم وإيقاعهم في أشراك الهلاك، والمستجيبون لهم لا يقصرون عن طاعة أعدائهم، والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا في الهلاك، ويحق عليهم الخسار.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، بفضلك ومنتك، إنك أنت العليم الحكيم.



الفصل الثالث

في فوائد الإيمان وثمراته

كم للإيمان الصحيح من الفوائد والثمرات العاجلة والآجلة، في القلب والبدن والراحة، والحياة الطيبة، والدنيا والآخرة، وكم لهذه الشجرة الإيمانية من الثمار اليانعة، والجنى اللذيذ، والأُكل الدائم، والخير المستمر، أمور لا تحصى، وفوائد لا تستقصى. ومجملها أن خيرات الدنيا والآخرة، ودفع الشرور كلها من ثمرات هذه الشجرة.

وذلك أن هذه الشجرة إذا ثبتت وقويت أصولها، وتفرعت فروعها، وزهت أغصانها، وأينعت أفنانها عادت على صاحبها وعلى غيره بكل خير عاجل وآجل.

فمن أعظم ثمارها: الاغتباط بولاية الله الخاصة، التي هي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون، وأجل ما حصله الموفقون.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ثم وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

فكل مؤمن تقي فهو لله ولي ولاية خاصة، من ثمراتها ما قاله الله عنهم: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. أي: يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة، ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة والذكر. وحاصل ذلك: أنه يخرجهم من ظلمات الشرور المتنوعة إلى ما يرفعها من أنوار الخير العاجل والآجل.

وإنما حازوا هذا العطاء الجزيل بإيمانهم الصحيح، وتحقيقهم هذا الإيمان بالتقوى. فإن

التقوى تمام الإيمان، كما تقدم تحقيقه.

ومن ثمرات الإيمان: الفوز برضا الله، ودار كرامته.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧١ - ٧٢].

فنالوا رضا ربهم ورحمته، والفوز بهذه المساكن الطيبة بإيمانهم الذي كملوا به أنفسهم، وكملوا غيرهم بقيامهم بطاعة الله وطاعة رسوله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فاستولوا على أجل الوسائل، وأفضل الغايات وذلك فضل الله.

ومنها: أن الإيمان الكامل يمنع من دخول النار، والإيمان - ولو قليلًا - يمنع من الخلود فيها. فإن من آمن إيمانًا - أدى به الواجبات، وترك المحرمات - فإنه لا يدخل النار. كما تواترت بذلك الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ في هذا الأصل. كما تواتر عنه ﷺ: أنه لا يخلد في النار من في قلبه شيء من الإيمان ولو يسيرًا.

ومن ثمرات الإيمان: أن الله يدافع عن المؤمنين جميع المكاره، وينجيهم من الشدائد. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨]. أي: يدافع عنهم كل مكروه، يدافع عنهم شر شياطين الإنس وشياطين الجن، ويدافع عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها، ويرفعها أو يخففها بعد نزولها.

ولما ذكر تعالى ما وقع فيه يونس عليه الصلاة والسلام وأنه نادى ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]. إذا وقعوا في الشدائد، كما أنجينا

يونس. قال النبي ﷺ: «دعوة أخي يونس ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه كربته ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]».

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: بالقيام بالإيمان ولوازمه، ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢]. أي: من كل ما ضاق على الناس: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤]. فالمؤمن المتقي ييسر الله أموره وييسره لليسرى، ويجنبه العسرى، ويسهل عليه الصعاب ويجعل له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب. وشواهد هذا كثير، من الكتاب والسنة.

ومنها: أن الإيمان والعمل الصالح - الذي هو فرعه - يثمر الحياة الطيبة في هذه الدار، وفي دار القرار.

قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وذلك أن من خصائص الإيمان، أنه يثمر طمأنينة القلب وراحته، وقناعته بما رزق الله، وعدم تعلقه بغيره. وهذه هي الحياة الطيبة. فإن أصل الحياة الطيبة راحة القلب وطمأنينته، وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاقد للإيمان الصحيح.

ومنها: أن جميع الأعمال والأقوال إنما تصح وتكمل بحسب ما يقوم بقلب صاحبها: من الإيمان والإخلاص.

ولهذا يذكر الله هذا الشرط الذي هو أساس كل عمل مثل قوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٩٤]. أي: لا يجحد سعيه، ولا يضيع عمله، بل يضاعف بحسب قوة إيمانه.

---

(١) الترمذي (٣٥٠٥) بنحوه.

وقال: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩]. والسعي للآخرة: هو العمل بكل ما يقرب إليها، ويدني منها من الأعمال التي شرعها الله على لسان نبيه محمد ﷺ.

فإذا تأسست على الإيمان، وانبنت عليه، كان السعي مشكورًا مقبولًا مضاعفًا، لا يضيع منه مثقال ذرة.

وأما إذا فقد العمل الإيمان، فلو استغرق العامل ليله ونهاره، فإنه غير مقبول. قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وذلك لأنها أسست على غير الإيمان بالله ورسوله، الذي روحه الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥]. فهم لما فقدوا الإيمان، وحل محله الكفر بالله وآياته حبطت أعمالهم.

وقال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥]. ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ولهذا كانت الردة عن الإيمان تحبط جميع الأعمال الصالحة، كما أن الدخول في الإسلام والإيمان يَجُبُّ ما قبله من السيئات وإن عظمت، والتوبة من الذنوب المنافية للإيمان والقادحة فيه، والمنقصة له تَجُبُّ ما قبلها.

ومنها: أن صاحب الإيمان يهديه الله إلى الصراط المستقيم، ويهديه في الصراط المستقيم، يهديه إلى علم الحق، وإلى العمل به، وإلى تلقي المحاب والمسار بالشكر، وتلقي المكاره والمصائب بالرضا والصبر.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ [يونس: ٩]. وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١]. قال بعض السلف: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم.

ولو لم يكن من ثمرات الإيمان إلا أنه يسلي صاحبه عن المصائب والمكاره التي كل أحد عرضة لها في كل وقت، ومصاحبة الإيمان واليقين أعظم مسل عنها، ومهون لها: وذلك لقوة إيمانه، وقوة توكله، ولقوة رجائه بثواب ربه، وطمعه في فضله. فحلاوة الأجر تخفف مرارة الصبر، قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤].

ولهذا تجد اثنين تصيبهم مصيبة واحدة أو متقاربة وأحدهما عنده إيمان، والآخر فاقد له تجد الفرق العظيم بين حاليهما، وتأثيرها في ظاهرهما وباطنهما. وهذا الفرق راجع إلى الإيمان والعمل بمقتضاه.

وكما أنه يسلي عند ورود المصائب والمكاره، فإنه يسلي عند فقد المحاب. فإذا فقد مؤمن حبيبه الذي تمكن حبه من قلبه - من أهل وولد، ومال، وصديق، وشبهها - تسلى بحلاوة إيمانه، والإيمان خير عوض للمؤمن عن كل مفقود، كما هو مشاهد مجرب.

وفقد المحبوب - في الحقيقة - معدود من المصائب. ولولا أن يعقوب عليه الصلاة والسلام عنده من الإيمان ما يهون عليه مصيبته في فقد يوسف مع شدة حبه العظيم، بحيث قال لإخوته - لما طلبوا منه بعض يوم أن يذهب معهم ليرتع ويلعب - ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ﴾[يوسف: ١٣]. فأخبر أن المانع له من إرساله أنه لا يصبر على فراقه ولا ساعة من نهار. ولكنهم عالجوه، وذكروا له الأسباب التي توجب له أن يرسله معهم فأرسله ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [الأنفال: ٤٢]. فمن هذه حاله، وهذا حبه البليغ الذي لا يمكن المعبر أن يعبر عنه هل يدخل في الذهن أنه يبقى هذه المدة الطويلة على الوجود؟! بل يغلب على الظن أن الحب يفتت كبده بأسرع وقت. ولكن قوة الإيمان، وقوة الرجاء بالله أوجب له

أن يتماسك كل هذه المدة، حتى جاء الله بالفرج الذي وُعِدَ به المؤمنون.

وكذلك: أم موسى - حين ذهب اليم بموسى، وأصبح فؤادها فارغًا من كل شيء إلا من الحزن على موسى - لولا أن الله ربط على قلبها بالإيمان، وعلمت أن وعد الله حق - لكادت تبدي بما في قلبها، وتصرح بمصيبتها. ولكن هو الإيمان المثبت عند الشدائد، المسلي عند المصائب، المقوي إذا وهنت القوى، المعزي إذا عز العزا.

وقال النبي ﷺ في وصيته العظيمة في حديث ابن عباس، الصحيح الذي في **السنن**: «**تعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة**»[1]. أي تعرف إلى الله بالإيمان وأعمال الإيمان - وأنت صحيح غني قوي - يعرفك الله في الشدة؛ يقويك الله على مباشرتها، ويعينك على معالجتها، وأعظم شدة تنزل بالمؤمن شدة الموت وسكراته.

فهذا الحديث بشرى لكل مؤمن - قد تعرف إلى ربه في رخائه - أن يعينه في ذلك المقام الحرج، والشدة المزعجة، وضعف القوى، وتكاثف الشياطين الذين يريدون أن يحولوا بين العبد وبين ختم حياته بالخير. فإن الله يعينه بتأييده، وروحه ورحمته، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن ثمرات الإيمان ولوازمه - من الأعمال الصالحة - ما ذكره الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]. أي بسبب إيمانهم وأعمال الإيمان، يحبهم الله ويجعل لهم المحبة في قلوب المؤمنين. ومن أحبه الله وأحبه المؤمنون من عباده حصلت له السعادة والفلاح والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين من الثناء والدعاء له حيًّا وميتًا، والاقتداء به، وحصول الإمامة في الدين.

وهذه أيضًا من أجل ثمرات الإيمان: أن يجعل الله المؤمنين الذين كملوا إيمانهم بالعلم والعمل لسان صدق، ويجعلهم أئمة يهتدون بأمره كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً

(١) أحمد (٢٨٠٣).

يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]. فبالصبر واليقين - اللذين هما رأس الإيمان وكماله - نالوا الإمامة في الدين.

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. فأهل الإيمان والعلم يرفعهم الله في الدنيا والآخرة فهم أعلى الخلق درجة عند الله، وعند عباده في الدنيا والآخرة. وإنما نالوا هذه الرفعة بإيمانهم الصحيح وعلمهم ويقينهم، والعلم، واليقين من أصول الإيمان.

ومن ثمرات الإيمان: حصول البشارة بكرامة الله، والأمن التام من جميع الوجوه. كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. فأطلقها ليعم الخير العاجل والآجل، وقيدها في مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]. فلهم البشارة المطلقة والمقيدة.

ولهم الأمن المطلق في مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. ولهم الأمن المقيد في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨]. فنفى عنهم الخوف لما يستقبلونه، والحزن مما مضى عليهم. وبذلك يتم لهم الأمن.

فالمؤمن له الأمن التام في الدنيا والآخرة، أمن من سخط الله وعقابه، وأمن من جميع المكاره والشرور. وله البشارة الكاملة بكل خير، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]. ويوضح هذه البشارة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

فرتب على الإيمان حصول الثواب المضاعف، وكمال النور الذي يمشي به العبد في حياته، ويمشي به يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الحديد: ١٢]. فالمؤمن يمشي في الدنيا بنور علمه وإيمانه، وإذا طفئت الأنوار يوم القيامة مشى بنوره على الصراط حتى يجوز به إلى دار الكرامة والنعيم، وكذلك رتب المغفرة على الإيمان، ومن غفرت سيئاته سلم من العقاب، ونال أعظم الثواب.

ومن ثمرات الإيمان: حصول الفلاح - الذي هو: إدراك غاية الغايات؛ فإنه إدراك كل مطلوب، والسلامة من كل مرهوب - والهدى الذي هو أشرف الوسائل.

كما قال تعالى - بعد ذكره المؤمنين بما أنزل على محمد ﷺ، وما أنزل على من قبله، والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللتين هما من أعظم آثار الإيمان - قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]. فهذا هو الهدى التام، والفلاح الكامل. فلا سبيل إلى الهدى والفلاح - اللذين لا صلاح ولا سعادة إلا بهما - إلا بالإيمان التام بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله. فالهدى أجل الوسائل، والفلاح أكمل الغايات.

ومن ثمرات الإيمان: الانتفاع بالمواعظ والتذكير بالآيات.

قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧].

ومثل هذا قوله ﷺ: «**المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم**»[1]. ومفهوم هذه النصوص الصحيحة المحكمة أن فاقد الإيمان لا خير فيه؛ لأنه إذا عدم الإيمان فإما أن يكون الشخص أحواله كلها شر

(١) أحمد (٢٣٠٩٨).

وضرر على نفسه، وعلى المجتمع من جميع الوجوه، وإما أن يكون فيه بعض الخير الذي قد انغمر بالشر، وغلب شره خيره. والمصالح إذا انغمرت واضمحلت في المفاسد صارت شرًّا؛ لأن الخير الذي معه يقابله شر نظيره، فيتساقطان ويبقى الشر الذي لا مقابل له من الخير يعمل عمله. ومن تأمل الواقع في الخلق، رأى الأمر كما ذكر النبي ﷺ.

وهذا لأن الإيمان يحمل صاحبه على التزام الحق واتباعه: علمًا وعملًا. وكذلك معه الآلة العظيمة، والاستعداد لتلقي المواعظ النافعة والآيات الدالة على الحق، وليس عنده مانع يمنعه من قبول الحق، ولا من العمل به.

وأيضًا فالإيمان يوجب سلامة الفطرة، وحسن القصد، ومن كان كذلك انتفع بالآيات، ومن لم يكن كذلك فلا يستغرب عدم قبوله للحق، واتباعه له. ولهذا يذكر الله - في سياق تمنع الكافرين من تصديق الرسول ﷺ، وقبول الحق الذي جاء به - السبب الذي أوجب لهم ذلك، وهو الكفر الذي في قلوبهم، يعني لأن الحق واضح وآياته بينة واضحة، والكفر أعظم مانع يمنع من اتباعه. أي فلا تستغربوا هذه الحالة؛ فإنها لم تزل دأب كل كافر.

ومنها: أن الإيمان يحمل صاحبه على الشكر في حالة السراء، والصبر في حالة الضراء، وكسب الخير في كل أوقاته.

كما ثبت في **الصحيح** عن النبي ﷺ أنه قال: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له؛ وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»[١]. والشكر والصبر هما جماع كل خير، فالمؤمن مغتنم للخيرات في كل أوقاته، رابح في كل حالاته.

وفي **الصحيح** عنه ﷺ: «**لا يصيب المؤمن من هم، ولا غم ولا أذى - إلا كفر الله عنه بها من خطاياه**»[٢].

---

(١) مسلم (٢٩٩٩).

(٢) مسلم (٢٥٧٢) بنحوه.

فيجتمع للمؤمن عند النعم والسراء نعمتان؛ نعمة حصول ذلك المحبوب، ونعمة التوفيق للشكر الذي هو أعلى من ذلك. وبذلك تتم عليه النعمة. ويجتمع له عند الضراء ثلاث نعم: نعمة تكفير السيئات، ونعمة حصول مرتبة الصبر التي هي أعلى من ذلك، ونعمة سهولة الضراء عليه. لأنه متى عرف حصول الأجر والثواب، والتمرن على الصبر، هانت عليه وطأة المصيبة، وخف عليه حملها.

ومنها: أن الإيمان يقطع الشكوك التي تعرض لكثير من الناس فتضر بدينهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]. أي: دفع الإيمان الصحيح الذي معهم الريب والشك الموجود، وأزاله بالكلية، وقاوم الشكوك التي تلقيها شياطين الإنس والجن والنفوس الأمارة بالسوء. فليس لهذه العلل المهلكة دواء إلا تحقيق الإيمان.

ولهذا ثبت في **الصحيحين** من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليقل: آمنت بالله. ولينته، وليتعوذ بالله من الشيطان**»[١].

فذكر ﷺ هذا الدواء النافع لهذا الداء المهلك، وهو ثلاثة أشياء: الانتهاء عن هذه الوساوس الشيطانية، والاستعاذة من شر من ألقاها وشبه بها؛ ليضل بها العباد، والاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح الذي من اعتصم به كان من الآمنين، وذلك لأن الباطل يتضح بطلانه بأمور كثيرة، أعظمها: العلم أنه منافٍ للحق، وكل ما ناقض الحق فهو باطل، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

ومنها: أن الإيمان ملجأ المؤمنين في كل ما يلم بهم من سرور وحزن وخوف وأمن وطاعة ومعصية، وغير ذلك من الأمور التي لا بد لكل أحد منها.

---

(١) مسلم (١٣٤).

فعند المحاب والسرور يلجئون إلى الإيمان، فيحمدون الله، ويثنون عليه، ويستعملون النعم فيما يحب المنعم.

وعند المكاره والأحزان يلجئون إلى الإيمان من جهات عديدة، يتسلون بإيمانهم وحلاوته، ويتسلون بما يترتب على ذلك من الثواب، ويقابلون الأحزان والقلق براحة القلب، والرجوع إلى الحياة الطيبة المقاومة للأحزان والأتراح.

ويلجئون إلى الإيمان عند الخوف فيطمئنون إليه، ويزيدهم إيمانًا وثباتًا، وقوة وشجاعة ويضمحل الخوف الذي أصابهم. كما قال تعالى عن خيار الخلق: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤]. لقد اضمحل الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار، وخلفه قوة الإيمان وحلاوته، وقوة التوكل على الله، والثقة بوعده.

ويلجئون إلى الإيمان عند الأمن فلا يبطرهم، ولا يحدث لهم الكبرياء، بل يتواضعون ويعلمون أنه من الله ومن فضله وتيسيره. فيشكرون الذي أنعم بالسبب والمسبب، الأمن وأسبابه. ويعلمون أنه إذا حصل لهم ظفر بالأعداء وعز، أنه بحول الله وقوته وفضله، لا بحولهم وقوتهم.

ويلجئون إلى الإيمان عند الطاعة والتوفيق للأعمال الصالحة، فيعترفون بنعمة الله عليهم بها، وأن نعمته عليهم فيها أعظم من نعم العافية والرزق. وكذلك يحرصون على تكميلها، وعمل كل سبب لقبولها، وعدم ردها أو نقصها. ويسألون الذي تفضل عليهم بالتوفيق لها أن يتم عليهم نعمته بقبولها، والذي تفضل عليهم بحصول أصلها أن يتمم لهم منها ما انتقصوه.

ويلجئون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي بالمبادرة إلى التوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات لجبر نقصها. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ

ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وقال ﷺ: **«مثل المؤمن ومثل الإيمان كالفرس المربوط في آخيته[١]، يجول ما يجول، ثم يعود إلى آخيته»**[٢]. كذلك المؤمن يجول ما يجول في الغفلة والتجرؤ على بعض الآثام، ثم يعود سريعًا إلى الإيمان الذي بنى عليه أموره كلها. فالمؤمنون في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان، ومفزعهم إلى تحقيقه، ودفع ما ينافيه ويضاده. وذلك من فضل الله عليه، ومنه.

ومنها: أن الإيمان الصحيح يمنع العبد من الوقوع في الموبقات المهلكة. كما ثبت في **الصحيح** عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»** الحديث[٣].

ومن وقعت منه فإنه لضعف إيمانه، وذهاب نوره، وزوال الحياء ممن يراه حيث نهاه. وهذا معروف مشاهد.

والإيمان الصادق الصحيح، يصحبه الحياء من الله، والحب له، والرجاء القوي لثوابه، والخوف من عقابه، والنور الذي ينافي الظلمة. وهذه الأمور - التي هي من مكملات الإيمان - لا ريب أنها تأمر صاحبها بكل خير، وتزجره عن كل قبيح.

فأخبر أن الإيمان إذا صحبه - عند وجود أسباب هذه الفواحش- فإن نور إيمانه يمنعه من الوقوع فيها؛ فإن النور الذي يصحب الإيمان الصادق، ووجود حلاوة الإيمان، والحياء من الله - الذي هو من أعظم شعب الإيمان بلا شك - يمنع من مواقعة هذه الفواحش.

ومنها: أنه ثبت عنه ﷺ في الصحيحين - من حديث أبي موسى رضي الله عنه - أنه قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي

---

(١) الآخِيَّةُ: حُبَيْلٌ أو عُوَيْدٌ يُعرضُ في الحائط ويُدْفَنُ طرفاه فيه ويَصيرُ وَسَطه كالعرْوة وتشَدّ فيها الدابة.

(٢) أحمد (١١٣٣٥).

(٣) البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧).

لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها»[1].

وهؤلاء القسمان هم خير الخليقة، فإن الناس أربعة أقسام:

الأول: خير في نفسه، متعد خيره إلى غيره. وهو خير الأقسام. فهذا المؤمن الذي قرأ القرآن، وتعلم علوم الدين. فهو نافع لنفسه، متعد نفعه إلى غيره، مبارك أينما كان. كما قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١].

والثاني: طيب في نفسه، صاحب خير. وهو المؤمن الذي ليس عنده من العلم ما يعود به على غيره.

فهذان القسمان هما خير الخليقة، والخير الذي فيهم عائد إلى ما معهم من الإيمان القاصر، والمتعدي نفعه إلى الغير بحسب أحوال المؤمنين.

والقسم الثالث: من هو عادم للخير، ولكنه لا يتعدى ضرره إلى غيره.

والرابع: من هو صاحب شر على نفسه، وعلى غيره. فهذا شر الأقسام: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]. فعاد الخير كله إلى الإيمان وتوابعه، وعاد الشر إلى فقد الإيمان، والاتصاف بضده. والله الموفق.

وشبيه بهذا المعنى قوله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**»[2]. فقسم ﷺ المؤمنين إلى قسمين؛ قسم قوي في عمله وقوة إيمانه وفي نفعه لغيره، وقسم ضعيف في هذه الأشياء. ومع ذلك ففي كل من القسمين خير؛ لأن الإيمان - وآثاره - كله خير، وإن تفاوت المؤمنون في هذا الخير.

(١) البخاري (٥٤٢٧)، ومسلم (٧٩٧). (٢) مسلم (٢٦٦٤).

الخاتمة

فتبين مما تقدم أن هذه الشجرة المباركة - شجرة الإيمان - أبرك الأشجار وأنفعها وأدومها. وأن عروقها وأصولها وقواعدها الإيمان وعلومه ومعارفه، وساقها وأفنانها شرائع الإسلام، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة المؤيدة والمقرونة بالإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ. وأن ثمارها وجناها الدائم المستمر السمت الحسن، والهدي الصالح، والخلق الحسن، واللهج بذكر الله وشكره، والثناء عليه، والنفع لعباد الله - بحسب القدرة - نفع العلم والنصح، ونفع الجاه والبدن، ونفع المال. وجميع طرق النفع. وحقيقة ذلك كله القيام بحقوق الله، وحقوق خلقه. وأن هذه الشجرة - في قلوب المؤمنين - متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، بحسب ما قام بهم، واتصفوا به من هذه الصفات. وأن منازلهم في الآخرة تابعة لهذا كله، وأن الفضل في ذلك كله لله وحده، والمنة كلها له سبحانه. ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقال أهل الجنة بعدما دخلوها، وتبوءوا منازلها - معترفين بفضل ربهم العظيم - ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

فجمع في هذه الآية بين الإخبار باعترافهم وثنائهم على الله بنعمه وفضله؛ حيث وصلوا إلى هذه المنازل العالية وبين ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك بمنة الله عليهم به، وهو العمل الصالح الذي هو الإيمان وأعماله.

فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالإيمان الصادق، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا من لدنه رحمة. إنه هو الوهاب. وصلى الله على محمد

وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

حرر في ٨ شهر ذي الحجة سنة ١٣٧٤هـ، والحمد لله رب العالمين.



تنزيه الدين وحملته ورجاله

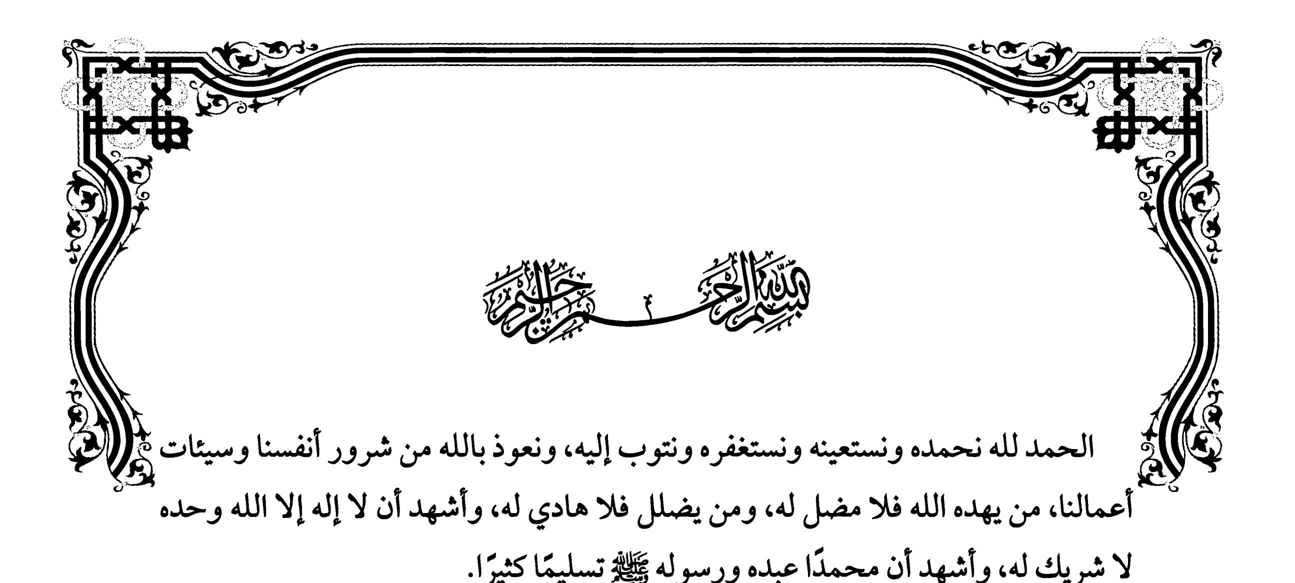
مما افتراه القصيمي في أغلاله

تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله



الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإني قد وقفت على كتاب صنفه عبد الله بن علي القصيمي سماه **هذي هي الأغلال** فإذا هو محتوٍ على نَبْذ الدين، والدعاية إلى نبذه، والانحلال عنه من كل وجه؛ وكان هذا الرجل قبل كتابته، وإظهاره لهذا الكتاب معروفًا بالعلم والانحياز لمذهب السلف الصالح، وكانت تصانيفه السابقة مشحونة بنصر الحق، والرد على المبتدعين والملحدين، فصار له بذلك عند الناس مقام وسمعة حسنة، فلم يَرُعِ الناس في هذا العام حتى فاجأهم بما في هذا الكتاب، الذي نسخ به وأبطل جميع ما كتبه عن الدين سابقًا.

وبعدما كان في كتبه السابقة معدودًا من أنصار الحق، انقلب في كتابه هذا من أعظم المنابذين له، فاستغرب الناس منه هذه المفاجأة الغريبة لسوابقه؛ ولسنا بصدد التعرض للأسباب التي دعته لكتابة هذا الكتاب، وكثير من الناس يظنون به الظنون التي تدل عليها القرائن، وليست بعيدة من الصواب، لظنِّ بعضهم أنه ارتشى من بعض جهات الدعاية الأجنبية اللادينية، ولكن لما كتب هذا الكتاب، وطبعه ونشره بين الناس، وجعله دعاية بليغة لنبذ دين الإسلام، بَلْه غيره من الديانات والمبادئ الخلقية، فكان هذا أكبر عداء ومهاجمة للدين وجب على كل من عنده علم أن يبين ما يحتوي عليه كتابه من العظائم، خشية اغترار

من ليس له بصيرة بكلامه، حيث كان معروفًا قبل ذلك من علماء المسلمين، ولم يدر ما طرأ عليه من الانقلاب؛ وإننا نعلم أن الذين يقرءون كتابه، ويقفون عليه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من له بصيرة ومعرفة وتفريق بين الحق والباطل، ومعرفة بحقيقة الدين، فهذا لا يحتاج إلى التنبيه، بل مجرد وقوفه على كلامه وفهمه يكفيه معرفة ببطلانه وفساده؛ لأن هذا القسم من الناس لا تغرهم الألفاظ المزخرفة، ولا الاستدلالات المزورة المبهرجة.

القسم الثاني: من وقف على كتبه السابقة، ثم على كتابه هذا، ورأى ما فيها من الاضطراب والتناقض والتضارب وعدم الاستقرار على قول ورأي واحد، يقول القول اليوم فيهدمه بالغد ويبني ما هدمه ويهدم ما بناه، فبينما تراه يدعي أنه ينصر الدين ويغار على المسلمين، إذ تراه ملحًّا في هدم أصول الدين، وقواعده حاملًا على حَمَلته متهكمًا بالعلماء والمرشدين، مؤيسًا لهم من الرقي في الحياة ما داموا متمسكين بدين الإسلام. وبينا تراه يحط على أئمة الدين، ومصابيح الدجى، إذ يصب الثناء والمدح على أئمة الكفر وزنادقة الملاحدة ويعظمهم غاية التعظيم، وبينا تراه يذم القديم، ويحث على رفضه ومراده به ما جاء به الدين علومًا وأخلاقًا وأعمالًا، ويحث على الأخذ بكل جديد، إذ تراه متناقضًا يحث على اتباع المنحرفين؛ كأرسطو وأفلاطون والفارابي وابن سينا ونحوهم من المتقدمين والمتأخرين، إلى غير ذلك من مناقضاته، التي توجب للناظر فيها أن يهدر كلامه ويسقطه من الاعتبار، ولو لم يكن من أهل العلم والإبصار.

وأما القسم الثالث: الذين لا بصيرة لهم يميزون بها بين الحق والباطل، ولا وقفوا على تناقضه وعدم استقراره على رأي واحد؛ فإنهم يخشى عليهم من الاغترار بكلامه؛ لأنهم يسمعون عبارات مزخرفة، واستدلالات مموهة، لأنه يردد المعنى الضئيل بعبارات كثيرة، وأساليب متنوعة؛ ونحن لا ننكر ما في كلامه وكتابه من المعاني الصحيحة المطروقة التي لم يزل أهل العلم يقولونها ويبدونها، من الحث على تعلم العلوم وفنون الصنائع النافعة وما فيه من ذم الجهل وآثاره الضارة، وما فيه من تأخر المسلمين في الفنون العصرية وما فيه من

وصف تفوق غيرهم في فنون المادة، فقد ذكر أهل العلم من هذه الأمور أكثر مما ذكر هذا الرجل، ولم يبيّن ما بيّنوه ولا شرح الداء الذي أصاب المسلمين حقيقة ولا كيفية الدواء.

والمقصود أن ما في كتابه من الحقائق لم يكن أول من قالها، بل لم يزل أهل المعرفة يقولون ما هو أتم منها، وإنما المنكر الفظيع والطامّة الكبرى ترويجه بهذه الأمور على من لم يعرف الحقائق، وجعلها له كالأساس الذي يحمل منه على الدين وأهله الحملات المنكرة المتكررة.

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

مقدمة ونظرة إجمالية
في محتويات ومواضيع هذا الكتاب

من نظر فيه وتأمله حق تأمله عرف أنه ما كتب أشد وطأةً وأعظم عداوةً ومحاربة للدين الإسلامي ومنفرًا منه، وأنه ما اجترأ أحد من الأجانب، وغيرهم بمثل ما اجترأ عليه هذا الرجل ولا افترى مفترٍ على الدين كافترائه، ولا حرّف أحد له نظير تحريفاته، وما صرَّح أحد بالوقاحة والاستهزاء والسخرية بالدين وأصوله وتعاليمه وأخلاقه وآدابه وحَمَلته كاستهزائه وسخريته، فإنه اشتمل على نبذ الدين ومنابذته ومنافقته؛ ثلاثة لا تُبقي من الشر شيئًا إلا تضمنته، فإنه صريح في الانحلال عن الدين بالكلية، وخروج تام عن عقائده وأصوله فضلًا عن فروعه، وهو أكبر دعاية للإلحاد، ومقاومة للدين وأهله، وفيه من البهرجة والتزويرات، التي جعلها في صورة نصر الدين، ما يعد من أعظم النفاق والكيد والمكر للإسلام وأهله ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وجملة ذلك أنه تلقى عن جميع أعداء الدين ما وجهوه إلى الدين وإلى أهله من جميع ألوان الشُّبه التي تدعو إلى الكفر والتكذيب بالدين، وزاد عليهم زيادات واستدرك أمورًا لم يصلوا إليها، فإن النافين للباري الجاحدين له؛ كزنادقة الدهرية وفرعون وأشياعه الذين صرحوا بجحد رب العالمين بالكلية وتكذيب رسله جهرًا وعلنًا، ثم أظهره زنادقة الاتحاديين بأسلوب آخر، وهو أن الوجود كله واجبه وممكنه واحد بالعين، فلا ثمَّ رب ولا مربوب ولا خالق ولا مخلوق؛ الجميع شيء واحد، ثم أظهر هذا الكاتب صاحب كتاب **الأغلال** بأسلوب أشنع من ذلك كله، حيث زعم أنه لا فرق بين الخالق والمخلوق، وأن من فرّق بينهما من الأنبياء والرسل وأهل الأديان، فهو غالط ضال عنده.

أعداء الرسول تنوّعوا في تكذيبه فقالوا: ساحر وشاعر. وقالوا: مفترٍ كذاب؛ وزنادقة الفلاسفة قالوا: إن الرسل كذبوا لمصلحة الناس، وخيَّلوا للناس تخييلات خالية من الحقائق. وهذا صاحب **الأغلال** جاء بوجه آخر، حيث حلل بزعمه حياة النبي ﷺ ذلك التحليل الخبيث الباطل؛ بأنه يخلو بالطبيعة ويناجيها، وتأخذ بلبّه وعقله، ويظل ليله ونهاره نازعًا إليها وقد افتتح بها رسالته بخلوته بها ومناجاتها في غار حراء، وختمها به حيث كان ينزع إليها وهو في سياق الموت، ويقول: «**في الرفيق الأعلى**»[1]، فهذا التحليل الخبيث الذي لا يروج على الصبيان قد أخذه بعينه من دعاة النصارى ومضلليهم، إذ قالوا هذا القول الذي هو التكذيب المحض، فعند صاحب **الأغلال** ليس ثَمَّ وحي ولا مناجاة لله ولا نزول جبريل بالوحي من عند الله، وإنما ذلك خيال لا حقيقة، فظن بجهله أنه بهذا الكلام المموه يسلم من الشناعة.

أعداء الرسل من الدهريين قالوا: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وهذا القصيمي يقول: ما هي إلا الطبيعة تتفاعل وتتطور وتدير أمر العالم، وتدبره وتنظم الأمور الجليلة والدقيقة، وأنكر قضاء الله وقدره، ورجّع ذلك إلى العلم بانتظام الطبيعة، وهذا إنكار منه لله ولأفعاله ولصفاته؛ وكما أنكر توحيد الربوبية، فقد أنكر توحيد الإلهية والعبادة، ولم يرتض بما قاله المشركون، بل أنكر عبادة الله بالكلية، وأنكر الافتقار إليه، وتهكم بالمفتقرين إلى ربهم الداعين لله المخلصين لربهم وملأ كتابه من السخرية بهم، وكما أنكر الربوبية والإلهية والرسالة، إذ فسرها بذلك التفسير الخبيث الذي يرجع إلى نفي الرسالة، فقد أنكر عقوبات الله ومثوباته الدنيوية والأخروية، وأنكر أسبابها وسَخِر بالمؤمنين بها؛ وكذلك رمى جميع طبقات الأمة، وخصَّ منهم العلماء الأعلام، وهداة الأنام، بضعف العلم والعقل والرأي، وأوجب الكفر بهم وبعلومهم، وبما قالوه وصنّفوه من كتب الحديث والتفسير والفقه والأصول والفروع، وجعلهم مجرمين يستحقون العقوبة، وأهدر فضائلهم بالكلية، وأكبر من ذلك وأطمُّ أنه باهَتَ وصرَّح بتحقير الأنبياء تحقيرًا لم يصل إليه ملحد؛ إذ

(١) البخاري (٣٦٦٩)، ومسلم (٢١٩١).

صرَّح بأنَّ جميع الرسل والأنبياء والهداة من أتباعهم، لم ينفعوا الناس في الحياة بشيء من النفع، ولم يقدروا أن يصيروا فيها مخلوقات متألقة لهم فضائل يهتدى بها، وكما رمى الأنبياء وأهل الأديان الصحيحة كلهم، ولم يستثن منهم أحدًا، فإنه عظَّم زنادقة الملحدين الأولين منهم والآخرين، وأوجب الأخذ عنهم، والحذو على منوالهم، وحتَّم نبذ القديم الذي في مقدمته الكتاب والسنة، وما عليه الصحابة والتابعون، وأوجب أن تتخذ ثقافة جديدة إلحادية ينبذ فيها الدين الصحيح، ويكفر به وبحملته.

ويعتقد أن الصحابة في طور الأطفال، أو طور قريب من طور الحيوانات السذج، وأنهم لا يعلمون الأمور على حقيقتها وإنما يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، وإنما العلم والفضل منحصر عنده في الأجانب الإفرنج؛ وسلك مسلك الإباحيين في التهتك والإباحة، وكذَّب ما جاء في الكتب، وعلى ألسنة الرسل، من قصّة آدم وزوجه وذريته، فزعم أن الإنسان الأول مخلوق شبيه بالحيوان، لا يقدر على النطق ولا التخاطب بوجه من الوجوه، ثم انتقل إلى طور الإشارات، في مدد طويلة ثم بعد مدد طويلة جدًّا تدرّج شيئًّا فشيئًا، حتى انتقل إلى طور التخاطب بالألفاظ المبهمة الساذجة.

وكذّب ما جاءت به الرسل، أن الله علّم آدم الأسماء كلها، وأسجد له ملائكته، واتبع سفهاء الخرافيين، وكذّب جميع النصوص من الكتاب والسنة، الواردة في التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، وفي فضل الصبر على المصائب وثواب أهلها، واستهزأ بها وبأهلها وملأ كتابه من السخريات والاستهزاءات، وكل هذه الحقائق وما هو أكثر منها قد تضمنها كتابه المذكور، كما سنشير إليها مفصلة مشارًا إلى صفحاتها من كتابه المذكور.



فصل

ولما كان هذا الكتاب موجهًا إلى قلب الدين وروحه، وإلى هدم علومه وأصوله وقواعده وجميع مقوماته، وكان هذا الدين العظيم بذاته وحقيقته واشتماله على أعظم الحقائق وأجلّها وأنفعها، وعلى البراهين الساطعة، والأنوار المتلألئة، يدفع ويبطل كل ما يقوم في وجهه من الشُّبُهات، ويقاومه من الأقوال الباطلة، أحببت أن أشير إشارة لطيفة قبل إبطال قول هذا الكاتب؛ إلى بعض محاسن هذا الدين، وأنه لا سبيل لأحد من الخلق أن يبطل شيئًا من أصوله وقواعده وأسسه، وأن هذا الدين العظيم، تزول السماوات والأرض والجبال وأصوله راسيات، وقواعده ثابتات، وأنواره مشرقة، وبراهينه للباطل محرقة، فهو الميزان الأعظم؛ الذي توزن به الأمور الدينية، والأمور العقلية، والأمور الدنيوية، وأبيّن عند ذلك منافاتها لقول هذا الكاتب؛ وهذا الرجل لا بدَّ قد شعر أنَّ الناس لا يشكّون ولا يمترون في منافاة كتابه وأقواله للدين، فتراه في مطاوي كتابه يعتذر ويدَّعي أنه مؤمن بالله ورسوله وبريء من الإلحاد؛ أفيظن أن الناس يقيمون لاعتذاره وزنًا؛ وكيف تقع اعتذاراته الطفيفة التافهة في جانب حملاته الشديدة على الدين والحث البليغ على نبذه، وعلى سلوك طريق الملحدين؛ كيف يقبل اعتذار من هو مجدٌّ مجتهدٌ في هذه المواضيع الخبيثة الباطلة، فهل هذا إلا من باب السخرية والتمويه على الأغرار؟! ونحن نكتب ما يجب علينا كتابته، من رد اعتداءاته على الدين، والتنبيه على بطلانها، كما هو الواجب المتعين على كل مسلم، ونرجو الله أن يعيده إلى الحق بالتوبة والتنصل، ونقض ما كتبه واجترأ عليه.

واعلم أن مدار ما بنى عليه بحوثه الباطلة، واحتج لها وبرهن عليها وردّدها أمران:

أحدهما: أن المسلمين في هذه الأوقات الأخيرة متأخرون عن غيرهم في الفنون العصرية، والاختراعات والصناعات الراقية، وعلوم الطبيعة بأنواعها.

والثاني: أن غيرهم مهر في هذه الأمور مهارة لا تتصورها الأفكار، ثم بنى على هذين الأمرين جميع بحوثه الباطلة، ورتب على ذلك أنه يجب رفض ما عليه المسلمون من عقائد وأخلاق وعلوم وأعمال، وقرر في كتابه أن الدين الإسلامي أغلال وقيود تقيد الإنسانية عن التقدم والارتقاء في درج الكمال، وفي مقابلة ذلك حثّ ورحّب بكل ما أتى به الآخرون من مفاسد وعقائد وأخلاق وأعمال، وخير وشر، وقرر أن هذا هو الرشد والفلاح وبدء النجاح. وكتابه كله يدور على هذا الأصل الذي يعرف كل من له أدنى بصيرة أنه بنيان على شفا جرف هار، وأن أقل نظر يوجه إليه، وأقل برهان يقابله يبطله، وأن هذا الاستدلال هو بالترهات والبهرجات أولى منه بالحقائق الثابتة؛ فإذا تبين بطلان أصله الذي بنى عليه جميع بحوث كتابه بطل كل ما بنى عليه، فنشير هنا إلى هذا ثم نتتبع ما اشتمل عليه كتابه من المواضيع الفاسدة، فنقول:

الدين الإسلامي هو دين العدل والرحمة والعلم والحكمة، وهو دين المدنية الزاهرة المبنية على صلاح القلوب والأرواح وصلاح الدين والدنيا، وعلى السعي إلى الكمال والرقي في معارج السعادة والفلاح، وهو الدين الذي حثّ على كل خير ونَفْع وصلاح وإصلاح، وهو الدين الذي ساوى بين طبقات الخلق في القيام بالعدل والحقوق، فلم يبح الظلم بوجه من الوجوه؛ فالغني والفقير والشريف والوضيع والقوي والضعيف والعزيز والذليل، كلهم عنده سواء، قد شملهم عدلُه ورحمتُه، وهو الدين الذي يحث على القيام بما خلق الله الخلق لأجله، وهو عبادة الله وحده والإنابة إليه، والتعبُّد له ظاهرًا وباطنًا، ودوام الافتقار إليه، وهو الدين الذي يأمر بجميع معالي الأخلاق ومحاسنها، وينهى عن جميع مساويها وأراذلها، وهو الدين الذي تصلح به الأحوال؛ فكما حثَّ على القيام بإصلاح الدين فقد حثَّ على القيام بمصالح الدنيا النافعة، وكما أمر بتعلم العلوم والفنون التي ترجع إلى الإنابة إلى الله وعبوديته، فقد حث على تعلم العلوم والفنون، التي تعين على قيام حياة الأمة، وإصلاح أحوالها واستعدادها لمقاومة الأمم الأخرى، ومغالبتها والوقاية من شرورها وأضرارها،

وكما أمر بتعلم علوم التوحيد والعقائد والأخلاق، التي ترجع إلى صلاح القلوب والأرواح فقد أمر بالتعلم والتفقه في الأحكام، التي ترجع إلى القيام بالعبادات الظاهرة والمعاملة العادلة، والقيام بجميع الحقوق المتنوعة، على وجه الوفاء والعدل وموافقة الحكمة، وكذلك أمر بتعلم الفنون الحربية والآداب العسكرية، والاستعدادات السياسية والصناعات النافعة، فقال تعالى في جانب مقاومة الأعداء ومهاجمتهم: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وهذا شامل لكل ما تتعلق به الاستطاعة، من أنواع العلوم والفنون العسكرية الموجودة في وقت التنزيل، والتي تحدث إلى يوم القيامة، من قوة عقلية وسياسية داخلية وخارجية، وصناعات نافعة وتعلم رمي وركوب، وسائر الفنون التي لا تتم مقاومة الأعداء إلا بها، وقال في جانب المدافعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١]. فأمر المؤمنين بأخذ حذرهم من عدوهم، وهو التَّوقِّي والوقاية والاحتماء من عدوان الأعداء، بكل وسيلة وسبب تحصل به الوقاية من شرهم ومكائدهم وأسلحتهم ومداخلهم ومخارجهم؛ وذلك يختلف باختلاف الأحوال والأزمان.

وكل آية أو حديث فيه الأمر بالجهاد والحث عليه، فإنه يدخل فيه القيام بجميع الشئون التي تعين على الجهاد، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأزمنة والأمكنة، وهذا من البراهين على أن هذا الدين والشريعة تنزيل من حكيم حميد عليم بكل شيء، فإن إرشاداته العالية كما ترى تصلح لكل زمان ومحل؛ بل لا تصلح الأمور إلا بها.

وكما أنه أمر بالاستعداد بالقوة المادية، فقد أمر بالاستعداد بالقوة المعنوية، حيث أمر الناس وحثَّهم على الاجتماع والألفة بين المسلمين، والاتفاق على جميع مصالحهم الكلية؛ كما أمر بذلك في المصالح الجزئية، في كل ما يأتون وما يَذَرُون، في أحوالهم الداخلية وأحوالهم الخارجية، وأمرهم بالإيمان الكامل والتوكُّل القوي على الله، وتمرين النفوس على القوة والشجاعة، والتدرب في كل أمر نافع في الدين والدنيا؛ فالدين يحثُّهم على القيام بجميع الأسباب النافعة، التي تصل إليها قواهم واستطاعتهم، وعلى التوكل على مُسبب

الأسباب وخالقها ومدبِّرها، ويبين لهم أن الأمرين متلازمان، لا يقوم أحدهما إلا بالآخر، فالأسباب وإن عظمت وقويت فإنها محكومة بقضاء الله وقدره، ولا يتم للقائم بها أمره من كل وجه إلا بتوكله واعتماده على الله تعالى، مسبِّبها ومصرِّفها والقابض على ناصيتها وأزمتها.

ويخبركم الدين مع ذلك أن التوكل وحده، بدون فعل الأسباب، وبدون القيام بالمقدور من الشئون الدينية والدنيوية، ليس بتوكُّل حقيقي، بل هو ضعف وعجز، فكلما قوي توكُّل المسلمين على ربهم، قويت أعمالهم النافعة، وقويت هممهم، وانبعثت عزائمهم إلى جميع مصالحهم، والربُّ تعالى لقيامهم بالأمرين وتحقيقهم للتوكل عليه واجتهادهم في فعل الأسباب، يعينهم وييسر لهم أمورهم، ويحقق لهم رجاءهم وينزِّل عليهم من نصره ومعونته وتأييده، بحسب قيامهم بالأمرين؛ والنصوص من الكتاب والسنة تحثُّ على الأمر بالتوكل على الله في كل الأمور، والأوامر بالأخذ بجميع الأسباب النافعة لا تنحصر، بل الدين كلُّه قيامٌ بالأسباب، وتوكل على مسببها ومصرفها. وهذا الذي نبَّهنا عليه من الدين الإسلامي هو من الكمال الذي لا يقاربه كمال، ويسقط به ويضمحل قول هذا الكاتب الذي يقول: إن الإيمان بقضاء الله وقدره، والتوكُّل على الله يوهن المسلمين ويضعفهم، وأنه يجب عليهم ترك ذلك؛ وأن التوكل على الله هو العلم بنظام الطبيعة، وكذلك الإيمان بالقضاء والقدر، كما صرح بذلك في صفحات (١٧، ٢٩، ٢٦٨، ٣١٥) من كتابه، ويتضح بذلك أن المسلمين حقيقةً المتبعين لإرشادات دينهم وتعاليمه؛ هم المتوكلون على الله حقيقةً، وأنهم أقوى الخلق على فعل الأسباب، امتثالًا لأمر ربهم وطلبًا لمصالحهم، واستمدادًا من قوته وارتقابًا لثوابه، وأن الدين الإسلامي يبطل الطريقين الذميمين: طريق العجز والضعف؛ الذي يتعلل صاحبه أنه متوكل على الله، وإنما هو مهين ساقط الهمة، معتذر بما لا يعذر به، وطريق الملحدين المعطلين، الذين يعتمدون على الأسباب ويرونها مستقلة؛ منقطعة عن قضاء الله وقدره، وأن الله لا يتصرف في الأسباب عندهم بإيجاد ولا تقوية ولا إضعاف ولا

بمنعها ولا له قدرة على معارضتها، كما قرره صاحب هذا الكتاب في ثنايا كتابه، خصوصًا في الفصل الأخير المعنون بـ: (مشكلة لم تحل)، وهذا هو التعطيل المحض والنفي لربوبية الله ولأفعاله، وهو في الحقيقة مذهب الدهريين الطبائعيين الجاحدين لله بالكلية.

وقد سلك أيضًا مسلك الدهريين في هذا؛ الذين يقولون: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، المنكرين للثواب والعقاب؛ حيث أنكر أن الإيمان والتقوى والعمل الصالح سبب للثواب العاجل والآجل، وأن الكفر والفسوق والعصيان أسباب للعقوبات العاجلة والآجلة، وتهكم بذلك وبالقائلين به المعتقدين له؛ كما صرَّح به ورده في الصفحات (٣٥، ١٦٥، ١٧٨، ٣١٥، ٣١٩، ٣٢٥). والسبب الوحيد عنده في المصائب الدنيوية وضدها، إنما هي الأسباب المادية فقط، وعمل الطبيعة. ثم لم يزل يقرر هذا الأصل الخبيث، حتى زعم أن الإيمان بالله وباليوم الآخر يمنع الرقي، ويمنع كون العبد سببًا محضًا منتفعًا بأعماله، وأنه غل ورباط يمنع من الخير والصلاح، وأن الأديان السماوية أكبر المصائب على البشر.

وقولٌ وصل إلى هذا الحد ليس بعده تقدم إلى الكفر، وإنما هو النهاية في الكفر والتعطيل، والجحود لرب العالمين، والخروج من الديانات السماوية كلها، وهو غاية الخروج من العقل والحس، فإن قضية الإيمان بالله ورسوله هي أكبر القضايا وأعظمها وأوضحها وأجلاها براهين وأدلة، وإثبات أنه هو الفعال لما يريد الخالق لكل شيء الذي يدبر الأمور كلها، ويكرم الطائعين، ويعاقب العاصين، فلا ينكر ذلك إلا مكابر مباهت منحل من العقل الحقيقي، بعد انحلاله من الدين، والمقصود أن صاحب الدين الصحيح هو أقوى الناس توكلًا على الله تعالى وعملًا بالأسباب النافعة، لأنه يعلم أن دينه يحثه على ذلك، وقد استصحب التوكل على الله والثقة به، وأن الله لا بدَّ أن يتم أمره، وخصوصًا الأسباب الدينية، والأسباب المعينة على الدين، فإنها من الدين في الحقيقة؛ لأن الدين هو جميع ما دلَّ عليه الكتاب والسنة مطابقة والتزامًا وتضمنًا، فهذا الدين لم يدع خيرًا إلا دعا إليه، ولا منفعة إلا حثَّ عليها، ولا طريقًا يوصل إلى إصلاح الأحوال الدينية والدنيوية النافعة

إلا رغَّب فيه، ولا مفسدة وشرًّا وضررًا إلا حذَّر منه، وأمر بأخذ الوسائل الواقية والدافعة له، فيا ويح هذا الكاتب القصيمي الذي زعم هذا الزعم الباطل؛ أنه مانع من التقدم والرقي ومجاراة الأمم الراقية في الحياة، وهل رقت هذه الأمم وسبقت غيرها في الاختراعات والفنون الصناعية المدهشة، إلا بعدما أدخلت عليها تعليمات هذا الدين، واقتبسوا أصل هذه الصناعات من المسلمين، بعد الحروب الصليبية وغيرها؟ ألم يكونوا في غابر الزمان والقرون التي يسمّونها القرون المظلمة في غاية الجهل والوحشية والهمجية في معرفة هذه الفنون والصناعات؟ ألم يكن المسلمون وقت قيامهم الحقيقي بهذا الدين هم سادات الخلق، الذين قهروا بفضل دينهم وأخلاقه وتعاليمه العالية جميع الأمم، وحطموها وأفنوا صروح أكبر دول الأرض يومئذٍ؟! ألم تكن مدنية الدين الإسلامي هي المدنية الزاهرة الحقيقية، حيث كان روحها الدين والعدل والرحمة والحكمة؛ وقد شملت بظلها الظليل، وإحسانها المتدفق؛ الموافق والمخالف والعدو والصديق؟! فهل أخّرهم دينهم ومنعهم الرقي الحقيقي؟ وهل نفع الآخرين كفرهم بالله وبربوبيته وإلهيته في تلك القرون الطويلة، إذ كانوا هم الأذلين المخذولين في مواقف الحياة، كما زعم هذا الكاتب الذي يهرج على من لا يعرف الحقائق؟

ثم لما ترك المسلمون الاستمساك بتعاليم دينهم وتفرقوا شيعًا، وارتقى الأجانب في علوم المادة وفنون الصناعات والاختراعات ووصلوا إلى أمر لم يسبق له مثيل، فهل أغنت عنهم هذه المدنية وهذا الرقي؟ وهل وَقَتْهم الشرور، إذ كانت مدنيتهم مبنية على الظلم والجشع والطمع المفرط وطلب استعباد الخلق، ولم يكن معها من روح الدين ورحمته شيء؟ فهل ردت عنهم هذه الملاحم والمجازر البشرية والإهلاك والتدمير، الذي لم يسبق له نظير ولا مقارب في تاريخ الخليقة؟ وهذا من أكبر البراهين على أن الرقي في هذه الحياة إذا خلا عن الدين الحق؛ صار ضرره أكبر من نفعه، وشرّه أكثر من خيره، إذا كان فيه خير، كما زعمه هذا الكاتب. فلو كانت هذه الأمم الراقية في الفنون العصرية معهم دين صحيح، وبنوا حضارتهم على الرحمة والعدل والحق والتسوية بين الخلق وبين الأمم القوية والأمم الضعيفة، في

الحقوق فما ظنك أن تصل بهم هذه الحضارة؟ وما ظنك بما ينكف بها من الشرور العظيمة التي جرت وهي جارية وستجري ما داموا على حالهم؟

أما تأخر المسلمين الآن في الفنون العصرية والاختراعات والصناعات وأشباهها فليس هذا التأخر منسوبًا إلى دينهم، فليس في دين الإسلام أصل من الأصول أو فرع من الفروع يوجب على أهله التأخر بوجه من الوجوه، وإنما الأمر بالعكس، كما تقدم التنبيه عليه بأن الدين الإسلامي قد جمع بين المصالح الدينية والدنيوية، وحثَّ على جميع المنافع وعلى الأعمال والعلوم النافعة، عكس ما رماه به هذا الكاتب من الجمود والتأخر ومنافاة الحضارة والتقدم وخدمة الحياة بزعمه، وإنما السبب الوحيد الذي أخّرهم في هذه الفنون، هو ترك الاستمساك بروح الدين ومقوماته، وترك الأخذ بما يحثُّ عليه من الاجتماع والائتلاف واتفاق الكلمة، والتشاور في الأمور كلها، وترك الأغراض الشخصية للمصالح الكلية، وبتركهم الجهاد القولي والبدني والمالي، وهو مقاومة الأعداء بكل وسيلة تناسب الزمان والمكان بحسب الاستطاعة؛ فالدين يحث على الأخذ التام بهذه الأمور التي لا قوام للأمم بدونها وهم كسلوا وغفلوا عنها علمًا وعملًا، وأهملوا مصالحهم ومالوا إلى الترف والدّعة والرضوخ والاستعباد للأجانب، فلما رآهم الأجانب بهذه الحالة المؤلمة لعبت بهم سياساتهم وفككتهم وفرّقتهم زيادة على ما اتصفوا به من التنافر والاختلاف، وعلى ما زهدوا فيه من الجهاد ومقاومة الأعداء، واستعبدوهم بكل حيلة وحللوا معنويتهم وروحهم الدينية وصاروا يضربون بعضهم ببعض ويقيمون لهم من جنسهم ومن بني قومهم ممن يتسمى بالإسلام من يقيم الدعايات الباطلة في تزويدهم من هذه الحال الحرجة وممن يفتّ في أعضادهم ويخدر أعصابهم، ويسعى بكل مقدوره في تأييسهم من التقدم وفي إماتة هممهم؛ كما ترى هذا الكاتب الذي توسل باسم الدين والغيرة على المسلمين، وسعى في نبذ الدين ومحاربته بهذه الطريقة التي أربت على طرق المنافقين؛ وزعم من بهرجته التي لا تروج على أحد أن المسلمين على اختلاف طبقاتهم من الصحابة والتابعين والقرون المفضلة وأصناف المحدثين والمفسرين والفقهاء والأصوليين وسائر طبقات الأمة كلهم زعم أنهم

لم يفهموا الدين، وأنه مستحيل أن يسعوا في مصالحهم، وغير ممكن لهم ذلك إلا بنبذه، وأنه قيود تمنع التقدم؛ كما صرح بذلك في صفحات: (١٧، ٣٦، ٦٨، ٧٦، ٧٧، ٩٧، ١٤٠، ٣١٥) من كتابه، وهذه دسيسة خبيثة، فإن كان أحد عنده أدنى تمييز يعلم حق العلم أن هذه المباحث التي اشتمل عليها كتابه منافية للدين بالكلية، ومناقضة له من كل وجه، ولكنه جاء بهذه الوسيلة ليقول المفترون: ليس دين الإسلام، ما فهمه المسلمون والأئمة والعلماء على اختلاف طبقاتهم، وإنما هو شيء آخر مجهول عندهم، وقد علمه هذا الكاتب، وهو ما أراده وسعى إليه من معانقة دين الملحدين، ورفض دين المسلمين وسائر المرسلين.

ثم إن هذا الكاتب لم يكفه أن يقدح في هؤلاء المتأخرين من المسلمين، بل وصلت به الحال إلى أن قدح في خير القرون؛ وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان وأئمة الدين والهدى، حيث زعم أنهم لم يفهموا من دينهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا، وأن معارفهم وعلومهم النافعة كلها بالنسبة إلى معارف المستأخرين من الملحدين، كنسبة معارف الأطفال إلى العقلاء الراشدين أو أقل من ذلك، وحثَّ غاية الحث على رفض مقالات هذه القرون المفضلة، وأنه يجب تعليم الناس الكفر بهؤلاء الأئمة وبمعارفهم وفضائلهم وما قالوه وعملوه أو ورثوه، وتهكم بمن يدعو إلى الأخذ بما أخذ به الأولون؛ وملأ كتابه من هذه المواضيع الخبيثة والوقاحة والجراءة التي لم يرتكبها غيره كما صرح به في صفحات (١٤، ١٦، ٢٩، ٦١، ٦٤، ٦٦، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٨٥، ١٢٠، ١٤٠، ١٧٠، ٢٩٣، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٨، ٣١١، ٣١٥). فيا ويحه ما أخسر صفقته وأقل حياءه، وهل يشك أحد أو يرتاب مسلم أو منصف، ولو كان من غير المسلمين أنه لم يوجد ولن يوجد أحد أكمل علمًا وفضلًا وأخلاقًا وعدلًا ورشدًا وعقلًا وكمالًا في كل الخصال العالية من الصحابة والتابعين لهم بإحسان؟ وأنه ما وصل لأحد غيرهم خير وفضل وعلم إلا على أيديهم؟ وقد كذّب في كتابه هذا ما كتبه عنهم في كتبه السابقة، وقد شهدت الأمم الأجنبية بكمال فضلهم وشمول رحمتهم وعدلهم؛ قال جوستاف لوبون فيلسوف فرنسا الشهير: «ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب».

وكانوا إذا فتحوا البلدان، وجرت عليها أحكامهم العادلة وشفقتهم على بني الإنسان، امتلأت قلوب الأجانب من محبتهم، وتمنوا دوام ملكهم وسلطانهم، واختاروهم على قومهم وأهل دينهم؛ مع أن النفوس مجبولة على التعصب، لما ألفت من الأديان والأوطان والأنساب والمذاهب؛ فلولا أنهم رأوا من رحمتهم وعدلهم، ما لم يشاهدوا له نظيرًا، لم يخضعوا كل هذا الخضوع، ويعطوا ما بأيديهم مذعنين راغبين غير مقهورين على إرادتهم، فإنهم يجدون الفرص الكثيرة لحدوث الثورات، ولكن الرحمة والعدل من المسلمين أوجبا لهم السكون والطمأنينة، لظلِّ هذا الدين القويم، وهذا الكاتب يعلم حق العلم أنه كذّب نفسه بنفسه وأنه ناقض في كتابه هذا ما كتبه في كتبه السابقة، ولهذا جعل يندب نفسه ويندم ويتحسر وينوح على زمانه الماضي، وكيف قضاه في عبادة الله ومتعلقاتها؛ لأنه لا يجهل أن الناس يعرفون منه هذه الحالة، ولهذا كان الكلام معه في هذا الكتاب، لا يشبه الكلام مع المبتدعين من المسلمين، الذين يعظمون الدين ويؤمنون بالله ورسله، وإنما يتكلم معه كما يتكلم مع الأجانب عن الدين والكافرين به، ويناظر كما يناظرون، لأنه في كتابه هذا كشف الغطاء وصرح بالعظائم الكبرى المنافية لدين الإسلام بالكلية.

ثم إن هذا الكاتب يزعم أن تلك القرون المفضلة، التي لم يشاهد الناس لها مثيلًا في الجلال والجمال والكمال، لم تبلغ رشدها بل هم في طور الطفولة، وعنده أن الرشد والكمال المفضل منحصر في الماديين من الملحدين؛ كما صرح به في تلك الصحائف آنفة الذكر؛ والسبب الذي أداه إلى هذه المقالات الجائرة المنحرفة، أن الفضل منحصر عنده في شيء واحد، وهو عبادة الطبيعة ووجوب إعطائها القلب والقالب والظاهر والباطن، والانصراف بالكلية إلى هذه الحياة فقط، والتمتع بزهرتها، والانحلال عن القيود الدينية، وإباحة جميع ما تشتهيه النفوس، وإطلاق العنان لها؛ كما أطال في هذا الموضوع وردد فيه الكلام الساقط، ثم في مقابلة ذلك التحامل على كل ما يعارض هذا الطريق والتهكم بالدين وحملته، فإذا كان هذا هو الكمال عند هذا المنحرف، لم يستغرب بعد هذا قدحه في خير العالمين، وسخريته من علومهم وأخلاقهم وأعمالهم، وما هم عليه في جميع الأحوال، فصار منطبقًا عليه

وعلى أمثاله غاية الانطباق قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣] ولهذا ارتكب العظائم في تحليله لحياة النبي ﷺ وشخصيته الكريمة، بكلام طويل مردد كقوله: كان يعبد الطبيعة، وأنها قد أخذت بقلبه وقالبه ولبّه، وأنه كان يناجي الليل والنهار والضياء والظلمة والنسيم ونحوها مما يشاهد، وأنه افتتح رسالته بمناجاة الطبيعة والخلوة بها في غار حراء، وختم رسالته وحياته بشدة النزوع إليها وقت السياق حيث كان يقول: «**في الرفيق الأعلى**»[1].

وهذا بعينه قد أخذه من دعاة النصارى المفترين، الذين لما بهرهم ما جاءهم به محمد ﷺ من الدين الحق والتعاليم العالية والرقي الكامل والفتوح الباهرة والآثار التي لم يحصل عشر معشارها لأحد من الخلق؛ طفقوا يموهون على الناس ويحللون حياته ﷺ تحليل أحد رجال الطبيعة، يعني الذين لا يؤمنون بالله وملائكته وعالم الغيب من الأرواح والجن بله الدار الآخرة، وما وراء المحسوسات والملموسات، فأخذ عنهم هذا المأخذ الخبيث، وأنكر الوحي والرسالة بهذا التحليل؛ ورمى النبي ﷺ بأنه طبيعي لا يعرف الله ولا يعرف الوحي، فلم ينزل عليه جبريل من عند الله، ولا كان يناجي الله ولا يعبده، ولا كان عند السياق إلا مشتاقًا إلى الطبيعة فقط، لأنه لا يعرف الله ولا يريده ولا يحبه ولا يطلبه عند هذا الكاتب الذي تجرأ على ما لم يتجرأ عليه من يتسمى بالإسلام من الملحدين. ولا تستغرب هذا عليه؛ فإنه سيأتي أنه صرح تصريحًا لا تردد فيه بالكفر بالأنبياء والرسل كلهم، وصرح أنهم لم ينفعوا الخلق بوجه من الوجوه، فمن كانت هذه وقاحته وتصريحاته، فلا يستبعد عليه شيء؛ وظهر بهذا غرضه الوحيد، وهو الدعاية البليغة إلى نبذ الدين وأصوله ومحاربته بكل طريق. ومن فضل الله أن طريقته في كتابه قد عرفها الناس، وعرفوا ما ترمي إليه من الغايات، وعرفوا الأيدي المحركة لها، ويأخذهم العجب الكبير؛ كيف صار هذا الرجل بعد سوابقه فريسة لأعداء الدين، وآلة لهم صماء في طريق مآربهم ومقاصدهم؛ فنسأل الله أن

---

(١) البخاري (٣٦٦٧)، مسلم (٢١٩١).

يهدينا وإخواننا المسلمين، وألا يزيغ قلوبنا بعد الهداية. والمقصود أن هذا الكاتب جعل الفضل كله في جانب الأجانب الكفار، ولم يدر - أو درى وتجاهل، وهو الأحرى بمثل هذا الرجل - أن الفضل الحقيقي هو السعي في طرق الكمال، والتخلق بكل خلق جميل، والتنزه عن كل خلق رذيل، وهو الفضل الذي يرقي القلوب والأرواح، ويوصل أهله إلى أعلى الغايات وأشرف السعادات، الذي أصله وأساسه العقائد القلبية المؤسسة على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والأعمال القلبية التي مدارها على الإنابة إلى الله، وانجذاب دواعي القلب كلها إلى الله رغبة ورهبة ومحبة وخوفًا ورجاء وقصدًا وطلبًا وتعبدًا وتألهًا وإخلاصًا صادقًا لله وحده لا شريك له.

ثم القيام بالشرائع الظاهرة؛ من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت الحرام والجهاد في سبيل الله، وما يتبع ذلك من القيام بحقوق الوالدين والأقارب والجيران والأصحاب والمعاملين وتوفية الحقوق كلها بالعدل والإنصاف وعدم الظلم والجور على القريب والبعيد والعدو والصديق، وبذل الجهد بالقيام بكل ما يعين المسلمين على أمر دينهم، والاستعداد الكامل لمقاومة الأعداء، والسعي في جمع كلمة المسلمين، ومحبة الخير لهم وتحصيله بكل مقدور، فإذا كان هذا هو الفضل الحقيقي، وهو كذلك؛ فقد علم كل من له أدنى تمييز أن للصحابة والتابعين لهم بإحسان من هذا أوفر الحظ والنصيب، وأن الصحابة رضي الله عنهم فوق جميع طبقات الأمة، في كل فضل وعلم وعمل، كما أن الأمة أكمل الأمم في كل فضل وخير، وأكمل الأمم المنتسبة إلى الأديان، فكيف بالأمم المنحلة المعطلين لرب العالمين، الذين انحلوا من عبادة الرحمن، فعبدوا الطبيعة، فتبًّا لمن آثرها بظاهره وباطنه، على الله ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]. وزعم هذا الكاتب أن التقيد بالإيمان بالله، وبما أخبر الله به على ألسنة رسله قيد وغل، يحول بين الإنسان وبين المطالب العالية النافعة، ويقيده عن عبادة الطبيعة، التي هي الغاية عند أمثال هؤلاء، فيحق لمن كان هذا منتهى مراده وطلبه أن يكون أول من يدخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا

كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧،٨]. وفي قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ١٥]. إلى آخر الآيات.

ثم إن هؤلاء المنحرفين الملحدين، الذين انخدع هذا الكاتب بدعاياتهم الخبيثة، يدعون إلى نبذ كل قديم واعتناق كل جديد، وقد أبدى هذا الكاتب في هذا وأعاد، وكرر ذلك مريدًا بهدم القديم هدم أصول الدين وقواعده، كما تجده في صفحات: (١٦، ٣٧، ٦٤، ٦٩، ٧٠، ٩٦، ١٦٠، ٣٠٢، ٣١١) من كتابه، وغيرها من الصفحات، وهذه الدعاية الخبيثة مقصودها الأعظم وأساسها الذي بنيت عليه رفض الشرائع والأديان والانحلال من قيود الدين وحلّه وتحريمه وجميع أحكامه، والانخراط في سلك المعطلين لرب العالمين المنحلين من جميع شرائع الدين، وأول ما يدخلون في هذا الأصل الباطل رفضُ ما جاء به الرسول ﷺ من أصولٍ وأخلاقٍ وأعمالٍ وغيرها، وتوصلوا بهذا إلى الطعن في خير القرون وإهدار أقوالهم وعقائدهم وعلومهم، بل وجميع محاسنهم، والحمل على حَمَلة الشريعة وأئمة الهدى ومصابيح الدجى، كما أشرنا إلى الصفحات الموجود فيها ذلك.

ثم إن هذا الكاتب بهرج على من لم يعرف الحقائق بالاستدلال بأحوال المنحرفين من الصوفية والخرافيين، ومن تسمَّى بالدين وهو منه بريء، وأورد من خرافاتهم وخزعبلاتهم، ما يُظَنُّ أنه يروِّج به باطله، حيث نسبه إلى حملة الدين، وهو يعلم حق العلم أن الدين وأهله الذين هم أهله؛ هم أبعد الناس عن هذه الخرافات، وأعظم المنكرين لها، وأنهم يبرءون منها، وينزهون الدين الإسلامي عنها، فكيف لا يستحي أن يستدل بأحوال ابن عربي، وخرافات الشعراني، وشطحات المتصوفة على الدين وأهله، ويتوسل بذلك إلى القدح في الدين وحملة الدين، وهو يعلم حق العلم أن الإسلام بريء من هذه الأمور والشطحات والخرافات، فكيف لا يستحي من هذه البهرجة والتناقض، أيظن الناس كالبهائم العجم التي لا تفهم شيئًا، أم سحر عقله فصار يهذي بالباطل وبما يغلي به صدره من الغل والإلحاد؟! ألم يعلم أن الدين وأهله الذين هم أهله الذين عرفوا الحقائق، وميَّزوا بين الحق والباطل،

والمحقين والمبطلين ينفون عنه انتساب كل مبطل كما ينفون عن حقائقه كل باطل، وأن المبطل لا يروج أمره عليهم بمجرد انتسابه إلى الدين؟ فكم انتسب إلى الدين من الزنادقة والمشركين والمنافقين من هو شر من اليهود والنصارى، فمن احتج بأحوال من انتسب إلى الدين وأهله، فهو من المزورين المبهرجين، وكذلك من احتج بالآثار والحكايات الباطلة على الدين؛ فهو مفتر كذاب؛ كما فعل هذا الكاتب، وملأ كتابه من الخرافات والحكايات الكاذبة، ونسبها لأهل الدين ليتوصل بذلك إلى القدح فيه وفي أهله، والدين كما يعلم كل من له بصيرة أنه نقي خالص حق في أصوله وفي فروعه وفي أخلاقه وآدابه، وتعاليمه جميعها في غاية العلو والسمو والمكانة العالية، التي لو اجتمع جميع العقلاء أن يقترحوا أحسن منها، أو ما يقاربها لعجزت أفكارهم، وقدرتهم عن ذلك، لأنه تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويعرف هذا بتتبع أصوله وفروعه ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]. أي يهدي لأصلح الأمور من العقائد والأخلاق والآداب والأعمال للأسباب وغيرها، فليأت هذا الكاتب أو غيره بمثله إن كانوا صادقين، فإن الدين الإسلامي قد فصَّل الحقائق، وبيَّن المناهج الصحيحة والطرائق، وميَّز بين الحق والباطل، وبيَّن أولياء الرحمن من أولياء الشيطان، وبيَّن الخير والشر، وبيَّن العلوم النافعة التي تنفع الخلق في دينهم ودنياهم من العلوم الضارة التي هي بضد ذلك، وهذا الرجل يدعي أن العلوم كلها نافعة، وليس فيها شيء ضار بوجه من الوجوه، والله يقول: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فالدين هو الميزان الذي توزن به الأقوال والأفعال، ويعرف به الطيب من الخبيث، والنافع من الضار، فمن رفض من هؤلاء الملاحدة القديم، وعنى به هذا الدين الحق، فإنه في حقيقة الأمر قد رفض جميع الحقائق الثابتة، ورفض العلوم والأعمال النافعة؛ فمن أين لهذا النشء الحديث علوم نافعة، وأعمال نافعة إلا من معين هذا الدين؟ من أين لهم أن يعرفوا رب العالمين بأسمائه وصفاته، الذي هو أجلّ المعارف وأكبرها وأصلها؟ ومن أين لهم أن يوحدوه ويؤمنوا به، وبما جاءت به الرسل إلا من هذا الدين؟ ومن أين لهم أن يقوموا بحقوقه، وحقوق

خلقه العادلة الفاضلة، ومن أين تأتيهم إلا من هذا الدين؟ ومن أين لهم أن يهتدوا للأخلاق الجميلة، ويتنزهوا عن الأخلاق الرذيلة إلا من هذا الدين؟ ومن أين لهم أن يعرفوا الصراط المستقيم المحتوي على الحق علمًا وعملًا إلا من هذا الدين القويم؟ ومن أين لهم معرفة الشرائع والأحكام، والحلال والحرام، والعقود والعهود، والشروط والحدود والمواريث وتوابعها إلا من هذا الدين؟ ومن أين لهم الطريق الذي أدركوا به تعلم الصناعات، وأنواع الفنون والمخترعات النافعة إلا بعد أن نشر هذا الدين ظله على الخلق، فأشرقت على الأرض أنواره، فاقتبس من هذا النور كل أهل علم نافع في الدين والدنيا، كل أحد بحسب مشربه؟ فإن هذا الدين هو الذي أسّس أصول الصناعات وقواعدها النافعة، وأمر بها حيث يكون فيها مصلحة للدين ومنافع للناس كافة، كما تقدمت الآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقوله: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١]. وقوله: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وامتن على الإنسان بأن علَّمه ما لم يعلم من جميع العلوم والفنون النافعة، فهذه علوم الشريعة على وجه التنبيه والاختصار كما ترى، هل بقي علم نافع إلا دخل فيها؟ وهل بقيت معارف يحتاج الخلق إليها في أمور دينهم ودنياهم، إلا احتوى عليها؟ وهل ندّ عنها وسيلة وسبب وطريق، من الطرق النافعة إلا واشتمل عليها؟ فإذا رفض هؤلاء الملحدون القديم، وعنوا به دين الإسلام فقد رفضوا جميع الأمور النافعة فأي شيء يبقى بأيديهم يؤسسون عليه علومهم وأعمالهم؟ فهؤلاء الذين يذمون القديم - ومؤلف كتاب **الأغلال** حامل رايتهم - مرادهم بذلك التوسل إلى رفض الدين الإسلامي، بل صرحوا بمرادهم، ومع ذلك فهم كذبة يتناقضون في هذا الإطلاق، فإنهم يذهبون إلى تقليد أرسطو وأفلاطون والفارابي وابن سينا ونحوهم من ملاحدة الأولين والآخرين، فهؤلاء وإن كان لهم مهارة في علوم المادة المحضة، فإن كلامهم في الدين وأصوله أضعف بكثير من كلام أدنى طلبة العلم الديني، كما هو معروف من أحوالهم.

ومن أراد الوقوف على جهل هؤلاء الذين عظَّمهم هذا الكاتب، فلينظر إلى المناظرات بين أقوالهم وأقوال أئمة الإسلام، ولينظر إلى كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله خصوصًا

العقل والنقل الذي وضَّح به بالبراهين العقلية، فضلًا عن النقلية جهلهم البالغ ومعارفهم الضئيلة في أصول الدين، وضلالهم العظيم فيها، وإنما الذي رفع شأنهم عند أتباعهم، معرفتهم في علوم الطبيعة، الذي يشترك فيه البرُّ والفاجر، فهؤلاء وأمثالهم يقدّمهم هذا الكاتب، على ما جاءت به الرسل، ويقدمهم بلا خوف ولا خجل على ما جاء به محمد ﷺ وما ذهب إليه الصحابة والتابعون وأئمة الدين والهدى، وحسبك بقولٍ هذا منتهاه، وهذا حاصله بطلانًا وفسادًا وجهلًا وضلالًا، بل مكابرة وعنادًا، وهذا الكاتب سلك في نصر هذا المذهب الخبيث مسلك الأجانب؛ أي الأجانب عن الدين يريد أعداءه ورافضيه، الذي ليس الغرض منه إلا إضلال الخلق، وهو كما ترى منافٍ للعقل والدين، أما الدين فلا يمتري فيه أحد كما نبهنا عليه، وأما العقل فإن العقل والدين متآزران، لا يردُ الدين بما ينافي العقل الصحيح، ولا يمكن أن يرد شيء معقول مقطوع به يخالف الدين بوجه من الوجوه، وقد أخبرناك بأن الدين قد نبّه على الأصول النافعة كلها، وأن نهاية ما فعله المتأخرون هو ترقية الصناعات وتفريع المخترعات والمهارة العظيمة من أمور الطبيعة، التي كانت أصولها يتناقلها الخلف عن السلف؛ ثم إن هذا الكاذب موّه على الناس، وزعم أن الذي أوصل هؤلاء المتفننين في العلوم العصرية والاختراعات نبذهم للدين، وكل أحد يعلم أن نبذهم الدين لم يوصلهم إلى مصلحة دنيوية، فضلًا عن المصالح الدينية، وإنما الذي أوصلهم إلى الترقي في هذه الفنون، جدّهم البليغ واجتهادهم ومواصلتهم الليل مع النهار في تعلمها وإدراكها وتفريعها وترقيتها، وقد تقدم لك أن الدين الإسلامي، يحث على تعلم كل نافع منها، ويأمر بكل علم يعين الأمة على مقاومة الأمم ويوصلها إلى مصالحها، فمن استدل بتفوق الأجانب في علوم المادة على صلاح دينهم وفساد دين غيرهم؛ فهو من أجهل الخلق، وأبعدهم عن المعارف بالكلية، أو مغرر مموه يقصد الترويج على من لم يعرف الحقائق، كما هو دأب هذا الكاتب الذي يسعى فيه.

ومن تمويهاته الشنيعة التي يريد بها محاربة الدين وأهله، أن يزعم أن المسلمين يحثون على الفقر والبأساء والضراء وأنواع المصائب، ويطلبونها ويسعون في تحصيلها بكل طريق،

ويسخر منهم، ومن ذكر الأدلة من الكتاب والسنة الدالة على فضيلة الصبر على الفقر والأمراض وأنواع المصائب، كما صرح بذلك في صفحات (١٢٦، ١٤٠، ٣١٩) وكذلك جميع النصوص الدالّة على ذلك من الكتاب والسنة، وهذا من باب قلب الحقائق؛ فإن ذلك من أعظم محاسن الدين الإسلامي، حيث أرشد أهله إلى التربية العالية، التي هي أنفع التربيات وأجلّها وأكثرها آثارًا حميدة، فقد تكاثرت نصوص الكتاب والسنة في فضل الصبر على المصائب والأمراض وأنواع المحن، التي لا بدَّ للخلق كلهم منها في هذه الدار، وذكر فضائل الصابرين، وما لهم من عند الله من الثواب، وذلك ليوطنوا أنفسهم على تقلبات هذه الحياة الدنيا من غنى إلى فقر، ومن يسر إلى عسر، ومن بأساء وضرَّاء إلى خير وسرَّاء، ومن عافية إلى مرض، ويعلمهم كيف يتلقون هذه الأمور الملازمة للبشر في أطوار حياتهم، فهي من ضرورات الحياة والوجود، وأمرهم أن يتلقَّوا النِّعم والخيرات، بالشكر والاعتراف بنعمة المنعم، وصرفها في الأمور النافعة، في أمر الدين والدنيا، وعدم الطغيان والبطر فيها، وأن يتلقوا المكاره والمصائب بالصبر والاحتساب والرضا بما مَنّ المولى، والرجاء لثوابها العاجل والآجل، فهم يتقلبون في أحوالهم كلها مسرورين مغتبطين، إن أصابتهم سرَّاء شكروا، وقاموا بحق المنعم، وصرفوها فيما يعود عليهم بالنفع عاجلًا وآجلًا، وإن أصابتهم الضرَّاء صبروا وتضرعوا، فهم أقوى الخلق، وأجلدهم عند المصيبات والمكاره، التي لا يسلم منها بر ولا فاجر، بل كثير منهم يتلقونها بالرضا والطمأنينة والشجاعة التامة وعدم الكراهة، حيث تخور عزائم المنحرفين عن الدين، عند المصائب، ويجري لهم من التسخطات والجزع والهلع والآلام القلبية والزلازل الروحية والفظائع والفجائع، التي قد توصلهم إلى الانتحار، الذي يبرهن على ضعف النفوس وخورها، وأنه بلغ معها المكروه مبلغًا لا تصبر معه على الحياة، فقارن بين هذه الحال الفظيعة وحالة المسلمين القائمين بوظائف دينهم؛ تجد الفرق العظيم بين النفوس والهمم القوية من المهينة، ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ٩ - ١١].

وتعرف بذلك أن النصوص التي فيها فضائل الفقر والفقراء والأمراض والمصائب المتنوعة، والحثُّ على الصبر والمرض وبيانُ ما في ذلك من الثواب، لقصد حث النفوس على مقابلتها خير مقابلة، وأن ذلك من محاسن دين الإسلام؛ حيثُ يُمَوِّه هذا الكاتب أنَّ نقل أهل العلم وهداة الأمة هذه النصوص تدل على سوء حال المسلمين، وأنهم بذلك يسعون ويطلبون هذه الأمور بجدّهم؛ وهذا من التمويه الذي لم يصل إليه أحد من الأجانب، فأين دعواه أنه ينصر الدين، وهو من أكبر المحاربين له؟ ولقد علم كل أحد أن هذه النصوص قُصِد بها تربية المسلمين على مجابهة هذه البلايا بصدور منشرحة ونفوس مطمئنة، وكلُّ عارف بدين الإسلام يعرف أنه يأمر بالأخذ بجميع أسباب الصِّحة؛ من تدبير الأغذية والنوم والنظافة الإيمانية والحركة الرياضية ونظافة الأبدان والثياب والفرش والمساكن وغيرها، حيث يَدَّعي هذا الكاتب عكس ذلك، فليأتنا بمثال واحد ونصٍّ واحد من الدين، يدل على ما قاله من رميه الدين وأهله بالدَّنس والوسخ والأخلاق والآداب المزرية؛ فيا ويحه ما أعظم جرأته، وكذلك هذا الدين يحثُّ على التداوي إذا وقعت الآلام، ويخبرهم الشارع أنه «ما من داء إلا وله شفاء ودواء، علمه من علمه وجهله من جهله»[1]؛ لئلا يخلدوا إلى الكسل عن مداواة بعض الآلام، ويظنون أنه لا دواء لها فإنهم إذا علموا أن لها دواء جدُّوا في تعلمه وطلبه، وكذلك المسلمون يسعون في دفع مضرات الفقر والأمراض والبلايا، ويسألون الله العافية منها، فهم يدافعون أقدار الله المكروهة شرعًا وطبعًا، بأقداره المأمور بها شرعًا وطبعًا، وليسوا كما رماهم به هذا الكاتب، أنهم يسعون لتحصيلها، فهم أصبر الخلق على المصيبات، وأعظمهم سعيًا في جميع الأسباب النافعات، وليسوا كمن صرف جميع هِمَّته في السلامة من الأمراض البدنية والفقر، ولا يبالي بدفع الأمراض الروحية، التي هي أشد فتكًا وأعظم هلاكًا وأدوم شقاءً،

(١) البخاري (٥٦٧٨).

وهي أمراض القلوب، ولا في دفع الفقر الحقيقي، وهو الإفلاس من الباقيات الصالحات، كما يدعو إليه هذا الرجل، ويحث عليه في كتابه، ويحث على صرف الهمة كلها للوسائل، ويزهد ويثبط عن المقاصد النافعة، التي لا تنفع الوسائل بدونها.

فهل ينفع إصلاح الأبدان فقط مع فساد القلوب؟ وهل يفيد إصلاح الدنيا فقط مع تخريب الآخرة؟ فالآخرة والعمل لها ليس عند هذا الكاتب لها ذكر ولا خبر؛ وإذا انهار الأصل تداعت الأركان والفروع؛ فالمسلمون بالمعنى الحقيقي يقومون بعبودية الله التي خلقوا لأجلها، ويستعينون بما في هذه الدنيا على هذا المطلوب الأعظم، فهم أطيب الخلق نفوسًا وأغناهم قلوبًا وأشكرهم لله عند النعم والمحبوبات، وأصبرهم عند البلايا والمكروهات، فدين الإسلام من محاسنه أنه يدعو إلى هذه الحياة الطيبة، ويجمع بين الوسائل النافعة والمقاصد المطلوبة، حيث تدعو الآراء المنحرفة التي يدعو إليها هذا الكاتب إلى اللذات الحاضرة الجزئية والشهوات والأغراض السفلية.

ومن تأمل كتاب هذا المنحرف رأى أنه يُبدي ويُعيد في صرف القلوب بالكلية إلى الشهوات واللذات وإطلاق السراح للنفوس، وأنه لا ينبغي أن تتقيد بشيء يصدّها عن تحصيل مآربها السفلية، ثم في مقابلة ذلك يهون الجزاء الأخروي، وقد يستهزئ به ويجيء بأساليب استهزاء وسخرية محزنة، كما ذكره في صفحات (١٧، ٣٥، ٣٧، ٦٦، ٧٨، ٨٥، ١٢٦، ١٧٨، ٣١٩، ٣٢٥). فيا ويحه ماذا أبقى على دينه، بل ماذا أبقى على عقله؟ فإن الاستهزاء والسخرية بوعد الله ووعيده، كما أنه مخرج من الدين، فإنه مخرج من طور العقل، فهل في القضايا والحقائق أعظم وأكبر من وعد الله ووعيده؟ وهل في جميع المسائل الكلية والجزئية أجلى برهانًا وأوضح أدلة من أدلة هذا الأصل العظيم، الذي اجتمع على تحقيقه وتصديقه جميع الأنبياء والرسل والأدلة السمعية والعقلية، بل والأدلة الحسية المشاهدة؟ فمن أنكر ذلك واستهزأ به فقد نادى على عقله بالسفه والخروج عن طور العقلاء، بعدما خرج من الدين، فكل من استهزأ بالإيمان وبوعد الله ووعيده، فإنه داخل في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ

كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]

ومن بحوث هذا الكاتب الخبيثة أنه أنحى على خيار الخلق، وحمل عليهم في قيامهم بخالص العبودية وروح الدين والإسلام، وهو الافتقار التام إلى الله وتفويض العبد أموره كلها إلى الله، ونقل كلام ابن القيم رحمه الله في حقيقة الفقر، ذلك الكلام النفيس القيم في تحقيق العبد افتقاره إلى ربه وتعلق قلبه التام بربه، الذي جاءت به الكتب ودعت إليه الرسل، وتنافس في نيله أرباب الصدق والإخلاص، وأولو الألباب، فساقه مع غيره، نافيًا له متهكمًا، ساخرًا بعباد الله المخلصين، هازئًا بالأخيار المفتقرين إلى الله خالقهم الغني الحميد، وهو في الحقيقة المسخور منه، المبتلى ببلوى يسألون الله منها العافية، وهذه السخرية في الحقيقة والتكذيب موجهة إلى روح الدين، فإن روح الدين هو التواضع والذل التام لرب العالمين، ورؤية العبد افتقاره الحقيقي إلى ربه واضطراره إليه في جلب مصالحه ودفع مضاره، وأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا بوجه من الوجوه، وأن من تمام عبوديته إلى ربه أن يلجأ إليه ويضرع إليه في جميع شئونه، ويعلم أنه في غاية العجز والضعف عن القيام التام بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وعن القيام بجميع الوسائل النافعة، وأنه وإن لم يُعنه ربه لم يتم له أمر؛ فالمسلمون يعلمون أن افتقارهم إلى ربهم لا ينافي قيامهم بالأسباب النافعة، كما أن القيام بالأسباب لا ينافي الافتقار إلى الله تعالى، بل كل واحد من الأمرين يمد الآخر؛ فكلما ازداد العبد افتقارًا إلى ربه والتجاء إليه جاءه من معونة ربه وتيسير أموره ما لا يحصل له بدون ذلك، وكلما قام بالأسباب مستعينًا بالله أمدّه بإعانته وتوفيقه.

فهذا الكاتب ظن أو جعل افتقار المسلمين إلى ربهم يوجب الضعف والكسل وموت الهمم، وصوّره بهذه الصورة الشنيعة، ثم طفق يحط على خيار المؤمنين ويرميهم بضعف الرأي والهمة والعقل، ولم يعلم المسكين أنه ينادي على نفسه بسفاهة العقل وقلة الإدراك، إذ كان هذا ظنه، وإن كان الأمر غير ذلك، فهو يبرهن على خداعه وبهرجته وتصويره حالة المسلمين بحالة شنعاء، ليتوسل إلى القدح فيهم وفي دينهم، عند من لا يعرف الحقائق، ويح

هذا الرجل إذا أنكر روح الدين ومقوماته وأصوله العظيمة، التي لا تستقيم جميع الأمور إلا بها، فماذا يعترف به؟ وإذا ذم الافتقار إلى الله والرجاء له في كل الأحوال، والاعتراف بأنه هو الميسر للأمور المسهل للصعاب الذي ما بالعباد من نعمة وخير وتوفيق فليس إلا منه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، وهو الذي يجيب دعوات المضطرين ويرحم ضعف المفتقرين ويجبر قلوب المنكسرين لجلاله، الطامعين كل الطمع في فضله ونواله، إذا ذم هذا فأي شيء يحمد ويمدح؟ أيحمد النفس الضعيفة المهينة العاجزة عن مصالحها إلا بإعانة ربها؟ أو يثني على الطبيعة ويأمر بالافتقار إليها وصرف الهمم والقلوب إليها؟ وهذا ما يدعو إليه؛ فيا ويحه ما أخسر صفقته، ويا ليت شعري ماذا يقول في أكمل الخلق في جميع الصفات الكاملة وسيد المتوكلين وقدوة المفوضين وأعظم الخلق افتقارًا إلى ربه بكل معنى واعتبار حين يقول ﷺ: **«اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك، وأصلح لي شأني كله، اللهم إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف وعورة وعجز وخطيئة، وإني لا أثق إلا برحمتك فارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك»**[(١)]

لا بدَّ أن يقول: إن هذه حالة ذميمة، صاحبها مهين ضعيف النفس كسلان، كما صرح به حيث وجه الذم إلى المسلمين المفتقرين إلى ربهم، حسبك بقولٍ فسادًا وبطلانًا وشناعة أن يبلغ هذا المبلغ؛ ولقد تمم كلامه في الافتقار إلى الله كلامه في التوكل، حيث فسر التوكل بتفسير طويل مردد يرجع حاصله إلى أن معناه العلم بنظام الكون، وأنه لا يتغير ولا يمانعه ممانع، ولا يغير الله أسبابه، بإيجاد أو تقوية أو زيادة أو نقص، فأبطل التوكل من أصله ونفاه من أسه، والتوكل هو من أعظم أصول الدين وأعمال القلوب، التي لا تتم شروطها إلا بالإيمان التام بالله تعالى، والإيمان بقضائه وقدره، وأنه تعالى هو المتصرف ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الأمور كلها بيده وتحت تدبيره، وأن نواصي العباد بيده تعالى، وأن

(١) أحمد (٢٠٤٣٠). وأبو داود (٥٠٩٠)، والنسائي (١٠٤١٢).

أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وجميع شئونهم الجليلة والحقيرة منتظمة في قضائه وقدره، وأن أفعالهم من طاعات ومعاصٍ داخلة في مشيئته وقدره، وأن الله جعل لهم الاختيار فيها ولم يجبرهم عليها، فإذا علم العبد ذلك حق العلم اعتمد على ربه اعتمادًا حقيقيًّا في جلب مصالحه وفي دفع مضاره الدينية والدنيوية ووثق بتحقيق مطلوبه، وأن الله كافٍ من توكل عليه، فهذا التوكل الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، واتفق عليه جميع أهل الملل والأديان الصحيحة، وهذا قد أبطل ذلك كله؛ لأن من كان أصله نبذ الإيمان والحث على نفيه، وزعمه أنه لا تقوم الأسباب إلا برفض الإيمان، ومن كان مذهبه أن التدبيرات في العالم العلوي والسفلي كلها من تدبيرات الطبيعة ونظامها وتفاعلها وتطورها، ومن كان مذهبه في الوحي ذلك التفسير الذي نبهنا عليه، ومن كان رأيه في الجزاء الدنيوي والأخروي ما أشرنا إليه، ومن كان يدعو إلى رفض القديم الذي هو كتاب الله وسنة نبيه، ومن كان يأمر الناس بثقافة جديدة إلحادية ينبذ فيها تعاليم الدين وأخلاقه كلها، ومن صرّح بالكفر بجميع الأنبياء تصريحًا لا يمتري فيه كما سيأتي إن شاء الله نص كلامه، ومن كانت هذه الأصول الخبيثة وغيرها أصوله التي يبني عليها، فلا تستغرب عليه إنكاره للتوكل على الله، وتكذيبه جميع نصوص الكتاب والسنة في معناه.

وكذلك من مباحث هذا الكتاب الضارة، التي بلغت في الفظاعة ووصلت في الخلاعة مبلغًا ما وصل إليه ولا تجرأ عليه أحد له أدنى عقل وبصيرة من الأولين والآخرين، ما يبديه ويعيده ويكرره، أن الإنسانية لا تزال في تطورها وترقيها، حتى تصل إلى الاتصاف بصفات الرب العظيم، إن كان يثبته بلفظه فالإنسان بزعمه يمكنه أن يكون بكل شيء عليمًا، وعلى كل شيء قديرًا، وأنه قد علم ما كان في أول الموجودات، وما يكون من آخرها، وأنه علم مبدأ هذه الخليقة، وخلَّف علوم الرسل خلف ظهره، وهو يحاول علم ما سيكون في هذا العالم، بل علم مقدار ما بقي من عمر هذا العالم، وقد علم حالة العالم السفلي، وهو يحاول وسيدرك علم العالم العلوي وصنع الصور والأجسام، وهو يحاول أن ينفخ فيها الروح،

فهو لا يستبعد إيجاده للحيوان الصناعي والإنسان الصناعي غير مبالٍ بتكذيبه لله ورسله، فقد زعم أنه قد يتمكن أن يوجد الحيوانات، ويزعم أن التفريق بين الخالق والمخلوق أكبر الأغلاط، وأنه يجب ألا يفرق بين الرب العظيم وبين الإنسان، وأن من فرّق بينهما فلجهله وضلاله وغلطه، كما صرح بذلك في هذه الصفحات من كتابه المذكور (٣٨، ٥٨، ٦٧، ٧٠، ٧٧، ٧٨، ٩٧). فانظر كيف رمى بهذا الأمر الفظيع، وهو تضليله للمفرقين بين الله وبين خلقه، كل رسول أرسله الله إلى الخلق، وفي مقدمتهم محمد ﷺ فضلًا عن أئمة الهدى ومصابيح الدجى.

فإن زبدة ما جاءت به الكتب السماوية والرسل العظام، هو توحيد الباري واعتقاد انفراده بجميع معاني الكمال المطلق، الذي لا تدركه العبارات ولا تتصوره الأفكار، وأن جميع المخلوقات في العالم العلوي والعالم السفلي، لا يمكن بل يستحيل ويمتنع أن يساووا رب العالمين، وأن يماثلوه في صفة من صفاته، ولا نعت من نعوته، وأن أظهر القضايا الدينية والعقلية والفطرية هو التفريق بين الخالق والمخلوق في كل النعوت، فالرب هو الخالق وما سواه مخلوق، وهو الرزاق المدبِّر وما سواه مرزوق مدبَّر، وهو الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء، والعليم بكل شيء، والقدير على كل شيء، والعزيز بكل معاني العزة، والحكيم الجامع لمعاني الحكمة، والعظيم الذي له جميع صفات الكبرياء والعظمة، إلى غير ذلك من نعوت جلاله وصفات كماله، والمخلوق حادث بعد العدم له أول وآخر، وهو ضعيف العلم، ضعيف القدرة، والله تعالى هو الذي أعطاه ما أعطاه من علم وقدرة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فأعظم الخلق وهم الرسل والملائكة قد اعترفوا أنه لا علم لهم إلا ما علّمهم الله، فمن سوّى بين الله وبين خلقه، فلا يَعْدُو إما أن يكون أعظم الخلق جهلًا وضلالًا واغترارًا، وإما أن يكون منكرًا لرب العالمين جاحدًا له من كل وجه، يريد أن يخادع ويماكر بإظهار الإيمان به. فهذا الكاتب خادع ومخدوع، بما رآه في تفوق الأمم المتقدمين في الصناعات والاختراعات والفنون العصرية، وأنهم لما مهروا في علوم المادة والطبيعة، فلا بدَّ أن يصلوا إلى العلوم التي لا يعلمها إلا الله، ويقدروا على

ما ليس في وسع الخلق وطاقتهم القدرة عليه، وإن جاز أن يظن هذا الظن، فليعلم إن كان لم يعلم أن الله تعالى خلق الإنسان في هيئة وخلقة قابلة للترقي في العلوم والأعمال، التي هي في طوره وطاقته، وأمده بالعقل والفكر وإرشادات الرسل ومن سلك سبيلهم في هداية الخلق وهيأ له الأسباب التي توصله إلى أعلى ما يمكن الوصول إليه، من الأطوار البشرية وجعل له حدًّا ينتهي إليه، ويتعذر عليه مجاوزته، جعله يترقى في أشرف العلوم، وهو علم التوحيد والعقائد والأخلاق والأحكام، وفي علوم السياسة وتدبير الأمم وطبقات الناس، وسخّر له هذا الكون يستخرج آثاره ويستمد بقواه على صنائعه ومخترعاته، فحصل للناس في هذه الأمور ارتقاء إلى حيث هيئ لهم كلٌّ على حسب مشربه.

أما الرسل وورثتهم من العلماء الربانيين والأئمة المصلحين الهادين المهديين، فشربوا من العلوم الدينية وتغذوا بالمعارف الربانية المصلحة للقلوب والأرواح المرقية لها إلى أعلى الدرجات، وأكمل السعادات، وكملوا ذلك بعلوم الأحكام ومعرفة الحلال والحرام، وعلوم المعاملات والحقوق المتنوعة بين الخلق المبْنية على كمال العدل والقسط والصلاح والإصلاح، ومعرفة الفنون السياسية وجميع العلوم المعينة على الدين، المصلحة للأحوال الجالبة للمنافع الدافعة للمضار، حتى صاروا هادين مهتدين، بهم يهتدي المهتدون وبإرشاداتهم يقتدي الصالحون، فلم يصل لأحد علم ولا معرفة ولا خير إلا على أيديهم، وبهدايتهم وعلومهم ومعارفهم توزن العلوم والمعارف، وبأخلاقهم وأعمالهم يتبين الصالح من الفاسد، فبلغوا شأوًا وغاية لم يصل إلى قريب منها أحد من الأولين والآخرين، وصار الواحد من أتباع الرسل وأئمة الهدى، لو قيس به جميع من يعظمهم هذا الكاتب، ويخضع لمعارفهم وأحوالهم من أئمة الملاحدة؛ لم يصل إلى عشر معشار ما أوتيه من القوة العلمية، فضلًا عما يترتب على ذلك من أحوال القلوب والإنابة إلى الله تعالى، وكل من له معرفة يشهد بذلك، والكاتب اعترف به وشهد حيث ترجم لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه الصراع ترجمة حافلة وفضّله على جميع العلماء، وأنه بزّهم بسعة علمه وقوة إرشاده وسعة اطلاعه ومهارته العجيبة، ولا فرق بين المسلمين

منهم والمبطلين، ولكنه كذّب نفسه وتناقض في هذا الكتاب، فيا ويحه المسكين أنى يؤفك ويصرف عن الحق. وأما في هذا الوقت الأخير فقد جدَّت الأمم الإفرنجية والأمريكية ومن تبعهم، واجتهدت في الفنون العصرية، وصرفت لها أوقاتها وراحاتها، وأقبلت عليها إقبالًا عظيمًا، فبلغت هذا المبلغ الذي لم يصل إليه أحد، وهي جادّةٌ في السير إلى تكميل فنونها، وستصل بحسب ما يرى إلى ما تصل إليه قواها ومداركها.

وأما كون معارفهم لا منتهى لها وأعمالهم لا حد لها وأنها ستزاحم رب العالمين وستعلم كل شيء وتقدر كل شيء، فهذا أمر يعرف بطلانه ببداهة العقول. نعم هي قد توصلت من علوم المادة الأرضية والحيوية وتسخير القوى السفلية إلى أمور لا يمكن إنكارها، أما كونها تتصل إلى عالم السماوات والعالم العلوي وعلم ما كان وما سيكون، مما لا سبيل لها إليه بوجه من الوجوه أو أنها ستتمكن من إيجاد الحيوانات ونفخ الروح فيها فهذا ممتنع في العقول الصحيحة كما أنه ممتنع في الشريعة، فإن الله تفرد بغيوب لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب فضلًا عن غيرهم، وتفرد تعالى بأنه هو الذي يميت ويحيي لا يشاركه في ذلك مشارك من أهل السماء وأهل الأرض، فهنا يقال على سبيل التحدي لأي مخلوق يكون: قد صنع هؤلاء المخترعون وأهل المهارة في علوم المادة الصورة والصنائع المدهشة، فهل في إمكانهم إيجاد بعوضة أو غيرها أو يردوا الروح إذا بلغت الحلقوم إلى موضعها؟

ويقال: هذه الأمم قد أوجدت المراكب البرية والبحرية والهوائية وسخّروا مادة الكهرباء حيث يريدون ويشاءون، وفعلوا كذا وكذا مما هو داخل في قدرة الإنسان وحللوا العناصر الكبار والصغار فهل في إمكانهم أن يوجدوا أصغر مخلوق؟ وهل لهم طريق إلى العلوم الغيبية التي انفرد الله بعلمها؟ فهل عندهم علم متى يجيء المطر ومتى يموت الصحيح وما مقدار عمره وماذا يكسب الخلق في مستقبلهم على سبيل العلم الجازم؟ ونهاية ما عندهم التكهنات والتخرصات بحسب ما يشاهد من الأسباب، وهل لهم سبيل إلى العلم بأحوال البرزخ والآخرة مما أخبرت به الرسل وكيفية ما فيهما، وعند هذا الكاتب أن الإنسان لا يتعذر على علمه ولا

على قدرته شيء، فتأمل هذا القول الذي لم يصل إليه أحد من العقلاء ولا الحمقى.

وفي كتابه في مواضع متعددة اعتراف بانفراده عن الناس بكثير مما ذكرناه ونذكره عنه من الأقوال الباطلة وأنه أدرك ما لم يدركه الرسل وأتباعهم، وهذا مع ما فيه من العجب والاغترار البليغ، والكذب الصراح، اعتراف بالشذوذ ومخالفة العقلاء كلهم، وهذا من التجرؤ والافتراء بمكان سحيق، فالمشركون واليهود والنصارى، لم يجرؤوا على ما يقارب هذا القول، وقد اتفق جميع المثبتين للخالق؛ من أهل الأديان وغيرها، أن المخلوق لا يمكن أن يساوي الخالق بوجه من الوجوه، ونهاية ما بلغ شرك المشركين أنهم جعلوا لهم آلهة يزعمون أنها يعمل لها من العبودية ما يستحق لله مع اعترافهم أنها مخلوقة عاجزة ناقصة، وأنهم ما عبدوهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى، فتبًّا لمن صرح بمقالة يتحاشى ويتنزه عنها اليهود والنصارى والمشركون. وأما قصور هؤلاء المتأخرين في علوم التوحيد والدين، مع مهارتهم في فنون الطبيعة، فهذا من آيات الله وبراهين قدرته؛ أن تجد أناسًا في غاية الذكاء والبراعة، وقد أدركوا من العلوم والفنون العصرية ما عجز عنه الأولون وحار فيه الآخرون، ثم هم مع هذه البراعة والذكاء المفرط في هذه الأشياء تجدهم في غاية الجهل والقصور العظيم والضلال البعيد عن العلم بالله وتوحيده، وما يستحقه من العظمة والجلال، وتجدهم يشاهدون من خوارق علم الإنسان ما تخبرهم به الرسل عن الله وأخباره وغيوبه وأحوال الجزاء، وهم مقيمون على الكفر والتكذيب؛ أفبِقُدْرة الإنسان يؤمنون، وبقدرة الملك العظيم يكفرون؟! فهؤلاء برعوا في أمور خاصة ضئيلة بالنسبة إلى العلوم النافعة والمطالب العالية، التي لا سعادة للخلق ولا فلاح لهم إلا بها، وعموا عن المقاصد، فبذلك يعلم أن الأمر أمر الله والقضاء قضاؤه، وأن إعجاب الإنسان بنفسه، وتيهه بمعارفه الضئيلة أكبر حجاب بينه وبين الله، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وشقي.

ومن فروع غلوه في الطبيعة أن ادّعى وكابر، وكذَّب ما جاءت به الرسل، وأخبر الله به في كتابه ورسوله محمد ﷺ عن آدم أبي البشر وزوجه، وعدوهما إبليس وما قص الله من

أنبائهم، فتجرأ هذا الرجل وترك ما أخبرت به الرسل والكتب السماوية، وسلك مسلك ملاحدة الطبائعيين، الذين نظروا نظرية خرافية تسمى نظرية دارون الإنكليزي، مآلها تسلسل الإنسان عن القرد، والقرد عن كلب أو حيوان دونه وهكذا، خطّأهم فيها قومهم فضلًا عن الرسل وأتباعهم، حيث زعم أن الإنسان الأول في طور شبيه بالحيوان، أو هو الحيوان وأنه بقي مددًا طويلة ملايين أو ملايين الملايين، حسابًا جزافًا لا ينطق ولا يحسن الخطاب ولا يرد الجواب، وإنما يتناعتون ويتصايحون تصايح الأجنة، في أول وضعهم من بطون أمهاتهم، وأنهم مكثوا تلك المدد العظيمة، وهم على هذا الوصف، ثم إنهم ارتقوا عن هذا الانحطاط، فتمكنوا من الإشارات، وصار بعضهم يشير إلى بعض، من غير أن يهتدوا إلى نطق، ثم مكثوا ما شاءت الطبيعة - إلا ما شاء الله عنده - حتى ترقّوا، فصاروا يتمكنون من النطق، فلم يصلوا إلى هذا الطور حتى مضت عليهم أحقاب بعد أحقاب، وهذا مع ما فيه من تكذيب جميع الكتب والرسل، فإنه أخبث التخرصات، وأبعدها عن الحقائق، فأي طريق دلهم على هذا التخرص الباطل، وأي سند أوصلهم إلى هذه الجراءة، ولكن يأبى الله تعالى إلا أن يفْضح النابذين لدينه المكذبين له ولرسله، تركوا علوم الرسل والحقائق اليقينية، وتبعوا التخرصات وما خرصوه وتخرصوه في الحفريات، وما يجدونه من جثث بعض الحيوانات، فبعدًا لمن اختار هذه الخرافات والخزعبلات على ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، وويل للكافرين من عذاب شديد، الذين يكذبون الله ورسوله ويؤمنون بكل شيطان مريد.

ثم انظر إلى المبحث الأخير من كتابه الذي عنوانه: (المشكلة التي لم تحل) في صفحة (٣١٥) وما بعدها إلى آخر كتابه، كيف أتى فيه بالطامات والفظائع، وأنكر المنكرات، وكيف حاول وصرح بأن الإيمان بالله وإثبات وجوده وربوبيته وأفعاله من أشكل المشكلات، وهي أصل الأمور وأوضحها وأجلاها براهين، ثم صرَّح بهذه الجراءة التي ما وصل إليها أحد من البشر إلا فرعون وأشباهه، الذين أنكروا رب العالمين وجحدوه بالكلية. وقد صرح أن الأولين والآخرين لم يحلوا هذه المشكلة، فجميع الكتب المنزلة من الله: التوراة والإنجيل والزبور

والقرآن وجميع ما قالته الرسل عمومًا وقاله سيدهم وإمامهم خصوصًا، وجميع العلماء الربانيين والهداة المهتدين والحكماء والأساطين، الجميع عنده لم يعرفوا الإيمان بالله، ولم يحلوا هذه المشكلة التي زعمها فبقيت عند هؤلاء مشكلة الإيمان في غاية الإشكال والتعقيد، عند هذا الكاتب، فيا ويحه ما أعظم هذه الطامة، وما أشنع هذه الجراءة على الله وعلى رسله وكتبه، وعلى جميع أهل العلم، وكيف طاوعته نفسه على هذه الطامة الكبرى، وكيف لم يكن له عقل يحجزه ويردعه عن هذه الشناعة التي صار بها مضرب المثل في الإلحاد الجنوني والزندقة المتفننة، سبحان الله العظيم، وصدق رسوله النبي الكريم، هذا الدين العظيم، الذي وضح الحقائق الأصولية والفروعية، وعلوم الباطن والظاهر، والعلوم المتعلقة برب العالمين، والمتعلقة بالمخلوقين، بيَّن كل شيء وأوضح كل شيء، وهذا الرسول الكريم صلى لله عليه وسلم الذي هو أعلم الخلق على الإطلاق وأكملهم في جميع المعاني والصفات، إذا قصر هذا الدين، وهذا الرسول ﷺ عن بيان هذا الأصل، الذي هو أصل الأصول والأساس الأكبر، لأمور الدنيا والآخرة، فأي شيء بيَّن ووضَّح؟ وإلى أي شيء هدى وأرشد؟ وإذا لم يحلَّ ما زعمه هذا المفتري مشكلًا، فأي مشكل حلَّه؟ وأي علم أبانه ووضحه؟ لقد كان هذا الدين على زعم هذا الكاتب، من أعظم النكبات على البشر، نقول: على زعمه على وجه الإلزام، وقد صرح بذلك في مواضع من كتابه، وعلى زعمه ما زاد الناس هذا الدين الكامل ولا الرسول العظيم ﷺ إلا شرًّا ولا أوقعهم إلا في أعظم الضرر، فسبحان الله وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا. هذا الأصل الكبير قد وضحه الله في كتابه، ووضحه رسوله توضيحًا حتى بلغ من وضوحه أن كان أظهر من الشمس في رابعة النهار، وأبلغ من جميع المسائل كلها، فلا يوجد في الدنيا أي مسألة إلا وكان بيان هذا الأصل أعظم من بيانها، وبراهينه وأدلته أكبر من براهينها وأدلتها.

لقد كاد الكتاب والسنة أن يكونا تأصيلًا وتفصيلًا لهذا الأصل العظيم، وأما البراهين العقلية والفطرية فكلها متفقة على الاعتراف بالله، حتى المشركون الذين يجعلون معه

مخلوقات يدعونها ويصرفون لها شيئًا من العبادة معترفون أن الله هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وقد قالت الرســل: أفي الله شك؟ وقد عظمت هذه المسألة أن يبرهن عليها كما قيل:

وليس يصحُّ في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وهذا المفتري بعــد المحاولة والمجادلة، وترديد الكلام والهذر الذي لا حاصل له زعم أنه انفرد بحلها، فاستنتج بعقله الجنوني وجراءته العظيمة أن حلها الوحيد هو أن ينبذ الناس الإيمان وراء ظهورهم، ويكونوا معانقين للطبيعة، منســلخين من الدين والشــريعة بالكلية، وأنهــم إذا فعلوا ذلك فقد حلّوا هذا اللغز المعقد، وإن بقي عليهم بقايا من الإيمان فإنهم في قيود وأغلال قد تعذر عليهم النهوض والرقي.

فيــا ويحه أين قوله إنــه مؤمن بالله وبكل ما أخبر به؟ وهل بلــغ أحد من الملحدين هذه الهاوية السحيقة؟ لقد وضح كل الوضوح، وزال الإشكال، أن هذا الرجل مخادع، قد سلك نهجًــا جديدًا في الدعاية الإلحادية، أتى على جميع الأديــان من أصلها ليزيلها ويقلعها فهو بهذه الدعاية قد تصدى لمحاربة الأديان السماوية كلها، ويحه المسكين الذي أضحى فريسة الملحدين، إذا لم يثبت أصل الإيمان فأي شيء يثبت؟ وإذا لم يؤمن بالله فبأي شيء يؤمن؟ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثيــة: ٦]. فمــن وصلــت به الحال إلــى هذا الحد من الجحد، لم يبق للكلام معه فائدة، لأن المكابر المباهت تريه أظهر الأشياء فينكرها.

يزعم هذا الكاتب أن إيمان المتدينين يمنعهم من مباشــرة الأسباب، وإن باشروها فعلى وجه ضعيف، هذا حاصل المعنى الذي طوّل فيه الكلام، ورَدده واســتنتج منه أنه يتحتم على الناس رفض الإيمان بالله وبأقداره، حتى يخرجوا من غلهم وحبســهم، وينطلق سراحهم، لقــد صدق هذا الكاتب في أن الإيمان حبس لهم، ولكن عــن التهتك في الأخلاق الرذيلة، وعن الانغماس في الفجــور والفواحش الظاهرة والباطنة، وقيد لهم عن التجرؤ على الظلم للخلــق، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وجميع حقوقهــم، وأن أهله لا يمكن أن يكونوا

إباحيين ما داموا متمسكين به؛ لكن بتركه والإعراض عنه تنحل عنهم القيود الشرعية فيصيروا كالبهائم، وتكون أمورهم فوضى.

وهذا ما أراده هذا الكاتب وهو يعلم حق العلم أن هذه الثمرات الجليلة من أعظم محاسن الدين وأجلّ ثمراته، ولكنه يسعى أحث السعي لقطعها ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]. فهذا الرجل لم يسلك مسلك الحذاق من الملحدين؛ الذين يموهون بأشياء تروّج على كثير من الناس، ولكنه جاء إلى أظهر الأشياء وأجلاها وأوضحها، فأنكره غاية الإنكار، وكابر فيه أعظم مكابرة. زعم أن الإيمان بالله يضعف القوى ويوهن العزائم؛ والحال أنه لا تقوم القوى كلها، ولا تنهض إلا بالإيمان بالله، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فكل حول وقوة مستمدة من حول الله وقوته، والعبد إذا وكل إلى نفسه فقد وكل إلى ضعف وعجز ونقص من جميع الوجوه، فالمؤمنون بالله حقًّا هم أقوى الخلق قلوبًا، وأبلغهم شجاعة، وأصبرهم على المكاره، وأثبتهم في المواطن الحرجة؛ لإيمانهم الكامل بالله ورجائهم لثوابه، وخوفهم من عقابه. فالإيمان هو مادة كل خير، وكل صلاح وإصلاح، وبه تندفع شرور الدنيا والآخرة.

ثم مع ذلك الترويج والجحد للإيمان بالله، يباهت فيزعم أن أهل الدين لا يمكنهم فهمه على وجهه؛ فعلى قوله لم يفهمه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، ولا العلماء الربانيون ولا سائر أهل العلم من المسلمين، وحيث لم يفهموه عنده يتعين عليهم رفضه والأخذ بطريقة الملحدين؛ فأين الإيمان والإسلام الذي يدعيه هذا الرجل، ويزعم أنه يغار على المسلمين وهو متصدٍّ لمحاربتهم ومحاربة دينهم؟ وأين العقل الذي يبقى على صاحبه، ويجعله متماسكًا بين الناس؟ فإن هذا تهور واستهتار ومناداة على عقله بالسفه والجنون ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]. وهو مع هذا يبدئ ويعيد في الاستهزاء بشرائع الدين وبأهله وحملته على وجه الوقاحة، كدأب الحمقى والمجانين. فالمؤمن يحمد الله على العافية من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى، ويسأل الله ألا يزيغ

قلبه، ولا يجعله مُثلة بين الخلق، وألا يكون كمن آتاه الله آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين.

ومن بهرجات هذا الكاتب حين قرر أن المسلمين لا يفهمون دينهم، ولا يمكنهم فهمه على حقيقته، استشهد على ذلك بما قصه عن الرازي والآمدي وابن أبي الحديد، وأمثالهم من الحائرين في معرفة الله، وإن كان بعضهم قد تراجع عن حيرته؛ فزعم هذا الكاتب أن المسلمين كذلك، حائرون لا يهتدون إلى أصول دينهم، ولم يعلم أو علم وتجاهل أن هؤلاء الحيارى إنما حاروا في معرفة الله حين رفضوا علوم الدين في هذا الباب، وتركوا ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأن حيرتهم في هذه الحال من أدل الدلائل على كمال الدين، وأن كل من ابتغى الهدى من غيره أضله الله، وهذه صفة لكل من كذب بالحق وتركه، لا بدَّ أن يمرج أمره، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق: ٥]. فانظر إلى هذا الرجل كيف لما كذب بالحق وترك الإيمان بالله، ورفضه ودعا الناس إلى رفضه، كيف تقلبت به الأحوال، ولعبت به الأهواء، وصار ينادي ويدعو إلى الإلحاد بعدما كان يدعو إلى دين رب العباد، فالمسلمون ولله الحمد قد فهموا الإيمان فهمًا كاملًا، أعظم من فهم أي قضية كانت، فهم أعظم الناس يقينًا، وأثبتهم إيمانًا، وأصحهم اعتقادًا؛ لأنهم آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، واستقاموا على الصراط المستقيم، حيث عدل غيرهم عن هذا الطريق.

ومن فروع نَبْذِه الإيمان بالله وبما أخبر به على ألسنة رسله: إنكار الملائكة والجن والأرواح، وسياقُهُ لهذا الإنكار بأساليب تهكمية وعبارات سخرية، بما أخبر الله به وأخبرت به رسله، ونطقت به الكتب، واعترف به علية الخلق، وسائر أهل الأديان السماوية، وجاءت به نصوص الكتاب والسنة في نصوص كثيرة، زادت على التواتر، فأقر بها المسلمون واعترفوا بها، وبكل ما أخبر الله به ورسوله عن الملائكة والجن، وعن أحوال الروح في البرزخ وغيره، ولم ينكر ذلك إلا جاحد ملحد مكذب لله ورسوله، وقد تحاذق هذا الرجل حين نصر قول من كذب بهذه الأصول العظيمة؛ فجمع كل ما يقدر عليه في كتابه من خرافات الخرافيين، عن الجن والأرواح، ونسب ذلك إلى المسلمين،

ليتوسل به إلى القدح في الدين ظنًّا منه أنه يروج على الناس، ثم لما قرر هذا التكذيب بعبارات كثيرة في صفحة (٣٠٠) وما بعدها، شعر أن الناس لا بدَّ أن يقولوا: هذا كلام مكذب بالملائكة والجن والأرواح، فقال نفاقًا: «ليعلم بعد هذا أننا ممن يؤمنون بالأرواح والملائكة والجان وبما أخبر الله به...» إلى آخر ما قال. فانظر إلى هذا التناقض والبهرجة التي لا تخفى على من له أدنى عقل، ولكن من غروره بنفسه، يحسب أن الناس كالبهائم. ومن كذَّب بالمدبرات أمرًا، وتهكم بما يذكر في الكتاب والسنة، ويذكره أهل العلم من أنواع التدبيرات في العالم العلوي والسفلي، التي تتولاها الملائكة بأمر الله، لم يستغرب بعد ذلك تكذيبه بتأثير العين، وتحريف النصوص الواردة فيها، وتفسيرها بما لم يفسرها به مسلم، بل ولا عاقل.

ومن كانت هذه الأصول عنده ترهات وخيالات، لم تستغرب عليه ما نصره من سفور النساء وإيجابه لمخالطتهن الرجال الأجانب، في جميع المجامع الصغار والكبار، وأنه ليس للرجال عليهن درجة، ولا لهم فضل عليهن، وأن هذا السفور والتهتك بزعمه هو عين الصلاح، وأنه لا يمكن إصلاحهن وثقافتهن وتعليمهن إلا بهذه الطريقة السافلة، وأن خيار المسلمين من القرون الماضية، من الصحابة والتابعين ومن تمسك بهديهم إلى اليوم من خيار المسلمين، أن هؤلاء كلهم من أولهم إلى آخرهم من الجهلة الهمج، حيث صانوا نساءهم عن التبرج والتهتك.

ثم باهت في ذلك ناقلًا مستحسنًا أن الشر الحاصل من النساء المصونات المحفوظات بحفظ الله، ثم بحفظ أوليائهن أهل الغيرة على الدين وشرائعه، أعظم من الشر الحاصل من النساء المتهتكات المزاحمات للرجال في جميع ميادين الحياة؛ ثم نقله القبيح واستحسانه في هذا الموضوع كلام الساقطين من الإباحيين الذين لا يرون شيئًا حرامًا خبيثًا، بل ما اشتهاه الإنسان فعله ولا قبيح عندهم إلا ما لم تشتهه النفوس؛ كما نقله في صفحة (١٠٣) وما بعدها فيا ويح هذا، ماذا ترك للفضائل الدينية والآداب الدينية والصيانة الإنسانية؟ لقد رفضها كلها، وهذه الطريقة التي استحسنها هي الطريقة الوحيدة للإباحية؛ إباحة جميع ما حرّم الله من

الشرك والفواحش والمنكرات.

إذا تقررت هذه المباحث الخبيثة والمنافية للدين من كل وجه، الدالة على انحراف عقل صاحبها، بعد انحراف دينه فلا تستغرب بعد هذا ردّه وتكذيبه للأدلة الشرعية، وتحريفه لنصوص الكتاب والسنة، وترويجه بجمع الأحاديث الصحيحة مع آثار باطلة، فيرد الجميع، وتفسير النصوص بغير تفاسير المسلمين نصرة لباطله، وإنما هي من جنس تحريفات القرامطة الباطنية، ولنذكر نموذجًا يسيرًا من هذا النوع؛ ليُعرف بذلك إلحاد هذا الرجل في ذلك.

قوله في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. ذكر في صفحة (٤٤) أن معناها: «أن الله نعى على المسلمين الموجودين وقت نزول القرآن ويعاتبهم، كيف لا يبصرون ما في أنفسهم من الآيات؛ وأن الصحابة والقرون المفضلة؛ ومن بعدهم من علماء المسلمين، انطوت قرونهم، والعتاب موجه إليهم، واللوم يقرعهم، لكونهم لم يبصروا ما في أنفسهم، من الاستعداد لاستخراج كنوزها لا لاستخراج كنوز الأرض، حتى جاء هذا الوقت فانطبقت عليهم هذه الآية: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]. لكونهم العاملين بها، حيث عمي عنها الأولون، وعلِموها حيث جهلها السابقون».

فهذا التطبيق تحريف لم يسبقه إليه أحد من المسلمين، ولا ممن يدعي الإسلام، ومعناه الجلي عند هذا أن ملاحدة الأمم أكمل وأفضل وأعظم عملًا بهذه الآية من السابقين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى آخر الوقت؛ سبحانك هذا بهتان عظيم.

ومن تحريفه لحديث: «**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به**...» إلى آخر الحديث[1]. قال في صفحة (٤٠): إن الحديث يدل على أن العبد غير مقيد، وأنه لا يمتنع على قدرته شيء، وأنه لا حد يقف عنده علمه وقدرته.

نزله على ذلك المبحث الخبيث السابق، أن العبد في إمكانه مزاحمة رب العالمين، فهذا

(١) البخاري (٦٥٠٢).

الإلحاد والتحريف لكلام الله وكلام رسوله لم يقل أحد ما يشبهه إلا الملاحدة من أهل وحدة الوجود، ومعنى الحديث معروف ولله الحمد بين المسلمين، أن ذلك يدل على تسديد الله وتوفيقه ومعونته الخاصة لعبده القائم بمحبوباته من الفرائض والنوافل.

ومن ذلك ما قاله على قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الكهف: ٥١]. في صفحة (٦١) محتجًّا بها على قوله الباطل، حيث زعم أن علم الإنسان محيط بمبادئ خلق هذا العالم؛ فإنه يزعم أن الآية لا تنفي العلم، حيث قال: ما أشهدتهم، ولم يقل: ما أعلمتهم، وزعم أنهم كانوا عالمين وإن لم يكونوا مشاهدين، وهذا لم يقله أحد من المفسرين. أما تفسيرها المعروف عند المسلمين، فهو أن الله أنكر على الكافرين به المكذبين لرسله، الذين زعموا أن أحدًا من المخلوقين يستحق من العبادة والخضوع ما يستحقه الله فكذبهم الله، وأخبر أن جميع الخلق ليس لهم مشاركة لله بوجه من الوجوه، فلم يشهدهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، وهذا نفي لطرق العلم كلها، يعني فليس لهم سبيل إلى ذلك، فإنهم إذا لم يشهدوا ذلك، فهم لم يعلموه وإذا لم يعلموه فشهادتهم ودعواهم لاستحقاقها العبادة، دعوى في غاية البطلان والتقول على الله تعالى، وهي نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤].

ومن تحريفاته التي تقشعر منها الجلود، ما ذكر في صفحة: (٦١، ٦٧) على قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]. أن المراد بذلك القرن الذي أنزل عليهم، وأوائل هذه الأمة القرون المفضلة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأن معناها أن علومهم لم تصل إلى بواطن الأشياء، وإنما علمهم بسيط جدًّا، وأنهم في ذلك الوقت في طور الطفولية، بل في طور قريب من طور الحيوانات، ولم يبلغوا رشدهم، وإنما الذين بلغوا رشدهم عنده ملاحدة هذا الزمان، الذين علموا من علوم المادة ما لم يعلمه الأولون، لأن العلوم النافعة عنده هي الفنون العصرية فقط، وأما الأصول والعقائد وعلوم الأخلاق وتوابعها التي علم الطبيعة فرع من فروعها، فإنها على قول هذا ليست من العلوم

التي يؤبه لها، وكفى به خذلانًا، أن تصل به الحال إلى هذا.

والآية ولله الحمد واضحة لا إشكال فيها، وأن هذا وصف للكافرين المكذبين لمحمد ﷺ، أخبر تعالى أن علومهم ظاهرة، يعلمون ظاهر الحياة الدنيا دون باطنها، وأنهم في غفلة عن الآخرة، فهذا السبب الذي أوجب لهم رد ما جاء به محمد ﷺ وإلا فلو علموا ظاهرها وباطنها المقصود منها؛ لبادروا إلى الإيمان بمحمد ﷺ، كما فعله أهل العلم الحقيقي الذين بادروا لما رأوا الآيات البينات إلى الإيمان به، لكن هذا الرجل يطبّق هذه الآية على خيار الخلق، وأكمل القرون على الإطلاق، ويسخر من العالمين بباطن الدنيا المستعدين للآخرة، القائمين بعبودية الله، الجاعلين الدنيا وسيلة إلى الدين، وهو يريد ويحاول في كتابه هذا أن تكون الدنيا هي المقصودة والغرض الأصلي، وأما الآخرة فإن كتابه هذا كفيل بتزهيد الناس فيها، وفي عبودية الله، وفي الجزاء الأخروي؛ فأي إيمان وأي إسلام وأي عقل صحيح بقي بعد هذا؟!

ومن ذلك تفسيره لحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[1]. بأن الفطرة هي الخبث والشر، وأن الإنسان بطبعه خلق شريرًا، وأن الفطرة معناها أنه مفطور على الشر، ويرفض جهارًا تفسير أئمة الهدى لهذا الحديث، بأن معناه هو أن الله فطر عباده على قبول الخير علمًا وعملًا، وأن الله تعالى جعل في خلقتهم استعدادًا تامًّا لقبوله نعمة منه وفضلًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠، ٣١]. الآية. ويلزم على قوله أن يُستَدْرَكَ على النبي ﷺ حيث قال: «**فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه**»[2]. فيقال: وأيضًا لم قلت: أو يجعلانه مسلمًا؟ لأن قبوله للجميع على حد سواء عند هذا، وفي نفس الحديث والآية الكريمة حيث قال: «**كالبهيمة الجمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء**

(١) تقدم تخريجه ص٩.

(٢) تابع للحديث السابق.

حتى تكونوا أنتم تجدعونها»[١]. أي: كالبهيمة التي تولد مجتمعة الخلق كاملة الأعضاء، حتى يجدعها الناس، بقطع الآذان أو بعض الأعضاء، كذلك الآدمي خلقه الله مفطورًا على الاستعداد لمعرفة الحق وقبوله، فلو ترك وفطرته ولم يعرض له ما يغيّرها من التربية السيئة، لما اختار غير الدين الحق، وعند هذا أن الفطرة معناها الشر والهمجية، وهذا منافٍ للآية والحديث.

ومن أعظم الجرأة جراءته على قوله تعالى في صفحة (٦٦): ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]. قال: يعني بذلك الذين اجتمعوا بالنبي ﷺ وآمنوا به من الصحابة الذين هم خيار الخلق وأعلمهم، جعلهم هذا الرجل ينظرون الظواهر، ولا يبصرون البواطن، فهم في طور الأطفال، كما تقدم التنبيه على هذا مرارًا، وهذا من جنس تفاسير الزنادقة من الباطنية والإسماعيلية والقرامطة؛ والآية الكريمة عند جميع المسلمين معناها ظاهر، وأن هذا وصف للكافرين بالرسول أو وصف للأصنام، فمعناها: «أن الكفار تراهم ينظرون إليك نظرًا ظاهرًا وهم لا يبصرون ما فيك من المعاني الجليلة والأوصاف الجميلة والآيات التي تدل أكبر دلالة أنك رسول الله حقًّا؛ أو أن هذه الأصنام صور بلا أرواح تراها كأنها تنظر إليك وهي لا تبصر لأنها جمادات».

ومن ذلك حقّ للراوين عن النبي ﷺ الحديث الذي في مسند البزار: **«أكثر أهل الجنة البله»**[٢]. فزعم أنهم بذلك يمدحون البلاهة ويحثون عليها، وجمع في هذا خرافات الخرافيين؛ ونسبها لحملة الشريعة ورجال الدين، وكذّب الحديث المذكور.

وتفسير الحديث ظاهرٌ عند المسلمين؛ فإن النبي ﷺ لم يقل: أهل الجنة البله؛ أو لا يستحق الجنة إلا البله، بل قال: أكثر أهل الجنة البله، فهم لسلامتهم من الغل والحقد والصفات الذميمة صاروا مستحقين للجنة، لئلا يظن الناس أن أمثال هؤلاء أن الله لا يرفع قدرهم؛ مع

---

(١) البخاري (٦٥٩٩)، مسلم (٢٦٥٨).

(٢) البزار (٦٣٣٩).

أن في كتاب الله وسنة رسوله من الثناء على أهل العقول وأولي الألباب والأحلام والنهى والآراء الرزينة، والحث على كل أمر فيه زيادة اللب والعقل، فكم في كتاب الله وسنة رسوله من ذلك، من النصوص ما يدل على ذلك، فلا منافاة بين الأمرين؛ فالدين يحث على السعي في تكميل العقول، ويثني غاية الثناء على أولي الألباب، ويخبر أنهم خواص الخلق، ومع ذلك فكل من آمن وعمل صالحًا ولو لم يصل إلى درجتهم من البله الأغرار، فإنهم سعداء، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

ومن العجائب تنزيله الحروب الحاضرة بين الأمم الإفرنجية والأمريكية وتوابعهم على قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. فجعلها المراد من الآية، وقد أجمع المسلمون على أن المراد قتال المسلمين للكفار، فهو المكتوب المفروض، وهو الذي له الآثار الطيبة، وأما هذه الحروب التي بنيت على الجشع والظلم والقسوة وعدم الرحمة، فأين خيرها وآثارها الطيبة؟ وقد عمّت البسيطة هلاكًا وفناءً وتدميرًا، وهي لا تسكن في وقت إلا للاستعداد لمجازر وشرور يُنسي آخرُها أولها، فيا ويح من ألحد في آيات الله.

ومن تحريفاته لحديث أنس «أنه ﷺ كان يطوف على نسائه بغسل واحد»[1]. قال في صفحة (١٢٠): إن ذلك مجرد دوران لا مسيس معه، وتهكم بأنس وغيره ممن يفسرون ذلك بالمسيس الذي هو معنى الحديث عند جميع المسلمين، حتى جاء هذا الرجل فأنكر عليهم وكذّبهم، وهذا الوهم الكاذب منشأه أنه ميراث ممن ورثوا القدح في الأنبياء بكثرة الأزواج، فأنزل الله منكرًا ومكذبًا لهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

وأي نقص في كثرة أزواجه، وفي قيامه التام بحقوقهن، وذلك من أجلِّ مناقبه، حيث كَمَّل الحقوق الكثيرة، التي عليه وحيث كان في زوجاته من المنافع والمصالح للأمة ما لا يعد ولا يحصى.

---

(١) البخاري (٢٦٨)، مسلم (٣٠٩).

ومن جرأته العظيمة ما ذكره في صفحة (١٢٦) وما بعدها من الصفحات من تكذيبه لجميع النصوص الواردة في الزهد في الدنيا والصبر على البلاء والفقر، وهي جزءٌ كبيرٌ من أجزاء الدين كذَّب ذلك أجمع، وباهت بأمر يعرف كذبه به كل أحد، ثم روّج كعادته القبيحة بذكر أحاديث لا زمام لها ولا خطام، حشدها في كتابه وتوسل بها إلى رد النصوص الصحيحة؛ ورمى جميع المسلمين من أولهم إلى آخرهم بقبول تلك الآثار الساقطة، وتقدمت الإشارة إلى محاسن هذا الدين، وأنه يحث على جميع الوسائل والمقاصد وإصلاح الدين، وما يعين عليه من الدنيا بعكس ما كان يسعى إليه هذا الكاتب، يحضُّ على الزهد في الآخرة، بل يسخر بأهلها العاملين، وبما يذكر من الجزاء الدنيوي والأخروي.

ومن انحرافاته الفظيعة ما نقله تفصيلًا عن التوراة ليس في التوراة، بل في الأمثال المنسوبة لسليمان عليه السلام في الترغيب في الدنيا، ثم قابل بينه وبين ما جاء به القرآن والدين الإسلامي في صفحة (١٧٧) وما بعدها، وغلَّط القرآن والكتب الدينية، حيث علقت السعادة والفوز والفلاح في العاجلة والآجلة على العبادة والتقوى والصلاح، وفضَّل ما نسب إلى التوراة في هذا الموضوع على الكتاب والسنة تفضيلًا عظيمًا، بل لم يجعل لهذا الأخير فضلًا بوجه من الوجوه، بل حمل على هذه النصوص وزعم أنها هي التي خدرت همم الناس وثبّطتهم ومنعتهم من الرقي، وفيه كالتصريح بإنكار عقوبات الله الدنيوية والأخروية.

ومن ذلك في صفحة (٢٩٦) تهكمه بحديث أنس: «**لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه**». وهو في الصحيح **صحيح البخاري**[1]، وتهكّم به وبنقلته وأنكره إنكارًا عظيمًا، والسبب في ذلك أصله الخبيث حيث فضَّل ملاحدة الزنادقة من الأولين والآخرين على الصحابة وخير القرون، وعرف أن هذا الحديث من الأدلة الكثيرة الدالة على كذبه وبطلان قوله؛ وزعم أن اعتقاد فضيلة الأولين من الصحابة والتابعين منعت الرقي، فهذه الدعاية لنبذ الدين التي يسعى لها هذا الرجل سعيًا حثيثًا، ويؤصل أصولًا خبيثة يرد لأجلها الأصول

(١) البخاري (٧٠٦٨).

الشرعية، فهذا في كتابه نهج لهذه الدعاية الإلحادية، دعايات كثيرة تارة بتحريفه لنصوص الكتاب والسنة، وتارة بالقدح في الصحابة والتابعين وحملة الدين من خير القرون الذين لم يصل للناس هذا الدين إلا على أيديهم، وقد أكثر فيه من الاستهزاء والسخرية العظيمة، حتى كادت جميع مباحثه المنحرفة تكون سخرية واستهزاء وتهكمًا بالدين والشريعة وحملة الدين.

فهنا يقف العاقل وقفة تعجب فيقول: هل ترى هذه السخريات والتهكمات الصادرة من هذا الرجل، الحامل عليها الإعجاب العظيم بالنفس واحتقار غيره؟ فإنه لا يستغرب؛ فإن الخيالات متى استحكمت في النفوس تجسَّمت وصارت لها السيطرة على عقل الإنسان، وعدم الإبقاء منه على مكانته بين الناس، فلا يستغرب بهذا أن ذكاءه وفطنته اضمحلت في ضمن هذه السيطرة حتى تلاشت، فلم يكن له إحساس بما يصدر منه، وأنه وصلت به الحال إلى ما يشبه الجنون وعدم الشعور، فإن الذين معهم مسكة من العقل المعيشي - دع العقل الديني - يبقون على أنفسهم، وعلى مكانتهم عند الناس، وفي قلوب من يعظمهم، فلا يرضى أحدهم أن تكون السخرية والاستهزاء ديدنه في الأمور العادية فضلًا عن أن توجه إلى دين الله وإلى رسله وأتباعهم؛ ولكن يأبى الله إلا أن يفضح من تعرض لدينه وشرعه وأوليائه في الدنيا والآخرة.

وإذا كان من جملة مقالاته الشنيعة الفاضحة ما صرَّح به في صفحة (٣١٧) بقوله الصريح: «**إن المتديِّنين على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم وأجناسهم عجزوا أن يهبوا الحياة شيئًا جديدًا وأن يكونوا فيها مخلوقات متألقة**». فهل بعد هذا التصريح بنبذ الديانات السماوية كلها، والكفر بجميع الأنبياء وتحقيرهم، وتفضيل غيرهم عليهم شيء، وهل وراء هذا التقدم إلى الكفر غاية ونهاية، وكم له في كتابه هذا من هذا النوع شيءٌ كثيرٌ؟ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

واعلم أن عباراته في هذه المواضيع، التي نبهنا عليها كثيرة مكررة بعبارات متنوعة لم

نقلها خوف طول الكلام لغير فائدة، ولكننا أتينا بمقاصدها؛ وأرشدنا لمن يحب الوقوف عليها إلى صفحاتها من كتابه **الأغلال** المطبوع؛ وكذلك في رسالتنا هذه لم نكثر من ذكر الآيات والأحاديث الرادة لقوله؛ لأن الكتاب والسنة كلها رد لقوله؛ لأنه نفى جميع أصول الكتاب والسنة، وأراد قلعها من أساسها، ولأن المقام يقتضي ذلك، فإن المناظرة مع من يعظم الكتاب والسنة نوع، ومع من لا يراهما نوع آخر.

ونحمد الله على ما نبهنا عليه في كتابه من الفظائع والشنائع التي لا يقولها إلا من انتهى إلحاده وكفره، لم نستعمل معه في خطابه الخاص إلا الرفق واللين اتباعًا للكتاب والسنة في خطاب المحاربين المنحرفين أن يقال: قال فلان، وفعل فلان؛ وأما عند ذكر الأقوال الشنيعة، فيذكر ما احتوت عليه من الضرر والمناقضة للأديان، ومرتبتها في البعد من الدين، وبيان ما على قائلها من الضلال والغي، فيكون القدح فيه موجهًا عليه من أقواله، ويبين ما على صاحبها من نقص الدين والعقل والرأي، وليس لنا غرض في شخصية هذا الرجل، ولكن لما اعتدى على ديننا الإسلامي، وعلى قواعده وأصوله وأسسه، وتهكم به وبحملته، وفضّل عليهم زنادقة الملحدين، وصنع مع المسلمين أعظم من صنيع دعاة النصارى من المبشرين، وجب على كل مسلم مدافعته ودفع شره وتبيين أمره، والتحذير من طريقته ودعايته بحسب القدرة، وإلا فوالله إننا لنأسف أشد الأسف على انقلاب هذا الرجل، ونعدّ ذلك من الخسائر علينا، حيث فقدنا هذا الرجل الذي مضى له من المقامات ونصر الحق ما لا ينكر، بل لنا أن نقرأ قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ ﴾ [المائدة: ٥٤]. ونسأل الله أن يرده إلى الحق، وأن يعيده إلى الإسلام بالتوبة والتنصل مما وقع منه، وأن يكتب كتابًا في رجوعه عن هذه المباحث الخبيثة، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على دينه، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قال ذلك وكتبه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي.

حرر في ٣ من ربيع الآخر سنة ١٣٦٦هـ، ونقلته من خط الشيخ عبد الرحمن بن سعدي أنا الفقير إلى الله تعالى عبد الله بن محمد العوهلي، وحرر في ١٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٦هـ.

بلغ مقابلة على يد شيخنا الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في ١٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٦هـ.



جواب مجمل مطوّل
عما احتواه كتاب «الأغلال» من الضلال

سؤال ورد علينا يستفهمون عما يحتوي عليه الكتاب المسمى: **هذي هي الأغلال**؛ على وجه الإجمال، فأجبنا عن ذلك، بأننا قد كتبنا في موضوعاته رسالة لطيفة لا يمكننا إيرادها هنا، ولكن نظرة إجمالية تفيد عن موضوعه، فنقول مستعينين بالله، راجين منه أن يعيننا على العلم النافع والعمل، وألا يزيغ قلوبنا.

من نظر في هذا الكتاب وتأمله حق التأمل، علم أنه ما صنف أعظم وطأة وعداوة للدين الإسلامي ومقاومة له من هذا الكتاب، وأنه ما اجترأ أحد من الأجانب، فضلًا عمن ألحد ممن يتسمى بالإسلام بمثل ما اجترأ عليه هذا الرجل، ولا افترى مفترٍ مثل افترائه، ولا حرّف محرّف مثل تحريفاته، وما صرّح أحد بالوقاحة والاستهزاء والسخرية بالدين والشرع وأصوله وعلومه وأخلاقه وحملته كاستهزائه وسخريته، فإنه احتوى على نبذ الدين الإسلامي ومنابذته ومنافقته، فهو صريح في الانحلال عن الدين بالكلية، وخروج تام عن عقائده وأصوله، فضلًا عن فروعه، وهو أكبر دعاية ومقاومة للدين، وعداءٍ له ولأهله، وفيه من البهرجة والتزويرات التي جعلها في قالب نصر الدين، ما يعد من أكبر الزندقة والنفاق والمكر والخداع، فلم يُبْقِ من الشر طريقًا إلا سلكه، فإنه شارك المنحلين عن الدين النابذين له بالكلية، وشايع الدعاة إلى نبذه، وإلى تحبيذ الإلحاد، ودخل في ضمن زنادقة الملحدين.

وهذه الأمور الثلاثة وهي: نبذ الدين ومنابذته ومخادعته، التي هي مجموع طرق أعداء الدين، جعلها موضوع كتابه، وحشا كتابه من أوله إلى آخره بها كما لا يخفى على ذي بصيرة، وذلك أنه تلقى عن جميع الدعاة إلى الكفر برب العالمين، والقدح في رسالة جميع الرسل خصوصًا خاتمهم وإمامهم محمدًا ﷺ، تلقى عن الأولين والآخرين من أئمة الكفر ودعاة

الإلحاد كل ما قالوه، وزاد عليهم زيادات، واستدرك عليهم استدراكات.

وذلك أن المعطلين للباري رأسًا، المنكرين لرسالة رسله، لهم في ذلك أساليب وألوان متنوعة، فصرَّح زنادقة الفلاسفة وفرعون وأشياعهم، بإنكار رب العالمين بالكلية، وصرحوا بقدم العالم، ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] ثم أظهروه بعد ذلك بأسلوب آخر، وهو الأسلوب الذي سلكه زنادقة الاتحادية الذين يرون الوجود واحدًا بالعين، فلا ثَمّ رب ولا مربوب، ولا خالق ولا مخلوق، ثم أظهره هذا الرجل بأسلوب نفاق ومخادعة أشنع من ذلك كله، حيث زعم أنه لا فرق بين الخالق والمخلوق، وأن من فرّق بينهما من الرسل وأتباعهم وجميع أهلِ الأديان فهو غالط عنده.

وقال: إن جميع صفات الباري في إمكان الإنسان أن يتصف بها، فما بعد هذا الإنكار للباري إنكارٌ.

أعداء الرسل قالوا: ساحر شاعر، وقالوا: مفتر كذاب، صارحوه بهذه الأقوال الخبيثة، وزنادقة المتفلسفة قالوا: إن الرسل كذبوا للمصلحة، وخيّلوا للناس تخييلات تخالف الحقائق، وزنادقة دعاة النصرانية لما بهرهم ما جاءهم به محمد ﷺ من الدين الكامل والأخلاق والعلوم والأعمال والفتوحات الإسلامية شرعوا يموّهون على الناس، ويزعمون أنهم حللوا حياة الرسول ﷺ وخرجوا من هذا التحليل الخبيث بنتيجة أن الوحي الذي جاءه ليس من الله، وإنما هو من نفسه لنفسه، وأنه رجل سياسي حكيم، وهذا سلك مسلكهم بعينه؛ حيث زعم أن النبي ﷺ كان يخلو بالطبيعة ويناجيها، ويناجي الليل والنهار والأرض والسماء والضياء والظلام والنسيم، وأنه افتتح رسالته بمناجاة الطبيعة والخلو بها في غار حراء، وختمها بكمال تعلقه بالطبيعة واشتياقه إليها، حيث قال في حالة السياق: «**في الرفيق الأعلى**»[1]. فهذا إنكار صريح لرسالته، وحذو لما قاله دعاة النصارى، إلا أن التعبير مختلف.

(١) تقدم تخريجه ص١٧٠.

أعداء الرسل من الدهريين الطبيعيين زعموا أنه ليس سوى هذه الحياة، وإنما هي أرحام تدفع، وأرض تبلع، وطبيعة لا تقلع، وهذا جرى مجراهم بعينه، فقال: إن هي إلا طبيعة تفعل وتتطور، وتتفاعل وتنفعل، وتتنقل من حال إلى حال، وتدير نظام العالم، فهي المدبرة عنده للأمور الدقيقة والجليلة، وليس لله عنده فعل ولا وصف بل ولا وجود.

أعداء الرسل قالوا في رد دعوته وتكذيبه: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. وهذا يزعم أن الوحي خيالي غير حقيقي، أعداء الرسول وأعداء سائر الرسل يقولون لرسلهم: إنا تطيرنا بكم، وإنا لم نر الخير على وجوهكم، ولم نر فيما جئتم به إلا الشر، وإنما الخير ما نحن عليه، وهذا قال ما قالوه وأكثر منه عن الدين حيث زعم أنه شر، وأنه من أعظم المصائب عنده، وأن أهله لا خير فيهم، ولا فيهم من الفضيلة شيء، بل هم محتوون على الرذيلة وأهله ساقطون، وإنما الخير فيما جاء به الملحدون وما عليه المكذبون هو الذي به السعادة والفلاح والرقي.

أعداء الرسل وأعداء الرسول استهزءوا بهم وبما جاءوا به، وهذا سخر بالأديان السماوية كلها، وملأ كتابه من الاستهزاء والسخرية بها وخصّ بذلك وكبره دين الإسلام، أعداء الرسول قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. يعنون بذلك رؤساء الكفر والتكذيب بمحمد ﷺ، وقدَّموا أقوالهم وآراءهم على ما جاء به الرسول، وهذا احتقر الرسول وما جاء به الرسول ﷺ وزعم أن العظمة محصورة في زنادقة الملحدين، وقدّم ما قالوه ورأوه على ما جاء به الرسول ﷺ.

أعداء الرسول من اليهود قالوا ماكرين، ودبروا ما دبروه مخادعين: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]. وهذا سلك مسلكهم، فزعم أنه ينصر الدين، ليروّج بمقالته ما قاله في هدم الدين، لعل قوله يروج على ضعفاء العقول، لدعوى صاحبه أنه من المؤمنين.

أعداء الرسول من المشركين ينكرون الإيمان بالله، وإخلاص العمل لله وحده لا شريك له، ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]. وهذا سلك أخبث من

هذا المسلك، حيث ذمّ الافتقار إلى الله وعبودية الله ظاهرًا وباطنًا، فلم يقتصر على مذهب المشركين، بل اختار مذهب المستكبرين الذين لم يجعلوا لله شيئًا من العبادة بالكلية، وإنما الواجب عنده إخلاص العكوف على الطبيعة وعبادتها ظاهرًا وباطنًا.

المشركون الأولون يشركون بالله في الرخاء، ويخلصون لله في الشدائد، وهذا لم يجعل لله شيئًا من الدعاء والعبادة لا في الرخاء ولا في الشدة، وإنما حظه من هذا تهكّمه بالداعين لله واستهزاؤه بالمتعبدين.

أعداء الرسول يفتخرون بزخارف الدنيا ورياساتها وشهواتها، ويستدلون بذلك على أنهم خير من المؤمنين، فيقولون: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]. وهذا زاد عليهم فأوجب العكوف على جميع لذّات الدنيا، وأن تكون هي مبلغ علم الإنسان وكل همه، وأن أهل هذا من الملحدين خير من المؤمنين، ثم مكر وخادع، فكذَّب جميع نصوص الكتاب والسنة الواردة في الزهد تكذيبًا صريحًا.

أعداء الرسول قالوا: «إنا وجدنا آباءنا وقومنا على أمة ودين فلن نتركه لدين محمد ﷺ»، وهذا يدعو إلى تحتيم الكفر بما جاء به محمد ﷺ وإلى وجوب الأخذ بأقوال زنادقة الدهريين؛ زنادقة الإباحيين المتهتكين الذين لا يرون شيئًا حرامًا، وأنه ما اشتهاه الإنسان فعله، سلك هذا مسلكهم، فأباح كل ما اشتهته النفوس، وسفور النساء واجتماعهن بالرجال في جميع ميادين الحياة، ونقل كلام الإباحيين مستحسنًا له، وزعم أن سفور الخلاعة خير من الصيانة الشرعية، فأذهب شرف الدين والمروءة الإنسانية، وسلك في ذلك مسلك الإباحيين أهل الخلاعة.

أعداء الرسول قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]. وأحسن أثاثًا ورئيًا، وأعداؤه من اليهود قالوا عن المشركين: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]. وهذا قال ما قالوه بعينه حيث يقول: أي الفريقين خير؛ الماديون الذين صنعوا المخترعات، ورقوا الحياة، وفعلوا كذا وكذا، أم المسلمون الذين فترت هممهم،

وضعفت عقولهم، ومرجت أحلامهم، وسفهت آراؤهم، ولم يصلوا إلى ما وصل إليه هؤلاء الملحدون المكذبون للرسل؟

وأعداء الرسول يقولون: كيف نتبعكم وأتباعكم ضعفاء العقول الأرذلون الأحقرون؟ وهذا جعل طبقات المسلمين جميعهم، خصوصًا أئمة الهدى ومصابيح الدجى، موصوفين بضعف العقل والرأي، وهجّنهم وسخر منهم، وهو المسخور منه.

أعداء الرسول والرسل كلهم لما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم، فردوا لذلك ما جاءت به الرسل، وهذا فرح بعلوم الطبيعة ومعارف المنحرفين عن الدين، فقدمها على ما جاء به الرسول ﷺ جهارًا، واستهزأ بما جاء به من الدين.

أعداء الرسل كلهم زعموا أن الرسل لم ينفعوا الناس، وهذا قال عن جميع الرسل هذه المقالة بعينها، حيث صرَّح أن جميع الأنبياء وأتباعهم لم ينفعوا الناس، ولم يكونوا مخلوقات متآلفة، وإنما الذي نفع الناس عنده أئمته من الملاحدة النابذين للدين، وقد صرح بذلك مرارًا.

أعداء الرسول يسخرون من الرسول ومن المؤمنين، إذا صلوا لله، وأخلصوا له العبادة، ودعوه متضرعين؛ وهذا حذا حذوهم، فتهكم مرات متعددة بافتقار المؤمنين ودعائهم ورجوعهم إلى ربهم.

أعداء الرسل وأعداء الرسول يستهزئون بوعد الله ووعيده، ويكذبون ما قالته الرسل من العقوبات على الكفر والتكذيب والمعاصي، وهذا سلك مسلكهم بعينه، حيث تهكم بالوعد والوعيد، وكذّب بأن الكفر والفسوق والعصيان أسباب العقوبات الدنيوية والأخروية.

أعداء الرسول من النصارى يجادلونه في دعواهم لإلهية المسيح ابن مريم، وهذا يستحسن ما نقله عن أمثاله أن هذه الدعوى نافعة، حيث كانت تدعو إلى استعداد كل أحدٍ لمزاحمة رب العالمين في صفاته، إن كان يثبت رب العالمين بألفاظه أحيانًا، وأنه بالإمكان أن كل

إنسان يتمكن أن يكون كالمسيح في إلهيته، ولكنه ينكر تخصيص ذلك بالمسيح فقط، نظير ما قاله أهل وحدة الوجود: إن النصارى ضلوا بتخصيصهم هذا المعنى بالمسيح، ولو عمموه في كل أحدٍ لكانوا موحدين.

أعداء الرسول الأولون قدحوا فيه، فقالوا: لم يتبعك إلا عبيدنا وسوقتنا، وهذا قدح في جميع أتباع الرسول ﷺ كلهم، حيث زعم أن الصحابة في طور الطفولية، وأنهم في طور قرد من طور الحيوان، وإنما العقلاء عنده الذين بلغوا رشدهم هم أولئك الملاحدة الذين كان يخضع لهم ويعظمهم غاية التعظيم.

أعداء الرسول مكروا به المكرات[1] المتنوعة، ليقتلوه وليطفئوا نور الله بأفواههم، وهذا مَكر مُخادعًا، حيث حتَّم الكفر بما جاء به محمد ﷺ من الدين الإسلامي، وأنه يجب الكفر بحملته، وأنهم يعدّون مجرمين ليس فيهم أقل فضيلة، بل هم مليئون من الرذيلة.

أعداء الرسول قالوا: ﴿ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]. وتمسكوا بدينكم، وإياكم أن تتبعوا محمدًا على دينه، وهذا سلك مسلكهم بعينه، حيث زعم أنه يتعين نبذ ما جاء به محمد ﷺ وأن نتخذ لنا ثقافة جديدة من أرواحنا، زاهدين ونابذين لجميع تعاليم الدين وأخلاقه.

الباطنية والإسماعيلية والقرامطة حرّفوا نصوص الكتاب والسنة، ونزّلوها على مذاهبهم التي هي أخبث المذاهب، وهذا صنع أعظم من صنيعهم، فحرفها ونزّلها على ما دعا إليه من الإلحاد.

زنادقة المتفلسفة قالوا: إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم العقل على النقل، وهذا قدم عقول ملاحدة الزنادقة على كل ما جاء به الرسول ﷺ، وقدم عقولهم على عقول أولي الألباب والنهى من أئمة الدين وعلماء المسلمين، من غير مبالاة ولا خوف من رب العالمين.

---

(١) كذا.

بعض الكفار الذين تغلظ كفرهم ينكرون تعليق الأمور بقضاء الله وقدره، وهذا صرّح بأن الآجال والأرزاق وجميع الأمور ليس لها ارتباط بالقضاء والقدر.

أعداء الرسول يحتجون على المسلمين في هذه الأوقات بتأخرهم وسبق غيرهم لهم في علوم المادة والفنون العصرية، ويجعلون ذلك من الشبه لهم على القدح في دينهم، وهذا قال ما قالوه بعينه.

أعداء المسلمين من دعاة النصارى وغيرهم يريدون بحسب إمكانهم أن يهضموا أئمة الإسلام وقادات المسلمين بعض حقوقهم وتبريزهم، وهذا أهدر جميع محاسنهم وعلومهم وأعمالهم وهدايتهم ونفعهم، فلم يجعل لهم حقًّا أصلًا، ولا فضلًا ولا فضيلة.

بعض ملاحدة الدهريين الذين يرون قدم العالم، أنكروا صريحًا هبوط آدم وقصته، وهذا كذَّب صريحًا جميع ما حكاه الله عنه في كتابه، وحكاه عنه رسوله، وصرح بمقالة السفهاء حيث زعم أن مبدأ الإنسان في طور شبيه بالحيوان، أو هو الحيوان، وأنهم في ذلك الوقت ليس عندهم لغة يتخاطبون بها، ولا إشارات يتفاهمون بها، وإنما هي أصوات كأصوات البهائم، ثم انتقلوا عنه بعد مدد طويلة إلى أن ارتقوا إلى تفهم بعضهم بعضًا بالإشارات، ثم انتقلوا بعد مدد طويلة إلى التخاطب بالألفاظ البسيطة، ولا يخفى ما في هذا من التحريف والتكذيب لجميع الرسل.

أعداء الرسول من المنافقين آمنوا ثم كفروا، وأبصروا ثم عموا، وهذا بعدما صنف التصانيف النافعة في نصر الدين، ومقاومة المبتدعين والملحدين، انقلب هذا الانقلاب الذي محا به كل ما كتبه وقرره عن الدين، فكان ممن خسر الدنيا والآخرة ألا ذلك هو الخسران المبين؛ إلا أن يتدارك ذلك بتوبة وتنصل ونقض لما كتبه في كتابه من عداوة الدين وقدحه فيه، وفي شرائعه وحملته، فالله يتوب على من تاب.

فهذه الأمور التي احتوى عليها كتابه، وصوّرناها للقارئ تصويرًا، يعرف به مرتبتها وبعدها عن الدين، ومقاومتها لتعاليمه العالية وأخلاقه السامية، وإصلاحه العام، وإتيانه بمصالح الدنيا والدين، يعجب البصير إذا تصورها كيف جمع كتابه هذا جميع ما قاله أعداء الدين ووجهوه إليه، وإلى ما جاء به من المطاعن، فحذا حذوهم، وغيَّر بعض العبارات وزوّقها وروّقها، ثم مع ذلك يظن بسفاهة عقله أنها تروج وتخفى، لقد خاب إذًا ظنه، وبطل سعيه، واضمحل أمله، سيعرف ويدري أنها أورثته تاريخًا مملوءًا بالفظائع والمنكرات، ونزّلته من أعلى المقامات إلى أسفل الدركات، وصيّرته مُثْلَة بين العقلاء في سفاهة عقله ووقاحته وانقلاب قلبه، فبئس ما اشترى، وبئس ما اختار لنفسه، وبئس ما تعوّض عن المقامات السامية بأخس المتاع.

فنلجأ إلى ربنا ونتضرع إليه ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يحبب إلينا الإيمان ويزيّنه في قلوبنا ويكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ويجعلنا من الراشدين.

وليعلم القارئ أننا لم نتجاوز ما قاله في كتابه، ولم نبالغ في شيء مما نقلناه ونسبناه إليه، وقد أشرنا بالرسالة المذكورة إلى الصفحات من كتابه الموجودة فيها هذه المباحث الخبيثة التي لا يخفى على البصير المقصود منها؛ ولا يخفى على العاقل الأسباب التي حملته على تأليفها.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين ١٠/ ربيع أول/ سنة ١٣٦٦هـ.



جواب مختصر
عن حقيقة كتاب «هذي هي الأغلال»

وردت علينا أسئلة من إخواننا، يستفهمون عن حقيقة مواضيع وبحوث الكتاب المسمى **هذي هي الأغلال** للمسمى بالقصيمي، وقد كنا كتبنا في مواضيعه رسالة لطيفة، فنّدنا فيها أقواله الزائفة بالعقل والحس مع الشرع، وفيها بحوث نافعة للقارئين، لا يمكننا إيرادها في هذا الجواب المختصر، الذي سنشير فيه إشارة لطيفة لمقاصد مواضيعه الإلحادية، ونبين أنه في هذا كله تابعٌ وحاذٍ على حذو أعداء الشريعة، الذين تلونوا في المحاربة لله ولرسوله.

فنقول مستعينين بالله، راجين منه أن يهدينا، وألا يزيغ قلوبنا بمنّه وكرمه:

من نظر في هذا الكتاب، وتأمله حق تأمله عرف أنه ما كُتِب أعظم وطأة وعداوة ومحاربة للدين الإسلامي منه، وأنه ما اجترأ أحد من الأجانب وغيرهم، مثل اجتراء هذا الرجل، ولا افترى مفترٍ مثل افترائه، ولا حرّف أحدٌ مثل تحريفاته، وما صرَّح أحدٌ بالوقاحة والاستهزاء والسخرية بالشريعة والدين وأصوله وعلومه وأخلاقه وحملته كاستهزائه وسخريته، فإنه احتوى على نبذ الدين الإسلامي ومنابذته ومنافقته، ثلاثة لا تُبقي من الشر شيئًا إلا تضمنته؛ فإنه صريح في الانحلال عن الدين بالكلية، وخروج تام عن عقائده وأصوله، فضلًا عن فروعه، وهو أكبر دعاية ومقاومة للدين وأهله، وفيه من البهرجة والتزويرات التي جعلها في صورة نصر الدين، ما يعدُّ من أعظم الإلحاد والنفاق والزندقة والكيد للإسلام وأهله ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وذلك أن جميع أعداء الله وأعداء رسله، تلوّنوا وتنوّعوا في الكفر والتكذيب، ونصروا ما هم عليه، وردوا ما جاءت به الرسل؛ وهذا الرجل تلقى عنهم كل ما قالوه، وزاد عليهم

في المحاربة زيادات، واستدرك استدراكات كثيرة؛ فإن النافين للباري المعطلين له بالكلية، كفرعون وأشياعه، وزنادقة الفلاسفة الدهريين الجاحدين للباري، صارحوا بهذا الجحد لرب العالمين، والإنكار له وتكذيب رسله علنًا، ثم أظهروه بأسلوب آخر، وهو الأسلوب الذي سلكه زنادقة الاتحاديين، الذين يرون الوجود واحدًا بالعين، فلا ثمَّ رب ولا مربوب، ولا خالق ولا مخلوق.

ثم أظهره هذا الكاتب بأسلوب نفاق أشنع من ذلك كله، حيث زعم أنه لا فرق بين الخالق والمخلوق، وأن من فرّق بينهما فهو غالط ضال عنده، فغلّط هذا جميع الرسل وجميع الكتب، التي من أعظم الفرقان فيها الفرق بين الخالق والمخلوق، وكما خالف النقل فقد خرج بهذا القول الفظيع عن العقل؛ وهذا معناه الجحد لرب العالمين.

أعداء الرسول تنوعوا في تكذيبه فقالوا: ساحر وشاعر ومفتر كذاب، والفلاسفة جعلوا هذا التكذيب بأسلوب آخر، جعلوا ما جاءت به الرسل تخييلات؛ وهذا جاء به بوجه آخر، حيث حلل بزعمه حياة النبي ﷺ ذلك التحليل الخبيث الباطل، أنه كان يخلو بالطبيعة ويناجيها، وتأخذ بقلبه ولبِّه، ويظل في ليله ونهاره ينزع إليها، وافتتح بها رسالته بخلوته بها في جبل حراء، وختمها به في السياق حيث كان يقول: «**في الرفيق الأعلى**»[1]. فهذا التحليل الخبيث، الذي لا يروج على الصبيان، قد أخذه بعينه من دعاة النصارى، حيث قالوا هذا القول الذي هو التكذيب والكفر المحض، فعنده ليس ثمَّ وحي ولا مناجاة لله ولا نزول جبريل من عند الله، فظن بسفاهة عقله أنه بهذا الكلام يسلم من الشناعة، فالوحي عنده خيال لا حقيقة.

أعداء الرسل من الدهريين قالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]. وهذا يقول: ما هي إلا طبيعة تتفاعل وتتطور وتدير أمر العالم، وتدبر الأمور الدقيقة والجليلة، وأنكر قضاء الله وقدره، ورجّع ذلك كله إلى الطبيعة، وهذا إنكار منه لله ولصفاته، وتعطيل له، وإنكار لربوبيته؛ وكما أنكر الربوبية، فقد أنكر توحيد

(١) تقدم تخريجه ص١٧٠.

الإلهية، ولم يرتضِ ما قاله المشركون، بل أنكر عبادة الله بالكلية، وأنكر الافتقار إليه، وتهكم بالمفتقرين إلى ربهم، المخلصين الداعين، واستهزأ بهم في كلام طويل ساقط مردود، وكما أنكر الربوبية والإلهية والعبادة، فقد تقدم ما يدل على إنكار الرسالة وتفسيره للوحي، وقدحه بالنبي ﷺ، ورميه إياه بعبادة الطبيعة، وكما أنكر هذه الأمور، فقد أنكر عقوبات الله في الدنيا والآخرة، وسخر بمن أثبتها، فيا ويحه ما الذي أبقى عليه من أصول الدين وقواعده، لقد أنكرها كلها، ولم يكتف بإنكارها حتى جعل يحاربها ويتهكم بها، ويرمي المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله بالبلاهة وضعف الرأي والعقل، وقد ملأ كتابه من السخرية بهم، ولم يدر أنه بهذا سيسجل على نفسه بالجنون والانسلاخ من العقل بعد الانسلاخ من الدين؛ وكما أنه جعل المسلمين علماءهم وهداتهم وعبّادهم في أحط الدرجات، فقد جعل الملحدين وزنادقة الفلاسفة في أرفع الدرجات، وعظّمهم وخضع لهم في جميع ما قالوه وفعلوه؛ وكما جَدَّ بنفي أصول الدين العظيمة، فقد أيّد ذلك بإلحاحه البليغ وحثّه على نبذ القديم ومراده به تعاليم الدين وأصوله وآدابه وثقافته وأخلاقه، وحتَّم أن يُتخذ ثقافة جديدة يُنبذ فيها القديم كله بما في مقدمته الكتاب والسنة، وأن تكون هذه الثقافة جديدة إلحادية، يكفر بها بجميع حملة الدين الإسلامي، ويعتقد سقوطهم، وأنه لا فضل لهم، ويهجر كتبهم كلها، من حديث وتفسير وفقه وأصول وفروع وغيرها، وأن يُعَدّوا مجرمين يستحقون الجزاء، وليس هذا بغريب؛ فإنه تجرأ وصرّح على ما هو أطمّ من ذلك، حيث رمى جميع الأنبياء، وزعم أنهم لم ينفعوا الناس والحياة بشيء، ومن كانت هذه تصريحاته ووقاحته، وعدم حيائه من الله ومن الخلق، فقد انتقل من طور إلى طورٍ، هو أسفل الأطوار وأسقطها؛ فلو أن له مسكة من عقل وذكاء، وسلك مسلك الحذاق من الملحدين، لتستّر بعض التستر، ولكنه سلك هذا المسلك الخبيث، وهذا من آيات الله وجملة عقوباته، يري عباده كيف يصير الإنسان المعروف بالعلم والفضل، إلى أن ينحط إلى هذه المرتبة التي صار بها مُثْلة بين العقلاء. فنسألك اللّهم ألا تزيغ قلوبنا بمنّك وكرمك، وكذّب بقصة آدم وزوجه وذريته فزعم أن الإنسان في أول أمره كالحيوان لا ينطق ولا يتكلم، ثم بعد مدد انتقل إلى طور الإشارة، ثم

بعد مدد أخرى تمكن من النطق والكلام، وأن الصحابة في طور الطفولية، وطور قريب من أطوار الحيوانات يعلمون ظواهر الأشياء لا بواطنها، وعنده أن الذين عرفوا العلوم النافعة، هم هؤلاء الملاحدة، مستدلًّا على ذلك بما أوتوا من علم الصناعات وفنون الاختراعات، وأن تأخر المسلمين دليل على فساد دينهم، وقد أخذ هذا عن أعداء الإسلام والمسلمين، وقال فيه أقوالًا أكثر مما ذكرنا عنه، وقد أشرنا إلى الصفحات من كتابه الموجودة فيها هذه البحوث الخبيثة وأشباهها، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على محمد وسلم.

قال ذلك وكتبه عبد الرحمن بن ناصر السعدي.



نبذة جامعة مفيدة مختصرة
في التحذير من كتاب «هذي هي الأغلال»

كتاب **الأغلال** مشتمل على نبذ الدين الإسلامي؛ منابذته ومنافقته، فهو صريح في الانحلال عن الدين بالكلية، وخروج عن جميع أصوله فضلًا عن فروعه.

وهو أكبر دعاية، ومقاومة للدين، ومنابذة لأصوله، والتهزي به وبأهله وحملته، وصاحبه جعله بأسلوب الناصر للدين، فلم يبق من الشر شيئًا إلا ارتكبه، فإنه شارك المنحلين عن الدين، النابذين له بالكلية، وشايع الدعاة إلى دين الملحدين، المتصدين لعداوة الدين ومقاومته، ودخل في ضمن زنادقة المنافقين الماكرين الخادعين.

وهذه الأساليب الثلاثة، التي لم تبق من الشر والفظاعة، قد حواها كتابه؛ وردها في مواضع متعددة:

فبالأول: نبذ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأنكر أفعال الله تعالى وربوبيته، وجعل العالم العلوي والسفلي يجري على نظام الطبيعة، ليس لله فيه تدبير ولا تصريف ولا تغيير، وأنكر العقوبات على المعاصي والذنوب في الدنيا والآخرة.

وحلل رسالة محمد ﷺ بكلام لا مستند له فيه، أخذه عن دعاة النصارى.

حيث زعم أنه كان يناجي الطبيعة، ويأخذ كمالاته وأقواله وأفعاله منها؛ وأنه بها ابتدأ وإليها انتهى.

وبالثاني: جعل كتابه هذا أكبر داعٍ لنبذ الدين ومقاومته وعداوته، كما هو مشاهد محسوس من أوله إلى آخره.

وبالثالث: موّه بذلك على الأغرار، أن الدين يدعو إلى ما قال، وأن بعض الآيات والأحاديث تدل على ما قال، فمن نظر وتأمل في كتابه علم أنه ما صنف أعظم وطأة وعداوة للدين من هذا الكتاب، ولا اجترأ أحد من الأجانب فضلًا عمن يتسمى بالإسلام بمثل ما اجترأ عليه هذا الرجل، ولا افترى مفترٍ مثل افترائه؛ ولا حرّف أحد تحريفًا يضاهي تحريفه، وما استهزأ أحد بالشريعة وعلومها وأخلاقها وحملتها كاستهزائه وسخريته.

المعطلون للباري المنكرون له رأسًا، لهم في ذلك أساليب ترجع إلى هذا المعنى؛ أسلوب التصريح بالإنكار والصراحة فيه، وذلك مذهب الدهرية، الذين يقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. ومذهب فرعون حيث يقول: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

ثم أظهروه بأسلوب أظهره زنادقة الاتحاديين، الذين زعموا أن الوجود واحدٌ بالعين؛ ثم أظهره هذا الكاتب بأسلوب أشنع منها كلها، وهو أنه يجب أن يعلم أنه لا فرق بين الخالق والمخلوق، وأن من فرّق بينهما من الرسل وأتباعهم، وجميع المعترفين برب العالمين؛ فهو غالط أكبر غلط.

والمكذبون لرسالة محمد ﷺ لهم في ذلك أيضًا أساليب، أسلوب التصريح والتكذيب له، وأنه ليس رسولًا، وأسلوب من يقول: آمنا بالله ورسوله، وقلوبهم منطوية على الكفر والتكذيب، وأسلوب أظهره هذا الكاتب مجاراة لدعاة النصارى، حيث جعل رسالته اختلاء بالطبيعة والدعوة إليها، فكان المجاهرون بعداوته يقولون: ساحر مفترٍ كذاب، وهذا زعم أفظع الزعم، أن رسالته من نفسه إلى نفسه، وأنه ليس من عند الله؛ وإنما هو رجل من عظماء الرجال، وليته لم يفضل عليه رجال الإلحاد والمجاهرين بالكفر برب العالمين.

كان الدهريون الأولون يقولون: ما هي إلا حياتنا الدنيا أرحام تدفع، وأرض تبلع؛ وهذا وأمثاله قالوا: إن هي إلا طبيعة تتطور وتتفاعل وتنتقل من حال إلى حال، هي المديرة لنظام هذا العالم، وهي المدبرة للأمور الدقيقة والجليلة، وليس لله عندهم فعل ولا تدبير، بل ليس

عندهم ربٌّ ولا إله، ولا فعال لما يريد.

أعداء الرسول ﷺ تلونوا في رد دعوته ومقاومته، وهذا أخذ عنهم كل ما قالوه، وكل ما قاله الأعداء المتأخرون.

أولئك قالوا: ساحر شاعر مفترٍ كذاب؛ وهذا قال: وحيه إنما كان من تخيله وأفكاره العالية، ولم يكن من عند الله شيء.

وأولئك المكذبون للرسل قالوا للرسل: إنا تطيرنا بما أرسلتم به، ولم نر فيما جئتم به إلا الشر، وإنما الخير فيما نحن عليه، وهذا قال عن الدين الإسلامي إنه شر، وإنه أسقط أهله، ونكسهم على رءوسهم، وإنما الخير فيما جاء به الملحدون، وبه السعادة والفلاح والرقي.

وأولئك قالوا: مستهزئون بكم، وسخروا منهم وبما جاءوا به، وهذا استهزأ بالرسول ﷺ وسخر بما جاء به.

الأعداء الأولون قالوا في رد دعوته: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. وهذا زعم أن الوحي خيال غير حقيقي، والمنافقون واليهود قالوا ماكرين: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]. وهذا ادعى في كتابه أنه مؤمن بالله ورسوله، ناصر للدين، يغار للمسلمين، وهو مُجدٌّ في عداوة الدين، لعل تزويره يروج على ضعفاء العقول من المسلمين، فيقبلونه حيث ادعى أنه منهم.

وأولئك يدعون إلى الدنيا والترف والرياسة ويزهدون في الآخرة، وهذا حذا حذوهم، وزعم أن مِن نقص الدين ورجاله حثهم على الزهد في الدنيا وترغيبهم في أعمال الآخرة.

ومنهم من قال محللًا لحياة الرسول ﷺ: إنه يخلو في البراري والقفار، ويناجي الأرض والسماوات، فصار وحيه من نفسه لنفسه، وهذا خطا على ما خطوه.

ودعاة النصارى قالوا لما بهرهم دينه وآثار الإسلام، قالوا: إن محمدًا رجل سياسي، ساس الناس بعقله، وساقهم بتدبيره، حتى صار ما صار من الفتوحات وانتشار الإسلام، وهذا قال:

استلهم الطبيعة والعقل، فجاء بما جاء به.

أعداء الرسول ﷺ ينكرون الإخلاص لله، وعبادة الله وحده لا شريك له، ويقولون: ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾ [ص: ٥]. وهذا ذم الافتقار إلى الله، وإخلاص الدين لله، وأمر بالإخلاص للطبيعة، وعبادتها بالقلب والقالب، والظاهر والباطن، وليته اقتصر على ما اقتصر عليه المشركون؛ حيث عبدوا الله، وعبدوا معه غيره، ولكنه ذمَّ عبادة الله والافتقار إليها بالكلية، وأمر بالإخلاص بالشدة والرخاء للطبيعة وحدها.

أولئك قالوا: إنّا وجدنا آباءنا على أمة ودين، فلن نترك دينهم لدين محمد ﷺ، وهذا زعم أنه يتحتم الكفر بما جاء به محمد، وتقديم ما قاله أرسطو وزنادقة الملحدين عليه، أولئك قالوا: نحن أكثر أموالًا وأحسن أثاثًا ورئيًا، وهذا قال: أي الفريقين خيرٌ، الماديون الذين صنعوا المخترعات وكذا وكذا، أم المسلمون الذين لم يصلوا فيها إلى ما وصلوا؟

المكذبون للرسل قالوا: كيف نتبعكم؛ وأتباعكم الأرذلون الفقراء ضعفاء العقول؟ وهذا قال: المسلمون معروفون بالذل وضعف العقول والرذالة والنذالة، والملحدون هم الأقوياء في القلوب والأبدان وجميع ميادين الحياة.

أولئك لما جاءتهم الرسل بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم، فردّوا ما جاءت به الرسل؛ وهذا لما جاء الحق الذي لا ريب فيه، فضّل عليه علوم الطبيعة، وفرح بها وقاومها.

الأولون قالوا عن الأنبياء: إنهم ضروا الناس ولم ينفعوهم؛ وهذا قال عنهم كلهم هذه المقالة بعينها.

الأولون يذمون الرسول ﷺ حيث دعا إلى الإخلاص بالدعاء لله، وهذا جعل الدعاء لله لا نفع فيه بوجه من الوجوه، بل هو ضرر على العبد.

الأولون يقدحون بالرسول ﷺ ويقولون... وهذا يقول: المسلمون يريدون كل شيء من السماء، يقدح في توجههم لله وافتقارهم إليه.

الأولون يستهزئون بعذاب الله ووعيده، وهذا سلك مسلكهم في الاستهزاء بالوعيد.

الأولون ينكرون أن الكفر والمعاصي والفسوق تسبب العقوبات الدنيوية، وهذا يستهزئ بمن جعلها أسبابًا، مستهزئًا بكتاب الله وسنة رسوله ومن تبعهما.

المدعون لألوهية المسيح يجادلون الرسول ﷺ فيها، وهذا يزعم أن كل إنسان في إمكانه أن يكون إلهًا، فدعوى النصارى عنده إلهية المسيح دعوى حسنة في مقصدها؛ لو أنهم عمموا لأصابوا عنده.

الأولون قدحوا في الصحابة، وأنه لم يتبعك إلا عبيدنا وسوقتنا، وهذا زعم أن الصحابة في طور الطفولية، أو طور ينقص عن ذلك، وأن الرشد في هؤلاء الملاحدة الذين يعظمهم.

الأولون مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه، ويطفئوا ما جاء به من الدين ويمحقوه، وهذا يقول: متعيّن نبذ ما جاء به محمد من الدين الإسلامي والكفر بحملته، وأن نتخذ ثقافة جديدة من أرواحنا... إلخ.

الباطنية والقرامطة والإسماعيلية حرّفوا الكتاب والسنة، ونزلوه على إلحادهم، وهذا صنع أعظم من صنيعهم.

زنادقة المتفلسفين قالوا: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، وهذا يسخر بمن يقدمون نصوص كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ.

أولئك زعموا أن العظماء هم رؤساء الكفر، والرسل هم المستضعفون، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]. وهذا زاد عليهم، فزعم أن العظمة منحصرة في أئمة الزنادقة، ومن على شاكلتهم.

من انتهى كفرهم من الأولين ينكرون تعليق الأمور بقضاء الله وقدرته؛ كالآجال والأرزاق ونحوها، وهذا يصرح بذلك.

دعاة النصارى يحتجون بأحوال المسلمين وتأخرهم المادي على الإسلام، وهذا سلك مسلكهم، وينكرون ما لعظمائهم ويهضمونهم حقهم، وهذا لم يجعل لهم حقًّا أصلًا ولا فضيلة.

الأولون عارضوا ما جاء به محمد ﷺ بمخالفته لدين آبائهم الأولين، وهذا عارضه بمخالفته للملحدين الأولين والآخرين.

رسالة الشيخ عبد الرحمن السعدي
في التحذير من كتاب «هذي هي الأغلال»

من عنيزة في ١٨ صفر سنة ١٣٦٦هـ.

من المحب عبد الرحمن الناصر السعدي، إلى الولد المكرم عبد الله العبد العزيز العقيل المحترم، حفظه الله آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، مع السؤال عن صحتكم، صحتنا مع الوالد والعيال والإخوان تسركم، أرجو الله أن يتم على الجميع نعمه.

وصلني كتابك من الرياض وما شرحته من عزمكم على التوجه لمكة فجيزان؛ لظف[١] أشغالكم هناك، وقد وصلت برقيتكم للوالد بالتوجه، يسَّر الله أمركم في حلكم وترحالكم وجميع حركاتكم.

أما ما شرحته عن كتاب عبد الله القصيمي الذي سماه **الأغلال**، ومقتِ المشايخ للكتاب المذكور، وذكركم أنكم سترسلون لنا بوصولكم مكة نسخة نطّلع عليها، فنحن قد اطلعنا عليه، وهو فوق كل ما قيل فيه من الانحراف عن الدين، فمن أمعن فيه النظر جزم جزمًا لا يمتري فيه أنّه دعاية صريحة لنبذ الدين، مع كثرة تهافت صاحبه وتناقضه واعتذاراته أنّه بريء من الإلحاد، وأنّه مؤمن بالله وبما أخبر الله به، وعدم استقراره.

فصاحب البصيرة والذي يرى تناقض صاحبه وعدم ثبوته وتلوّن آرائه، لا يمتري ببطلان كلامه.

(١) ظفّ: جمع وإنهاء.

وهاك على سبيل الإجمال واختصار الزائد جمل ما يحتوي عليه، جُمَلًا رددها وكررها بكتابه بعبارات وأساليب متنوعةٍ.

كتابه هذا عن الدين ينقض جميع كتبه السابقة عنه، فهو قد كذبه أو هي كذبته، يحتوي على الحث الكثير على نبذ الإيمان بالله، ويقول: إنّه من أكبر الأغلال المانعةِ من الرقي، وأنّه لا يمكن المسلمين أن يرتقوا في هذه الحياة ما داموا مؤمنين بالله، وهو مع ذلك يُموِّه، ويزعم أن الناس لا يمكن أن يفهموا دينهم بالكلية، بل ذلك متعذر، يعني فيتعين عليهم أن يرفضوه.

فهو يحث على نبذ الدين والإيمان، ويُرَغِّب غاية الترغيب في طريق الملحدين المعطلين لرب العالمين، ولأفعاله وربوبيته، ويتوسل إلى هذه الدعاية بذكر خرافات المتصوفة وأهل الخرافات؛ كابن عربي والشعراني ومن سلك سبيلهم من أهل الانحراف، ويطبق أحوالهم وما يقولونه على المسلمين، ليتمكن بذلك من القدح في المسلمين.

ومن الطامات أنّه يزعم أن الناس مسلمهم وكافرهم وقت نزول القرآن في طور الطفولية، بل في طور دون ذلك يقرب من طور الحيوانات.

وأن الناس في هذا الوقت - ليس كلّ الناس بل المراد أهل الاختراعات - قد بلغوا رشدهم وكملت عقولهم، وكرر على هذا الأصل الخبيث الحمل على السابقين الأولين، وعلى قرون الأمة، وزعم أنّه لا خير فيهم.

وأنّ الجامعة الإسلامية كلها من أولها إلى آخرها لم يخرج منها عبقري ولا مرشد نافع للأمة.

وأوجب رفض القديم، واعتناق الجديد، وفرَّع على ذلك وجوب نبذ العلوم والأخلاق والآداب السابقة، وفي مقدمته العلوم الدينية والأخلاق الدينية.

وأنّه يجب أن يعلم الناس الكفر بجميع ما خلّفته الجامعة الإسلامية من كتب وعلوم

وأخلاق وأعمال، وأنه يجب مقتهم مع الإقبال على ما قاله الملحدون، كرّر ذلك في مواضع.

وأنّ السابقين من الأنبياء وغيرهم لم ينفعوا الإنسانية، ولم يرشدوها إلى الأمور النافعة، فقدح صريحًا بجميع الأنبياء والأئمة والهداة.

ورغّب في المعاهد الأجنبية.

وحمل حملاتٍ منكرة على المسلمين من أولهم إلى آخرهم.

وزعم أنّ المسلمين من أولهم إلى آخرهم يحثون على الفقر، وحصول الأمراض وأنواع المصائب، ويسعون لطلبها.

وفي هذه الفقرة كذَّب كلّ نصّ فيه فضل الفقر والفقراء والأمراض وردّها وحرّفها.

ومن تمويهاته وتزويراته أنّه يذكر الأحاديث الصحيحة، ثمَّ يضم إليها أحاديث باطلة وآثارًا ساقطة فيرد الجميع.

ويتهكم بالرواة لتلك الأحاديث، لا يرفعها عن صحابي ولا تابعي ولا إمام من أئمة الهدى.

وكذلك ردّ الأحاديث الدالة على أنّ هذه الأمة أولها أفضل من آخرها، وتهكم برواة حديث أنس الذي في البخاري: «**لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شرّ منه**»[1].

وزعم أنّ هذه الآية ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]. أنها منطبقة على عصر التنزيل، وأنّ الصحابة والقرون المفضلة لا يعلمون إلا علمًا ظاهرًا بسيطًا، وأما العلوم النافعة فإنّها لمن يعظمهم من الزنادقة الملاحدة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨]. ينظرون

(١) تقدم تخريجه ص١٩٧.

إلى ظاهر النبي ﷺ ولا يبصرون باطن دينه، ولا حقيقته، ويريد تنزيلها على المسلمين وقت التنزيل، وأنّهم لم يعرفوا الدين لا هم ولا من بعدهم، وفهمهم إياه فهم ظاهري غير حقيقي، ويحتوي على صرف القلوب عن عبادة الله وحده لا شريك له، ويذم الافتقار إلى الله.

ونقل عبارات بعض العلماء - منهم ابن القيم، ولكنه لم يسمّه - في الفقر إلى الله، وجعل يردّها ويتهكم بها، ويسخر منهم ومنها.

ويحث على عبادة الطبيعة وصرف الظاهر والباطن إليها.

ويحتوي كتابه على التهكمات الشنيعة في وعد الله ووعيده وعقوباته ومثوباته الدنيوية والأخروية في مواضع كثيرة من كتابه، ولا يرضى بتفسير التوكل والقدر بتفسير الجبرية، ولا بتفسير القدرية، ولكنه نصر تفسير الفلاسفة الزنادقة، وأن معنى ذلك أن تؤمن فقط بنظام هذا العالم وانتظامه، وأن الأسباب مستقلة لا يقدر الله على تغييرها ولا تحويلها ولا التصرف فيها بوجه من الوجوه، وإنّما ذلك عمل الطبيعة فقط.

ويقول عن النبي ﷺ: إنّه وقت خلواته بالله ووقت انتقاله من الدنيا؛ إنه متوجه إلى الطبيعة وشاخص إليها، وليس لله ذِكْر ولا خَبَر، فخلوته ليست بالله، وقوله عند احتضاره: «**في الرفيق الأعلى**»[1]. ليس طلبه القرب من الله، وإنّما يقصد التعلق بعالم السماوات وبالطبيعة فقط، في كلام طويل مردد.

وصرح أنّ الإنسان في أول أمره مثل البهائم، مكث مدة طويلة لا ينطق ولا يتكلم إلا أصوات مثل أصوات الأطفال وقت ولادتهم، ثمَّ انتقل إلى طور الإشارات فقط، ثمَّ انتقل بعد مدة طويلة إلى طور الكلام، فكذَّب بهذه الجمل التي رددها جميع ما أخبر الله به عن آدم وحواء وأول الآدميين.

ومن بحوثه الفظيعة أنّه يمكن الإنسان أن يزاحم رب العالمين في علمه وقدرته، فيمكنه

(١) تقدم تخريجه ص١٧٠.

أن يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء وأنّه علم مبدأ العالم ومنتهاه، وأنّه سيرتقي علمه إلى العالم العلوي بعدما يفرغ من العالم السفلي، وأنّه قد يتمكن من إيجاد المخلوقات الحية وينفخ فيها الروح.

وأنّ التفريق بين الله وخلقه جهل وضلال وغلط، فقدح بجميع الكتب وجميع الرسل وأتباعهم، إذ أصل الدين والتوحيد والإيمان هو التفريق بين الله وبين خلقه، لكن هذا كلام من لا يثبت لله أصلًا.

وكرّر أنّ الإيمان قيد وغلّ مانع من الرقي ومضعف للقلوب والهمم والعزائم، فحثَّ على الرفض حثًّا كثيرًا شنيعًا، وردّ كثيرًا من الأحاديث الصحيحة النبوية.

وأما ما فيه من إنكار الغيرة، والحث على السفور، والتهكم بأهل الصيانات لنسائهم، فحدِّث ولا حرج.

ومن عجيب أمره أن كتابه ملآن من السخريات والتهكمات بالدين وحملة الدين.

ومن نظر في كتابه وكتبه السابقة، وكيف كان هذا الانقلاب الفجائي في أصول الدين وأسسه، فلا بدَّ أن يفهم الأسباب التي حملته على تصنيف هذا الكتاب.

وبالحقيقة كتابه هذا أشنع وأطمّ من كتب دعاة النصارى والمبشرين، لأنّه دعاية لنبذ الدين في قالب أنّه من أنصاره وهو يحاربه ويوهم الناس أنّه يحارب له.

فنؤمل أنّ حكومتنا يوفقها الله تعالى للمنع الصارم لتسرب نسخ هذا الكتاب للمملكة، وإن كان – ولله الحمد والمنة – في المشايخ والمتبصرين بركةٌ بإيقاف الأغرار على ما في كتابه من الأمور الضارة في الدين، ولكن على كل حال إبعاد مثل هذا الكتاب عن المملكة أهون شرًّا، لأنّه يوجد شبيبة لا رأي لهم ويرغبون في الكتب العصرية وقراءة الصحف، فخطره عظيم على أمثال هؤلاء.

ونرجو الله تعالى أن يقمع الملحدين وأن ينصر دينه وكتابه وعباده المؤمنين، إنّه جواد كريم.

هذا ما لزم تعريفك، منا السلام على جميع من تتصل به من المشايخ والإخوان والأصحاب.

كما منا الوالد والولد محمّد والإخوان والشيخ[1] وجميع المحبين والسلام.

(١) يعني الشيخ عبد الرحمن بن عودان قاضي عنيزة رحمه الله.

مقدمة رد الشيخ تقي الدين الهلالي
على كتاب «الأغلال» بخط الشيخ السعدي رحمه الله

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، والصلاة والسلام على نبي الرحمة، وهادي الأمة، وكاشف الغمة، خاتم النبيين وإمام المصلحين، من بعث بدعوته الأموات، وجمع الأشتات، وعلى آله وأصحابه المتصفة بأحسن الصفات.

أما بعد: فهذا **مظهر الضلال في كتاب الأغلال**، نسأل الله أن يوفقنا فيه لإصابة الصواب، ورفع الريبة عن كل مرتاب.

المقام الأول: قوله: «سيقول مؤرخو الفكر: إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل». كان العرب قبل الإسلام متصفين بصفات من أقبح ما وصلت إليه أمة منحطة؛ منها: الجهل ولذلك سمي زمانهم زمان الجاهلية، ومنها: تفرق الكلمة، ومنها: الذلة بالنسبة إلى الأمم الأخرى، ومنها: الفقر المدقع، ومنها: الجفاء وغلظ الطبع، ومنها: مساوي الأخلاق كوأد البنات، وعدم توريث النساء والصبيان، بل كانوا يورثون النساء في بعض الأحوال، وأكل مال اليتيم، وقتل النفوس، وشن الغارات، والنهب والسلب، واسترقاق بعضهم بعضًا، والتفاخر بالأنساب لا بالأعمال، واستلحاق أولاد الزنا، إلى غير ذلك مما هو معروف.

فجاء محمد رسول الله ﷺ بكتاب من عند الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من تمسك به نجا، ومن زاغ عنه هلك، فأحيا الله به العرب بعد الموت، وجمعهم بعد الشتات، وأغناهم بعد الفقر، وأعزهم بعد الذلة، وجعلهم سادة لمن كانوا لهم عبيدًا - أي الفرس والروم - وأبدلهم من القسوة رحمة، ومن الخشونة والجفاء لطفًا ولينًا؛ وبالجملة

جعلهم سعداء بعد أن كانوا أشقياء.

وقد أخبر الله في هذا الكتاب وفي بيانه - وهو كلام رسوله ﷺ - أن العرب وسائر المسلمين لن يزالوا الأعلين ما تمسكوا بهذا الكتاب، واهتدوا بهدي النبي الكريم، ومتى تركوه وابتغوا الهدى في غيره أضلهم الله وخيّب سعيهم، وردهم إلى ما كانوا فيه من الشقاء، وهذا ما وقع، وهذا الرجل يقول: إن الأمة العربية بكتابه هذا تبدأ تبصر طريق العقل، كأنَّ كتاب الله وبيان رسوله الذي حييت به الأمة، وسعدت باتباعه، ثم ماتت وشقيت بتركه، والتاريخ أصدق شاهد، لا يكفي لبعث العرب وإبصارهم طريق العقل والرشد، وكل ما ألّفه علماء الإسلام في زمان مجدهم، لا يكفي لإبصارهم طريق العقل، حتى يأتي هذا الكتيب فيفتح أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا، ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ۝١٦ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [النور: ١٦، ١٧].

والمهم أن هذه أمنيته، وخيال تخيله المصنف، وفرح به واستهواه وأغواه، وأخذ يتكهن بمستقبل كتابه، ويهيم في أودية الأحلام.

إن الأماني والأحلام تضليل ....

المقام الثاني: قوله في صفحة (٣): «إن ما في هذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية، التي تفقدها أمة فتهوي؛ لأنها فقدت حقيقة من حقائقها الطبيعية، وتأخذ بها أمة أخرى فتنهض؛ لأنها قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة؛ ولن يوجد مسلم واحد بين الأربعمائة مليون مسلم يستغني عن هذه الأفكار إذا أريدت له حياة صحيحة طبيعية».

الحقائق الأزلية ليست إلا صفات الله تعالى؛ لأن كل ما سواه حادثٌ، إلا إذا كان المؤلف يقول بقدم العالم فتلك مسألة أخرى، والمسلمون يخالفونه في ذلك؛ وأما كون هذا الكتاب لا يستغني عنه مسلم يريد أن يحيا حياة صحيحة طبيعية، فهذه دعوى وأماني.

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

يالله العجب، لقد ألّف الحكماء من المسلمين وغير المسلمين كتبًا كثيرة، متواضعين لله تعالـى، متبرئين من الدعوى، فرفعهـم الله تعالى، ونفع الناس بعلمهم، ولا نعلم أحدًا منهم، ادعى لكتابه مثلما ادعى هذا الرجل، كأنه نبي أوحي إليه.

والدعاوي مـا لم يقيمـوا عليها بـيـنـات أبـنـاؤهـا أدعـيـاء

فصل

لا نريد أن نناقش المؤلف في الألفاظ؛ لأن خطأه فيها غير مهم، لا يستحق تضييع الوقت في تتبعه والرد عليه، ولكننا رأيناه يستعمل لفظ الرومان في جمع رومي، وهو خطأ؛ إن اغتفرناه لعامة الكتاب الذين يتعلمون الإنشاء، في الصحف والمجلات، فلا نغتفره لكاتب تعلم في المساجد وقرأ القرآن وفيه: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢]. وبهذا اللفظ سميت السورة نفسها؛ وهو الموجود في الأحاديث، وكتب التاريخ والأدب العربي، ولم يستعمل لفظ الرومان إلا في هذا الوقت، الذي ضربت فيه الفوضى أطنابها في الإنشاء فضاع بذلك أسلوب اللغة العربية، ووقع الفساد في مفرداتها وتراكيبها، بسبب ما ترجم من اللغات المتغلب أهلها على يد تراجمة جاهلين، فأخذ الناس يحاكونهم ويقتدون بهم، حتى صار الفقيه يترك الألفاظ الصحيحة التي يعرفها من القرآن وكلام العرب، ويستعمل الألفاظ الفاسدة، ظنًّا منه أن ذلك يرفعه إلى درجة الفلاسفة ويجعله عصريًّا.

وهذه الألف والنون التي في لفظ الرومان، هي في بعض اللغات الأوروبية بمنزلة ياء النسبة في اللغة العربية، فالرومان في اللغة الإنكليزية مثلًا: صفة كالرومي بالعربية؛ في قولك: العصر الرومي، وتكون اسمًا بمنزلة الرجل الرومي أو الرجال الروميين، ويظهر لنا أن المؤلف في هذا الكتاب لا يصيغ قلمه فكره، بل ينتهب المعاني والألفاظ من كلام كتاب آخرين، يسمون أنفسهم عصريين وأحرار الفكر ليكون مثلهم، وقد خيل إليه أنه بهذا يصير فيلسوفًا عظيمًا.

وقد استعمل أيضًا الإنتاج وإنما هو النتاج...[1] قوله في صفحة (٧): «ولقد صار

(١) كلمة غير واضحة في الأصل الخطي، لعلها: «انظر إلى...».

معلومًا أن عظمة الشعوب ليست في الاستقلال السياسي... إلى أن قال: ولكن عظمة الشعوب الحقيقية، التي تطأطئ لها الدنيا أمامها إجلالًا ورهبة، تتجلى في شيء واحد لا ثاني له، هذا الشيء الواحد هو قدرة الشعب الذاتية على الإنتاج العقلي والمادي من ناحية الأفراد، فالشعب الذي يتفوق أفراده في هذا الإنتاج، هو الشعب الذي له التفوق المطلق، وله السيادة المطلقة، وهو الشعب الذي تخفض له الدنيا رأسها، والفرق بيننا وبين شعوب أوروبا وأمريكا لا يعدو الفرق بين أفرادنا وأفرادهم في هذا الإنتاج، فإنه لما وفر إنتاج أفرادهم العقلي والمادي، وضعف إنتاج أفرادنا، أو أضحى مفقودًا، أضحوا أقوى منا في كل شيء، فسادوا وتأخرنا... إلخ».

ذكر المؤلف في هذا الكلام سبعة أسباب للعظمة والسيادة المطلقة، فنفى منها ستة، وحصر الأمر في سابعها، وهو ما سماه قدرة الشعب الذاتية على الإنتاج العقلي والمادي من ناحية الأفراد، ولا نريد أن نناقشه في نسبة ذلك إلى الأفراد دون الجماعة مع ما فيه، ولكننا نقول: من أين عرفت هذا، وما دليلك عليه؟ والحق أن رقي الأمة وسيادتها متوقف على أمور كثيرة، لا يغني أحدها عن غيره، فالأمة القليلة العدد مثلًا لا تحصل بها السيادة المطلقة، ولا تستطيع أن تحافظ على استقلالها، وإن بلغت الذروة العليا في النتاج من حيث الأفراد ومن حيث الجماعات، وقد رأينا ما وقع لفلندة ولم تُغلب هذه الدولة التي بلغت أوج الرقي في كل شيء إلا بسبب قلة عددها، والدولة التي غلبتها لا تساويها في الرقي، وإنما غلبتها في كثرة العدد، فظهر أن كثرة العدد جزء من سبب السيادة، ولا ندعي أنها هي السبب كله، وكذلك ثروة البلاد الطبعية لا الطبيعية هي من أسباب عظمتها، فإن الأمة إذا كانت بلادها فقيرة، لا تملك المواد الأولية الضرورية، تكون دائمًا تحت رحمة الأمم التي تمدها بذلك؛ وكذلك الوطنية والحماسة فإنها سبب لا بد منه في...اهـ. الموجود منه على حسب النسخة الخطية المكتوبة بخط علامة القصيم عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله بدون تاريخ.



«نقد كتاب الأغلال»
(كشاف للمسائل الخبيثة والمباحث الخطيرة في كتاب الأغلال)

صفحة ١٤: محل تهكم منه بالمصلحين الذين يقولون: إن رقي المسلمين ينحصر في الرجوع إلى تعاليم الدين وإرشاداته. يقول هو في صفحة ١٤: «ويوجد جماعات تكاد تقيم الدنيا وتقعدها مبشّرة بروح خلقية استاقت في طريقها جماهير الشباب وأوشكت تصيب معظمهم بنوع من جنون الغارة التقي البار والجنون المقدس، خلاصة هذه الرسالة أن طريق المجد ينحصر في الرجوع إلى الأخلاق الدينية الأولى...». إلى آخر ما قال وطوّل يردد هذا القول بكلام أكثره هذيان ولم يزل يهذي حتى قال في...

صفحة ١٦: إن أعاصير رجعية مجنونة لتهب في هذه الآونة على مصر، التي رضيناها لنا زعيمة، وإنها لتترنح تحتها، ولا ندري أتثبت لها أم تتهاوى تحت ضرباتها الوجيعة. لست أحاول وقف العاصفة، فهي لن تقف، ولكنها ستتكسر على الشواطئ الصخرية إلى أن قال: «وحينئذ نرجو أن توجد العوامل التي تمنع هبوبها من جديد أو لا توجد العوامل التي تجعلها تعصف مرة أخرى» [الرجعية: المراد بها عند الملحدين الرجوع إلى القديم].

صفحة ١٧: إلى أن قال في ص١٧: «وتجد كل الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم والأساليب المبتكرة العظيمة، هم من أولئك الموصوفين بالانحراف عن الدين والتحلل منه...». إلى أن قال فيها: «طبيعة المتدين طبيعة فاترة، ولا تجد أعجز ولا أوهن من الذين يربطون مصيرهم بالجمعيات الدينية». ثم إنه تناقض فقال: ونرجع فنقول: إن الدين نفسه لا ذنب له... إلى آخر عبارته.

صفحة ٢٩: لما تكلم في ص٢٩ عن المسلمين والأجانب قال: إن أولئك - يعني

المسلمين - يريدون كل شيء من السماء من الآلهة المتعددة، وأما هؤلاء فيعلمون أن عليهم أن يرجعوا إلى أنفسهم، وأن يطلبوا منها كل شيء، وأن في استطاعتها أن تهبهم ما فقدوا وما احتاجوا إليه، ثم تهكم بعد هذا بالخطباء المتضرعين إلى الله... إلى آخر كلامه.

صفحة ٣٤: بهرجته في صفحة ٣٤ في نقل كلام الزمخشري والرازي والآمدي وابن أبي الحديد في حيرتهم، ونسب هذه الحيرة إلى الأمة الإسلامية كلها.

صفحة ٣٥: بعد تهكمه بمن يذم أرسطو وأمثاله ويقول: إنهم الذين وضعوا اللبنات الأولى للحضارة التي قامت عليها المدنيات ساقًا بعد ساقٍ... إلى آخر ما قال.

صفحة ٣٥: قال في أثناء كلامه في صفحة ٣٥: ولكن الفرق بينهما - أي الصالح والطالح - أن الصالح آمن بالآخرية إيمانًا تامًّا، أما الفاجر فإنه لم يؤمن بها هذا الإيمان، وإنما شك شكًّا وظن ظنًّا أو كفر كفرانًا أو نسي نسيانًا، فراح يأخذ ما استطاع أخذه، ولم يجد إيمانًا بالعاقبة يحمله على أن يعطي عاجلًا ليأخذ آجلًا... إلخ ما قال.

صفحة ٣٦: قال في ص٣٦: من الواجب المفيد من أين جاء للإنسان هذا الكفر بإنسانيته وذاته؟ أو لماذا كفر بهما هذا الكفر؟ يلوح أنه كفر هذا الكفر لأنه أراد أن يؤمن بالله الإيمان الذي تصوره، فقد تصور أن أساس الإيمان بالله قائم على التفريق بين الخالق والمخلوق أو بين الله وعباده... إلخ ما قال في هذا المبحث الخبيث.

صفحة ٣٧: إلى أن قال عن أهل الدين في ص٣٧: ولكن الديانات كلها مبنية على العبودية، ومن أجل هذا كله ومن أجل غيره فإنهم ما فتئوا يضعون الأهاجي المريرة الواصفة للإنسان بجميع أوصاف الانحطاط الذهني وغير الذهني، وقد رأوا - وما زالوا يرون - أنهم بهذه الأهاجي يتقربون إلى الله وينالون ويتملقون رضاه؛ لأنهم يذمون غيره، فالخطيب والواعظ والشاعر والمفسر والمحدث... إلى أن قال: وقد أكثروا من هذه الفلسفة المجنونة المخذولة والتدين المدخول.

صفحة ٣٨: إلى أن قال في ص٣٨ في سياق إنكاره على المتدينين: لو قيل لهم إن

الإنسان قد يستطيع التوصل إلى جعل إخصاب المرأة كما يريد إن شاءه ذكرًا وإن شاءه أنثى، كما توصل إلى هذا في كثير من الحيوانات، بل قد قيل: إنهم صنعوه بالإنسان نفسه... إلى أن قال مستدلًّا على إمكان كون الإنسان يقدر على كل شيء، قال: من غريب الاستدلال الباطل في حقيقته، العجيب في مرماه، ثم ذكر قصة بعض النصارى أن القول بإلهية المسيح - وإن كان باطلًا - فإنه مفيد في نتيجته ثم ذكر النتيجة.

صفحة ٤١: إلى أن قال في ص٤١: فإن الحروب بل وكثيرًا من هذه المظالم هي [أعظم] صقل تصقل به القوى... إلى أن قال: فهي شرور في الظاهر فقط.

صفحة ٤٥: في ص٤٥: تحريف لحديث: «**كنت سمعه الذي يسمع به...**» إلخ[1]. يفسره بأن مدارك الإنسان لا حد لها تقف عليه، ولا شيء يقف في وجهها.

صفحة ٥٨: في أثناء كلامه على الإنسان في صفحة ٥٨: إنه راح يولد هذا الوجود ويشهد تكوينه وتوالده... إلى آخر هذيانه عن تكون الكون بعضه من بعض.

صفحة ٥٩: إلى أن قال في ص٥٩: ثم لم يقف بعلمه عند هذا، بل ذهب يسابق الوجود فيسبقه، وذهب يخبرنا عما بقي من عمر هذا العالم، وعمر هذه الحياة، وهذا الوجود الذي سبق، وعما بقي من عمر هذا الإنسان وغيره، ويخبر عن الأحداث والحوادث التي لا تزال في طريق الوجود، والتي لا تزال تترقب لتشب وثبتها.

صفحة ٦٠: إلى أن قال في ص٦٠: ثم ذهب يتصل بالسماوات العلويات إما بالرسائل الكلامية إلى أن قال: نعم هم لم يصلوا حتى اليوم إلى هذه الغاية، ولكن من زعم أنهم لن يصلوا يومًا ما فقد أساء إلى نفسه. وفي هذه الصفحة تحريفه في تفسير: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الكهف: ٥١].

صفحة ٦١: وفي ص٦١: الإنسان في وقت نزول القرآن إلى طور لا يعدو النظرة السطحية

(١) البخاري (٦٥٠٢).

والإلمام بظواهر الأشياء دون النفوذ إلى بواطنها.

صفحة ٦٢: إلى أن قال في صفحة ٦٢: لطور لا يبعد جدًّا عن الطور الحيواني.

صفحة ٦٣: إلى أن قال عن الأطفال في صفحة ٦٣: يعتقدون أن الأطفال بطبيعتهم ملائكة مع أن الواقع أنهم شياطين أشرار.

صفحة ٦٤: إلى أن قال في تهكمه بأهل الدين الذين يدعون إلى التمسك بآدابه في صفحة ٦٤: من أجل هذا فالحنين إلى الماضي والتصايح بالدعوة لتقليد الأولين والأخذ عنهم بلاهة. ثم حرّف الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[1].

صفحة ٦٥: ثم لما نصر أن الإنسان شرير من كل وجه، قال مستدركًا: ولا يظن أحدٌ من القراء أنه يدخل في هذا الأصل الخبيث الشرير، والظالم آدم والأنبياء الذين جاءوا برسالة الإصلاح العامة... إلى آخر ما قال في ص٦٦.

صفحة ٦٦: كان وقت نزول القرآن لم يعد كثيرًا طور رؤية الظواهر دون معرفة البواطن، وكانت الإنسانية ترى أممًا تسقط وأخرى تقوم، ولكنها ما كانت تعرف لماذا يسقط هذا أو ينهض من ينهض؟ وكل ما يمكن أن تعلل به هذه الظواهر هو زعمها أن الآلهة أو الإله قد غضب على الأمم الساقطة الهاوية فحفر لها وأسقطها، ورضي على الأمم الأخرى القائمة السائدة فأقامها وسوّدها. (لا يخفى ما فيه من إنكار عقوبات الله الدنيوية). وفي هذه الصفحة تحريف لقوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]. ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]. وينزلها على الناس الذين كانوا مع النبي ﷺ وأولهم الصحابة.

صفحة ٦٧: إلى أن قال في ص٦٧: كان هذا الطور الذي بلغته الإنسانية يوم نزول القرآن، وقد عمل الإسلام أعمالًا باهرة لا تكفل لنقل الإنسانية من طورها هذا إلى ما هو أكمل منه وأفضل. إلى أن قال في هذه الصفحة: وإنا لنخشى أو نرجو – وقد تحقق أي الأمرين أحسن

---

(١) تقدم تخريجه ص٩.

- أن يأتي الزمن الذي يقال فيه: الإنسان الصناعي والحيوان الصناعي - وهذا ما لا يزال العلم عنده حيران عاجزًا، ولكنه لم... إلى آخر ما هذى به.

صفحة ٦٨: قوله: إن من السخف المبين أن يظل خطباؤنا وعلماؤنا ووعاظنا وجميع رجال الدين - فانطلق متهكمًا بهم - أن يقوموا يذمون الإنسان وأنه لا يترقى إلى مزاحمة رب العالمين ومنازعته في علمه وقدرته... إلى ما قال عنهم منكرًا متمسخرًا عليهم.

صفحة ٦٩: إلى أن قال في صفحة ٦٩: إن من الواجب أن تجدد ثقافة جديدة، كل الجدة منتزعة من روحنا المضغوطة تحت هذه الثقافة الخبيثة القاتلة... إلى أن قال: ثم إن هؤلاء الذين يدعوننا إلى الكفر بالإنسان فندعوهم مجرمين ونفعل معهم كذا وكذا [يعني رجال الدين] ثم انبعث في هذا الكلام الخبيث.

صفحة ٧٠: إلى أن قال في صفحة ٧٠: وأخيرًا لقد زعم هؤلاء الهدامون أن قول الرسول: «**من عرف نفسه عرف ربه**». ثم زعموا أن معناه: من عرف نفسه متصفة بأضداد صفات... إلى آخر كلامه الخبيث إلى أن قال: لا يدعي هذه الدعوى إلا قوم لا نصيب لهم في العقل والدين.

صفحة ٧١: في صفحة ٧١ تهكم بمن روى عن النبي ﷺ الإنكار على من قرأ كتب الأوائل، وقوله: «**أمتهوكون أنتم؟**»[1]. وأنكر على عمر ما جاء في الكتب الأولى على القرآن في كلام هذر كثير، وفي تحريمهم لعلم المنطق قاله متهكمًا متمسخرًا.

صفحة ٧٢: في صفحة ٧٢: رده على ابن القيم في تقسيم العلم إلى قسمين، إلى أن انتقد قوله ﷺ: «**أكثر أهل الجنة البله**»[2].

صفحة ٧٤: إنكاره على المسلمين المجذرين على كتب الحسن بن الهيثم وجابر بن حيان وأبي بكر الرازي والكندي ونحوهم.

---

(١) أحمد (١٥١٥٦).

(٢) تقدم تخريجه ص١٩٥.

صفحة ٧٦: فيه الإشارة لملك الأفغان ولبلاد العرب.

صفحة ٧٧: قال في ص٧٧ في رميه المسلمين بالتعصب: نعم من الممكن أن يقال: إن التعصب الديني هو الذي حمل المسلمين في لبنان على اجتناب تلك المعاهد... إلى أن قال في الفكر العاجز عنده: رأوا بتفكيرهم العاجز أن أعظم فرق بين الخالق والمخلوق هو الضعف والقوة؛ الضعف في المخلوق، والقوة في الخالق... إلى أن قال في:

صفحة ٧٨: صفحة ٧٨: وهذه الفكرة الفاسدة إنما انتزعوها من قياس فاسد أخذوه مما بين أيديهم... إلى آخر ما هذى به.

صفحة ٨٠: إلى أن قال في ص٨٠: ومن الأوهام العظيمة التي جعلتهم يذمون الاشتغال بالعلوم اعتقادهم أن الإنسان إنما خلق لينفق كل جهوده وأعماله وأوقاته في العبادة.

صفحة ٨١، ٨٢: إلى آخر ما قال في (٨١، ٨٢) محتجًّا بالمنحرفين على المسلمين.

صفحة ٨٣: قال في ٨٣: تفسيره للعلم وانتقاده لتفسير المسلمين للعلم.

صفحة ٨٤: قال في ٨٤: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. فسّرها بقتال الكفار بعضهم لبعض؛ حرَّف كلام الله، ولم يعبأ بتفسير المسلمين!

صفحة ٨٥: قال في ٨٥: مفضلًا عقول الملاحدة على عقول المسلمين: أقوام وهبهم الله عقولًا ممتازة كبيرة عبقرية فشحذوها ثم استخدموها في اختراع أشياء عظيمة أسعدت الإنسانية، ونجت من ويلات كانت تعانيها منذ خلقت، وقدمت إليها أمورًا كانت محروسة منها أيضًا منذ وجدت، أم قوم ذوو عقول ضيقة حرفية تقليدية... إلى أن قال: راحوا يكتبون في تكفير من يصنع كيت وكيت... إلى آخر ما هذى به.

صفحة ٨٧: كلامه على المرأة.

صفحة ٩٧: إلى أن قال في ٩٧ في تهكمه بمن يلجأ إلى النصوص: ويقوم من يعدون منها مصلحين متنورين يديرون المعارك الجدلية، منتزعين أسلحتهم من تلك النصوص

وهاتيك الأديان ليقنعوا الآخرين بجواز ذلك.... ولقد جهلت وهانت تلك الأمة التي تحتاج إزاء الحقيقة الباهرة الملموسة إلى براهين دينية تقنعها بفائدتها أو بجوازها وجواز الأخذ بها، وإذا ما رأيت... إلى أن قال في تفضيل الملحدين: ولولا هؤلاء لما استطاعت الإنسانية أن تنعم بشيء مما تنعم به اليوم من هذه الحياة المشرقة الواضحة، ولما استطاعت أن تتدرج عن وجودها الأول الفطري البليد، فكل هؤلاء الذين أعطونا هذه الحياة وعوّدونا على التحرر والخطو إلى الأمام شكر الإنسانية أجمع... إلى آخر ما هذى به.

صفحة ٩٨: نقله لآراء المنحلين في سفور المرأة وزعمه أنه يريد منهم استحسانه واستيعابه له.

صفحة ١٠٣: قالوا... إلى آخره.

صفحة ١٢٠: قال في ١٢٠: تكذيبه لأنس رضي الله عنه وغيره في طواف النبي ﷺ على نسائه بغسل واحد.

صفحة ١٢٤: قال في ١٢٤: إننا نعلم ونعتقد أن الإسلام دين خالد عام؛ فهل من الممكن أن يكون كذا وكذا؟ إذا كان يحرم تعليم المرأة، ويقضي عليها بالجهالة الأبدية، ونحن حينما نذكر العلم، نريد العلم الناضج لا الناقص، فإن هذا العلم النصفي أو الجزئي قد يكون عاجزًا... إلى آخر ما قال وهذى.

صفحة ١٢٦: قال في ١٢٦ وما بعدها يمدح الحياة الدنيا، ويحمل على المسلمين في نقلهم الأحاديث الزهدية، والحاثة على الصبر والفقر وغيرها، جامعًا معها آثارًا باطلة للتوسل.

صفحة ١٣٢: قال في ١٣٢ مفسرًا تكسب المعدوم: أي أنك لرجل تاجر ماهر.

صفحة ١٤٠: إلى أن قال متهكمًا بالعلماء على اختلاف طبقاتهم: والروايات في مدح الفقر والفاقة وذم الدنيا والغنى كثيرة جدًّا [لا يخلو] منها كتاب، بل ادعى جماعات من

هؤلاء أن غاية الدين وجملته أربع كلمات إحداها كلمة (ازهد في الدنيا). ثم جعل ينحي عليهم بهذر كثير يدل على سخافته وعلى رداءته.

صفحة ١٤٩: إلى أن قال في ١٤٩ في خاتمة ذم المسلمين: فما أعظم خطرهم وأقبح أثرهم، ثم قال مادحًا لقدماء الفلاسفة: لما أراد القدماء من الفلاسفة، ثم عظّمهم تعظيمًا.

صفحة ١٦٠: إلى أن قال في ١٦٠: شاعت هذه الأقاويل المحطمة بين المسلمين، وذكر أن نتائجها اندحار المسلمين... وقد هذر هذرًا كثيرًا.

صفحة ١٦٥: إلى أن قال في ١٦٥: والمسلمون الذين اعتقدوا أقاويل هؤلاء الشيوخ، ثم ذكر ما يروونه عن الدنيا، وفيه منه شيء من التهكم بالجزاء على تقديم الدنيا على الدين.

صفحة ١٦٧: إلى أن قال في ١٦٧: فلأن تأثير هذه الأفكار والآراء الميتة الموجودة في تلك الكتب الميتة...

صفحة ١٧٠: إلى أن قال في ١٧٠: وقال سهل: وهو أحد أصنامهم.

صفحة ١٧٨: قال في ١٧٨: وهذا خلاف ما عرف وعهد في الكتب الدينية، فإنها تعلق كل فلاح حتى الفوز بالدنيا، وبالخيرات المادية على الصلاح والعبادة والتقوى؛ وتعلق كل شر على ضد ذلك، أي أنها تعلل كل شيء تعليلًا دينيًّا لا تعليلًا طبيعيًّا؛ إلى آخر ما قال مفضلًا ما تعلم عن التوراة عما جاء في القرآن.

صفحة ١٧٩: قال متندمًا على أحواله الماضية حالة الاستقامة، ويود أنها كحالته الموجودة الآن، ثم تهكم بمن يقول: «وكل الذي فوق التراب تراب». وكانت الخطباء... إلى آخر ما سخر به من أحوال الخطباء والوعاظ.

صفحة ١٨٢: إلى أن قال في ١٨٢: كم أرثي لهؤلاء المساكين. وجعل يتهكم بالواعظ والموعوظ.

صفحة ١٨٣: انتقد من قال: الزهد محله القلب.

صفحة ٢٠٠: قال في ٢٠٠: وقد كان الأولون ينسبون إلى الأرواح أغلب حوادث العالم المشهودة المرئية أو كلها، فالأفلاك عندهم... إلى آخر ما قال.

صفحة ٢٠٥: إلى أن قال في ٢٠٥ مستدلًّا: وليعلم بعد هذا أننا ممن يؤمنون بالأرواح والملائكة والجن، وبكل ما جاء من الله.

صفحة ٢٠٦: قال في ٢٠٦ منكرًا للعين ومما يتصل بمسألة الأرواح المعتدية: مسألة الإصابة بالعين أو النظرة... إلخ.

صفحة ٢٤٦: قال في ص ٢٤٦ منكرًا الفقر الحقيقي إلى الله، بعد كلام له نقلًا عن ابن القيم ولم يسمه: فصل: من ترك الاختيار... إلى آخر كلام ابن القيم وهو لا يرتضيه لما أنهاه وقال: وهذا كلام صريح في ترك العمل استسلامًا للقضاء والقدر.

صفحة ٢٦٨: قال في ص ٢٦٨ في ذكر الأسباب: لست أريد أن أقول: إن التوكل هو الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله قد يدخل فيها فيجعلها إن شاء... إلخ.

صفحة ٢٧٩: قال في ص ٢٧٩: أما الآيات التي تنص على آجال الأفراد والأمم، وأنهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون... ثم ذكر كلامًا معناه إنكار ارتباطها.

صفحة ٢٩٣: قال في ص ٢٩٣: أما هؤلاء الذين قلدوا الزعامة الدينية، ثم فضّل المتأخرين من الملحدين على السلف من المسلمين، تفضيلًا صريحًا، وأنه يجب تقديم الجديد على القديم.

صفحة ٢٩٦: قال في ص ٢٩٦ متهكمًا بحديث أنس: «**لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه**»(١).

صفحة ٢٩٨: إلى أن قال في ص ٢٩٨: وأن الشر أبدًا في ازدياد، وأن كل شيء ينقص

---

(١) تقدم تخريجه ص١٩٧.

إلا الشر فإنه يزيد، روايات من أصر على نسبتها للإسلام وللرسول ولصحبه، فقد أصر على التنقيص والاتهام.

صفحة ٣٠٢: قال في ص ٣٠٢: كان رشد الإنسانية أمامها... إلى آخر ما قال: إن الرشد في هؤلاء الملاحدة، وضده في الصحابة والقرون المفضلة.

صفحة ٣٠٣: إلى أن قال في ص ٣٠٣: إذا ما أدار نظرة حوله فوجد أن أكبر جامعة إسلامية قد بلغت من العمر أكثر مما بلغه نوح عليه السلام، قد عقمت في عددها العديد، إلى آخر ما هذى به.

صفحة ٣٠٥: إلى أن قال في ص ٣٠٥ في ذم رجال الدين السابقين: والسبيل لإنقاذ هذه الجماعات المتعددة أن تعلم الكفر بهؤلاء، والشك فيهم، وإساءة الظن بهم وبعلمهم وأنهم كانوا تحت ظنهم بهم جدًّا، وأنهم أبْعد عن الكمال من المعاصرين ومن المتأخرين.

صفحة ٣١١: إلى أن قال في ص ٣١١: وعلى هذا الاعتقاد - اعتقاد الكمال في الأولين ونقص الآخرين - قامت أكبر جهالة رضيها الإنسان لنفسه... إلخ ما هذى به.

صفحة ٣١٥: قال في ص ٣١٥: المشكلة التي لم تحل، حاول فيها التملص من الإيمان، وأن الإيمان بالله لا نجاح معه، ثم حطَّ على المتدينين، وتهكم في صفحة ٣١٧ بالشرع والدين وأهله.

صفحة ٣١٧: ثم قال: عجز المتدينون على اختلاف أديانهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم وأجناسهم على أن يهبوا الحياة شيئًا جديدًا، أو أن يكونوا فيها مخلوقات متألقة.

صفحة ٣١٨: قال في ص ٣١٨: على أنه لا خلاف في أن أسمى هذه الآمال... عبارات فيها تهكم بالآخرة.

صفحة ٣١٩: قال في ص ٣١٩: إن أسباب عجزهم هو هذا التصوير أي تصور الآخرة.

صفحة ٣١٩: قال في ص ٣١٩: من المعلوم أن أوروبا... ثم شرع يصب عليها الثناء.

صفحة ٣٢٢: قال في ص ٣٢٢ نقلًا عن بعض فلاسفة الملحدين: إن الإيمان أكبر نكبة على البشر لأنه وقف بالحضارة عن التقدم. واستدرك قائلًا: إنه يبرأ من كل إلحاد.

صفحة ٣٢٢: إلى أن قال: ثم المتدين يفقد الميزان الفكري، الذي توزن به الأمور في الغالب، ويصبحون من الناحية النفسية أناسًا طيبين خيرين فاقدين لكل صناعة عقلية... إلى آخر ما قال عنهم.

صفحة ٣٢٥: إلى أن قال في ص ٣٢٥: بل يرون الوجود كله بما فيه من حوادث وأحداث محكوم بقوة مجنونة أو هي كالمجنونة في أفعالها، ثم ظن أنه يستدرك في هذه المهالك الفظيعة فقال: كل هذه حقائق لا ريب فيها، ولكن ما معنى هذا؟ هل معناه أن الدين مفسد للبشر؟ ليس هذا هو المراد، ولا هو الصحيح... إلى آخر ما قال عن الدين بعبارة باردة يراد بها دفع الاعتراض.

صفحة ٣٢٦: إلى أن قال في ص ٣٢٦: إن البشر عاجزون فيما يبدو لنا حتى اليوم، عن أخذه وفهمه، على وجهه النافع المفيد، بل هم إما أن يبقوا غير متدينين، أو متدينين تدينًا باطلًا، ولا بد من استثناء فترات أو ومضات قليلة خافتة.

صفحة ٣٢٨: إلى أن قال في ص ٣٢٨ آخر الصفحات: هذه المشكلة التي لم يستطع أحد حلها بعد، وإلا فكما استطاع الدين أن يهب الإنسانية الأمل الحار والوقود لتسير في طريقها... إلى أن قال عن الدين وأحسن بعض الإحسان، ولكن هذا اعتذار لا يفيده عند الناس شيئًا. اهـ. الموجود من نقد كتاب **الأغلال**.



مجموع مؤلفات ابن سعدي (١٩)

فتنة الدجال

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

تم الاعتماد في تحقيق هذا الكتاب على عدة طبعات
أبرزها نشرة الدكتور
أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي



في ذكر أحاديث الدجال

روى مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري، أن النبي ﷺ قال: **«لن تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات[1]؛ فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف[2]؛ خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»**[3].

وفي رواية: **«والعاشرة ريحٌ تلقي الناس في البحر»**[4].

وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: **«بادروا بالأعمال ستا: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، وخويصة أحدكم»**[5].

وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: **«ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض»**[6].

وعن عمران بن حصين قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلقٌ أكبر من الدجال»**[7].

وفي المتفق عليه عن عبد الله مرفوعًا: **«إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور، وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية»**[8].

---

(١) كذا في المخطوط، ولفظ مسلم: **«إنها لن تقوم حتى ترون قبلها»**.

(٢) في المخطوط: «وثلاث خسوفات»، والتصويب من صحيح مسلم.

(٣) مسلم (٢٩٠١).

(٤) مسلم (٢٩٠١).

(٥) مسلم (٢٩٤٧).

(٦) مسلم (١٥٨).

(٧) مسلم (٢٩٤٦).

(٨) البخاري (٧٤٠٧)، ومسلم (١٦٩).

وعن أنس مرفوعًا: «**ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوبٌ بين عينيه كافر**» متفق عليه(١).

وعن أبي هريرة مرفوعًا: «**ألا أحدثكم حديثًا عن الدجال، ما حدث به نبي قومه؟ إنه أعور، وإنه يجيء بمثال الجنة والنار؛ فالتي يقول إنها الجنة هي النار، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه**» متفق عليه(٢).

وعن حذيفة مرفوعًا: «**إن الدجال يخرج، وإن معه ماءً ونارًا، فأما الذي يراه الناس ماءً فنار تحرق، وأما الذي يراه الناس نارًا فماء بارد عذب، فمن أدرك ذلك منكم، فليقع في الذي يراه نارًا، فإنه ماءٌ عذبٌ طيب**». متفق عليه(٣).

وزاد مسلم: «**وإن الدجال ممسوح العين، عليها ظَفَرَةٌ غليظة**(٤)**، مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمنٍ، كاتبٍ وغيرِ كاتب**»(٥).

وعنه مرفوعًا: «**الدجال أعور العين اليسرى، جُفَال الشعر**(٦)**، معه جنة ونار، فناره جنة، وجنته نار**». رواه مسلم(٧).

وعن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال فقال: «**إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤٌ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط**(٨)**، عينه طافية، كأني أُشَبِّهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ**

(١) البخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣).
(٢) البخاري (٣٣٣٨)، ومسلم (٢٩٣٦).
(٣) البخاري (٣٤٥٠)، ومسلم (٢٩٣٤) واللفظ له.
(٤) لحمة تنبت عند المآقي، وقد تمتد إلى السواد فتغشيه.
(٥) مسلم (٢٩٣٤).
(٦) أي كثيره.
(٧) مسلم (٢٩٣٤).
(٨) الشعر الجعد.

عليه فواتح سورة الكهف؛ فإنها جواركم من فتنته، إنه خارج خلة[١] **بين الشام والعراق، فعاثَ يمينًا وعاث شمالًا، يا عباد الله، فاثبتوا».** قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟ قال: «**أربعون يومًا؛ يوم كسنة، ويومٌ كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم**». قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «**لا، اقدروا له قدره**». قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: «**كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به، ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم**[٢] **أطول ما كانت ذرًى**[٣]**، وأسبَغَه ضروعًا**[٤]**، وأمده خواصر**[٥]**. ثم يأتي القوم فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين**[٦]**، ليس بأيديهم شيءٌ من أموالهم. ويمر بالخَرِبَةِ، فيقول لها: أخرجي كنوزك. فتتبعه كنوزها كيعاسيب**[٧] **النحل، ثم يدعو رجلًا ممتلئًا شبابًا، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين، رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل، ويتهلل وجهه، يضحك. فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء، شرقيَّ دمشق، بين مهرودتين**[٨]**، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين. إذا طأطأ رأسه قَطَر، وإذا رفعه تحدَّر منه مثل جمان اللؤلؤ**[٩]**. فلا يحل لكافرٍ يجد من ريح نفسه إلا مات. ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفُهُ. فيطلبه، حتى يدركه بباب لُدٍّ**[١٠]**، فيقتله. ثم يأتي**

---

(١) أي طريق بينهما.

(٢) الماشية.

(٣) الذُّرى: جمع ذِروة، وهي أعلى سنام البعير.

(٤) جمع ضرع: الثدي، وهو كناية عن كثرة اللبن.

(٥) جمع خاصرة ما تحت الجنب، ومدها كناية عن الامتلاء وكثرة الأكل.

(٦) الممحِل: الذي قد أجدبت أرضه وقحطت، وغلت أسعاره.

(٧) يعاسيب: جمع يعسوب. وهو فحل النحل ورئيسها.

(٨) أي في شقتين أو حلتين. وقيل: الثوب المهرود: الذي يصبغ بالورس ثم بالزعفران.

(٩) هو اللؤلؤ الصغار.

(١٠) موضع بالشام. وقيل بفلسطين.

عيسى إلى قومٍ قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة». إلى آخر الحديث. رواه مسلم[1].

وروى مسلم أيضًا حديث أبي سعيد مرفوعًا في قتل هذا الرجل وإحيائه، وقال في آخره: **«ثم يقول له: قم! فيستوي قائمًا. فيقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة. قال: ثم يقول: يا أيها الناس، إنه لا يفعل بعدي بأحدٍ من الناس. قال: فيأخذه الدجال ليذبحه، فَيُجْعَلَ ما بين رقبته إلى تَرقُوتِهِ نُحاسًا. فلا يستطيع إليه سبيلًا. قال: فيأخذ بيديه ورجليه، فيقذف به. فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار، وإنما أُلقي في الجنة. فقال رسول ﷺ: هذا أعظم الناس شهادةً عند رب العالمين»**[2].

وروى مسلم أيضًا عن أم شريك مرفوعًا: **«ليفرنَّ الناس من الدجال، حتى يلحقوا بالجبال، قالت أم شريك: يا رسول الله، فأين العرب يومئذ؟ قال: هم قليل»**[3].

وروى مسلم أيضًا عن أنسٍ مرفوعًا: **«يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة[4]»**[5].

وفي المتفق عليه من حديث أبي سعيد مرفوعًا: **«يأتي الدجال، وهو محرَّمٌ عليه أن يدخل نقاب المدينة، فينزل بعض السباخ[6] التي تلي المدينة، فيخرج إليه رجل...»**[7]. وذكر قتله كما سبق.

وفي المتفق عليه أيضًا عن أبي هريرة مرفوعًا: **«يأتي المسيح من قبل المشرق، همته المدينة، حتى ينزل دبر أحد، ثم تصرف الملائكة وجهة قِبَل الشام، وهنالك يهلك»**[8].

---

(١) مسلم (٢٩٣٧). (٢) مسلم (٢٩٣٨).

(٣) مسلم (٢٩٤٥).

(٤) الطيالسة: جمع طيلَسَان، فارسي معرب، وهو ضرب من الأكسية.

(٥) مسلم (٢٩٤٤). (٦) الأراضي التي لا تنبت المرعى.

(٧) البخاري (٧١٣٢)، ومسلم (٢٩٣٨). (٨) البخاري (٧١٣٣)، ومسلم (١٣٨٠).

وفي البخاري عن أبي بكرة مرفوعًا: «**لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، ولها يومئذٍ سبعة أبواب، على كل باب ملكان**»[1].

وحديث تميم الداري وقصته معروفة[2].

وعن عمرو بن حريث مرفوعًا: «**الدجال يخرج من أرضٍ بالمشرق، يقال لها خراسان، يتبعه أقوامٌ وجوههم المجانّ المطرقة**[3]» رواه الترمذي[4].

وروى أبو داود عن عمران بن حصين مرفوعًا: «**من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فيتبعه مما يبعث به من الشبهات**»[5].

وفي **الصحيحين** عن المغيرة بن شعبة قال: ما سأل أحدٌ رسول الله ﷺ عن الدجال أكثر مما سألته. وإنه قال لي: «**ما يضرك**». قلت: إنهم يقولون إن معه جبل خبزٍ، ونهر ماء. قال: «**هو أهون على الله من ذلك**»[6].

وأحاديث ابن صياد معروفة، وأحاديث قتل عيسى ابن مريم للدجال كثيرة معروفة.

وأمر النبي ﷺ أمته في صلاتهم أن يتعوذوا بالله من فتنة المسيح الدجال معروف.

وروى مسلم عن نافع بن عتبة مرفوعًا: «**تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال، فيفتحه الله**»[7].

---

(١) البخاري (٧١٢٥).
(٢) ويعرف بحديث الجساسة.
(٣) المجان: جمع مجنّة، وهو الترس، والمطرّقة: التي ضوعف عليها العَقَبُ، وألبسته شيئًا فوق شيء.
(٤) الترمذي (٢٢٣٧).
(٥) أبو داود (٤٣١٩).
(٦) البخاري (٧١٢٢)، ومسلم (٢٩٣٩).
(٧) مسلم (٢٩٠٠).

الكلام على هذه النصوص في قصة الدجال يقتضي تقديم مقدمات

إحداها: أن المسلمين متفقون على تلقي جميع ما جاءت به النصوص الصحيحة من الكتاب والسنة بالتصديق والقبول. وأن جميع ما أخبر به الله ورسوله فهو واقعٌ ما له من دافع. وسواء عرفنا تأويله والمراد به بعينه، أو لم نعرف ذلك. فهذا الأصل المتفق عليه بين علماء المسلمين، لا يتم للعبد إيمان إلا به. بل هو أصل الإيمان ومادته.

الثانية: أن إخبارات النبي ﷺ، وأوامره ونواهيه، كلها حقٌّ وصدقٌ ونفعٌ للعباد، وللأمة من أولها إلى آخرها. فإخباره بالدجال، وفتنته، والأمر بالتعوذ بالله من فتنته نافعٌ للأمة كلها. فإن التصديق به، وبما قاله الرسول عنه، يزداد به إيمان المؤمن. وإن الالتجاء إلى الله، والتعوذ به من فتنته في الصلاة وخارجها نفعه عظيم. وكل مؤمنٍ لا يستغني عن هذه الاستعاذة، كما لا يستغني عن الاستعاذة بالله من عذاب جهنم، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات.

المقدمة الثالثة: أن فتنة المسيح الدجال نوعان:

نوع يراد به الشخص الذي وصفه الرسول ﷺ بالصفات السابقة.

ونوعٌ يراد به جنس الفتنة.

ووجه الحاجة إلى القسم الأول من هذين النوعين: أن نفس الاستعاذة بالله من فتنته عبادة وتضرع والتجاء إلى الله، وذلك خير محض. ثم كون ذلك الشخص مجهولًا زمان مجيئه، كل مؤمن لا يأمن على نفسه إدراك ذلك الزمان. والأمر الذي تحت الإمكان، ويخشى من شره وفتنته، معلوم حاجة العبد إلى توقي فتنته بكل سبب. ومن أكبر الأسباب

الالتجاء إلى الله، والتعوذ بالله منه. وأيضًا فهذا الدعاء والخوف من فتنته، لا بد أن يسري في طبقات الأمة ويتوارثوه، ويصير عقيدة راسخة، حتى إذا جاء وتحقق وقوعه، كان عند الأمة، وخصوصًا خواصهم، من العقائد الصحيحة ما يدفع شره، ويقي فتنته، بخلاف ما لو زال خوفه من القلوب، فإنه إذا جاء ذلك الوقت ازدادت به الفتنة، ولم يكن عند المؤمنين من مواد الإيمان ما يبطل فتنته وشره.

وأما القسم الثاني: فالحاجة إليه أظهر؛ فإن جنس فتنة المسيح الدجال هو: كل باطلٍ زُوِّق وبُهرج، وحسِّن فيه الباطل، وقبِّح فيه الحق، وأيِّد بالشبه التي تغر ضعفاء العقول، وتخدع غير المتبصرين. وهذا موجودٌ وشائع. بل بحره طامٍ في كل زمانٍ ومكان. فالعبد مضطر غاية الاضطرار إلى ربه في أن يدفع عنه هذه الفتن التي هي من جنس فتنة المسيح الدجال؛ فتن الشبهات والشكوك، وفتن الشهوات المردية.

المقدمة الرابعة: أن الأمور التي شاهدها الناس أو شاهدوا نظيرها، إذا أخبرهم بجنسها بين لهم الشارع ما يعرفون، وأرشدهم إلى الأمر الذي يفهمونه. وأما الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيرًا، فإن الشارع يضرب لهم فيها الأمثال، ويدخلها في العمومات اللفظية أو المعنوية. فإن أنواع المخترعات الحادثة التي لا يعرف الناس لها نظيرًا فيما سبق، قد دلهم الشارع عليها وأخبرهم بها خبرًا عموميًّا، من دون أن يعين أعيانها وأوصافها الحادثة، لما في ذلك من بيان الحقائق، وهدى الخلائق، فإدخالها في عمومات الكتاب والسنة ليعلم الموفقون أن الله لم يهمل شيئًا، ولم يفرط في الكتاب من شيء. وأما عدم تعيينها بأوصافها الخاصة، فإنه لا يحصل بذلك، في ذلك الوقت كبير فائدة. بل ربما حصل فيه مضرة على بعض الناس، كما ذكرنا هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠]. في التفسير، وفي بعض الرسائل التي كتبناها.

قال شيخ الإسلام في رسالته السبعينية: (وفتنة الدجال لا تختص بالموجودين في زمانه. بل حقيقة فتنته: الباطل المخالف للشريعة، المقرون بالخوارق. فمن أقرَّ بما يخالف الشريعة

لخارق، فقد أصابه نوع من هذه الفتنة. وهذا كثير في كل زمانٍ ومكان. لكن هذا المعيّن فتنته أعظم الفتن، فإذا عصم الله عبده منها، سواءً أدركه أم لم يدركه، كان معصومًا مما هو دون هذه الفتنة)[١]. إلى أن قال: ومعلومٌ أن ما ذكر معه من التعوذ من عذاب جهنم والقبر، وفتنة المحيا والممات أُمرَ به كل مصل، إذ هذه الفتن مجرية على كل أحد، ولا نجاة إلا بالنجاة منها. فدل على أن فتنة الدجال كذلك. ولو لم تصب فتنته إلا مجرد الذين يدركونه، لم يؤمر بذلك كل الخلق، مع العلم بأن جماهير العباد لا يدركونه، ولا يدركه إلا أقل القليل من الناس المأمورين بهذا الدعاء.

وهكذا إنذار الأنبياء إياه أممهم حتى أنذر نوح قومه، يقتضي تخويف عموم فتنته، وإن تأخر وجود شخصه، حتى يقتله المسيح ابن مريم عليه السلام.

وكثيرًا ما وقع في قلبي أن هؤلاء الاتحادية أحق الناس باتباع الدجال[٢]. ومع هذا فقد جرت للمسلمين مع أتباعهم من المحن ما هي أشهر المحن الواقعة في الإسلام. ومعلوم أن هذه الفتنة هي نتيجة محنة الدجال. بل هذه النتيجة أقرب إلى محنة الدجال من غيرها.

قلت: وهؤلاء الملحدون العصريون الذين ذكر الشيخ أشباههم، هم أعظم الناس قيامًا بفتنته، دعوةً واستجابة.

وفي صفحة (٧٥٦) من المجلد (٢٨) من **المنار** بعد كلام كثير: (والظاهر من مجموعها، أي أحاديث الدجال، أنه يظهر في اليهود دجال، بل أكبر دجال عرف في تاريخ الأمم، فيدعي أنه هو المسيح الذي تنتظره اليهود فيفتتن به خلقٌ كثير، لما يظهره من الغرائب والعجائب التي هي أغرب من جميع معجزات الأنبياء، أو مثل أعظمها. وفي آخر مدته يظهر المسيح الذي هو عيسى ابن مريم، ويكون نزوله في المنارة البيضاء شرقي دمشق، ويلتقي بالمسيح الدجال بباب لدٍّ - وفي فلسطين بلدٌ يسمى باللدّ - فهنالك يقتل المسيح الصادق عيسى ابن

---

(١) بغية المرتاد ص٤٨٣. (٢) بغية المرتاد ص٥١٤.

مريم عدو الله المسيح الدجال، بعد حربٍ طويلة تكون بين المسلمين واليهود).

وفي المجلد (٢٩) من **المنار**، صفحة (١٥٥)، لمّا ذكر ما تعده اليهود في شأن فلسطين، قال: (لا شك عندنا أن كلًّا من اليهود والإنكليز يكيد للآخر ليستعمله في الوصول إلى غرضه المنافي لغرض الآخر. ولا شك عندنا في أن الفتنة المنتظرة، هي من أعظم فتن الأرض، أو أعظمها على الإطلاق؛ وهي محاولة إعادة ملك اليهود، المعبر عنها بالأحاديث بفتنة المسيح الدجال).

وقال في المجلد (٢٨) صفحة (٢٠) بعد كلامه على أحاديث الدجال، وانتقاده لكثيرٍ من تفاصيلها، قال: (ويدل القدر المشترك منها على أن النبي ﷺ كُشف له، وتمثل له ظهور دجال في آخر الزمان، يظهر الناس خوارق كثيرة، وغرائب يفتن بها خلق كثير، وأنه من اليهود). إلى أن قال: (ولا يبعد أن يقوم طلاب الملك من اليهود الصهيونيين بتدبير فتنة في هذا المعنى، يستعينون عليها بخوارق العلوم والفنون العصرية، كالكهرباء والكيمياء، وغير ذلك).

وكان يقول هذا قبل احتلال اليهود لفلسطين بعدة سنين، فوقع كما ظن رحمه الله.

وفي صفحة (١٩٢) من الجزء السادس من **الفتح الرباني في شرح المسند**، قال الشارح: (ويلوح لي أن اليهود الآن يحشدون إلى بيت المقدس، ليلقوا حتفهم مع رئيسهم الدجال، في هذه الأرض ولو بعد حين، مصداقًا لقول نبينا ﷺ).

أما ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية ففي غاية الحسن والمطابقة لفتنة الدجال، وأنها نوعان: **أحدهما:** فتنة الدجال، أي جنسها، وهي الشبهات المزوقة المموهة، التي يفتتن بها الخلق الكثير. ومتى تأملت أحوال البشر، وكيف سرى الإلحاد فيهم بصورة هائلة، وزخرفت له الأقوال، وروج بأساليب متنوعة، ونصر بالقوى المادية، وجرف بتياره وفتنته الخلق الكثير، ولم يسلم من فتنته إلا اليسير ممن عصمهم الله، وحفظهم بالبصيرة النافذة، والبعد عن هذه الفتنة. ويؤيد كلام الشيخ ويقربه من الأحوال الواقعة ما ذكرناه من كلام صاحب **المنار**،

بقوله: (ولا شك عندنا أن الفتنة المنتظرة من أعظم فتن الأرض أو أعظمها على الإطلاق؛ وهي محاولة إعادة ملك اليهود، المعبر عنها بالأحاديث بفتنة الدجال). وأنهم يستعينون على ذلك بالاعتماد على الإنكليز، الذي هو من أكبر الدجالين، وبخوارق العلوم والفنون العصرية، والمخترعات الهائلة. ويكون على هذا ذكر النبي ﷺ لبعض تفاصيل فتنته في الأحاديث السابقة على وجه التقريب والتمثيل. ويدل على ما قاله الحديث السابق، وهو ما رواه مسلم عن نافع بن عتبة عنه ﷺ أنه قال: «**تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم تغزون فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله**»[1]. فدل هذا الحديث وترتيب الفتوحات المذكورة بحسب قربهم من المسلمين، وأنهم بعد فتح فارس والروم يغزون الدجال فيفتحه الله، أنهم الأمم الذين وراء فارس والروم، من الأمم الفرنجية وتوابعهم، وكونهم السبب الوحيد الذي مهَّد لليهود ملك فلسطين، وساعدوهم بالقوة المادية والسياسية، كما هو معروفٌ لا يخفى على أحد. ولولا ذلك لم يطمع اليهود بتملك شبرٍ من بلاد العرب، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]. فهؤلاء الناس هم الذين مهدوا لهم الملك، وتداعوا من كل قطرٍ إلى بلاد العرب من فلسطين كما تقدم في الحديث الصحيح أن الدجال يتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفًا[2]. وهذا معناه أنهم يستدعون إلى فلسطين من أقطار الأرض بسبب دعوة الدجال لهم.

ومن عرف كيف عملت اليهود مع الإنكليز، وتأكد بينهم الوعد المسمى بوعد بلفور، وكيف حاولوا المحاولات العظيمة، وسخروا الأمم القوية لتمهيد مصالحهم، لم يستبعد أن هذه فتنة الدجال الخاصة، التي هي أكبر فتن الأرض، كما ورد في الحديث السابق الصحيح: «**ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال**»[3].

وهل أعظم من فتنة جرف تيارها جمهور الناشئة الحديثة بإلحاده، وصير من يرجى منهم

(١) تقدم تخريجه ص٢٤٧.

(٢) تقدم تخريجه ص٢٤٦.

(٣) تقدم تخريجه ص٢٤٣.

نصرة الإسلام بالقول والفعل من أكبر الأعوان على هدمه وزواله؟! وهم يسعون استجابةً لفتنة الدجال على القضاء عليه. ونرجو الله أن يلطف، ويدفع عن المؤمنين بحوله وقوته ورحمته، فإنهم لا سبب لهم مادي، ولا قوة حسية، تدافع بها القوات المحتشدة المصممة على القضاء عليه، ولكن سيأتي من لطف الله ما لا يخطر بالبال.

وهل أعظم من فتنة اجتمع العرب وحكوماتهم على مقاومتها، ومدافعتها عن بلادهم، فقاومتهم السياسات، ولعبت بهم الفتن، حتى فرقتهم وشتتتهم ومكنت عدوهم من جوف بلادهم، وذهب أهلها مشردين في كل قطرٍ منهم طائفة. وهي في سعيها وجدها الآن لا تزداد إلا قوة، ولا يزداد العرب إلا وهنًا وضعفًا ماديًّا ومعنويًّا، دينيًّا ودنيويًّا؟!

ولا بد أن تتوسع سيطرة اليهود، ولا بد لهم من التضييق على جيرانهم من الحكومات العربية[1]، ولا بد أن يتبين مَن الشخص منهم الذي هو المسيح الدجال المعيَّن بذاته، وتجري بقية ما ذكره الرسول ﷺ على يده، حتى ينزل عيسى ابن مريم، ويعين الله المسلمين، فيقاتلونهم فيقتلون اليهود، ويقتل عيسى ﷺ مسيحهم الدجال.

ومما يؤيد أن العلوم العصرية المتنوعة هي من خوارق الدجال ما تقدم في حديث النواس ابن سمعان، قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: «**كغيث استدبرته الريح**»[2]. وهذا بأسباب المخترعات الحديثة من المراكب البرية والهوائية[3]. وقد قال كثير من أهل العلم في قوله ﷺ عن الدجال إنه: «**مكتوب بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن؛ كاتب وغير**

---

(١) وقد صدقت توقعاته - رحمه الله - ففي عام ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، أي بعد أحد عشر عاما من وفاة الشيخ - رحمه الله - جرت حرب الأيام الستة، وانتزع اليهود فيها القدس، والضفة الغربية من الأردن، وقطاع غزة من مصر، وهضبة الجولان من سوريا، وهم الآن يسومون الفلسطينيين سوء العذاب بمرأى ومسمع من العرب والمسلمين والعالم، سيما بعد اندلاع ما سمي بالانتفاضة الفلسطينية منذ عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

(٢) مسلم (٢٩٣٧).

(٣) في هذا الجزم نظر! فالله أعلم بم يكون ذلك.

كاتب»[1]. إن هذا على جهة التمثيل، وإن معناه أن أمره واضح، لا يخفى على كل مؤمن أنه كافر[2]. وأن ما معه ومع أتباعه من الخوارق لا تدل على صحة قوله، وإنما هي صناعات مادية يشترك فيها البر والفاجر.

ومما يدل على أنها تمويهات ما تقدم في حديث المغيرة بن شعبة، الثابت في **الصحيحين** قال: ما سأل أحد رسول الله ﷺ عن الدجال أكثر مما سألته، وإنه قال لي «**ما يضرك؟**». قلت: إنهم يقولون: إن معه جبل خبزٍ، ونهر ماء! قال: «**هو أهون على الله**»[3]. الحديث. فقوله: «**هو أهون على الله**». أي: من أن يكون لهذه المذكورات حقائق صحيحة تدل على صدقه. وإنما معه أمورٌ ومخترعات موجودة مشتركة.

ولكن فتنته على العرب والمسلمين عظيمة، وتفوقه عليهم بالمخترعات أمرٌ معلوم.

والواقع الآن يشهد بما ذكرنا، وهذه الفتنة الصهيونية لها توابع كثيرة إلى الآن لم تتم، وهم يسعون فيها. فمن قارن بين هذه الفتنة العظيمة وتوسعها وضررها، وبين غيرها من الفتن التي جرت على المسلمين؛ علم أنها أكبر قارعة حلت، وأعظم مصيبة أصابتهم، وأن فتنتها السابقة واللاحقة أعظم الفتن، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولا ملجأ منه إلا إليه.

---

(١) تقدم تخريجه ص٢٤٤.

(٢) ما نسبه المؤلف رحمه الله إلى كثير من أهل العلم ! تأويل مخالف لظاهر النص. قال النووي، رحمه الله: (الصحيح الذي عليه المحققون أن هذه الكتابة على ظاهرها، وأنها كتابة حقيقة، جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله. ويظهرها الله لكل مسلم كاتب وغير كاتب، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته. ولا امتناع في ذلك. وذكر القاضي فيه خلافًا: منهم من قال: هي كتابة حقيقة، كما ذكرنا، ومنهم من قال: هي مجاز وإشارة إلى سمات الحدوث عليه، واحتج بقوله: «**يقرؤه كل مؤمن كاتب، وغير كاتب**» وهذا مذهب ضعيف). شرح مسلم ١٨/ ٦٠، ٦١.
وفي رواية عند الترمذي: (مكتوب بين عينيه كافر، يقرأه من كره عمله).
قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. حديث رقم ٢٢٣٥.

(٣) تقدم تخريجه ص٢٤٧.

وفي الحديث السابق: «**من سمع بالدجال فلينأ عنه. فوالله إن الرجل ليأتيه فيحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات**»[1]. فكم قد شاهد الناس ممن افتتن في هذه الأوقات بدعايات الإلحاد، ودعوة المستعمرين.

ومما يدل على الحال الواقعة الحديث السابق، في **صحيح مسلم** عن أم شريكٍ مرفوعًا: «**ليفرن الناس من الدجال، حتى يلحقوا بالجبال**». قالت أم شريك: يا رسول الله، فأين العرب يومئذٍ؟ قال: «**هم قليل**»[2]. ففي هذا الحديث بيان أن الضرر الأكبر سيصيب العرب، وأنه لم يبق منهم إلا القليل. أي: لم يبق من الذين عصموا من فتنته إلا القليل. وأما من افتتن به فتبعه، أو صار من دعاتهم، أو خدرت أعصابه عن المقاومة، أو استسلم لهم، فهم كثير.

وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح: «**أشد أمتي على الدجال بنو تميم**»[3]. فهذا يدل على أن عرب الجزيرة، الذين جمهورهم بنو تميم، هم أسلم الناس من فتنته، وهم أشد الناس جهادًا له بالحجة والبيان[4]، وبالسلاح والسنان. فنرجو الله أن يوفقهم ويؤيدهم بنصره، ويأخذ بأيديهم، إنه جواد كريم.

سنرجئ بقية الكلام إلى أن يتبين لنا ولغيرنا في المستقبل من هذه الفتنة بقية ما ذكره الرسول ﷺ. فإنه أمرٌ واقع، ما له من دافع، وأصوله ومقدماته قد وضحت وبانت لكل أحد له بصيرة. ٧ شعبان ١٣٧٠هـ.

ومن كتاب **الإسلام المفترى عليه** لمحمد الغزالي، صفحة (٢١): (وها قد مضت أربعة عشر قرنًا، ثم عادت إسرائيل مرةً أخرى باسم التوراة، تريد الحكم والسيادة، فهل سمعت أو لمحت في عودة إسرائيل قبسًا من فرقان، أو قطرة من حنان، أم هو التمهيد للنسف

(١) تقدم تخريجه ص٢٤٧.

(٢) تقدم تخريجه ص٢٤٦.

(٣) البخاري (٢٥٤٣)، ومسلم (٢٥٢٥).

(٤) ولعل هذه الرسالة من جهاده بالحجة والبيان. ومؤلفها رحمه الله من بني تميم.

والطغيان والكبر والعدوان؟ وكذلك قيل لكنائس الغرب: استيقظي. ثم أصغينا للدجالين من ساسة أوروبا يبشرون بالدين). إلى آخر عبارته[1].



(١) ذيل المؤلف، رحمه الله، رسالته بهذا النقل بعد أن ختمها، مما يدل على أنه استجد له. وربما كان ينوي تبييض الرسالة، وإدراج هذا النقل في موضعه المناسب، والكلام على ما يجد من أمر هذه الفتنة مستقبلًا، فلم يقع له ذلك، رحمه الله.



يأجوج ومأجوج

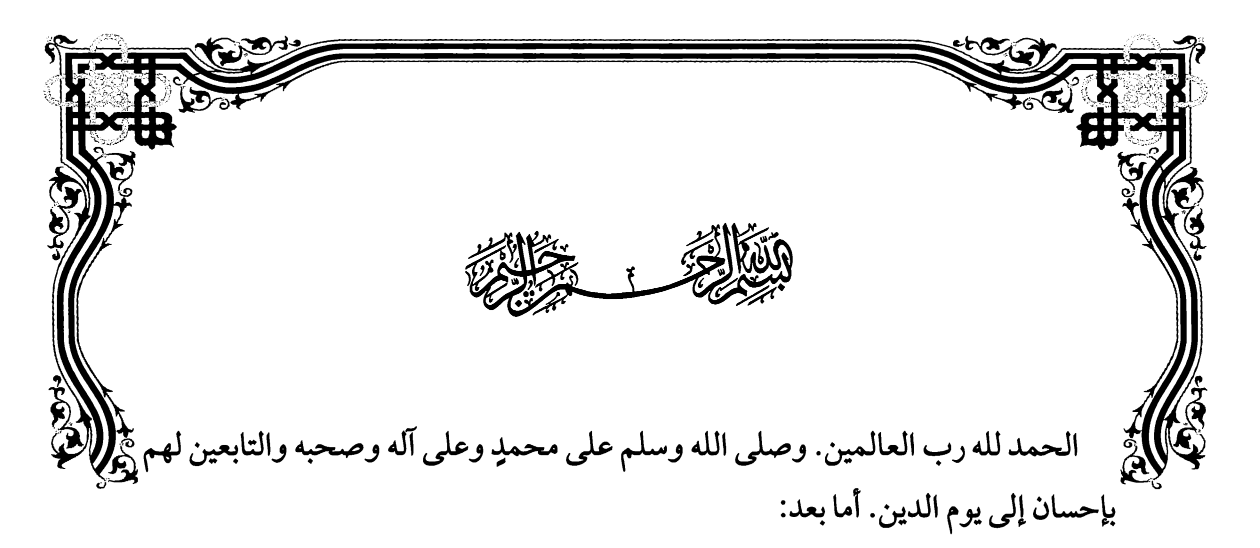
تأليف
الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

تم الاعتماد في تحقيق هذا الكتاب على عدة طبعات
أبرزها نشرة الدكتور

أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي



الحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على محمدٍ وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإنه يجب على كل مسلم أن يعتقد ويصدق بكل ما أخبر الله به ورسوله؛ سواء كان الخبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، أو عن مخلوقاته الماضية والحاضرة والمستقبلة، هذا على وجه العموم والإجمال فرضٌ واجب على كل مسلم، لا يتم الإيمان إلا به، فيصدق الله ورسوله في كل أخبارهما. ثم كلما جاءه عن الله، وعن رسوله خبر تفصيلي في ذلك، وجب عليه الإيمان التفصيلي بذلك الخبر المعين؛ الإيمان بلفظ النص، والإيمان بمعناه. هذا أصلٌ مجمع عليه بين جميع المسلمين.

وقد يخبر الشارع عن أمور مستقبلة، فإذا وقعت كما أخبر كان ذلك زيادة إيمان في حق من عرفها، وعرف تأويلها[1]، ومطابقتها لخبر الله ورسوله، وكان آية وبرهانًا على صدق الرسول ﷺ.

وقد يشكل على بعض المؤمنين بعض الأخبار إذا وقعت، وتطبيقها على الواقع. فعلى

---

(١) مراده رحمه الله بالتأويل هاهنا: الحقيقة التي يؤول إليها الخبر. وهو عين ما يوجد في الواقع. ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ الآية [الأعراف: ٥٣]. وقول يوسف عليه السلام: ﴿يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]. وليس مراده ـ حاشا وكلا ـ التأويل المذموم الذي هو صرف الكلام عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح، بلا دليل، أو بدليلٍ باطل. انظر في معاني التأويل، الرسالة التدمرية ص٩١-٩٦.

من أشكل عليه الأمر فيها أن يتوقف في الأمر الذي وقع؛ هل هو المراد بخبر الله وخبر رسوله؟ وهل هو ذلك الموصوف أم لا؟ فمن انتهى إلى ما سمع، وتوقف عما لا يعلم، فقد أحسن في ذلك وسلم، ومن تسرع بالجزم بالنفي أو الإثبات من غير برهانٍ ولا دليلٍ يجب المصير إليه، فهذا من القول بلا علم، وقد علم ما يترتب على ذلك من الوعيد(١).

فالمتعين على كل مؤمن أن يقول بما يعلم، وما تدل عليه الأدلة الشرعية، وأن يتوقف عما لا يعلم نفيًا وإثباتًا. ولهذا أمثلة كثيرة(٢)، منها:

---

(١) سيأتي مزيد تقرير لهذا الأصل في ختام الرسالة.

(٢) قدم الشيخ رحمه الله في النسخة المتوسطة من رسالته في يأجوج ومأجوج بمثالٍ آخر نثبته هاهنا بطوله، فقال:

المثال الأول: لما حدثت في هذه الأزمان الأخيرة الصناعات الباهرة، والمخترعات الغريبة من غواصات بحرية، وسيارات برية، وطيارات جوية، ونحوها، وحدث ما هو أبلغ منها، وهو قرب المواصلات الكهربائية بالتلغراف اللاسلكي، والتلفون الهوائي، والإذاعات المدفوعة من الأماكن البعيدة، حتى تتصل بالراديات البعيدة والقريبة، وما يتفرع على ذلك من المخترعات المدهشة، حصل من كثيرٍ من الناس استغرابها جدًا، لعدم فهم أسبابها، ولكن بعضهم توقف عن القول بلا علم فسلم، ومن الناس من حمله الجهل والتسرع على تحريم هذه المخترعات، وتحريم استعمالها، وزعم بعضهم أنها من السحر المحرم، أو من الشرك، واستخدام الشياطين، وهذا جهل محض، وجراءة صِرفة، فلو أنهم صبروا حتى يتبين لهم أمرها، ويزول اشتباهها، لكان خيرًا لهم. والله غفور رحيم.

وأما من عرف حقيقة الأمر، فإنه يعلم أن هذه من الصناعات التي أقدر الله عليها الآدميين، وأذن لهم في استعمالها، بل أمر بها حيث لا تتم المصلحة الدينية، أو الدنيوية، أو كلاهما، إلا بها، وعرف أنها من أبلغ ما يدخل في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]. وأن الله تعالى أعدَّ الآدمي لعلوم ومخترعات كثيرة، وأن الآدمي لا يزال في ازدياد ورقي في العلوم الدينية والكونية، وأن من منع ذلك فقد ضيق رحمة الله، وتحجر

فضله، وقال قولًا ينادي على جهله، فكما يجب شكر الله على تعليمه للعبد العلوم الدينية، فيجب شكره على تعليمه العلوم الكونية، لا سيما إذا أعانت على الخير، وتوقف قتال الأعداء ومدافعتهم =

ما ورد في الكتاب والسنة من الخبر عن يأجوج ومأجوج، وما هم عليه من الصفات التي

= عليها. وكذلك يعرف البصير أنها داخلة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨]. فأخبر أنه في مستقبل زمان نزول القرآن، أنه سيخلق من الأمور المستعملة في ركوب الآدميين ومصالحهم المتنوعة ما لا يعلمه الناس في ذلك الزمان. وقد وقع كما أخبر، فقد خلق من الصنائع الهائلة، والمخترعات الباهرة، بواسطة تعليمه الآدمي ما لا يعلمه الناس. فلما وقع، كان من آيات الله الأفقية التي قال فيها: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. فعرف المؤمنون واعترفوا أن وعده حق، وخبره صدق. ثم من نعمته على عباده، ولطفه بهم، أنه أخبر بهذه الأمور على وجه العموم والإجمال، لأنه لو أخبرهم بها على وجه التفصيل لوجد الأعداء المعاندون مقالًا يقدحون به في صحة رسالة محمد ﷺ. فإذا كان الإسراء الذي وقع في وقته ﷺ من جملة المعجزات التي لم تزل موجودة مع الأنبياء، وغير مستغربة، ومع ذلك قال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠]. وذلك أنهم قالوا: هذا محمد يزعم أنه ذهب في ليلة واحدة إلى بيت المقدس، ثم رجع من ليلته، فلجُّوا في تكذيبهم، وافتتن بكلامهم من في قلبه ريب، وضعف إيمان، فكيف لو أخبرهم بوقوع هذه المخترعات في آخر الزمان، وقال لهم: سيغوص الناس في البحار، ويركبون الحديد في مهامة القفار، ويطيرون بين السماء والأرض، ويتخاطبون من مشارق الأرض ومغاربها، لو أخبرهم ببعض هذا على وجه التفصيل لقالوا: مجنون، كذاب، مفتر. ولكن الله لطف وسلم، إنه عليم حكيم، وأيضًا، فهذه المخترعات العجيبة من أعظم ما يدخل في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥]. فهذا البأس الشديد، والمنافع المتنوعة المتخذة من الحديد من أكبر نعم الله على عباده. وقد تعرف بها إليهم، فوجب عليهم أن يشكروا الله عليها، ويستعملوها فيما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم، ويستدفعوا ببأسها الأعداء، ويتخذوا من منافعها ما يثمر لهم الخيرات والمصالح الكثيرة. وأبلغ من هذا كله أنها
أعظم ما يدخل في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وهذا أمر إيجاب، وأمر استحباب بحسب الأحوال. فأمر الله المؤمنين أن يعدوا لأعدائهم كل ما يستطيعونه من قوة عقلية، وسياسة، ورأي، وسلاح، ومخترعات، وحصون مانعة، وأسلحة فتاكة. فمن ظن بجهله أنه لا يدخل فيها إلا الضرب بالسيف، ورمي النشاب، وركوب الخيل، وطعن الرمح، وأن الأسلحة الوحيدة في هذه الأوقات لا تدخل في هذا الأمر، فقلْ له، بحسب إدراكه، أرأيت لو وقع حادث خطير في طرف مملكة من الممالك الإسلامية، فهل لسرعة تلافيه غير الاستعانة =

وصفها الله ورسوله، فظهرت واتضحت، فوصلت إلى درجة اليقين، حين تطبق عليها الأدلة الشرعية، والبراهين اليقينية، والعلم بالواقع. ويوجد كثير من المؤمنين يتوهمون ويظنون ويعتقدون أن يأجوج ومأجوج، إلى الآن لم يظهروا، ولم يعثر عليهم أحد، ولم يبرزوا إلى الناس، وأنهم وراء السد والردم الذي بناه ذو القرنين، وأنهم أمم عظيمة، أضعاف أضعاف الموجودين الآن في الأرض من الآدميين، في جميع جهات الأرض، وفي كل قاراتها الست المعروفة، وفي جزائرها التابعة لهذه القارات. فكل هؤلاء المذكورين عند هؤلاء الناس أقل بكثيرٍ، بما لا نسبة له إلى يأجوج ومأجوج، الذين هم الآن موجودون في الأرض.

وهذا الظن غلطٌ محض، وسببه عدم فهم ما جاء به الكتاب والسنة على وجهه في هذه المسألة، وعدم العلم بالواقع، وعدم العلم بأحوال الأرض وسكانها، مع ورود أحاديث لا خطام لها ولا زمام في صفاتهم[1]. فتولد من ذلك كله إنكار خروجهم، وأن يأجوج ومأجوج غير الأمم الموجودين في أقطار الأرض، المعروفين، من الروس والصين واليابان وأمريكا، وغير سكان آسيا، وسكان إفريقية، وسكان أوروبا، وسكان أمريكا الجنوبية،

= بالمواصلات البرقية، والسيارات، والطيارات، وما يستطاع من أنواع الأسلحة؟!

وهل إذا تقابل الصفان، وتزاحفت الجيوش الكثيرة، واتسع الميدان، وأريد من الجيش أن تكون حركته واحدة، إقدامًا، وإحجامًا، وهجومًا، ودفاعًا، فهل لذلك طريق غير التلفونات البرقية، وآلات النقل السريعة، وتوابع ذلك؟!

وهل إذا دهم العدو بالدبابات المصفحة، والطيارات، والأطواب الثقيلة، والأسلحة الفتاكة الجهنمية، فهل يمكن مقابلتها إلا بمثلها؟!

ولما كانت هذه المسألة واضحة، متبينة مصالحها، معروفة منافعها، صار الذي ينكرها اليوم، وينكر مصلحتها، وأهميتها، من أندر النادر، بحيث لا ينظر إلى قوله، والله أعلم)، اهـ.

ثم ثنى رحمه الله بالمثال الثاني، وهو يأجوج ومأجوج.

(١) انظر على سبيل المثال الأثر الإسرائيلي، الذي رواه ابن جرير عن وهب بن منبه. جامع البيان ١٦/ ١٩. وانظر كلام الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٥٥٢-٥٦٠ على تلك الأحاديث والآثار.

وأمريكا الشمالية، وغير سكان أستراليا، وتوابع هؤلاء. فيأجوج ومأجوج عند هؤلاء أممٌ غير هؤلاء، وهم في الأرض، وهم أكثر من المذكورين أضعافًا مضاعفة، وأنهم إلى الآن لم يوقف لهم على خبر!

وأمّا من تدبر أوصافهم في الكتاب والسنة الصحيحة الصريحة، وطبقه على الواقع، فإنه لا يشك ولا يستريب أنهم هؤلاء الأمم أو بعضهم. وأن ظهورهم على الوصف الذي وصفوا به في الكتاب والسنة من أعظم الآيات والأدلة على صدق ما جاء به محمد ﷺ. وأن الأوصاف المذكورة في الكتاب والسنة الصحيحة منطبقة عليهم أشد الانطباق.

وسنذكر - إن شاء الله - من أدلة الكتاب والسنة، وكلام المؤرخين الأولين والآخرين والمفسرين ومن الأمور الواقعة ما تعلم به حقيقة هذه المسألة، فهاك ذلك على وجه الاختصار:

الدليل الأول:

إخباره تعالى عن ذي القرنين حين بلغ مغارب الأرض ومشارقها، ثم كرَّ راجعًا من المشرق إلى الشمال[1]، فلما بلغ بين السدين وجد من دونهما، أي من دون السدين الموجودين منذ خلق الله الأرض، وهما سلاسل الجبال المتواصلة يمنة ويسرة حتى تتصل بالبحار، كما قال ذلك غير واحدٍ من المؤرخين، ومنهم ابن كثير في التاريخ[2]. وهو نص القرآن؛ فالسدان كانا موجودين قبل مجيء ذي القرنين لأولئك القوم. ولكن بينهما فجوة، أي ريع[3]، يتصل منه يأجوج ومأجوج إلى ما جاورهم من الناس، فيفسدون قتلاً

(١) ليس في خبر القرآن عن ذي القرنين التصريح بجهة «الشمال». ولعل المؤلف استفاد ذلك من كلام بعض المؤرخين والمفسرين، كقول ابن كثير في تاريخه (ومَحَلَّته - أي السد - في شرقي الأرض، في جهة الشمال، في زاوية الأرض الشرقية الشمالية) البداية والنهاية ٢/ ٥٥٧.

(٢) انظر: البداية والنهاية ٢/ ٥٤٩.

(٣) الرِّيع والرَّيع: الطريق المنفرج عن الجبل. لسان العرب(ر ي ع).

وسلبًا ونهبًا وتخريبًا. فلما وصل إليهم ذو القرنين شكوا إليه ما يلقون من يأجوج ومأجوج، فقالوا: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤]. يريدون فقط ذلك الريع والفجوة التي بين الجبال. فقال ذو القرنين: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ أي من الملك والقوة وكمال العدد والعدة، وحسن النظام وسعة الرزق خيرٌ لي مما تبذلون لي من الجعل. ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي ساعدوني بأبدانكم وقوتكم على بنيانه ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]. ولم يقل: سدًّا؛ لأن السدين، وهما سلاسل الجبال؛ موجودان. وإنما يريد ردم ما بينهما وسده فقط. ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أي قطع الحديد. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي حاذى ذلك الحديد الذي جمعوه، ووضعوه في ذلك الريع، رءوس الجبال ﴿قَالَ انفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]. أي نحاسًا مذابًا، ليلتحم بالحديد، فاستحكم ذلك البنيان، ووازن الجبال، وحجز به بين يأجوج ومأجوج ومجاوريهم، وحمد الله الذي أجرى هذه النعمة على يده، وقال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

فهذه الآيات الكريمات صريحة أن يأجوج ومأجوج من الآدميين، كما ثبت بذلك الحديث الذي في **الصحيحين**، وسنذكره إن شاء الله، وتدل هذه الآيات على أنهم من جنس هؤلاء القوم الذين اشتكوا منهم الأذية، إلا أنهم تميزوا بالإفساد في الأرض، وأن ذا القرنين رحم هؤلاء الذين اشتكوا منهم الأذية، فبنى ذلك الردم الذي ينفذون منه إليهم، وكان ما عن يمين هذا الريع ويساره جبال شاهقة، تتصل ببحارٍ مغرقة، كما هو ظاهر الآيات، وكما صرح بذلك ابن كثير في **البداية والنهاية**[1] وغيره.

وهذا الردم الذي بناه ذو القرنين يسير جدًّا بالنسبة إلى السدود الطبيعية التي عن يمينه وشماله، فلما بناه، صاروا لا يستطيعون أن يظهروا على ذلك البنيان، ولا أن ينقبوه، وكذلك

(١) انظر: البداية والنهاية: ٢/ ٥٤٩، وعبارة ابن كثير رحمه الله: (وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلا من بينهما، وبقية ذلك بحار مغرقة، وجبال شاهقة).

لا يستطيعون الصعود على سلاسل تلك الجبال الشاهقة، ولا النفوذ من وراء البحار.

فمكثوا على ذلك مددًا طويلة، وهم منحازون في ديارهم وأماكنهم، لا سبيل لهم إلى النفوذ من تلك الحواجز والحوائل؛ لعدم الأسباب التي تمكنهم من ذلك.

ثم بعد ذلك بمدد ترقت الصناعات، وقويت المخترعات، وتنوعت الأسباب التي مكنتهم من النفوذ من تلك الحواجز والحوائل. وكان مبادي ذلك في وقت النبي ﷺ، من حين قال في الحديث الثابت في **الصحيحين**[1]: «**ويل للعرب من شر قد اقترب. فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**». وحلَّق الإبهام والسبابة. وسيأتي إن شاء الله هذا الحديث.

والنبي ﷺ يكثر من ضرب الأمثال التي فيها تقريب المعاني إلى الأذهان، فهم من ذلك الوقت متهيئون[2] للخروج، وحاصلٌ لهم، ومنهم بعض الأسباب التي تمكنهم، وذلك والله أعلم، حين سمعوا بالنبي ﷺ وأمته ودعوته، وأنهم شارعون في فتح البلدان. فعزموا على مقاومتهم، وعملوا الأسباب لذلك. فلم تزل إرادتهم تقوى، وقوتهم تزداد، وشرهم يطغى، حتى انفتحوا من كل مكان. فبرزوا من فوق رءوس الجبال، ونفذوا فوق متون البحار، وصعدوا في جو السماء، فكان هذا مصداقًا لخبر الله ورسوله.

وقد يتوهم بعض الناس أنه لا بد عند خروجهم أن يشاهد الناس الردم منهدمًا، فإذا لم يشاهدوه، فهم إلى الآن خلفه، وهذا غلطٌ واضح من وجوه:

منها: أن النبي ﷺ أخبر أن ابتداء انفتاحه قد ابتدأ في زمانه. وفحوى ذلك الحديث يدل على أنه في ازدياد من وقتٍ إلى آخر، حتى وصلوا إلى هذه الحالة المشاهدة.

---

(١) البخاري (٣٣٤٧، ٧١٣٦)، مسلم (٢٨٨٠).

(٢) هكذا في الأصل، وقد عدلت عن كلمة أخرى، وأثبتت في الهامش. ولا أدري هل التعديل من الشيخ أو من غيره. والذي في النسخة المتوسطة: «متحركون».

وعلى المؤمن أن يصدق الرسول في كل ما يخبر به، ولا يقع في قلبه أدنى ريب من صدقه. فخبر الرسول أصدق من خبر كل أحدٍ من الخلق. وقد أخبر بذلك.

ومنها: أنه لا يلزم من انفتاح الردم المعين في السد أن يراه كل أحد حال انفتاحه، فقد يراه من يجاوره، ويخفى على غيرهم، وقد يصل النقل إلى الناس، وقد لا يصل.

ومنها: أن المقصود من خروجهم قد حصل. فليس في رؤية نفس الردم الذي بناه ذو القرنين كبير آية. بل الآية المقصودة خروجهم، فإذا رآهم الناس قد خرجوا على الناس من كل حدبٍ وصوب، ومكانٍ مرتفع ومنخفض، عرفوا أن السد قد اندك.

ومنها: أن الله أخبر أنه لما بنى ذو القرنين الردم، أنهم لم يستطيعوا أن يظهروه، أي: يعلوا عليه، ولا على السدود الطبيعية، وما استطاعوا له نقبًا، ومعلوم أن عدم قدرتهم على واحدٍ من الأمرين في ذلك الوقت لعدم الأسباب التي توصلهم إلى ظهوره أو نقبه. وأما الآن فلا يعجزون عن صعود أي جبل يكون، وأي سدٍّ يحصل، ولا على نقبه، بل يقدرون على ما فوق ذلك.

فعلم بذلك أنهم استطاعوا في هذه الأوقات على النفوذ والظهور الذي كانوا سابقًا عاجزين عنه. وهذا ظاهر.

ومنها: أن السد عبارة عن سلاسل الجبال التي عن يمين تلك الثنية، وذلك الريع ويساره. والردم منه عبارة عن تلك الثنية التي سدها ذو القرنين. فالآن قد شاهد الناس خروجهم من وراء هذه الجبال والبحار. ألا ترى سلاسل جبال آسيا وأوروبا وغيرها قد خرجوا من ورائها، والبحر الأسود والأبيض، والبحار المحيطات من كل جانب قد عبروها، ونفذوا من ورائها، بعدما كانوا منحازين في ديارهم، غير متمكنين من الخروج؟

فعلم من ذلك أن يأجوج ومأجوج هم هؤلاء الأمم؛ الروس والصين، وأمريكا، والإفرنج، ومن تبعهم، يوضح هذا:

الدليل الثاني:

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴾[1] [الأنبياء: ٩٦]. **أي حتى إذا انفتحوا على الناس، فبرزوا بعدما كانوا منحازين في ديارهم بهذا الوصف الذي ذكر الله عنهم: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ﴾ أي مكانٍ مرتفع، كالجبال وما فوقها. ﴿يَنسِلُونَ﴾ أي يسرعون. وهذا مطابق لما هم عليه؛ فإنهم في جميع أقطار الدنيا قد انفتحوا على الناس، وأتوهم من كل جانب. ولهذا أتى بأداة التعميم، وهي قوله: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٖ﴾ فلم يبق جبل إلا صعدوه، ولا بحر عميق إلا عبروه، ولا صعب إلا سلكوه، وأبلغ من ذلك أنهم في جو الهواء ينسلون؛ أي يسرعون بالطائرات التي جابت مشارق الأرض ومغاربها، وجميع جهاتها. فإذا لم يصدق عليهم هذا الوصف، فمن تراه يصدق عليه؟! وإذا لم ينطبق عليهم هذا النعت فأخبرني بمن ينطبق عليه؟!**

وفي هذه الآية الكريمة برهانٌ ودليل باهر على الإخبار بحدوث هذه المخترعات التي وصلوا بها إلى هذه الحال؛ لأن إخبار الله ورسوله بشيء إخبار به، وبما لا يتم ذلك إلا به، وذلك أنه لا يحصل تمكنهم من الإسراع والنسلان من كل حدبٍ إلا بالصنائع الراقية، والمخترعات المدهشة.

الدليل الثالث:

ما ثبت في **الصحيحين** عنه ﷺ أنه قال: «**يقول الله لآدم: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: أخرج من ذريتك بعث النار. فيقول: يا رب وما بعث النار؟! قال: من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون في النار، وواحد في الجنة**». فضج الناس حين حدثهم النبي ﷺ بهذا الحديث. قالوا: يا رسول الله، وأينا ذلك الرجل؟ فقال:«**أبشروا، فإنكم في أمتين،**

---

(١) لا يلزم أن يكونوا كل هؤلاء المذكورين، بل بعضهم. انظر مقدمة التحقيق.

ما كانتا في شيء إلا كثرتاه؛ يأجوج ومأجوج»[1]. وفي لفظٍ: **«وما أنتم في الناس إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأبيض»** الحديث[2].

فهذا الحديث صريحٌ في أنهم من ذرية آدم. وسيأتي كلام أهل السير والتاريخ أنهم من ذرية يافث بن نوح، وأن الترك طائفة منهم، وأنهم سموا تركًا لأنهم تركوا خلف ردم ذي القرنين، كما ستأتي الإشارة إليه[3].

وهذا الحديث مطابقٌ لأحوال هذه الأمم الموجودين؛ الروس، والصين، واليابان، والفرنج، ومَن وراءهم من أهل أمريكا، فإنه وصفهم بالكثرة العظيمة، وأن العرب ومن جاورهم بالنسبة إليهم كالشعرة الواحدة بالنسبة إلى شعر جلد الثور. ووصفهم بكثرة الكفر، وأنهم جمهور بعث النار، وذلك لكفرهم، وعدم إيمانهم بمحمد ﷺ، وقلة إيمانهم بسائر الأنبياء الإيمان الصحيح. فإنهم في أزمانٍ متطاولة لا يكاد يوجد فيهم إسلام. ثم بعد ذلك وجد فيهم إسلام قليل جدًّا بالنسبة إلى كثرتهم. فإذا لم يكونوا هذه الأمم، فمن يكونون؟

وإذا أردت النسبة بين العرب ومن جاورهم من الأمم الإسلامية، وبين تلك الأمم، رأيت الأمر كما ذكر النبي ﷺ، والذي يعارض ويظن أنهم غير هؤلاء يدعي ويعتقد أنهم أممٌ أكثر من المذكورين بأضعافٍ مضاعفة، وأنهم إلى الآن خلف السد لم يُطَّلع عليهم!

فَيَاللهِ! أين هؤلاء، وأين محلهم؟ وأين ديارهم الواسعة من الأرض، وقد اكتشفت جميع قارات الأرض، وما يتبعها من الجزائر؟ وسيأتي إن شاء الله بيان فساد هذا الغلط والظن[4].

---

(١) البيهقي في شعب الإيمان (٣٥٥).
(٢) البخاري: (٣٣٤٨، ٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣)، مسلم (٢٢٢).
(٣) انظر: الدليل العاشر من هذه الرسالة ص٢٨٨.
(٤) انظر: الدليل السابع، والدليل الثامن من هذه الرسالة ص٢٨٥، ٢٨٦.

واعلم أن الآيات الكريمة، والأحاديث الصحيحة، وكلام العلماء العارفين ظاهرة ظهورًا لا ريب فيه أن يأجوج ومأجوج من الآدميين، وأنهم ليسوا عالمًا غيبيًّا، كالجن والملائكة، لا يشاهدهم الناس، بل هم ظاهرون محسوسون مشاهدون. فلا يمكن لأحدٍ أن يقول: قد يكونون موجودين، وقد حجب الله عنهم الأبصار. فلو قال أحدٌ هذا القول، عُرف أنه خلاف الأدلة الصحيحة، وخلاف الواقع. وهو قولٌ بلا علم. بل قول منافٍ لما علم من الآيات والأحاديث أنهم آدميون يشاهدون، ويفسدون في الأرض، ويجوبون مشارق الأرض ومغاربها، وغير ذلك من صفاتهم.

الدليل الرابع:

ما ثبت أيضًا في **الصحيحين** عنه ﷺ أنه قال ذات يوم: «**ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب؛ فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**» وحلَّق بين الإبهام والتي تليها[١].

فهذا دليلٌ صريح صحيح أنه من ذلك اليوم الذي تكلم به النبي ﷺ قد وجد بعض الأسباب الداعية لخروجهم، وأنه لا يزال السبب يقوى وقتًا بعد وقت، وسواء كان المعنى أنه مثل ضربه النبي ﷺ يقصد به تقريب الحقيقة إلى الأذهان، وأنهم قد ابتدءوا في السعي إلى الخروج والاندفاع في الأرض، أو أن ردم يأجوج ومأجوج انفتح منه ذلك الوقت هذا المقدار، وأنه لا يزال في زيادة حتى زال واندك[٢].

---

(١) تقدم تخريجه ص٢٦٥.

(٢) وقد جمع ابن كثير، رحمه الله، بين الحديث السابق، وقوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ [الكهف: ٩٧]. بقوله: (أما على قول من ذهب إلى أن هذا إشارة إلى فتح أبواب الشر والفتن، وأن هذا استعارة محضة، وضرب مثل، فلا إشكال. وأما على قول من جعل ذلك إخبارًا عن أمر محسوس، كما هو الظاهر المتبادر، فلا إشكال أيضًا، لأن قوله: ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ أي في ذلك الزمان، لأن هذه صيغة خبر ماض، فلا ينفي وقوعه فيما يُستقبَل، بإذن الله لهم في ذلك قدرًا، وتسليطهم عليه بالتدريج قليلًا قليلًا، حتى يتم الأجل، =

وإذا قال قائل؛ لِمَ لَمْ يشاهد الناس اندكاكه؟ فقد مضى الجواب عن هذا الإشكال[1].

ويقال أيضًا: إذا كان من زمان النبي ﷺ، وقد انفتح منه هذا المقدار، ولولا كلام النبي ﷺ لم يدر المسلمون عن انفتاحه، مع قوله: «**ويل للعرب من شر قد اقترب**»، ثم إخباره بمقدار ما انفتح منه فيه دليل ظاهر أنه انفتح بعضه، وأنه عن قريب ينفتح جميعه، ويخرجون على الناس. وأيضًا ففي الحديث هذا وصفٌ ظهر ظهورًا جليًّا، لا يشك فيه من عرف الواقع. فإن النبي ﷺ توعد العرب بالشر القريب الذي يقع بهم من يأجوج ومأجوج، فمن عرف حالة العرب والإسلام، وكيف توسع الفتح الإسلامي في المشارق والمغارب، وكيف حصل للعرب من العز بالإسلام وانتشاره ما لا يعرف لغيرهم، ثم كيف تداعت عليهم الأمم كما تداعت الأكلة على الصحفة، كما أخبر به الصادق المصدوق[2]، ثم كيف تقلص الإسلام، وزال عز العرب عن تلك الممالك الإسلامية، وكيف وقعت بهم تلك الدواهي العظام، والشرور الجسام شيئًا فشيئًا حتى وقعت داهية التتر[3] العظيمة، الذين هم من عنصر يأجوج

= وينقضي الأمد المقدور، فيخرجون، كما قال الله: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]) البداية والنهاية ٢/ ٥٥٨.

(١) راجع ما جاء في الدليل الأول من هذه الرسالة، ؟؟؟؟.

(٢) يشير إلى حديث ثوبان رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة على قصعتها**». الحديث.. أخرجه أحمد (٢٢٤٩٨) وأبو داود (٤٢٩٧).

(٣) وهي من أعظم الفتن التي حاقت بالمسلمين، حتى أن ابن الأثير (٥٥٥-٦٢٠) رحمه الله، قال في تاريخه: (لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها، كارهًا لذكرها. فأنا أقدم إليه رجلًا، وأؤخر أخرى. فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟! ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟! فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسيًا منسيًا... فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم، وإلى الآن لم يُبتَلوا بمثلها، لكان صادقًا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها، ولا ما يدانيها... ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم، وتفنى الدنيا، إلا يأجوج ومأجوج)، الكامل في التاريخ ١٠/ ٣٣٣ حوادث سنة ٦١٧هـ.

هذا وهو، رحمه الله، لم يعش حتى يشهد بقية فتنتهم، وسقوط بغداد، عاصمة الخلافة الإسلامية، =

ومأجوج، ومن نفس ديارهم، كما ذكره أهل السير، ومنهم ابن كثير رحمه الله[1].

ولم تزل الشرور تتوالى على المسلمين عمومًا، وعلى العرب خصوصًا من هذه الأمم حتى وصلت إلى هذه الحالة الموجودة اليوم، التي يرثى لها. ونرجو الله أن يلطف ببقية المسلمين والعرب، وأن يدفع عنهم من الشرور ما لا يدفعه غيره. فهذه الشرور التي أشرنا لها، وهي معروفة هي وأضعافها وأضعاف أضعافها، من أين أصابت المسلمين عامة، والعرب منهم خاصة، إلا ممن أخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى بوقوعها منهم، وهم يأجوج ومأجوج. ولهذا كان بعض العلماء المتأخرين العارفين بأحوال الأمم؛ كالأمير شكيب أرسلان وغيره يرون أن يأجوج ومأجوج هم دول السوفييت أو بعضهم، ولا ريب أنهم منهم، بل هم مبتدأهم، وابن كثير في **تاريخه** جزم بأنهم «منغوليا» الذين تفرعت عنهم التتر، والصين، واليابان، والروس، وغيرهم من الأوروبيين، كما ذكر ذلك المعتنون بالأنساب، ومن وراءهم من الأمم؛ كأمريكا، حكمهم حكمهم.

= وما جرى من الحوادث العظام، كما بسط ذلك ابن كثير، رحمه الله، في البداية والنهاية: ١٧/ ٣٥٦- ٣٦٤، حوادث سنة ٦٥٦هـ.

وقد ابتدأت هذه الفتنة عام ٦١٧هـ من أطراف الصين، وانتهت، أو كادت، عام ٦٥٨هـ في عين جالوت، في الشام.

(١) قال ابن كثير، رحمه الله، في تاريخه: (فيأجوج ومأجوج طائفة من الترك، وهم مغل المغول. وهم أشد بأسًا، وأكثر فسادًا من هؤلاء، ونسبتهم إليهم كنسبة هؤلاء إلى غيرهم. وقد قيل: إن الترك، إنما سموا بذلك، حين بنى ذو القرنين السد، وألجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه، فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم، فتركوا من ورائه. فلهذا قيل لهم. الترك) البداية والنهاية ٢/ ٥٥٣.

وقال في التفسير: (إنما سمّوا هؤلاء تركًا، لأنهم تركوا من وراء السد، من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك). يريد يأجوج ومأجوج. تفسير القرآن العظيم ٥/ ١٩٥.

وقال في كتاب الفتن والملاحم، الملحق بالتاريخ: (وهم كالناس، يشبهونهم، كأبناء جنسهم من الترك الغُتْم، المغول، المخرزمة عيونهم، الذلف أنوفهم، الصهب شعورهم، على أشكالهم وألوانهم) البداية والنهاية: ١٩/ ٢٣٩.

فهذه الأوصاف المتنوعة التي وصفوا بها بالكتاب والسنة، لا يشك من فهمها تمامًا وفهم الواقع أنها تنطبق على هؤلاء الأمم، وأما ما يوجد من الآثار الدالة على طولهم المفرط، وقصرهم المفرط، وصفاتهم المخالفة لصفات الآدميين، فكلها كذب[1]، مخالفة للنصوص الصحيحة وللواقع، لا يحل اعتقادها والاعتماد عليها، فضلًا عن تقديمها على دلالة النصوص الصحيحة؛ فهي وإن ذكرها بعض الناس، فقد أولع كثير من المصنفين بذكر أحاديث وآثار لا زمام لها ولا خطام، ومجرد ما يراها البصير يعرف مخالفتها لما دلت عليه النصوص الصحيحة.

فإن قلت: فقد ورد في **صحيح مسلم**، في حديث النواس بن سمعان الطويل أن يأجوج ومأجوج حين يقتل عيسى ابن مريم الدجال، فيقول الله له: قد أخرجت عبادًا لي، لا يدان لأحدٍ بقتالهم[2]، فحرز[3] عبادي في الطور، وأنهم يخرجون فيشرب أوائلهم بحيرة طبرية، ويمر عليها آخرهم، فيقول قد كان ههنا ماء، وأنهم يرمون بنُشَّابهم[4] إلى السماء فتعود عليهم مخضوبة دمًا، فيقولون: قد قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء[5].

فالجواب عن هذا من وجوه:

الأول: أن هذا الحديث على فرض مخالفته ومناقضته لما دلت عليه تلك النصوص، فإنه

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله: (ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم حين احتلم، فاختلط بتراب، فخلقوا من ذلك، وأنهم ليسوا من حواء... وهكذا من زعم أنهم على أشكالٍ مختلفة، وأطوال متباينة جدًا، فمنهم من هو كالنخلة السحوق، ومنهم من هو غاية في القصر، ومنهم من يفترش أذنًا من أذنيه، ويتغطى بالأخرى، فكل هذه أقوال بلا دليل، ورجم بالغيب بغير برهان. والصحيح أنهم من بني آدم، وعلى أشكالهم وصفاتهم). البداية والنهاية ٢/ ٥٥٣، ٥٥٤.

(٢) أي لا قدرة ولا طاقة. كأن يديه معدومتان لعجزه عن دفعه.

(٣) أي ضمهم، واجعله لهم حرزًا. والحرز: الموضع الحصين.

(٤) سهامهم.

(٥) قطعة من حديث طويل، أخرجه الترمذي (٣١٥٣)، وابن ماجه (٤٠٨٠).

لا يقاومها، ولا يقدم ما يظهر من دلالته على دلالتها. هذا على وجه التنزل، وإلا فليس ولله الحمد بينها مخالفة.

الوجه الثاني: أن دلالة تلك النصوص على صفاتهم المذكورة المشاهدة عيانًا، دلالة يقينية، لا يمكن أن يرد ما يخالفها ويناقضها.

الثالث: أن إخباره بخروجهم بعد قتل عيسى للدجال، وقتل المسلمين لليهود لا يدل على أنهم لم يخرجوا قبل ذلك. بل هذا خروج من محل إلى محل، فإن يأجوج ومأجوج يأتون حنقين، متغيظين، على عيسى ومن معه من المؤمنين، يريدون الإيقاع بهم، فيكبتهم الله ويقمعهم، ويلقي عليهم الموت الذريع. ومما يدل على أن البعث والإخراج لا يراد به ابتداء الخروج والبعث، بل يراد به البعث والخروج من محل إلى محلٍ آخر، آيات متعددة، مثل قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ﴾ [الحشر: ٢]. فهذا خروج من محل إلى محل. وكذلك قوله: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥]. ﴿ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء: ٥٧]. **الآيات**. إلى غير ذلك من الآيات الدالات على أن المراد: الخروج، والإخراج من محل إلى آخر، ليس المراد به الإخراج الابتدائي.

ومثل ذلك البعث، كقوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ [الإسراء: ٥]. وهذا بعث لهم من البلاد الجزرية إلى البلاد الشامية[1]، نظير ما في بعض ألفاظ حديث النواس: «**بعثت عبادا لي، لا يدان لأحد بقتالهم**»[2]. من غير فرق. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [المائدة: ٣١]. ليس المراد ببعثه إنشاء خلقه، وإنما المراد به: فأرسل الله غرابًا يبحث في الأرض. ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٦]. ومعناه: عيِّن لنا ملكًا، وهذا ظاهر بيِّن ولله الحمد.

---

(١) أي من الجزيرة، ما بين النهرين، من أرض العراق، وهو بعث بختنصر أو سنحاريب إلى بني إسرائيل في الشام وبيت المقدس.

(٢) مسلم (٢٩٣٧).

الوجه الرابع: أن النبي ﷺ كثيرًا ما يمثل للناس بما كانوا يعرفون، خصوصًا في الأمور التي لم يشاهد المسلمون لها مثيلًا، ولا نظيرًا في ذلك الوقت. فإخباره ﷺ برميهم بنشابهم إلى السماء إلى آخره يدل على قوتهم وقهرهم لأهل الأرض بسلاحهم ومخترعاتهم. وكأنَّ في هذا إشارة إلى طيرانهم في الأفق[1]، وإلا فمن المعلوم أن سلاح النشّاب ونحوه من السلاح الأول الضعيف قد نسخ من زمان، وأن الأسلحة لا تزال في رقي وازدياد، ولا يرجى في وقتٍ من الأوقات أن يعود الناس إلى سلاح النشاب[2] ونحوه، بل الذي يدل عليه الاستقراء والتتبع للأحوال أن السلاح يترقى ترقيًا فاحشًا، ينسي هذا السلاح الموجود، حتى يكون مادة هلاك الخلق وتدميرهم، ويقع ما أخبر به النبي ﷺ من فناء الرجال بالقتل، حتى يكون قيِّم خمسين امرأة رجل واحد[3].

والرسول ﷺ لا يخبر بما تحيله العقول، بل كلامه فيه الشفاء، والعصمة، والنور، والبرهان، والحق، واليقين. وأما ما فيه من ذكر ماء البحيرة، وأنهم يشربونه، فإما أن ذلك إشارة وتنبيه على كثرتهم العظيمة التي هم في الحقيقة عليها، وإما أن ماء البحيرة سيستخرجونه بالآلات إلى عمارة حروثهم، وزروعهم، حتى ينشفوها. وهذا شرب حقيقي. ويدل على هذا أن ماء البحيرة، لو اجتمع جميع من على وجه الأرض من الآدميين والحيوانات، فشربوا منها بأفواههم لم ينشفوها. والنبي ﷺ ينزه أن يتكلم بخلاف الواقع. فتعين أحد التأويلين[4]، إن

---

(١) في هذا تأويل ظاهر، ورسول الله ﷺ أعلم بما قال، كيف وقد حقق ذلك بقوله: «**فتعود عليهم مخضوبة دمًا**». وقد كان يسع النبي ﷺ أن يعبر بما يحتمل المعنى الذي ذكر الشيخ، كأن يقول: «بسلاحهم»، فضلًا عن أن يحقق ذلك بوصف يتعلق بالنشاب، فالمتعين حمل النص على ظاهره.

(٢) لا يمتنع أن يفضي الأمر إلى تدمير الأسلحة الحديثة الفتاكة، وأن يعود الناس في آخر الزمان إلى استعمال الأسلحة البدائية، ولهذا النص نظائر كثيرة في أحاديث الملاحم، آخر الزمان.

(٣) البخاري (٨١).

(٤) بل المتعين ما أخبر به المعصوم ﷺ، دون حاجة إلى تأويل، حيث قال: «**فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرةً ماء**». رواه مسلم رقم (٢٩٣٧).=

كان حديث النواس بن سمعان محفوظًا[1]، جمعًا بين النصوص، ويدل على التأويل الأخير أن الصهيونيين الذين أكثرهم من عنصر الفرنج، الذين أتوا من البلاد الخارجية، لا زالوا يستخرجون ماء البحيرة بالمكائن وغيرها، ولا زالوا مُجِدِّين على هذا الأمر[2]. ولا بد أن يقع جميع ما أخبر الله به ورسوله.

الدليل الخامس:

ما تواترت به الأخبار من أصناف العلماء؛ من المفسرين، والمؤرخين، وأهل السير والأنساب، من المتقدمين، والمتأخرين، واتفاق محققيهم أن يأجوج ومأجوج في شمالي آسيا، وأنهم جيران الأتراك، وأن الأتراك قيل لهم: ترك، لأن ذا القرنين لما ردم على يأجوج ومأجوج، وترك منهم هذه الطائفة، فقيل لهم: الترك، لأنهم تركوا خلف السد. فالترك منهم، والباقون جيرانهم المتصلون بهم في بلاد تركستان.وقد ذكر ذلك غير واحدٍ من المؤرخين والمفسرين، حتى كاد أن يكون اتفاقًا منهم على هذا.

ومن وراءهم من الأمم تبع لهم، وفرع عنهم. وأيضًا، فإنهم ذكروا أن أولاد نوح الذين انسلوا، ثلاثة: سام، وهو أبو العرب ومن جاورهم، وحام، وهو أبو السودان والبربر، وجميع

= فكونه إشارة وتنبيه على كثرتهم العظيمة لا يمنع من إرادة الظاهر، وأما التأويل الثاني فبعيد جدًّا، وليس في الإخبار به مزية. فإنه لم يزل الناس يستخرجون المياه من البحيرات والغدران بالوسائل القديمة والحديثة. وربما تنضب أحيانًا.

ومع ما ذهب إليه الشيخ، رحمه الله، في التأويل الثاني، فإن بحيرة طبرية لم تنشف حتى الآن. وسياق الحديث النبوي يدل على أن الطائفة الأولى من يأجوج ومأجوج شربت ماء البحرية شربًا حقيقيًا، لا أنها حرثت، وزرعت، وسقت.

(١) هو بحمد الله محفوظ، لا مخالف له، رواه الإمام مسلم في صحيحه، برقم (٢٩٣٧).

(٢) الصهيونيون، وإن كان كثير منهم قدم من بلاد الإفرنج، إلا إنهم يهود من نسل سام بن نوح، وليسوا من يأجوج ومأجوج نسل يافث، الذين جاء الخبر بشربهم بحيرة طبرية. فما يقع من استخراج مائها بالآلات والمكائن من الصهيونيين وغيرهم ليس هو تحقيق خبر النبي ﷺ في يأجوج ومأجوج.

أهل إفريقية، ويافث، وهو أبو الصقالبة، والترك، ويأجوج ومأجوج، والتتر، ومن تفرع عنهم من أهل الصين، واليابان، وبلاد الإفرنج، ونحوها. وكلام المفسرين، وأهل الأنساب في هذا الموضع، وفي هذا المعنى كثير جدًّا، لا يمكن نقله في هذه الرسالة المختصرة[1].

والمنصف إذا عرف الواقع، وأين ديار الترك، ومَنْ جيرانهم، عرف أن كلام هؤلاء العلماء صريحٌ أنهم هؤلاء الأمم الذين ذكرنا، وليكن على بالك أن يأجوج ومأجوج ليسوا عالمًا غيبيًّا، وإنما هم آدميون، بارزون، محسوسون، كما دلت على ذلك أنواع الأدلة.

الدليل السادس:

أن الشارع لا يخبر بأمرٍ تحيله العقول، ويكذبه الحس والواقع.

بل أخباره كلها لا يعارضها حس ولا عقل صحيح، ولا غيرها من الأمور العلمية، ومن زعم أن يأجوج ومأجوج غير هؤلاء الأمم الذين ذكرنا، فإن قوله يتضمن المحال، لأن هذا القائل يدعي، ويعتقد أنهم أمم عظيمة من بني آدم، وأنهم أكثر من هؤلاء الأمم الذين يعرفون الآن على وجه الأرض كلها بأضعافٍ مضاعفة، وهذا قول محال ينزه الشارع من أن ينسب إليه هذا القول، لأنه يطرِّق[2] الكافرين والمعاندين إلى القدح في الشارع، ويقولون: كيف يخبر عن أممٍ على وجه الأرض، أكثر من الموجودين في القارات الست وتوابعها؟! فأين هم؟! وأين ديارهم؟! والأرض كلها مكشوفة، وقد اكتشفها الناس قطرًا قطرًا. ولم يبق محلٌّ

(١) انظر على سبيل المثال: تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر، محمد بن جرير الطبري. ١/ ١٢٤-١٣٢. وقد روى في ذلك أحاديث مرفوعة، وآثارًا عن السلف، ومسلمة أهل الكتاب، ومنه قوله عن وهب بن منبه: (.. وإن يافث أبو الترك، وأبو يأجوج ومأجوج، وهم بنو عم الترك) وقال أيضًا: (ومن ولد موعج: يأجوج ومأجوج وهم في شرقي أرض الترك والخزر).
وانظر كلام المفسرين على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

(٢) تطرّق إلى الأمر: ابتغى إليه طريقًا. لسان العرب (ط ر ق).

من الأرض إلا وصل إليه علم الناس، إلا جهة قليلة جدًّا تحت مدار القطبين[1]، وقد غمرتها الثلوج، لا يمكن أن يعيش فيها آدمي، ولا حيوان، ولا نبات، لشدة بردها، وعدم وصول الشمس إليها، وهي رقعة صغيرة جدًّا بالنسبة إلى الأرض المكتشفة، فمجرد تصور العارف لهذا القول يكفي في رده. يوضح هذا توضيحًا تامًّا:

الدليل السابع:

أن قارات الدنيا كلها، القديمة والحديثة، ست قارات:

الأولى: آسيا: من البحر الأحمر والأبيض غربًا، إلى أقصى بلاد سيبيريا من بلاد الروس شمالًا، وإلى البحر الهادي شرقًا، إلى البحر الأسود وأكرانيا مما يلي أوروبا غربًا.

الثانية: إفريقيا: وشرقيها البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي غربًا.

ومن البحر الأبيض شمالًا إلى المحيط الأطلسي المتصل بالمحيط الهندي جنوبًا.

الثالثة: قارة أوروبا: التي يحدها البحر الأبيض جنوبًا، إلى البحر الشمالي، ثم الأطلسي شمالًا وغربًا. ومن بلاد الأندلس غربًا إلى بلاد أوكرانيا السوفيتية شرقًا.

الرابعة: أستراليا: وهي قارة واقعة في الشرق الجنوبي، في وسط المحيط الهادي.

الخامسة: أمريكا الجنوبية: وهي الواقعة من خليج بنما، من المحيط الأطلسي شمالًا، وتنتهي إلى البحر الهادي جنوبًا.

السادسة: أمريكا الشمالية: تتصل من غرب بالبحر الأطلسي، والبحر الشمالي. ومن شرق تتصل بالمحيط الهادي.

فهذه قارات الأرض كلها، باتفاق العارفين بها. ويتبعها جزر صغيرة وكبيرة ملحقة بهذه

---

(١) ربما كان ذلك في زمن المؤلف، رحمه الله، أما الآن فلم يبق موضع إلا وصلته الكشوف، وتم تصويره عن طريق الأقمار الصناعية.

القارات. وهذه القارات قد عرفها الناس كلها معرفة تامة، وعرفوا أجناس أهلها وأصنافهم، وتغلغل علمهم إلى معرفة إحصائياتهم، وتيقنوا يقينًا لا شك فيه أن المذكورين في هؤلاء القارات الست هم أهل الأرض، وأنه لا يوجد على وجه الأرض سواهم. فمتى أخبرنا مخبر أن في الأرض غير هؤلاء المذكورين من بني آدم، أكثر من المذكورين من بني آدم بأضعاف مضاعفة، علمنا غلطه الفاحش، وأنه خلاف الواقع المقطوع به. يوضح هذا ويزيده بيانًا.

الدليل الثامن:

وهو أنه قد ثبتت كروية الأرض ثبوتًا لا امتراء فيه، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن كثير، وغيرهم هذا، وذكر شيخ الإسلام أن دلالة الكتاب والسنة على هذا القول ظاهرة. كما أنه قد اتفق عليه أهل المعرفة، وقد كان في الزمان الماضي يوجد من يعارض في كروية الأرض من أهل العلم قبل اكتشافها، ويظن أن كرويتها تنافي سطحيتها، وهذا غلط؛ فإن الجسم العظيم المسطح قد يكون مكورًا مستديرًا. قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ [الغاشية: ٢٠]. أي: مدت ومهدت ووسعت لجميع منافع الآدميين. وقال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر: ٥]. والتكوير هو الاستدارة، كاستدارة العمامة على الرأس. وقال تعالى: ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

ثم إن الواقع المعروف معرفةً لا شك فيها يوافق هذا. وبعد ظهور المخترعات، والمقربات، وقرب المواصلات، صارت كروية الأرض معروفة لكل أحد له معرفة بالأرض. وقد يتمكن الإنسان في كل وقتٍ أن يعرف أوقات جهات الأرض، ويعرف أن ليل بعض الجهات نهار لجهات أخرى، وبالعكس، وأن الشمس لا تزال تجري في فلكها، إذا طلعت على جانبٍ من الأرض، غربت عن الجانب الآخر. فمثلًا: إذا زالت الشمس في جزيرة العرب، تكون قد غربت عن أقاصي الصين، وبلاد اليابان. وإذا غربت الشمس في جزيرة العرب، تكون قد ابتدأ شروقها في بلاد أمريكا. ثم إذا زالت الشمس في أمريكا، طلعت على بلاد اليابان والصين. وهلم جرًّا.

وكذلك من عبر مغربًا من البحر الغربي الشمالي[1] ينفذ على أمريكا، ثم منها إلى المحيط الهادي، ثم من المحيط الهادي على اليابان ثم الصين، ثم يرجع إلى موضعه، وهكذا في كل مكان.

ومعلومٌ أنه إذا كانت الأرض كروية، كانت محصورة تحيط بها معارف الناس، فدعوى المدعي أن هنا أممًا أكثر من المذكورين المعروفين، وهم على وجه الأرض؛ دعوى مخالفة للدليل القاطع، وما كان كذلك فهو معروف الغلط.

واعلم أنه ليس مع من عارض ما ذكرنا شيء من الأدلة، إلا ما ذكرنا في حديث النواس ابن سمعان. وقد ذكرنا وجهه[2]. وكذلك يظنون أن الأسماء تبقى على الدوام. فلما رأوا أن هذه الأمم لها أسماء مخصوصة؛ كالروس، واليابان، ونحوهم، ظنوا أنهم غير يأجوج ومأجوج. وهذا غلط واضح. فكم تنقلت وتغيرت الأسماء؛ أسماء الجهات، والحكومات والعناصر، وكم تغيرت من اسم إلى اسم آخر، وكم اندمجت أمم بأمم. وقد ذكر المعتنون بأنساب الترك الطورانيين، الذين هم من نسل يأجوج ومأجوج، وأن هذه الأمة لا تزال تندفع شرقًا وغربًا. ومعلوم أن الأسماء تتنقل بتغير تنقلاتها، والعبرة إنما هي بالأوصاف التي ذكرت في الكتاب والسنة. وقد بينا فيما سبق انطباق أوصافهم على هذه الأمم، مع أن الاسم اليوم موجود، فإن اسم بلاد يأجوج ومأجوج الأصلية، وهو بلاد منغوليا، وشرقي تركستان، لا زال معروفًا. وتلك القبائل لا يزال يقال لهم: يأجوج ومأجوج، وهم الآن تبع لحكومة الروس.

الدليل التاسع:

وهو الجامع لكل ما تقدم. وهو أن دلالة الكتاب والسنة الصحيحة، والأوصاف المذكورة فيهما ليأجوج ومأجوج لا تصدق إلا على من ذكرنا من الأمم. وكذلك الأمور الواقعة المقطوع

---

(١) هو المعروف بـ«المحيط الأطلسي» أو «الأطلنطي».

(٢) تقدم في ص٢٧٧.

بها حسًّا، وعلمًا، كما تقدمت الإشارة إليها وتقريرها. إذا جمعت ذلك كله علمت علمًا يقينيًّا لا شك فيه، ولا ريب أنها واقعة على تلك الأمم، وأنهم المرادون بها، وأنها من براهين رسالة محمد ﷺ. وعلمت أيضًا بما تقدم أنه لا يوجد غير المذكورين من بني آدم على وجه الأرض، وأن من قال: إنهم غيرهم، لم يقله عن علمٍ وبرهان، وإنما هو قول بلا علم، بل مخالف للعلم.

الدليل العاشر:

أن لفظ «يأجوج ومأجوج» واشتقاقه من الأجيج[1] والسرعة، ووصف الشارع لهم بذلك يدل على ما ذكرنا. ولهذا كان الأولى أن يكون اسم جنس، وإن كان طائفة من أهل العلم يرون أنهم طائفة مخصوصة من دول السوفييت، وهم المعروفون الآن بهذا الاسم. فكونه اسم جنس يشملهم، ويشمل من وراءهم، أولى لوجهين:

أحدهما: أن الأوصاف المذكورة في الكتاب والسنة تنطبق كل الانطباق على تلك الأمم المذكورة جميعهم، مثل قوله: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]. والشر الذي وصل إلى المسلمين منهم عامة، وإلى العرب خاصة، ووصف كثرتهم، وكثرة كفرهم، وأنهم أكثر بعث النار، وغيرها مما هو صريح فيهم.

الثاني: أن إخبار النبي ﷺ عن بعث النار، وأنه من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون في النار، وواحد في الجنة، وأن جمهور هذا العدد من يأجوج ومأجوج، لا يتصور أن يكون إلا اسم جنس. ولما كان الإشكال في هذه المسألة قد وقع لكثير من الناس، لم يتضح لهم الأمر فيها، مع أن من نظر إلى أدلتها الشرعية والعقلية لم يَرْتَب، أحببت أن أورد من كلام أهل العصر المعتبرين، والذين لهم المعرفة التامة في هذه الأمور ما يدل على ما ذكر:

---

(١) ذكر ابن منظور رحمه الله في معاني الأجيج: (وأجّ يؤج أجًّا: أسرع... الأجُّ، الإسراع والهرولة... يأجوج ومأجوج، وهما اسمان أعجميان، واشتقاق مثلهما من كلام العرب يخرج من: أجَّتِ النار، ومن الماء الأجاج، وهو الشديد الملوحة المُحرِق من ملوحته.. وهذا لو كان الاسمان عربيين لكان هذا اشتقاقهما، فأما الأعجمية فلا تشتق من العربية: لسان العرب ١/ ٧٧.

فقد ذكر الأمير شكيب أرسلان رحمه الله، في حواشي **حاضر العالم الإسلامي**[1] أن يأجوج ومأجوج هم «المجار»، وهم «المغول». وذكر غزواتهم لبلاد الإفرنج، واندفاعهم إليها، واندماجهم بهم. وقال أيضًا في كتابه الذي سماه **غزوات العرب** المطبوع في ص١٧٠ منه:

(وفي تلك الأيام وصل المجار إلى فرنسة، وملئوا البلاد عيثًا وتدميرًا. ورأى الأهالي فيهم تصديق نبوة حزقيال عن يأجوج ومأجوج[2] إلى آخر ما قال.

وفي المجلد الأول من **الحلل السندسية** للأمير شكيب ص١٧٨[3]:

(وذكر الرازي أن القوط، أي ملوك الأندلس، الذين آخرهم لذريق الذي هزمه المسلمون، من ولد يأجوج ومأجوج بن يافث بن نوح)[4].

وفي المجلد الحادي عشر من **المنار**، في آخر جواب سؤال ص٢٨٤:

(١) كتاب شهير ألَّفه الأمريكي لوثروب ستودار.

(٢) تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، للأمير شكيب أرسلان ص٢٢٠.

(٣) أثبت الشيخ رحمه الله، بقية ما قال شكيب أرسلان في التعليقات الملحقة بالنسخة المتوسطة من هذه الرسالة، وهو كما يلي:
(.. ولما كانت سنة الألف للمسيح، ظن الناس أنها قد أزفت الساعة. وسأل مطران «فردن» *Verdin* أحد القسيسين عن صحة هذه المسألة، وهل المجار هم يأجوج ومأجوج أم لا؟ فطمأن القسيس خاطر المطران قائلًا له: إن من أشراط الساعة أن يأتي يأجوج ومأجوج ومعهم شعوب آخرى. والحال أن المجار جاؤوا وحدهم. فلا تنطبق هذه النبوة عليهم. على أنهم في العيث والتدمير بذوا الأولين والآخرين).

(٤) الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، للأمير شكيب أرسلان. ص١٧٨ منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت، إلا إن عبارته هكذا:
(وذكر الرازي أن القوط من ولد يأجوج بن يافث بن نوح. وقيل غير ذلك) فتعريف القوط من كلام الشيخ رحمه الله.

(هذا، ومن تذكر إغارة المغول التتار، وهم نسل يأجوج ومأجوج، في القرن السابع الهجري على بلاد المسلمين والنصارى، وما أتوه من الإفساد في الأرض، وما أوقعوه بالأمم المختلفة من القتل والسبي والنهب، أمكنه تصور حصول هذا منهم مرةً أخرى، قبل مجيء الساعة، كما قال القرآن الشريف: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ ﴾[الأنبياء: ٩٦]... إلخ).

وقد ذكر شكيب أرسلان في حواشي **مقدمة ابن خلدون** و**حاضر العالم الإسلامي** كيفية تسلسل أنساب التتر، ويأجوج ومأجوج والترك، ودخولهم في جملة أهل أوروبا، بعدما كانت مساكنهم في آسيا، فذهب أناس، وبقي في آسيا أكثرهم.

وقد ذكر صاحب **التذكرة** فيها، في الجزء الثاني ص٨٦ لما تكلم عن طبائع الأقطار، ذكر بلاد يأجوج ومأجوج وموقعها، وما يناوحها من الأقطار، في كلامٍ طويل يؤيد ما ذكرنا.

وقال في **مجلة الفتح** (٤٤٠) العام التاسع ٨ محرم، ١٢٥٤ ص٩٦ في الجزء المذكور في مقالة الشيخ محمد سليمان، قال: (جاءت القرون الوسطى، فجاء أهل أوروبا عادين على المسلمين يغزونهم في ديارهم، ويحاربونهم على تخومهم، وفتحت يأجوج ومأجوج. فانسل التتار من الشرق على بلاد الإسلام فاكتسحوها وخربوها وهدموا الخلافة وقتلوا الخليفة. ووقع المسلمون بين شقي الرّحا من الشرق، ومن الغرب في بلاءٍ مبين).

وفي **منجم العمران**، ص٥٨ من الجزء الأول: (ومن الأمم التي عرفت حركات مهاجرتها قبيلة هيونكنو التركية، فإنها أقدم القبائل التي نعرف تاريخ حملها على أمةٍ أخرى، ربما كانت الأمة الهندية الجرمانية، التي كانت قاطنةً بالقرب من يوتي غاته، في الجهة الشمالية الغربية من الصين، فتلك الحملة التي جعلت شأنها الفتح والتخريب، والسلب والنهب، صدرت من السور العظيم المبني لصدها سنة ٢١٤ قبل الميلاد، وامتدت حتى بلغت أقاصي غرب أوروبا، سائرةً في أواسط آسيا في الجهة الشمالية من سلسلة جبال هملايا) إلى أن قال ص٦٢:

(ولما رأى الأوربيون ما رأوا من فتوحات المنغول التي امتدت من سور الصين إلى «كراكو» في أواسط أوروبا، وإلى سواحل البحر المتوسط من غربي آسيا، في ست وعشرين سنة وقع الرعب في قلوبهم). إلى آخر ما قال.

وقال أيضًا في **المنجم** ص٧٢، من المجلد الأول: (اهتمت الدنيا بأسرها بفتوحات روسيا في أواسط آسيا، وإنكلترا باتت في وجل من جراء ذلك. وكانت نهاية حرب روسيا والجراكسة سنة ١٨٦٤، الموافق ١٢٨١ للهجرة، واسطة لهدم الحاجز العظيم الذي كان يمنعها عن توسيع دائرة أملاكها، وهو جبل «قوه قاف» يعني «القفقاس»، وقد تمكنت بذلك من نوال مقصد مهم) إلخ.

وفي **المقتبس** قال المسعودي في كتاب **التنبيه**: (وحد الإقليم الخامس بحر الشام إلى أقصى الروم مما يلي البحر، إلى «تراقية» وبلاد «برجان»، و«الاستبان»، واليأجوج ومأجوج، والترك والخزر واللان والجلالقة) فجعلهم في أرض الترك.

وقال ابن رسته: (الإقليم السادس يبتدئ من المشرق، فيمر على بلاد يأجوج ومأجوج، ثم على بلاد الخزر، وينتهي إلى البحر المغرب) فانظر كيف صرّح بمجاورته لأرض الخزر، وهي معروفة قريب من قزوين.

وقال البلخي في **تاريخه**، صفحة ٥٣٤: (الإقليم السادس: يبتدئ من المشرق، فيمر على بلاد يأجوج ومأجوج، ثم على بلاد الخزر، ثم على وسط بحر جرجان، إلى بلاد الروم.

قال أهل العلم: أما ما وراء هذه الأقاليم إلى تمام الموضع المسكون الذي عرفناه فإنه يبتدئ من المشرق، من بلاد يأجوج ومأجوج، فيمر على بلاد التغرغر، وأرض الترك).

وكل هذا ظاهر. وكلامهم في هذا كثير.

والغرض الأصلي هنا: بيان مراد الله ورسوله، وأن الأوصاف التي ذكرت عنهم في الكتاب والسنة الصحيحة المحفوظة، تنطبق عليهم غاية الانطباق، وأن الواقع يصدق ذلك، ويشهد له، وأن كلام أهل السير والمحققين من الأخباريين، يؤيد ذلك ويشهد له، فعلى من تيقن

ذلك، وعرف دخوله في النصوص أن يعتقده، ويدين الله به. وعلى من أشكل عليه الأمر أن يتوقف عن الجزم بأحد الأمرين نفيًا وإثباتًا، وإذا كان لا بد له من الجزم بأحد الأمرين فليصبر وليتأن، حتى يتدبر الأدلة الشرعية والعقلية، ويعرف الواقع، فإذا جزم بأحد الأمرين مستندًا إلى الدليل فقد أدى ما عليه من اتباع الدليل الصحيح، فإذا جزم بأحد الأمرين مقلدًا لغيره من غير معرفةٍ صحيحة بالمآخذ، فهو من القول بلا علم.

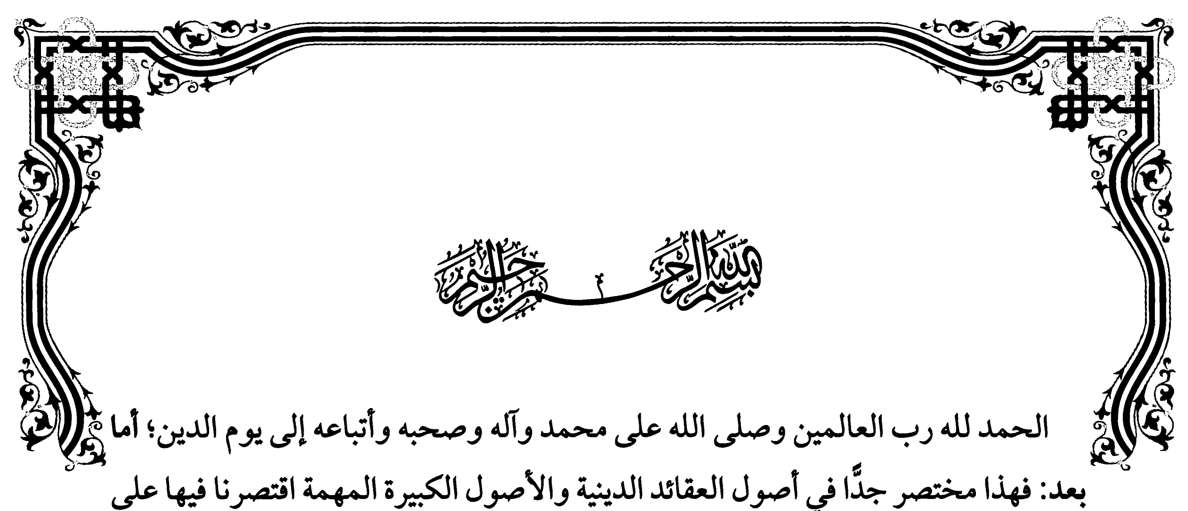
وليس هذا الأصل خاصًا بهذه المسألة، بل جميع المسائل الأصولية تجري على هذا الأصل الذي نرجو الله تعالى أن يتحقق به كل طالب للعلم النافع. ونسأل الله أن يهدينا وإخواننا المسلمين صراطه المستقيم، هدايةً علمية حتى نعرف ما أنزل إلينا من الكتاب والحكمة إجمالًا وتفصيلًا، وهدايةً عملية حتى نسلك الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته؛ بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، إنه جواد كريم. وصلى الله على محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله من جميع الوجوه، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي، غفر الله له ولوالديه ووالديهم، وجميع المسلمين. والحمد لله أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا. سنة ١٣٥٩هـ.



مختصر في
أصول العقائد الدينية

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله



الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين؛ أما بعد: فهذا مختصر جدًّا في أصول العقائد الدينية والأصول الكبيرة المهمة اقتصرنا فيها على مجرد الإشارة والتنبيه من غير بسط للكلام ولا ذكر أدلته، وأقرب ما يكون لها أنها من نوع الفهرست للمسائل لتعرف أصولها ومقامها ومحلها من الدين ثم من له رغبة في العلم يطلب بسطها وبراهينها من أماكنها، وإن يسر الله وفسح في الأجل بسطت هذه المطالب ووضحتها بأدلتها.

الأصل الأول: التوحيد

حد التوحيد الجامع لأنواعه هو: اعتقاد العبد وإيمانه بتفرد الله بصفات الكمال وإفراده بأنواع العبادة.

فدخل في هذا توحيد الربوبية الذي هو اعتقاد انفراد الرب سبحانه بالخلق والرزق وأنواع التدبير. وتوحيد الأسماء والصفات وهو إثبات ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله من الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا من غير تشبيه ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل.

وتوحيد الألوهية والعبادة وهو إفراده وحده بأجناس العبادة وأنواعها وإفرادها من غير إشراك به في شيء منها مع اعتقاد كمال ألوهيته.

فدخل في توحيد الربوبية إثبات القضاء والقدر، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه على كل شيء قدير وأنه الغني الحميد وما سواه فقير إليه من كل وجه.

ودخل في توحيد الأسماء والصفات إثبات جميع معاني الأسماء الحسنى لله تعالى الواردة في الكتاب والسُّنة، والإيمان بها ثلاث درجات: إيمان بالأسماء، وإيمان بالصفات، وإيمان بأحكام صفاته؛ كالعلم بأنه عليم ذو علم ويعلم كل شيء، قدير ذو قدرة ويقدر على كل شيء إلى آخر ما له من الأسماء المقدسة.

ودخل في ذلك إثبات علوه على خلقه واستوائه على عرشه، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا على الوجه اللائق بجلاله وعظمته.

ودخل في ذلك إثبات الصفات الذاتية التي لا ينفك عنها كالسمع والبصر والعلم والعلو ونحوها، والصفات الفعلية وهي الصفات المتعلقة بمشيئته وقدرته كالكلام والخلق والرزق والرحمة والاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا كما يشاء، وأن جميعها تثبت لله من غير تمثيل ولا تعطيل وأنها كلها قائمة بذاته وهو موصوف بها.

وأنه تعالى لم يزل ولا يزال يقول ويفعل وأنه فعال لما يريد ويتكلم بما شاء إذا شاء كيف شاء، لم يزل بالكلام موصوفًا وبالرحمة والإحسان معروفًا.

ودخل في ذلك الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود وأنه المتكلم به حقًّا وأن كلامه لا ينفد ولا يبيد.

ودخل في ذلك الإيمان بأنه قريب مجيب وأنه مع ذلك عليٌّ أعلى وأنه لا منافاة بين كمال علوه وكمال قربه؛ لأنه ليس كمثله شيء في جميع نعوته وصفاته.

ولا يتم توحيد الأسماء والصفات حتى يؤمن بكل ما جاء به الكتاب والسنة من الأسماء والصفات والأفعال وأحكامها على وجه يليق بعظمة الباري، ويعلم أنه كما لا يماثله أحد في ذاته فلا يماثله أحد في صفاته.

ومن ظن أن في بعض العقليات ما يوجب تأويل بعض الصفات على غير معناها المعروف فقد ضل ضلالًا مبينًا.

ولا يتم توحيد الربوبية حتى يعتقد العبد أن أفعال العباد مخلوقة لله، وأن مشيئتهم تابعة لمشيئة الله.

وأن لهم أفعالًا وإرادة تقع بها أفعالهم وهي متعلق الأمر والنهي، وأنه لا يتنافى الأمران: إثبات مشيئة الله العامة الشاملة للذوات والأفعال والصفات، وإثبات قدرة العبد على أفعاله وأقواله.

ولا يتم توحيد العبد حتى يخلص العبد لله تعالى في إرادته وأقواله وأفعاله، وحتى يدع الشرك الأكبر المنافي للتوحيد كل المنافاة، وهو أن يصرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله تعالى.

وكمال ذلك أن يدع الشرك الأصغر وهو كل وسيلة قريبة يتوصل بها إلى الشرك الأكبر كالحلف بغير الله ويسير الرياء ونحو ذلك.

والناس في التوحيد على درجات متفاوتة بحسب ما قاموا به من معرفة الله والقيام بعبوديته.

فأكملهم في هذا الباب من عرف من تفاصيل أسماء الله وصفاته وأفعاله وآلائه ومعانيها الثابتة في الكتاب والسنة وفهمها فهمًا صحيحًا، فامتلأ قلبه من معرفة الله وتعظيمه وإجلاله ومحبته والإنابة إليه وانجذاب جميع دواعي قلبه إلى الله تعالى متوجهًا إليه وحده لا شريك له.

ووقعت جميع حركاته وسكناته في كمال الإيمان والإخلاص التام الذي لا يشوبه شيء من الأغراض الفاسدة، فاطمأن إلى الله معرفة وإنابة وفعلًا وتركًا وتكميلًا لنفسه وتكميلًا لغيره بالدعوة إلى هذا الأصل العظيم، فنسأل الله من فضله وكرمه أن يتفضل علينا بذلك.

الأصل الثاني: الإيمان بنبوة جميع الأنبياء عمومًا ونبوة محمد ﷺ خصوصًا

وهذا الأصل مبناه على أن يعتقد ويؤمن بأن جميع الأنبياء قد اختصهم الله بوحيه وإرساله وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه في تبليغ شرعه ودينه.

وأن الله أيدهم بالبراهين الدالة على صدقهم وصحة ما جاءوا به وأنهم أكمل الخلق علمًا وعملًا وأصدقهم وأبرهم وأكملهم أخلاقًا وأعمالًا.

وأن الله خصهم بخصائص وفضائل لا يلحقهم فيها أحد، وأن الله برأهم من كل خلق رذيل.

وأنهم معصومون فيما يبلغون عن الله تعالى وأنه لا يستقر في خبرهم وتبليغهم إلا الحق والصواب.

وأنه يجب الإيمان بهم وبكل ما أوتوه من الله ومحبتهم وتعظيمهم، وأن هذه الأمور ثابتة لنبينا محمد ﷺ على أكمل الوجوه.

وأنه يجب معرفة جميع ما جاء به من الشرع جملة وتفصيلًا، والإيمان بذلك والتزام طاعته في كل شيء بتصديق خبره وامتثال أمره واجتناب نهيه.

ومن ذلك أنه خاتم النبيين قد نسخت شريعته جميع الشرائع وأن نبوته وشريعته باقية إلى قيام الساعة، فلا نبي بعده ولا شريعة غير شريعته في أصول الدين وفروعه.

ويدخل في الإيمان بالرسل الإيمان بالكتب، فالإيمان بمحمد ﷺ يقتضي الإيمان بكل ما جاء به من الكتاب والسنة ألفاظها ومعانيها فلا يتم الإيمان به إلا بذلك.

وكل من كان أعظم علمًا بذلك وتصديقًا واعترافًا وعملًا كان أكمل إيمانًا.

والإيمان بالملائكة والقدر داخل في هذا الأصل العظيم.

ومن تمام الإيمان به أن يعلم أن ما جاء به حق لا يمكن أن يقوم دليل عقلي أو حسي على خلافه، كما لا يقوم دليل نقلي على خلافه، فالأمور العقلية أو الحسية النافعة تجد دلالة الكتاب والسُّنة مثبتة لها، حاثة على تعلمها وعملها، وغير النافع من المذكورات ليس فيها ما ينفي وجودها وإن كان الدليل الشرعي ينهى ويذم الأمور الضارة منها.

ويدخل في الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ بل وسائر الرسل.

الأصل الثالث: الإيمان باليوم الآخر

فكل ما جاء به الكتاب والسنة مما يكون بعد الموت فإنه من الإيمان باليوم الآخر؛ كأحوال البرزخ، وأحوال يوم القيامة وما فيها من الحساب والثواب والعقاب والشفاعة والميزان والصحف المأخوذة باليمين والشمال والصراط، وأحوال الجنة والنار وأحوال أهلها، وأنواع ما أعد الله فيها لأهلها إجمالًا وتفصيلًا، فكل ذلك داخل في الإيمان باليوم الآخر.

الأصل الرابع: مسألة الإيمان

فأهل السنة يعتقدون ما جاء به الكتاب والسنة من أن الإيمان هو تصديق القلب المتضمن لأعمال الجوارح، فيقولون: الإيمان اعتقادات القلوب وأعمالها وأعمال الجوارح وأقوال اللسان وأنها كلها من الإيمان.

وأن من أكملها ظاهرًا وباطنًا فقد أكمل الإيمان، ومن انتقص شيئًا منها فقد انتقص من إيمانه.

وهذه الأمور بضع وسبعون شعبة: «**أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[1].

ويرتبون على هذا الأصل أن الناس في الإيمان درجات: مقربون، وأصحاب يمين، وظالمون لأنفسهم بحسب مقاماتهم من الدين والإيمان.

وأنه يزيد وينقص، فمن فعل محرمًا أو ترك واجبًا نقص إيمانه الواجب ما لم يتب إلى الله.

ويرتبون على هذا الأصل أن الناس ثلاثة أقسام؛ منهم من قام بحقوق الإيمان كلها فهو المؤمن حقًّا ومنهم من تركها كلها فهذا كافر بالله تعالى ومنهم من فيه إيمان وكفر أو إيمان ونفاق أو خير وشر ففيه من ولاية الله واستحقاقه لكرامته بحسب ما معه من الإيمان، وفيه من عداوة الله واستحقاقه لعقوبته بحسب ما ضيعه من الإيمان.

ويرتبون على هذا الأصل العظيم أن كبائر الذنوب وصغائرها التي لا تصل بصاحبها إلى الكفر تنقص إيمان العبد من غير أن تخرجه من دائرة الإسلام ولا يخلد في نار جهنم.

ولا يطلقون عليه الكفر كما تقول الخوارج أو ينفون عنه الإيمان كما تقوله المعتزلة، بل يقولون: هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته فمعه مطلق الإيمان وأما الإيمان المطلق فينفى عنه.

وبهذه الأصول يحصل الإيمان بجميع نصوص الكتاب والسنة.

ويترتب على هذا الأصل أن الإسلام يجبُّ ما قبله وأن التوبة تجبُّ ما قبلها وأن من ارتد ومات على ذلك فقد حبط عمله، ومن تاب تاب الله عليه.

ويرتبون أيضًا على هذا الأصل صحة الاستثناء في الإيمان فيصح أن يقول: أنا مؤمنٌ إن

---

(١) مسلم (٣٥).

شاء الله؛ لأنه يرجو من الله تعالى تكميل إيمانه فيستثني لذلك ويرجو الثبات على ذلك إلى الممات فيستثني من غير شك منه بحصول أصل الإيمان.

ويرتبون أيضًا على هذا الأصل أن الحب والبغض أصله ومقداره تابع للإيمان وجودًا وعدمًا وتكميلًا ونقصًا ثم يتبع ذلك الولاية والعداوة، ولهذا من الإيمان الحب في الله والبغض لله والولاية لله والعداوة لله.

ويترتب على الإيمان ولا يتم إلا بأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويترتب على ذلك أيضًا محبة اجتماع المؤمنين والحث على التآلف والتحابب وعدم التقاطع.

ويبرأ أهل السنة والجماعة من التعصبات والتفرق والتباغض ويرون أن هذه القاعدة من أهم قواعد الإيمان ولا يرون الاختلاف في المسائل التي لا تصل إلى كفر أو بدعة موجبة للتفرق.

ويترتب على الإيمان محبة أصحاب النبي ﷺ بحسب مراتبهم وعملهم وأن لهم من الفضل والسوابق والمناقب ما فضلوا فيه سائر الأمة.

ويدينون بمحبتهم ونشر فضائلهم ويمسكون عما شجر بينهم وأنهم أولى الأمة بكل خصلة حميدة وأسبقهم إلى كل خير وأبعدهم من كل شر.

ويعتقدون أن الأمة لا تستغني عن إمام يقيم لها دينها ودنياها ويدفع عنها عادية المعتدين.

ولا تتم إمامته إلا بطاعته في غير معصية الله تعالى.

ويرون أنه لا يتم الإيمان إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد وإلا باللسان وإلا فبالقلب على حسب مراتبه الشرعية وطرقه المرعية.

وبالجملة فيرون القيام بكل الأصول الشرعية على الوجه الشرعي من تمام الإيمان والدين، ومن تمام هذا الأصل طريقهم في العلم والعمل.

الأصل الخامس: طريقهم في العلم والعمل

وذلك أن أهل السنة والجماعة يعتقدون ويلتزمون أن لا طريق إلى الله وإلى كرامته إلا بالعلم النافع والعمل الصالح، فالعلم النافع هو ما جاء به الرسول ﷺ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فيجتهدون في معرفة معانيها والتفقه فيها أصولًا وفروعًا.

ويسلكون جميع طرق الدلالات فيها: دلالة المطابقة ودلالة التضمن ودلالة الالتزام ويبذلون قواهم في إدراك ذلك بحسب ما أعطاهم الله.

ويعتقدون أن هذه هي العلوم النافعة هي وما تفرع عليها من أقيسة صحيحة ومناسبات حكيمة، وكل علم أعان على ذلك أو وازره أو ترتب عليه فإنه علم شرعي، كما أن ما ضاده وناقضه فهو علم باطل، فهذا طريقهم في العلم.

وأما طريقهم في العمل فإنهم يتقربون إلى الله تعالى بالتصديق والاعتراف التام بعقائد الإيمان التي هي أصل العبادات وأساسها.

ثم يتقربون له بأداء فرائض الله المتعلقة بحقه وحقوق عباده مع الإكثار من النوافل وبترك المحرمات والمنهيات تعبدًا لله تعالى.

ويعلمون أن الله تعالى لا يقبل إلا كل عمل خالص لوجهه الكريم مسلوكًا فيه طريق النبي الكريم ويستعينون بالله تعالى في سلوك هذه الطرق النافعة التي هي العلم النافع والعمل الصالح الموصل إلى كل خير وفلاح وسعادة عاجلة وآجلة والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.



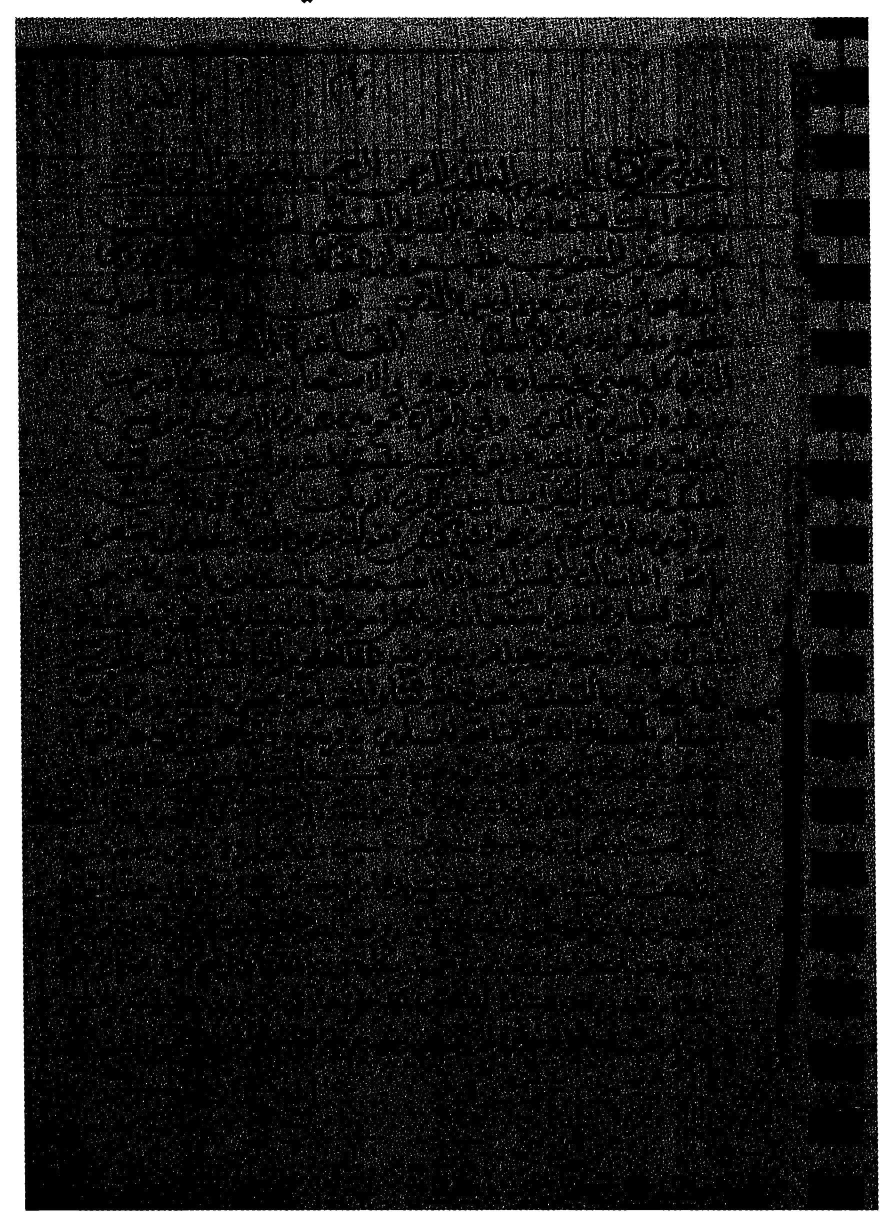
مجموع مؤلفات ابن سعدي (٢٢)

أصول عظيمة
من قواعد الإسلام

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

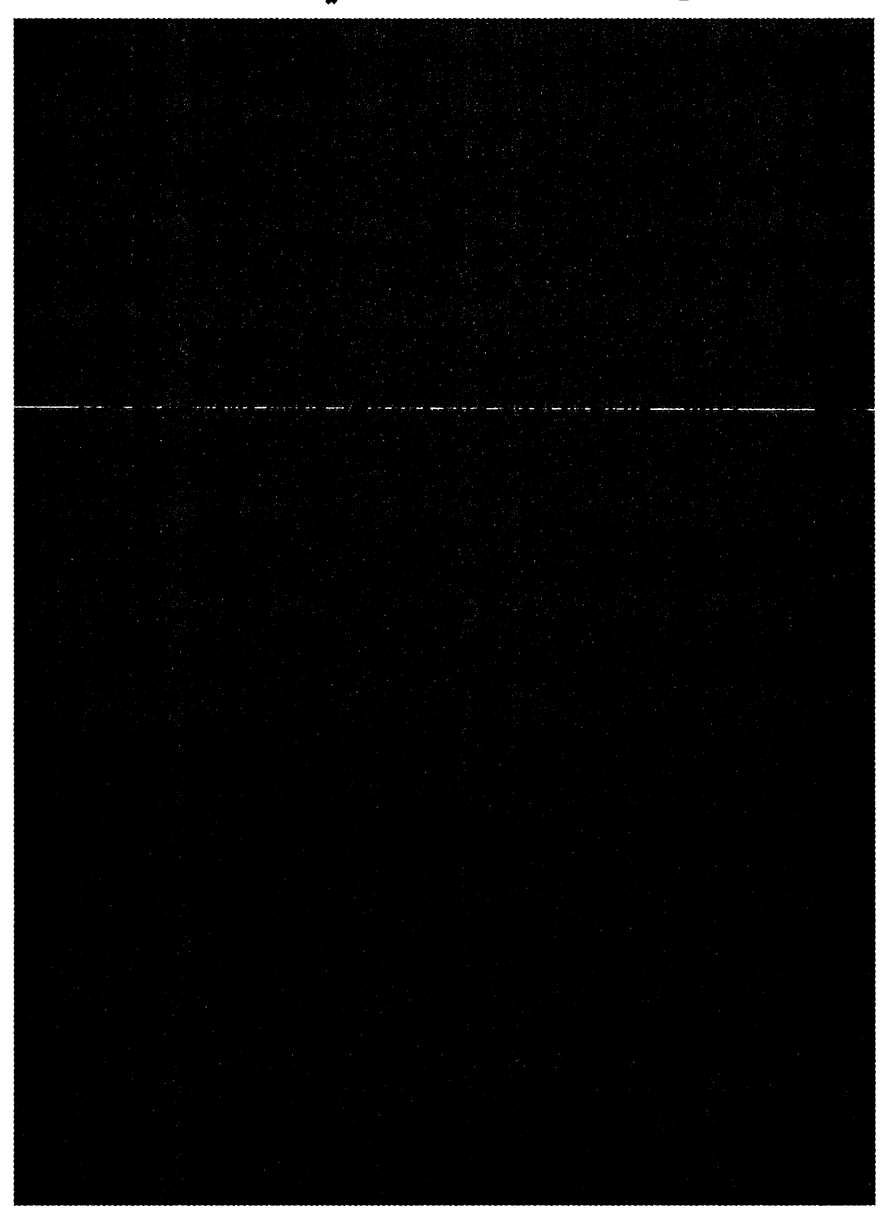
شرح الشيخ
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

نماذج المخطوط المعتمد في التحقيق

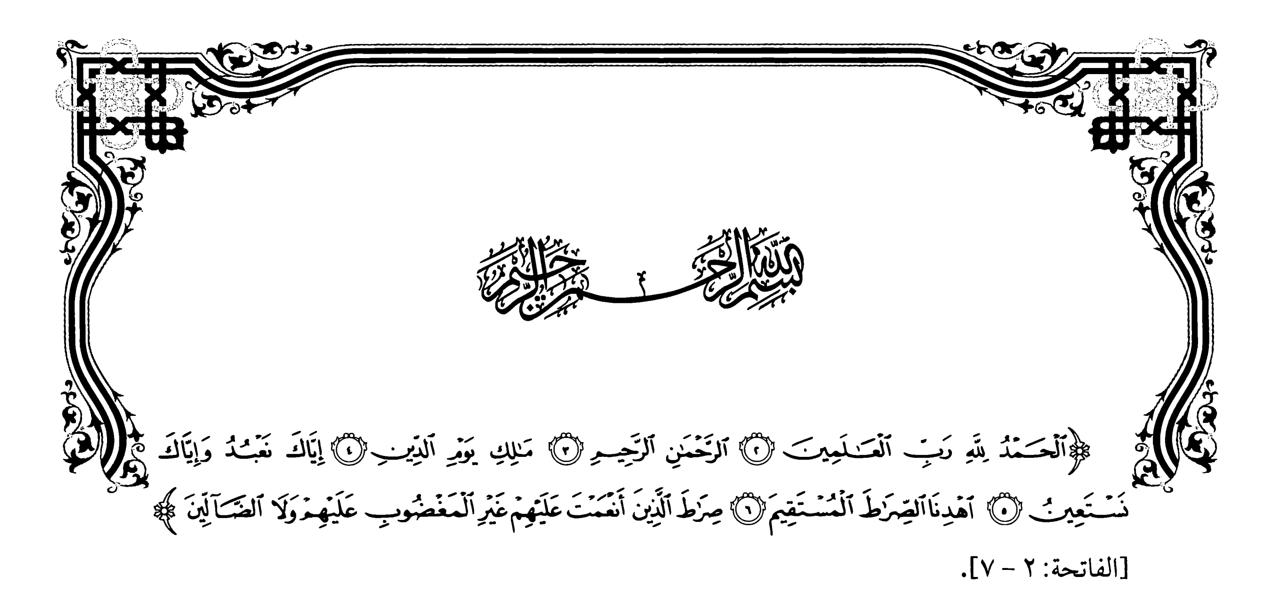


صورة اللوحة الأولى من المخطوط

نماذج المخطوط المعتمد في التحقيق



صورة اللوحة الأولى من المخطوط



﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٧].

اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

هذه قواعد وأصول عظيمة من قواعد دين الإسلام:

القاعدة الأولى: الدين كله مبني على عبادة الله وحده والاستعانة به وحده.

كما صرحت به هذه السورة الكريمة، وفي القرآن الجمع بين هذين الأمرين في مواضع متعددة؛ كقوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣]. ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾ [الممتحنة: ٤]. وغير ذلك من الآيات.

وفي الأحاديث عن النبي ﷺ من هذا شيء كثير؛ كقوله: **«احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»**[1]. **«إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»**[2].

وبتتميم العبد لعبادة الله واستعانته به تكمل أموره الدينية والدنيوية، فعبادة الله أن يقوم العبد بتوحيد الله، وعبوديته الظاهرة والباطنة؛ المالية والبدنية والمركبة منهما المتعلقة بحقوق الله تعالى، والمتعلقة بحقوق خلقه، ومن ذلك: القيام بالمصالح الكلية النافعة للمسلمين

---

(١) مسلم (٢٦٦٤).

(٢) أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦).

في دينهم ودنياهم، ويكون هذا القيام مصحوبًا بثلاثة أمور: قوة الجد، والاجتهاد بحسب ما يستطيعه العبد، وقوة الاعتماد على الله في تيسير ذلك، الأمر الذي يحاوله العبد مع الثقة التامة بالله في تيسيره وكمال الإخلاص لله؛ بحيث لا يكون الحامل له على ذلك غرض خسيس، ولا قصد مراءاة الناس وسمعتهم، ولا عصبية وطنية أو قومية أو جنسية، بل الحامل له على ذلك إرادة رضا الله، وحصول ثوابه، ومن ثوابه ما يترتب عليه من المصالح النافعة.

وبهذا المعنى الكلي العظيم يتضح لنا أن القيام بجميع الأسباب النافعة، والقيام بما يتممها ويكملها هي من أعظم ما يدخل في هذه القاعدة، فإن القيام بها عبادة لله ووسيلة إلى عبادة الله، فكما يدخل في عبادة الله ما أعان عليها من السعي والمشي والركوب إلى العبادات، فيدخل فيها اكتساب الأموال من حلها للقيام بالزكوات وواجب النفقات، ولقيام الأعمال النافعة التي لا تقوم إلا بالأموال، ويدخل فيها أيضًا تعلم الفنون والصناعات العصرية والاختراعات التي فيها استعداد المسلمين لمقاومة أعدائهم وللسلامة من شرورهم، وذلك بحسب المستطاع؛ قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فكل ما يستطيعه المسلمون من إعداد القوة العقلية والصناعية والسياسية والفنون العسكرية، وما أشبه ذلك فإنه يدخل في عبادة الله وفيما يعين عليها؛ فإن الجهاد الذي هو بذل الجهد في مقاومة الأعداء من أجل العبادات، فما يعين عليه فإنه منه.

فبهذا يعلم أن المسلمين بالمعنى الحقيقي أكمل الخلق في فعل الأسباب النافعة؛ لأنهم يبدون فيها مقدورهم، مستعينين بالله في حصولها وفي تكميلها وفيما لا يقدرون عليه منها، وفي إنجاح أعمالهم وحصول مقاصدهم، فليس بعد هذا الكمال الذي حث عليه الدين الإسلامي كمال ولا فوقه مرتقى، حيث يموّه الدعاة إلى الإلحاد أن الدين الإسلامي يثبط العاملين ويضعف نفوسهم، وهذا من المكابرة والتجري والكذب الصراح بمكان لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل، فإذا تبين أن الدين الإسلامي الصحيح يحث على القيام بالأسباب النافعة، ويبعث الهمم والعزائم بالاستعانة بالله عليها والثقة به في تكميلها

ونجاحها، فكم في الكتاب والسنة من الأمر بفعل الخيرات وترك المنكرات والأخذ بجميع الأسباب النافعات، فاعلم أن ههنا طريقين ذميمين منحرفين في الأسباب يبرأ الدين منهما كل البراءة:

أحدهما: مذهب الجبرية القائلين بأن العبد مجبور على أفعاله، وأن حركاته الاختيارية حركات اضطرارية بمنزلة حركات الأشجار، وأن الأسباب لا تأثير لها في مسبباتها، وأن الله يخلق عندها لا بها، ويوجد الأشياء باقترانها عادة لا أنها طريق ووسيلة إلى مقاصدها، وهذا المذهب باطل شرعًا وعقلًا:

أما شرعًا فإن الكتاب والسنة مملوءان من ذكر إضافة الأعمال للعاملين خيرها وشرها، وأنهم هم الذين يفعلونها طوعًا واختيارًا لا قسرًا واضطرارًا، ومملوءان من ذكر أن الأسباب بها حصول مقاصدها، وهي الطريق الوحيد لسعادة الدنيا والآخرة، وأن الكسل عنها موجب للحرمان، والضعف فيها داع إلى الخسران، كما تقدم أن الشرع يحث عليها غاية الحث مع الاستعانة بالله عليها.

وأما بطلان هذا القول عقلًا فلأنه من المعلوم بالضرورة أن أفعال العباد، بل والحيوانات تقع باختيارهم وإرادتهم؛ إن شاءوا أرادوا وفعلوا، وإن أرادوا تركوا، وأنه لولا أن العباد تقع أفعالهم طوع اختيارهم لما كان للأوامر الشرعية والعرفية فائدة، فكيف يؤمر ويوجه الخطاب إلى من لا قدرة له على أفعاله، وكيف يوجد النهي واللوم على من لا يقدر على ترك النواهي، فهذا معلوم فساده بالضرورة من الشرع وببداهة العقل.

وأعظم منه بطلانًا وأشد فسادًا مذهب الطبائعيين في الأسباب [الذين][1] يرون الأسباب جارية على مقتضى الطبيعة ونظام الكون، وأنها لا تعلق لها بقضاء الله وقدره، وأن الله لا يقدر على تغييرها ولا منعها ولا إعانتها، وأهل هذا المذهب معروفون بالخروج عن ديانات

(١) في المخطوط: «الذي»، ولعل المثبت أنسب للسياق.

الرسل كلهم؛ لأن هذا القول الخبيث مبني [على][1] نفي الإيمان بالله ونفي ربوبيته، والرب في الحقيقة عند هؤلاء هي الطبيعة، فهي التي تتفاعل وتتطور وتحدث الأشياء كلها، فهؤلاء الملحدون لا يثبتون لله أفعالًا ولا يثبتون أنه يثيب الطائعين بالنعم والكرامات في الدنيا والآخرة، ولا يعاقب العاصين بالنقم في الدنيا والآخرة، وينفون معجزات الأنبياء الخارقة للعادة كلها وكرامات الأولياء، ويقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهذا المذهب الذي هو أبطل المذاهب، الذي تنزه عنه اليهود والنصارى وكثير من المشركين، فضلًا عن الدين الإسلامي- قد اغتر به بعض الكتاب العصريين وأرادوا من سفاهتهم وجراءتهم العظيمة أن ينسبوه إلى دين الإسلام، ودين الإسلام وسائر الأديان بريئة من هذا القول الخبيث، فهو في شق وأديان الرسل في شق آخر؛ الرسل والشرائع تثبت ربوبية الله وأفعاله وقضاءه وقدره، وانقياد العالم العلوي والسفلي لإرادة الله وقدرته، وهؤلاء ينكرون ذلك، والرسل والشرائع تثبت أن الأسباب والمسببات محل حكمة الله، وأن الله قد جعلها على نظام حكيم دال على كمال حكمة الله وانتظام أمر الدنيا والآخرة، وأنه لا يمكن أحد أن يغير سنن الله ولا يحولها، ومع هذا فإنها تابعة لمشيئة الله وإرادته لا يستقل سبب منها إلا بإعانته، وقد يمنع بعض الأسباب ويغير بعض الأسباب ليري عباده أنه هو المتصرف المطلق، فقد أوقع الله الأخذات الخارقة بالمكذبين بالرسل، وأكرم أنبياءه وأولياءه بالنجاة في الدنيا والآخرة؛ فأهلك قوم نوح بالطوفان ونجى نوحًا ومن معه من المؤمنين، وجعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وأعطى موسى من الآيات؛ كالحية والعصا وفلق البحر ما فيه أكبر عبرة بأنه المتصرف المطلق، وجعل عيسى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنه.

وأعطى محمدًا ﷺ من الكرامات والخوارق الكونية ما لم يعط أحدًا من الرسل؛ فانشق له القمر وسلم عليه الشجر والحجر، ونبع الماء من بين أصابعه، واستقى الخلق الكثير من الماء القليل وأشبع الخلق العظيم من الطعام اليسير، وأبرأ الله بدعواته أمراضًا كثيرة، وأنزل الله

---

(١) ليس في المخطوط وأثبتناها لاستقامة السياق.

الغيث بدعوته في قضايا كثيرة، وعصمه الله من الناس ونصره في مواطن كثيرة نصرًا خارقًا للعادة ونصر الله أمته في مواطن كثيرة، وأكرم الله الرسل والأولياء في أمور خارقة للعادة. وهذه الأمور كلها مما ينكرها أهل هذا المذهب الخبيث؛ فعلم أنه منافٍ للإيمان بالرسل من كل وجه، وأن من زعم أنه يبقى مع صاحبه من الإيمان شيء فهو مغرور مكابر.

وأما بطلانه عقلًا وفطرة فإن العقلاء كلهم مطبقون على انقياد العالم العلوي والسفلي إلى إرادة الله وقدرته، ولم ينكر ذلك أحد إلا من جحد الله ولم يثبت وجوده، وهؤلاء قد علم أن عقولهم قد مرجت وأنكروا الأمور المحسوسة التي لا يزال الله يريها عباده في جميع الأوقات.

ومن فروع هذا المذهب الإنكار بأن الله ينقذ المضطرين ويجيب دعوات الداعين ويغيث اللهفات ويكشف الكربات، وإنما هي عندهم الأسباب تتفاعل وتتغالب؛ فجحدوا ما علم بالضرورة من شرائع الأنبياء وما أقرت به الخليقة واعترفوا به وفطروا عليه؛ وبذلك حكموا لأنفسهم بمفارقة العقل والدين.

ومن فروع ذلك: إنكار قصة آدم وإهباطه إلى الأرض، وخلق الله إياه وإيحائه إليه، وجميع ما تحتوي قصته مع زوجه، ومع إبليس، وإنكار أنه أول الإنسان، وزعموا أن الإنسان في أول أمره مكث مدة طويلة لا يتكلم ولا يعبر عما في ضميره، ثم انتقل من ذلك الطور البهيمي إلى طور الإشارات دون التكلم باللغات، ثم مكث ما شاءت الطبيعة - لا ما شاء الله - فتطور وصار يتكلم؛ فجحدوا ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب واتبعوا ما تخرصه المعطلون الملحدون الذين بنوا نظرياتهم على تخرصات لا تنبني على العلوم المعقولة ولا العلوم المحسوسة.

ومن فروع هذا المذهب الخبيث أن هذا العالم لم يزل ولا يزال، وأن الله لا يغيره ولا ينقل العباد من هذه الدار إلى دار الجزاء فأنكروا مقصود ما جاءت به الكتب السماوية والرسل الكرام، وما دلت عليه الأدلة العقلية الصريحة التي لا تقبل ريبًا ولا إشكالًا، فإن الطبيعة خلق

من خلق الله، فهو الذي خلقها وطبعها ودبرها وسخرها، فتبًّا لمن جعلها ربه وإلهه وهو يشاهد من آيات الله في الآفاق وفي الأنفس أكبر الأدلة والبراهين على ربوبيته رب العالمين، وأن جميع الموجودات منقادة لإرادته مصرفة بقدرته.

فبهذا التفصيل يتضح أن هذا القول الأخير ليس مذهبًا لأحد من المعترفين بالأديان، وإنما هو مأخوذ عن زنادقة الفلاسفة القائلين بقدم العالم، وأن الله لا يقدر على شيء ولا يعلم شيئًا من الجزئيات، ومذهب هؤلاء معروف أنهم لا يصدقون برسالة أحد من الرسل ولا يقرون بشيء من الكتب.

وأما المذهب الذي حكيناه عن الجبرية فمع بطلانه فأهله أحسن بكثير من أولئك؛ فإنهم ينتسبون إلى الدين ويعظمون الرسول ولكن غلوا في القضاء والقدر فسلبوا العبد قدرته؛ ضلالًا منهم وجهلًا مع إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، لكنهم سلطوا أعداء الرسل على المسلمين؛ حيث نسبوا مذهبهم للدين، والدين بريء منه، فحمل عليهم الفلاسفة وسفهوا رأيهم في هذا، وظنوا أنهم بذلك انتصروا على الدين، ولكن الدين الحقيقي يخطئ هؤلاء ويضللهم، ويحث العباد على القيام بالأسباب النافعة في الدين والدنيا، ويحضهم على الاجتهاد فيها وعلى الاستعانة بالله وبحوله وقوته، وكذلك الدين الحقيقي والعقل الصحيح يخبر أن ضلال هؤلاء الفلاسفة المعطلين في الأسباب أفظع من ضلال الجبرية؛ حيث جعلوا الأسباب مستقلة منقطعة عن قضاء الله وقدره وأنكروا الأصول السابقة العظيمة لهذا الأصل القبيح.

القاعدة الثانية: الدين الحق هو ما جاء به الرسول ﷺ من كتاب الله وسنة رسوله.

وهذا الأصل الكبير الذي صرح به الكتاب والسنة في مواضع كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ٣]. ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر: ٥٥]. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الأعراف: ٣]. ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]. ﴿ٱتَّبِعْ

مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٠٦]. ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤]. ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[آل عمران: ١٦٤]. ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٩٥]. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢]. ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

والرسول في مواضع كثيرة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] الآية. ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]. ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه: ٤٨]. ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١٥، ١٦]. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦]. ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]. ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ [لقمان: ١٥]. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل: ٨٨]. ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧]. ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤]. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣] الآية.

فهذه الآيات الكريمات وأضعافها وأضعاف أضعافها دلت دلالات صريحة أنه يتعين على الخلق اتباع ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة، وأن الهدى والفلاح والسعادة والنجاة في الدنيا والآخرة في اتباع ذلك، وأن في ضد ذلك الضلال والهلاك والشقاء في الدنيا والآخرة، وأن الصراط المستقيم الذي من سلكه في عقائده وأقواله

وأفعاله وشئونه الدينية والدنيوية هو سبيل الله الذي شرعه على لسان رسوله محمد ﷺ من الإخبارات والأوامر والنواهي، وأن وظيفة المكلفين أن يصدقوا كل ما أخبر الله به ورسوله ويطيعوا الله ورسوله في امتثال الأمر واجتناب النهي، وأن السعادة والنجاة في هذا التصديق وهذه الطاعة، والشقاء والعذاب في تكذيب الأخبار والتولي عن الأمر والنهي، وأن من آمن وعمل صالحًا وسلك طريق الرسول فهو من أولياء الله وحزبه، ومن لم يؤمن بالله ورسوله ويعمل صالحًا فهو من أعدائه وحربه، وأنه يتعين سلوك طريق المنيبين إلى الله في ظاهرهم وباطنهم، لا طريق الغافلين ولا المعرضين والمعارضين الصادين عن سبيل الله.

فهذه النصوص ونحوها صريحة أنه يجب أن يكون الأصل الذي إليه مرجع المكلفين كتاب ربهم وسنة نبيهم، وأن جميع المقالات والأحوال والأعمال والعلوم توزن بهذا الأصل، فما وافقه فهو الحق والصدق والصواب، وما خالفه وناقضه فهو الضلال والشقاء، وأن من جعل كلام أعداء الرسل هو الأصل، وغيره ما وافقه قبله وما خالفه رفضه فهو محاد لرسل الله منابذ لدين الله، وأن في مقدمة هؤلاء الملحدين من دعوا إلى رفض كل قديم وجعلوه سلّمًا لهم وطريقًا لرفض الدين وعلومه وأعماله، وأن هذه دعاية إلحادية، القصد منها الدعاية إلى نبذ الدين واعتناق طريق الملحدين، وأن أهل العقول الصحيحة والألباب السليمة هم الذين يدعون إلى رفض الشرور والفساد وأنواع الظلم وإلى الحث على الخير والصلاح والإصلاح.

فهذا هو الأصل الذي يوافق عليه جميع العقلاء أهل الأديان وغيرهم، وحيث كان هذا هو الميزان الذي لا يمكن كل أحد إلا الاعتراف به حتى المنصفين من الأجانب، فعلينا وعلى الخلق كلهم أن يعرضوا القديم والحديث على هذا الأصل الجليل، وحيث عرض على هذا الأصل القديم والحديث وجد ما دل عليه الكتاب والسنة هو الخير وهو

الهدى والسعادة؛ لأنه يدعو إلى الخير قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[1] [آل عمران: ١٠٤]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]. ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]. ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]. فما ثم صلاح وخير ونفع ديني ودنيوي إلا والكتاب والسنة قد حث عليه ورغب فيه، وبين الطريق الموصلة إليه حتى الفنون والاختراعات والصناعات الحادثة التي فيها نفع للعباد، وتقيهم من الشرور والفساد، وما من شر وضرر وفساد إلا وقد نهى الدين الإسلامي عنه سواء كان ذلك متقدمًا أو متأخرًا.

وأما تعنت الملحدين الماديين بوجوب رفض القديم مطلقًا واعتناق الجديد مطلقًا، فهذا أصل لا يمكن أن يوافق عليه أحد من العقلاء؛ لأن القديم منه طيب وخبيث، والجديد منه طيب وخبيث، فالطيب يجب قبوله مطلقًا والخبيث يجب رفضه مطلقًا، والطيب الذي في الحديث إنما استفيد مما دل عليه القديم من علوم وأخلاق وأعمال. فأصل الخير ومنبعه ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، ويقال لأهل هذه الدعاية الخبيثة: هذه دعاية لا يمكن أن يوافق عليها أحد حتى أنتم لا توافقون عليها، فإنكم تقبلون ما نقلتم عن أئمتكم وتحثون على ذلك سواء كانوا من القدماء أو من الآخرين، فأصل لا يوافق عليه أحد من الخلق يجب أن نرفضه وأن نرجع إلى الأصول الدينية والأصول العقلية:

أما الأصول الدينية فقد أريناكم بعض ما دل عليه أشرف الكتب، وهو القرآن بوجوب اتباع كتاب الله وما دل عليه ما جاء عن رسول الله وأنه الخير والحق والهدى، وما سواه شر وضلال وشقا.

وأما الأصول العقلية فهلم فلنتحاكم إلى هذه الأصول التي لا يمكن عاقلًا أن يقدح

(١) بعده في المخطوط : «وأن الله يحب المصلحين».

بها، ومن قدح فيها فهو مكابر [نتحاكم إلى][1] الطيب والخبيث فكل طيب من العقائد والأخلاق والأعمال [والمقاصد والوسائل] فعلينا أن نقبله، وكل خبيث من ذلك فعلينا أن نرفضه و[هلم فلنتحاكم] إلى الخير والصلاح والإصلاح، لا إلى الشر والفساد، فكل خير وصلاح وإصلاح فعلينا أن نقبله، وكل شر وفساد فعلينا أن نتركه، هلم فلنتحاكم إلى ما [يرقي الخَلْق] ويعليهم في دينهم ودنياهم، وإلى ما ينزلهم ويحلل أخلاقهم وآدابهم في [دينهم] ودنياهم فنقبل الأول ونرفض الثاني، هلم فلنتحاكم إلى ما فيه [نفع ديني] ودنيوي، نفع حقيقي فنقبله، وما فيه ضرر ديني ودنيوي [فنرفضه]، هلم فلنتحاكم إلى ما آثاره جليلة وعواقبه حميدة في الدنيا والآخرة فنقبله [ونقبل عليه]، وإلى ما آثاره ذميمة وعواقبه وخيمة فندعه ونرفضه، هلم فلنتحاكم إلى العدل وأداء الحقوق في حقوق الله وحقوق عباده فنقبله وندعو إليه، وأما الظلم وعدم أداء الحقوق الواجبة فلندعه ونتركه، فهذه الأصول العقلية والشرعية وما أشبهها لا يدعى أحد للتحاكم إليها [فيأبى إلا دلنا] على سفاهته وحمقه ومكابرته، فالدين الإسلامي لا [يأبى التحاكم] في [علومه] وأخلاقه وأعماله وآدابه كلها إلى قضايا العقول التي يتفق [العقلاء على صحتها وسلامتها، بل] هو الذي دعا الخلق إليها وحثهم عليها، فكيف يأبى أن يحتكم [إلي ما تقتضيه أصوله وأسسه] وأما إطلاق المحاكمة إلى القديم والحديث فهذا كما تقدم لا يوافق [عليه هؤلاء؛ لأنها] قضية مختلة متزعزعة عند الناصرين لها؛ لأنهم يتناقضون [في رفض] وفي قبول كل حديث، فمنه أشياء يقبلونها، ومنه [أشياء يرفضونها من وجه] دال على فسادها من أنفسهم وحججهم.

ووجه آخر وهو أنهم إذا كانوا يرفضون القديم ويرحبون بالجديد فهذه قضية أول من يحظى بإبطالها واصفوها، وذلك أنهم إذا أسسوا لهم أمورًا يجرونها ويرونها هي الحق الذي يجب تقديمه ونصره كانوا إذا جاء من بعدهم فإما أن يتبعوا ما أسسه الأولون فينتقض أصلهم

---

(١) ما بين المعكوفين غير مقروء في المخطوط، واستفدناه من نسخة عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، وكذلك ما يأتي مما بين معكوفين.

وتصير الأمور الحادثة عند النشء الحديث لا يعبأ بها وإنما يحافظ على ما قاله الأولون، وهذا بعينه أكبر برهان على نفيها، وأن تسلسل هذه القاعدة عند النشء الذي بعدهم فيوجبون رفض ما قاله هؤلاء واعتناق الأمور المتجددة لم يَثْبُتْ بأيدي الناس حق يكون له الإثبات، بل ما أثبته هؤلاء نفاه الآخرون، وما نفاه هؤلاء أثبته آخرون؛ فصاروا في أمر مريج متهافت مختل الأصول والفروع، هذا من جهة ميزان هذه القضية الجائرة في عقول قائليها، وأما وزنها في الشرائع الدينية وفي العقول الصحيحة فهي أرذل وأخس من أن يقام لها وزن، وإنما هي أقوال صدرت من سفهاء الأحلام، ضعفاء العقول أرادوا بها التمويه على الأغرار [الذين لا قلب لهم يستفتونه]، ولا ألباب صحيحة يزنون بها الأمور والقضايا، وإنما الموازين التي لا يقدح فيها أحد من العقلاء فتلك الأصول التي أشرنا لها وما أشبهها فهي التي من قالها صدق قوله، ومن حكم بها عدل حكمه، ومن استقام عليها هدي إلى صراط مستقيم، وهي الأصول التي لا يمكن نقضها وتجري مع الزمان والأحوال لا تتغير؛ لأنها حقائق ثابتة صالحة للخليقة موضوعة لنفعهم.

أما المسلمون فليس عندهم أدنى ريب بأن دينهم هو الحق الذي لا تعرف الحقائق إلا به، وهو الدين الذي رسم للخلق حقائق الأشياء ودلهم عليها وأرشدهم إلى منافعها، ولا يستريبون أن جميع أصول دينهم وفروعه وظاهره وباطنه إذا وزنت بتلك الموازين الصحيحة ظهر نورها وجلالها وكمالها، ووجوب تقديمها على كل شيء، وأما المنحرفون عن الدين فربما يصير عندهم في هذا المقام مغالطات، ويدعون دعوتهم [مجردة] عن البرهان أن مذاهبهم هي الموافقة لتلك الأصول، فعند ذلك يقال: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[البقرة: ١١١]. وبينوا الطريق التي يعرف بها ما ادعيتم، ونحن نعلم علمًا مبنيًّا على البراهين والحقائق أنه ليس لهم طريق صحيح إلى تحقيق كل قول نابذوا به الدين، ثم نقول على طريق التقول في مقام المناظرة: إن الدعاوي إذا تعارضت، والأقوال إذا تناقضت فعندنا حكمان عدلان: الدين الإسلامي والعقل الصحيح.

أما الأول فإن كان المجادل بالباطل يدعي أنه مسلم فإنه يقال له: المسلم بإجماع المسلمين لا يصير مسلمًا حتى يقدم ما جاء به الرسول من كتاب الله وسنة رسوله على ما قاله الناس، فعلينا أن نتبع ما جاء في الكتاب والسنة وما أشكل عليك هل هو موافق أو معارض، وضحنا لك من أدلة الشريعة ما يوجب لك الرضوخ والانقياد التام، وربما كان فهمك قاصرًا عن دلالات النصوص؛ فيبين له دخول جميع المنافع والمصالح في نصوص الشرع، فإن انقاد لذلك فهو مسلم ويصير طريق العقل مؤيدًا لطريق الدين والعقل.

أما الدين فإنه يبين له الأدلة والبراهين العظيمة التي لا تقاوم ولا تصادم على نبوة محمد ﷺ، وعلى الوحي الذي جاء به من عند الله وهي أدلة في أعلى ما يكون من القوة والوضوح والكثرة، وآيات نبوته ﷺ وبراهينها متنوعة؛ أخلاقه العظيمة التي أقسم الله بها بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. بحيث إذا وضح بعضها عرف أنه لا كان ولا يكون أحد من عظماء الرجال يدانيه في الكمال والفضل والخصال الحميدة التي يستحيل معها أن يكون متقولًا، بل تدل على أنه أصدق الخلق وأبرهم وأتمهم في كل فضل وكمال، وما أمر به ونهى عنه وشرعه فإنه محكم منتظم لا يأمر إلا بكل معروف شرعًا وعقلًا، ولا ينهى إلا عن كل منكر شرعًا وعقلًا، لا تجد في أحكامه اختلالًا ولا سفهًا وعبثًا ومنافاة للحكمة.

والقرآن العظيم الذي جاء به من عند الله فيه تبيان كل شيء وهدى ورحمة، وفيه من العلوم والحقائق العظيمة ما لا يمكن أن يأتي عليه الوصف، لا يمكن أن يأتي علم صحيح ينقض ما جاء به بوجه من الوجوه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. فيه علوم الأولين والآخرين فمجرد نظر المنصف إلى ما جبل الله رسوله ﷺ عليه من الأخلاق وإلى أحكام دينه وكماله وإلى عظمة القرآن وما احتوى عليه من المعجزات، يضطره إلى تصديقه وإلى الخضوع لدينه وشرعه، وإذا علم أنه رسول الله وأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى؛ تعين قبول ما جاء به وأن يكون هو الأصل الذي تعرض عليه الأقوال والمذاهب؛ فما وافقه فهو الحق وما خالفه فهو الباطل، لأنه إذا

علم أنه رسول الله حقًّا كان ما جاء به حقًّا لا يمكن أن يعارض الحق ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

فإن أبى المناظر الانقياد إلى شيء مما تقدم فعلى وجه التنزل في المناظرة الدال على غاية الإنصاف وإقناع الخصم، فهلم إلى التحاكم إلى العقول الحرة المعروفة بالاعتدال التي لم تتلوث بالتعصبات ولا بالقصود الفاسدة والأغراض السيئة التي ليس لها قصد إلا طلب الحقيقة والتسليم للحقائق، ولا يستريب من وقف على أصول الدين وتعاليمه العالية والأخلاق السامية وآدابه الرفيعة أنه هو الذي يكفل سعادة الدنيا الحقيقية التي تعد سعادة كما كان كفيلًا بسعادة الآخرة، ولا يعرف ذلك حق المعرفة إلا من تتبع الحقائق الدينية وما تسمو إليه من رقي القلوب والأرواح والأخلاق، وما يعين على ذلك في المادة المالية والصناعية والسياسية وما يقوي ذلك من الأمور المعنوية؛ وبذلك يعرف معرفة على وجه البصيرة التي لا تردد فيها ولا ريب أنه يتعين على الخلق اتباع ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والسنة عقلًا، كما تعين ذلك شرعًا وتقدمت الإشارة إلى بعض ما دل على ذلك من النصوص، وإنما قلنا ذلك وتنزلنا هذا التنزل الذي لا يبقي لمبطله شبهة؛ لأنه في هذه الأوقات طمّ الإلحاد وفشت دعايته بين المسلمين وصار يدعو إليه الأجانب ويدعو إليه من تسمّى بالدين؛ إما نفاقًا وخداعًا، وإما أن يكون صنيعة لغيره وأجيرًا، وإما أن يكون ليس له بصيرة؛ سمع الناس يقولون شيئًا فقاله، وهذا كثير في أهل الصحف الذين لا بصيرة لهم في الدين، ولا يبالون بسقوط صحفهم عن الاعتبار الديني، بل والأدبي، ومن دعا بالطريقة التي شرحناها لم يلق لدعوته معارضًا أصلًا، اللهم إلا لمن عرفوا بالمكابرات وجحد الحقائق والمغالطات التي لا تسمن ولا تغني ولا تفيد شيئًا.

ولنذكر صورة مناظرة[1] جرت بين رجلين كانا رفيقين وكانا مسلمين يدينان بالدين الحق

---

(١) علق في الحاشية بقوله: «قف على مناظرة عظيمة» يمكن الرجوع إليها في انتصار الحق من هذا الجزء.

علمًا وعملًا، فغاب أحدهما عن صاحبه مدة ثم التقيا فإذا هذا الغائب قد تغيرت أحواله وأخلاقه، فسأله صاحبه عن ذلك فإذا هو قد تغلبت عليه دعاية الملحدين الذين يدعون لنبذ الدين ورفض ما جاء به سيد المرسلين فحاوله[1] صاحبه وقلبه لعله يرجع عن هذا الانقلاب الغريب، فعرف أن هذه علة ومرض تفتقر إلى استئصال الداء وإنزال الدواء على الداء، وأن ذلك متوقف على معرفة الأسباب التي حولته، وإلى تمحيصها وتخليصها وتوضيح مرتبتها ومقابلتها بما يضادها ويقمعها، فقال له مستكشفًا عن الحامل له على ذلك: ما هي يا أخي الأسباب التي حملتك على ما أرى؟ وما الذي دعاك إلى نبذ ما كنت عليه، فإن كان خيرًا كنت أنا وأنت فيه شريكين وإلا كان غير ذلك، فأعرف من عقلك وأدبك أنك لا ترضى أن تقيم على ما يضرك ويثمر لك الثمرات الرديئة. فقال له: لا أخفيك العلم أني قد رأيت حالة المسلمين حالة لا يرضاها ذوو الهمم العلية؛ رأيتهم في ذل وخمول وأمورهم مدبرة وأحوالهم سيئة، ورأيت في الجانب الآخر هؤلاء الأجانب قد ترقوا في هذه الحياة وتفننوا في الفنون والمخترعات العجيبة المدهشة والصناعات المتفوقة، فرأيتهم قد دانت لهم الأمم وخضعت لهم الرقاب وصاروا يتحكمون في الأمم الضعيفة بما شاءوا ويعدونهم كالعبيد والأجراء وأقل من ذلك، فرأيت منهم العز الذي بهرني والتفنن الذي أدهشني فقلت في نفسي: لولا أن هؤلاء هم القوم وأنهم على الحق، والمسلمون على الباطل ما كانوا على هذا الوصف الذي ذكرت لك، فرأيت أن سلوكي سبيلهم واقتدائي بهم خير لي وأحمد عاقبة، فهذا الذي صيرني إلى ما رأيت.

فقال له صاحبه حين أبدى له ما كان مستورًا: إذا كان هذا هو السبب الذي حولك إلى ما أرى فهذا يا أخي ليس من الأسباب التي يبني عليها العقلاء وأولو الألباب عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم.

أما تأخر المسلمين فيما ذكرت فليس ذلك من دينهم، وقد علمت وتيقنت أن دين الإسلام

(١) في انتصار الحق: فحايله.

يدعو إلى الصلاح والإصلاح، والاستعداد بالقوة المعنوية والقوة المادية من كل وجه إلى قوة المسلمين ومقاومتهم لأعدائهم، وإلى السلامة من كل أضرارهم وهو لا تزال تعاليمه وإرشاداته قائمة لدينا تنادي أهلها هلموا إلى جميع الأسباب النافعة التي تعليكم وترقيكم في دينكم ودنياكم، أفبتفريط أهل الدين تحتج على الدين؟! أليس هذا التفريط منهم يوجب على أهل البصائر منهم أن يكون خيرهم ونشاطهم وجهادهم الأكبر متضاعفًا لينالوا المقامات الشامخة، ويبتعدوا من الهوة العميقة؟! أليس القيام التام والجهاد من أفرض الفروض وألزم اللوازم في هذه الحال، فالجهاد في حال قوة المسلمين وكثرة المشاركين له فضل عظيم يفوق سائر العبادات، فكيف إذا كانوا في هذه الحال التي وصفت؟! فإن الجهاد لا يمكن تعبير المعبرين عن فضائله ومناقبه؛ فإنه في هذه الحال يكون الجهاد قسمين:

قسم منه فيه تقويم المسلمين وإيقاظ هممهم وبعث عزائمهم وتعليمهم العلوم النافعة وتهذيبهم بالأخلاق الراقية، ولعل هذا أشق النوعين وأفضلهما. وقسم فيه مقاومة الأعداء وإعداد العدة القولية والفعلية والسياسية والداخلية والخارجية لمقاومتهم ومنازلتهم في ميادين الحياة، أفحين صار الأمر على هذا الوصف الذي ذكرت وصار الموقف حرجًا تتخلى عن إخوانك المسلمين وتتخلف مع الجبناء والمخلفين، فكيف مع ذلك تنضم إلى حرب المحاربين؟! لا تكن يا أخي أرذل ممن قيل فيهم: ﴿تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٧]. قاتلوا لأجل الدين أو ادفعوا لأجل الرابطة القومية فأعيذك يا أخي من هذه الحالة التي لا يرضاها أهل الديانات ولا أهل النجدات والمروءات، فهل ترضى أن تشارك قومك في حال عزهم وقوة عددهم وعديدهم، وتفارقهم في حال ذلهم ومصائبهم، وتخذلهم في حالة اشتدت فيها الضرورة إلى نصرة الأولياء وقمع عدوان الأعداء؟! فهل رأيت يا أخي قومًا خيرًا من قومك ودينًا خيرًا من دينك؟! فقال ذلك المنقلب المنصوح: الأمر كما ذكرت لك ونفسي تتوق إلى أولئك الأقوام الذين أتقنوا الفنون والصناعات وألفوا السياسات والحضارات وترقوا في هذه الحياة. فقال له صاحبه وهو يحاوره: أرفضت دينًا قيمًا، كامل القواعد، نير البرهان، يدعو إلى الخيرات، ويحث على طرق السعادة والفلاح، ويقول لأهله:

هلموا إلى الفلاح والنجاح. دين مبني على الحضارات الراقية الصحيحة التي بنيت على العدل والتوحيد، وأسست على الرحمة والحكمة والشفقة وأداء الحقوق، وشملت بظلها الظليل وخيرها الطويل وإحسانها الشامل وبهائها الكامل ما بين المشارق والمغارب، وأقر بذلك الموافق والمخالف، أتتركها راغبًا في حضارات ومدنيات مبنية على الكفر والإلحاد، مؤسسة على الطمع والجشع وظلم العباد، فاقدة لروح الإيمان ورحمته، حضارة ظاهرها مزيف وباطنها خراب، وتخالها تعميرًا للوجود وهي في الحقيقة مآلها الهلاك والتدمير، ألم تر آثارها في هذه الأوقات وما جلبته للخلق من الهلاك والفناء والآفات، فهل سمع الخلق منذ أوجدهم الله لهذه المجازر[1] البشرية نظيرًا ومثيلاً، فهل أغنت عنهم مدنيتهم وحضارتهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادتهم غير تتبيب[2]، فلا يخدعنك يا أخي ما ترى من المناظر والزخرفة والأقوال المموهة والدعاوي الطويلة العريضة، فانظر إلى بواطن الأشياء ولا تغرنك الظواهر، وتأمل النتائج الوخيمة فهل أسعدتهم هذه الحضارة في دنياهم التي لا حياة لهم يرجون غيرها، ألم ترهم ينتقلون من شر إلى شرور وأنهم لا يسكنون في وقت إلا وهم إلى شرور فظيعة يتحفزون.

ثم هب أنهم متعوا في حياتهم ومتعوا بالعز والرياسات ومظاهر الحياة، فهل إذا انحزت إليهم واليتهم يشركونك في حياتهم ويجعلونك كأنفسهم؟! كلا والله إنهم إذا رضوا عنك جعلوك من أخس خدامهم وأقذر أجرائهم، وآية ذلك أنك في ليلك ونهارك تكدح في خدمتهم وتتكلم وتجادل وتخاصم على حسابهم ولم نرهم رفعوك حتى ساووا فيك أدنى قومهم وبني جنسهم، فالله الله يا أخي في دينك، والله الله في مروءتك وأخلاقك وأدبك، والله الله في بقية رمقك، فالانضمام إلى هؤلاء والله هو الهلاك.

فلما سمع هذا الكلام وتأمل جميع الطرق والوسائل التي تنال بها الأغراض الصحيحة من

---

(١) في المخطوط: «المجازت»، والمثبت من انتصار الحق.

(٢) أي: تخسير.

أولئك الأقوام فإذا هي مسدودة؛ عرف أنه في محنته هذه من جملة المغرورين، وأن الواجب عليه متابعة الناصحين، وأن الرجوع إلى الحق الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة خير من التمادي على الباطل الذي يحتوي على الضرر المبين، فقال لصاحبه: كيف لي بالرجوع وأنى لي وقد أظهرت الانحياز إلى أولئك [و] النزوع. فقال له صاحبه: ألم تعلم أن من أكبر فضائل الإنسان أن يتبع الحق الذي تبين له ويدع ما هو فيه من الباطل، وأن الخطأ والزلل قلما يسلم منه بشر، ولكن الموفق [هو] الذي إذا وقع في المهالك طلب الوسيلة والطريق إلى كل سبب يخلصه منها، وأن من نعمة الله على العبد أن يقيض له الناصحين الذين يرشدونه إلى الخير ويأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر، ويسعون في سعادته وفلاحه، ثم من تمام هذه النعمة أن يوفق لطاعتهم ولا يتشبه بمن قال الله فيهم: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]. واعلم أنه ربما كان الإنسان إذا ذاق مذهب المنحرفين وشاهد ما فيه من الغي والضلال، ثم تراجع إلى الحق الذي هو حبيب القلوب، ربما كان أعظم لوقعه وأكبر لنفعه فارجع إلى الحق ثابتًا وثق بوعد الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

فقال: الحمد لله الذي أنقذنا بلطفه وحسن عنايته من الهلاك، ومنَّ علينا بالسعادة والهدى فنسأل الله أن يتم نعمته علينا بالثبات على دينه إنه جواد كريم.

فقال الناصح لأخيه لما رأى ما يسره من رجوعه إلى الحق: وأزيدك يا أخي بيانًا أن هذه المظاهر التي نراها من الكفار قد نبهنا الله في كتابه ألا نغتر بها، فلولا أنه تعالى قد علم أنها من طرق الغرور ووسائل الخداع لما نبهنا عليها وأرشدنا وحذرنا أن نغتر بها؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]. ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]. والآيات [فبيَّن لنا] أن هذا الاغترار مصيدة للجاهلين، وأن الله أرى عباده من وقائعه وآياته في الأمم الظالمة ما حصلت به العبرة، وأن من بنى أمره ومسالكه على الاغترار بما متعوا به فإنه جاهل أحمق مقلد قاصر ونظره قاصر، وأيضًا فقد أخبر تعالى في آيات كثيرة أنه يستدرجهم فيما أعطاهم

فيغترون ويغتر بهم، وهذا هو الواقع منهم، وممن تعشق أحوالهم، وأنه تعالى يمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ولسنا ننكر أن الله أعطاهم أسبابًا عظيمة تدرك بها المطالب، لكن هذه الأسباب إن لم تبن على الحق والدين الحق صار ضررها أكثر من نفعها، هذا بالنظر إلى الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فليس لهم في الآخرة من نصيب ولا خلاق[1].

القاعدة الثالثة: الإيمان بالله هو الأصل الذي دعت إليه جميع الرسل، وبه الرقي الحقيقي في الدنيا والآخرة.

جميع الكتب التي أنزلها الله، وجميع رسول أرسله الله[2]، الأصل الذي أسدت إليه، والدعوة ألتي دعت إليها هو الإيمان بالله، والإيمان بوجوده وإيجاده المخلوقات، والإيمان بما له من الأسماء الحسنى وصفات الكمال والإذعان الكامل لعبوديته والافتقار إليه.

القرآن العظيم الذي هو أجل الكتب وأعظمها والمهيمن عليها حث على هذا الأصل بالطرق كلها؛ ففيه من أسماء الله الحسنى أكثر من ثمانين اسمًا معرفتها ومعرفة معانيها تملأ القلوب إيمانًا ونورًا ويقينًا وعلمًا وعرفانًا، هو أفضل ما حصلته القلوب وأرقى الاعتقادات النافعة، قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]. ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٨٢]. في مواضع كثيرة، يرتب عليها خيرات الدنيا والآخرة، ويرتب على عدم الإيمان جميع الشرور الدنيوية والأخروية، ويخبر أن الأعمال والتعبدات كلها ناشئة عن الإيمان، فمن امتلأ قلبه من الإيمان بالله كانت قوة

(١) علق في الحاشية بقوله: انتهت المناظرة.

(٢) كذا وردت هذه العبارة في المخطوط.

عبوديته لله بحسب ذلك الإيمان الذي في قلبه، وكذلك أعمال الأسباب النافعة التي تنفع الأفراد والشعوب، لا يمكن العبد أن يقوم بها على وجه الكمال والصدق والإخلاص والبناء على الأصول النافعة إلا بالإيمان.

فالإيمان أصل الخير الديني والدنيوي وبه توزن الأمور صالحها وطالحها، وإذا أردت تفصيل هذه الجمل العظيمة والتمثيل لها على وجه يعترف به أهل العقول والألباب، فالأمور التي يحصل بها الرقي الحقيقي والسعادة والفلاح الاعتقادات الصحيحة والأخلاق المزكية للقلوب، المطهرة للأرواح، الباعثة للهمم والعزائم إلى كل خير، والأعمال الصالحة النافعة في الدين والدنيا، وهذه الأمور متلازمة لا يتم بعضها إلا ببعض وبتمامها السعادة والفلاح، فإذا اعتقد العبد ما أخبرت به الرسل عن الله تعالى، وأن له الكمال المطلق من جميع الوجوه بكل وجه واعتبار، وأن الأشياء؛ وجودها وبقاءها وكمالها بالله تعالى ومنه تستمد كل شيء، فعلم أن الله هو الخالق وحده وما سواه مخلوق، وهو الرازق المحسن وما سواه مرزوق مضطر إلى إحسان ربه وكرمه من كل وجه، وهو المدبر المصرف للعالم العلوي والسفلي بحكمته وعلمه وعنايته وحسن تدبيره ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]. ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء يسمع الأصوات: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

ويرى جميع ما حواه العالم العلوي والسفلي لا يخفى على نظره أدق المخلوقات في أخفى الأمكنة، وهو مع ذلك واسع الرحمة والجود والكرم والبر والامتنان يفيض الإحسان على مخلوقاته آناء الليل والنهار، يده بالخير سحّاء الليل والنهار: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]. وموصل إليها من بره وإحسانه جميع ما تحتاجه في وجودها وبقائها وتمام أحوالها.

وهو مع ذلك قد أمر المخلوقات أن تنيب إليه وتسأله حاجتها وتفزع إليه في جميع مهماتها وملماتها فيجيب الداعين ويكشف كربات المكروبين ويزيل الضر عن المضطرين ويسوق

الألطاف وأصناف البر لعباده المنيبين، فمتى اعتقدت القلوب هذه الاعتقادات الصحيحة في ربها وإلهها فلا بد أن تنيب إليه بالخوف والرجاء والمحبة وتمتلئ من تعظيمه والإيمان به وتطلب السعي في كل أمر يرضيه وتتجنب كل أمر يسخطه فيضطرها هذا الأمر إلى الإخلاص الذي هو روح الأعمال، فالمخلص لله تنبني أعماله الظاهرة والباطنة على أن يكون الداعي لها والباعث عليها هو الإيمان بالله، وغايتها الذي[1] تنتهي إليه وتسعى إليه طلب رضاه والتنعم بثوابه وخيراته، وبذلك يزول عن القلوب جميع الأخلاق الرذيلة؛ من الرياء والنفاق والعجب ومساوي الأخلاق، وتتحلى بالأخلاق الجميلة؛ من الحب والإخلاص والطمع في فضل الله والخوف من عقابه والصدق الكامل في طلب مرضاته والإنابة التامة إلى ربها في رغباتها ورهباتها؛ لأنها تعلم أنه لا ملجأ ولا منجى ولا مولى ولا نصير إلا ربها ومليكها.

ويكون محبتها للخير الذي يقربها إلى مولاها مقدمة [على][2] كل محبة، وترى أن قوتها وغذاءها وكمالها بهذه الإنابة وهذا الافتقار، وتعطف بهذا التعبد على عباد الله؛ فتحب للمسلمين ما تحب لنفسها من الخير وتسعى لذلك بحسب مقدورها، ثم إذا أصابتها النكبات وحلت بها المصيبات فزعت إلى ربها ليكشف ضرها ويثيبها على ما قدر عليها، وتطمع غاية الطمع في فضل ربها ورجاء رحمته وطلب ثوابه، وبهذا المعنى الذي تتصف به وهذه العقيدة النافعة تهون عليها المصيبات وتخف عنها المكروهات لما تعلمه من حكمة الله واستناد الأمور إلى تدبيره وقدرته، ولما ترجوه من تفريج كربها؛ لأنها تعلم أنه لا يفرج الكربات ولا يزيل الشدات إلا هو ولما ترجوه من الثواب الذي رتبه على المكاره والصبر عليها.

وأما من لم يحصل له هذا الإيمان فإنه عند المصائب والملمات يجري له من الآلام القلبية، والفظائع الروحية، والزلات العظيمة ما لا يمكن التعبير عنه، وربما أن بعض هؤلاء تصل بهم الحال إلى إتلاف نفسه، أو إلى زوال عقله لعدم ما يستند إليه ويرجوه، وكما أن

(١) كذا في المخطوط.

(٢) في المخطوط: «إلى». ولعل المثبت أنسب للسياق.

المؤمن الحقيقي يتلقى المكاره والمصيبات بالصبر والقوة والطمأنينة؛ للأسباب التي أشرنا إليها، فإنه يتلقى أوامر ربه بالقوة والعزيمة الصادقة، ويؤدي حقوقه وحقوق خلقه بالكمال والتمام بحسب استطاعته، ومع ذلك فإنه يعلم أنه لا يمكنه أن تتم له العبودية وأداء الحقوق الواجبة والمستحبة والمصالح الكلية والجزئية إلا بالسعي بالأسباب الدنيوية النافعة وبالقيام بالقوة المعنوية والمادية [فانبعث] همته لداعي الإيمان وداعي العقل وداعي الفطرة إلى ذلك وأبدى ما يقدر عليه في تحصيل ذلك، وعلم أن المقاصد لا تتم إلا بالوسائل، وأن الوسائل التي تتعين على المصالح مما أمر الله به ومما رتب عليه الثواب، وعلى الاستهانة به العقاب، فدخل في هذا جميع الأسباب الموجودة والتي ستحدث بعد ذلك؛ فعلم بذلك أن الإيمان المذكور هو الباعث على تحصيل خير الدنيا والآخرة، وأن من لا يرجو ثوابًا من الله ولا يخشى منه عقابًا ولا له إيمان يستند إليه أنه ضعيف الهمة ضعيف العزم النافع، وإنما... عزماته في تحصيل لذاته البهيمية وشهواته السفلية وطمعه الدنيء، فربما كانت قوته في هذه الأمور وأسبابه المادية في تحصيلها فوق ما يتصوره المتصور ويعبر عنه المتكلم، ولكن الإيمان يستند إليه ولا غاية حميدة يرتجيها ولا حياة أبدية يعمل لها، فمن كانت هذه حاله لم ينل في هذه الحياة طيبها ولا نجح في تحصيل سعادتها بقطع النظر عن الحياة الأخرى فإنه ليس له في الآخرة من خلاق ولا نصيب.

وبهذا يتضح لنا ما عليه المعرضون الآن عن الإيمان بالله، وأن هذه المناظر وما متعوا به من الحياة ما هي إلا لذات مؤقتة تحتها ما شئت من الآلام والأكدار [وأنه لا غاية لها] وأن المؤمنين بالله مهما تنقلت بهم الأحوال وتطورت بهم الأمور فإنهم خير من [هؤلاء وأحسن] عاقبة، فلو وفق المؤمنون للقيام الكامل بالإيمان على الوصف الذي ذكرنا لحازوا الحياة الطيبة في هذه الدنيا والحياة التي هي أطيب منها في دار القرار، وأزيدك أيضًا أن [الإيمان] والذي وصفنا هو الذي يحث صاحبه على كل خلق جميل ويزجره عن كل خلق رذيل، فالإيمان يدعو صاحبه إلى الصدق في الأقوال والصدق في معاملته الخلق، فمن لم يكن

مؤمنًا هذا الإيمان لم تكن مطمئنًا من أقواله ولا من معاملاته، وربما راعاك في شيء وكذلك في أشياء، وهو الذي يحث على النصح لله ورسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم، فإيمان العبد يوجب أن يبذل في هذه الأمور كل ما يستطيعه من النصح ويقدر عليه، ومن لم يكن كذلك فأنت [غير آمن] من غشه إن نصحك فيما يظهر ويبين فما الذي يمنعه أن يغشك فيما يظن أنه لا يبين، ليس معه من الإيمان ما يعصمه من هذا الخلق الرذيل.

الإيمان المذكور يحمل صاحبه على الصبر والقوة والشجاعة والإقدام في المواضع التي يحجم عنها ضعفاء النفوس الذين لا إيمان معهم؛ فالمؤمن لقوة إيمانه وتوكله على الله ورجائه لثوابه وعلمه أن الثواب الديني والدنيوي والأخروي يكون بحسب ما قام به من واجبات الإيمان ومكملاته، وما قام به من الجهاد ويسهل عليه القيام بالأعمال الشاقة [ويهون] عليه وما يلقى من الأهوال والمعارضات ولا يأخذهم في ذلك لوم اللائمين وقدح القادحين ولا [يصعب عليه ما أصابه من جراء] ذلك من المصائب، وكلما قوي الإيمان كان قيامه بهذه الأمور أعظم وأتم.

أما من لم يكن معه ذلك الإيمان الصحيح فمن أين له الثبات على الصبر وعلى المقاومات الشاقة، نعم قد يكون له صبر [بعض الأوقات في تحصيل] أغراضه السفلية وشهواته النفسية، وقد يكون عنده من الشجاعة والقوة [في تحصيل ذلك] ولكن حالة ما أرذلها وأخطرها وأقلها بقاء، فإن الوسائل تابعة [لمقاصدها، فأين من كانت] مقاصده أجل المقاصد؛ نصر الدين وإعانة المؤمنين وقمع أعداء الدين [ومقاومة] الباطل، وتحصيل الفلاح الأبدي والسعادة السرمدية والقيام بحقوق [الله] كليها وجزئيها، أين هذا ممن نهايته إدراك رئاسة مؤقتة ولذات [فانية مشوبة بـ] الأكدار، وكان عاقبتها الهلاك والبوار فوالله إن بين حاليها لكما بين [المشارق والمغارب. الإيمان] المذكور يحمل صاحبه على العدل وينهاه عن الظلم؛ فإنه يعلم أن إيمانه لا يتحقق [ ] إلا بذلك، وأما من عدم الإيمان، فأين العدل الذي يتأسس عليه، فما تأسس العدل إلا [الإيمان بالله واتباع الرسل و] الكتب السماوية وإلا

فطبيعة الإنسان الظلم والفوضوية لا في جماعاتهم ولا [في أفرادهم، وأما ما لم يتأسس] على العدل، فليس من الدين.

وكيف تأمن من لا إيمان له أن يظلمك في دمك ومالك [فإن] النفوس مجبولة على محبة الأثرة إن لم يكن معها إيمان يردعها [وعلم] صحيح، وعدل يحجرها، الإيمان الموصوف بما ذكرنا كما أنه يدعو أهله [إلى الأخلاق الحميدة وينهاهم عن] الأخلاق الرذيلة ويحثهم على الآداب الحسنة، فكذلك يحثهم [ ] الدينية، والحقيقة الإسلامية عليه من فنون الصناعات وأنواع [المخترعات الحديثة... و] استعداد للأعداء بجميع الوسائل النافعة على حسب الحال المقتضية [ ] وإلى الكسل والضعف وأن يكونوا كلًّا على غيرهم.

كذلك يحثهم [على][1] ما تقتضيه المصلحة وعلى جمع كلمة المسلمين واتفاقهم على [ ]. فالمؤمنون بالمعنى الحقيقي يقومون بهذه الأمور لداعي الدين [ ] إذا قام غيرهم فيها للأمر الثاني فقط، ولكن لمصلحة دنيوية أن يسبقهم هؤلاء القوم في تحصيل الفنون العصرية التي [ ] فيها المقاومة والاقتدار على المهاجمة، وعند المسلمين من الدواعي [ ] وطلب المصلحة ما ليس عند غيرهم، واللوم موجه إلى المؤمنين، فليس لهم عذر عند الله، ولا عند خلقه ولا تعذرهم نفوسهم الأبية ولا أخلاقهم وتعاليمهم الدينية الإيمانية إذا كان الإيمان الحقيقي يدعو إلى هذه الفضائل ويزجر عن جميع الرذائل اتضح أنه الطريق الوحيد والصراط الأقوم للسعادة الحقيقية والرقي الحقيقي، وأن ما نراه في بعض الأمم الفاقدة للإيمان ليس إلا كالسراب حتى إذا جاءه المنصف وحقق أمره لم يجده شيئًا، حتى قال بعض منصفيهم في هذا المقام: إن الناس كانوا ولا يزالون يطلبون الحق ولم يكونوا في زمان أبعد عنه في هذا الزمان، يريد بذلك قومه؛ فما هم عليه من مظاهر السعادة الدنيوية فإن حشوه الآلام الشاغلة لقلوبهم أجمعين ما يرحمهم لأجله المقصرون عنهم ويزهد الراغبين في مثلها لهم ويصدهم عن اتباعهم، والسبب بعدهم عن الإيمان والحق، وتزوغ أنفسهم إلى الباطل وهرولتهم خلف دواعي الشهوة.

---

(١) غير موجودة في المخطوط.

والسبب الأصلي في ذلك كله خلو نفوسهم من الركون إلى الإله الواحد خالق الجميع ورازق الأحياء ومقدر الأسباب لمكاسبهم، فهذه الأحوال والظواهر التي لم تبن على الإيمان هل يقول صحيح العقل إنها حياة سعيدة، والقلوب قلقة والنفوس محترقة، وإنما الراحة والحياة الطيبة راحة المؤمنين الذين اكتسبوا راحة الضمائر وطمأنينة السرائر والرضا الحقيقي مع السعي الجميل في طلب المنافع والمكاسب، فالمؤمن حيث تجده تجد هذا الوصف منطبقًا عليه؛ فهو سعيد وإن كان بين الأشقياء، حكيم وإن وجد بين السفهاء، وأما من أخذ اسم الإيمان رسمًا ولم يتحقق به عقدًا ولا خلقًا ولا أدبًا فلم تضمن له الحياة الطيبة.

القاعدة الرابعة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

كم في كتاب الله وسنة رسوله من الأمر بهذا الأصل العظيم والقاعدة العامة الجامعة لكل خير، فإن المعروف اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا، والمنكر اسم جامع لكل ما عرف قبحه شرعًا وعقلًا، والحق هو العلوم النافعة والأعمال الصالحة فيدخل في هذا تعلم جميع العلوم النافعة وتعليمها، وكما يدخل في ذلك تعليم المستعدين لطلب العلم، فإنه يدخل فيه تعليم الناس ووعظهم في المساجد والمجامع الصغار والكبار، وفي الحديث مع الأصحاب وغيرهم، وكذلك يتعين أن يكون هيئات وجمعيات من المسلمين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ومن أكبر المعروف أن يسعوا في جمع كلمة المسلمين واتفاقهم على مصالحهم الكلية وإزالة ما يقع بين المسلمين من التعادي والتباغض والتنافر التي هي من أكبر الأسباب المُمَكنة للأعداء، وأن يكون من المسلمين طائفة كافية مستعدة للجهاد بالإقبال على تعلم العلوم والفنون العصرية والصناعات والأسلحة التي لا يقوم الجهاد إلا بها، فإن الجهاد في سبيل الله من أكبر ما يدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد نوعان: جهاد واجتهاد في تقوية المسلمين بالروح الإيمانية والقوة المعنوية والشجاعة الدينية، وجهاد الأعداء في مدافعتهم ومهاجمتهم وأخذ

الاحتياطات الكافية لوقاية شرهم وضررهم، ومعلوم أن هذه الأمور تتوقف على الحذق والمهارة في الفنون العصرية النافعة، فيكون السعي فيها وفي تعلمها داخلًا في الجهاد وطريقًا عظيمًا من طرقه، ومن ذلك أن يكون طائفة من المسلمين تتفقد الناس وتلزمهم القيام بالفرائض الدينية؛ كالصلاة والزكاة والصوم والحج وجميع حقوق الله وحقوق خلقه الواجبة، وتردعهم عن المنكرات الظاهرة والباطنة.

ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق أن يكون المسلمون في كل أوقاتهم وأحوالهم متناصحين؛ يحث بعضهم بعضًا على الحق الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والصبر على ذلك، فإن الصبر هو الآلة والأساس الذي لا ثبوت للأمور إلا به.

ومن ذلك السعي في المشاريع الخيرية التي تنفع الأمة وتحصيل الأموال لقيامها وتقويمها؛ كالمدارس العلمية في جميع فنون العلم النافع في الدين والدنيا المعينة على الدين، سواء كان ذلك سعيًا على طريق الإحسان المحض أو على طريق التجارة والكسب، فكثير من الأعمال الكبيرة التي تنفع الناس في دينهم ودنياهم لا تقوم إلا بالشركات الواسعة، فإذا كان الناس يسعون للمساهمة في الشركات التجارية المحضة فكيف يتأخرون عن الشركات الجامعة للأمرين؛ للمصلحة الدينية والمصلحة الدنيوية، بل نفس السعي فيها والعمل لها من أعظم ما يقرب إلى الله تعالى، وتعيينها يتوقف على المشاورة واتباع المصلحة الراجحة.

ومن أجلِّ وأفضل ما يدخل في ذلك مجادلة المبطلين وإقامة الحجج والبراهين على أعداء الدين من الكفار والملحدين، وقد يكون مقاومة الملحدين الذين يتسمون باسم الإسلام ويدعون إلى نبذ أصوله ودعائمه أفضل من التصدي للمبارزين من الأجانب المعروفين بمبارزة الدين؛ فإن هؤلاء شرهم أعظم وضررهم أكبر لاغترار كثير من الناس بانتسابهم إلى الإسلام، وهم في الحقيقة من أكبر أعدائه، وهؤلاء قد يكونون أجراء للأجانب، وقد يكونون مخدوعين، لكن من أوجب الواجبات تمييز أحوالهم وإنكار ما أدخلوه على الدين من الدعاية الباطلة.

وبما تلوناه عليك من التقريرات اليقينية عن دين الإسلام يتضح عقلًا كما اتضح شرعًا بطلان ما زعمه بعض المتعصبين من دعاة النصارى وأجرائهم أن دين الإسلام مانع من الرقي، وأن هذا الكلام والزعم الخبيث مكابرة بينة، وأن الرقي الحقيقي محال وغير ممكن أن يتأسس على قواعد الدين، فالقواعد والأصول التي نبهنا عليها عن الدين لا يمكن أحدًا أن ينكر أنها السبب الأعظم والطريق الوحيد إلى الارتقاء في مدارج السعادة والفلاح، وأنه يتعذر النجاح بدونها وأن كل رقي بغيرها فإنه مبني على شفا جرف هار، وكيف يحصل الرقي إذا لم ترتق القلوب والأرواح بمحبة الله والإنابة والافتقار إليه وقوة الإيمان والتوكل عليه؟ وكيف يحصل الرقي التام ولم ترتق الأخلاق بالتحلي بالفضائل والتخلي عن جميع الرذائل، وكيف يتم الرقي بغير الجهاد الشرعي؛ الذي هو الجهاد على تبيين الحق والهدى وعلى قبوله وعلى دفع عادية المعتدين.

الجهاد الشرعي هو الذي جمع بين القوة المعنوية بالإيمان الكامل بالله والاعتماد عليه والتوكل والاستعانة به والعمل بجميع الأسباب التي لا يتم الجهاد إلا بها، وجمع القوة المادية؛ حيث حث على الاستعداد بكل ما يستطاع من القوة العقلية والسياسية والرمي والركوب وتعلم الصناعات والفنون التي تعين على الجهاد، وعلى أخذ الحذر من الأعداء بكل وسيلة وطريق، فيا ويح من زعم أن هذه التعاليم العظيمة العالية لا يحصل بها الرقي، وإنما يحصل بالقوة المادية التي لا صلة لها بالدين، المبنية على القساوة والهمجية والوحشية والظلم ونبذ الدين، ولكن أكثر الناس تغرهم المظاهر والصور وليس لهم ألباب ينظرون بها إلى حقائق الأشياء وإلى الأمور النافعة التي نتائجها الخيرات والسعادة الأبدية.

القاعدة الخامسة: الدين الإسلامي هو الصلاح المطلق ولا سبيل إلى صلاح البشر الصلاح الحقيقي إلا بالدين الإسلامي.

قال تعالى في عدة آيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة، ٢٧٧، يونس: ٩]. ثم يرتب على ذلك خير الدنيا والآخرة ويطلق الصالحات، فكل شيء ينطبق عليه الصلاح

فإنه داخل في الصالحات ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]. والله يتولى الصالحين، أي الذين صلحت قلوبهم وأخلاقهم وأعمالهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]. وهذا يقوله تعالى للمنافقين الذين يزعمون أن ما هم عليه من النفاق وترك الإيمان صلاح، فأخبر تعالى أنه هو عين الفساد، فكل من زعم أن الصلاح في خلاف الدين الإسلامي فهو من هؤلاء المنافقين وعلى شاكلتهم.

وفي القرآن آيات كثيرة فيها الحث على الصلاح والإصلاح والتحذير عن الفساد والإفساد، وهذا الأصل الكبير كما أنه ثابت شرعًا ودينًا فإنه ثابت في العقول الصحيحة والألباب المستقيمة، وذلك بمعرفة ما هو الصلاح وضده؛ أما الصلاح فَأَنْ تكون الأمور كلها ظاهرها وباطنها دينيها ودنيويها معتدلة كاملة مكملة حاصلًا لها من الأوصاف الصالحة والنعوت المصلحة ما يوصلها إلى الصلاح الحقيقي؛ وبذلك ينتفي عنها الفساد، أما صلاح القلوب فأن تكون عارفة بالحق معترفة به منقادة له تابعة له، فأعظم الحق على الإطلاق الذي يتعين معرفته والانقياد له هو معرفة تفرد الرب بالكمال المطلق الذي لا يشاركه ولا يماثله فيه مخلوق بوجه من الوجوه، وأنه المتفرد في عظمة صفاته، وتفرده في أفعاله وعطائه ومنعه وخفضه ورفعه وتصريفه الأمور بحكمة وعناية تتناقص عقول العالمين عن بلوغ غايتها ونهاية دقتها، ثم إذا عرفته هذه المعرفة الصحيحة المتلقاة عن كتاب الله وسنة رسول الله اعترفت وانقادت له محبة وخوفًا ورجاء وإنابة إليه وقصدًا في جميع شئونها الظاهرة والباطنة.

وبهذه المعرفة والاعتراف والانقياد التام تنقاد إلى أداء حقوقه وحقوق عباده بانشراح وطمأنينة وإذعان وداعي الإيمان ورجاء الثواب. أليس هذا هو الصلاح الحقيقي الذي لا يمكن صلاح الأحوال إلا به؟ فهل يمكن أن يصلح عبد لم يفرد ربه بمعرفته ومحبته والإنابة إليه ولم ينقد في ظاهره وباطنه إلى القيام بعبوديته وحقوق خلقه؟! فلو خلت القلوب من هذه المعاني الجليلة فهل يمكن أن تصلح، وهل يمكن أن تصلح الحركات الظاهرة والباطنة؟!

هذا ممتنع ومستحيل، فالقلوب الخالية من الإيمان المتجردة عن الانقياد والإذعان إليه، حيث انقطعت عن الله فلا بد أن تتبع شهواتها وأهواءها؛ وبذلك تفسد الأحوال كلها، وهذا برهان ظاهر نير على أن الصلاح في الدين والدنيا منوط بالقيام بالدين الإسلامي.

وأيضًا فإن الناس مضطرون إلى الاجتماع ومفتقرون إلى تبادل المصالح ولا بد لبعضهم من بعض، وشئون بعضهم متعلقة ببعض ولا يشك أحد من العقلاء أن مصالح البشر متعارضة ومطالبهم متباينة والمصالح مختلفة والأهوية غالبة؛ فكان هذا أقوى البراهين على اضطرار الخلق إلى دين وشرع سماوي معصوم يجدد لهم الحدود ويشرع لهم الشرائع وينهج لهم طريق العدل والإنصاف، ويمكن بعضهم من الانتفاع ببعض بطمأنينة وحياة طيبة، والشرع والدين الإسلامي كفيل بذلك على الوجه الأكمل والطريق الأقوم، ألا ترى حسن ما شرعه من المعاملات في المعاوضات كلها والتبرعات، وما أوجبه من الحقوق بين الناس على حسب ما تقتضيه المصلحة والضرورة والظروف، وما فيه من قواعد العدل التي لا غنى للخلق كلهم عنها، وما فيه من الحدود والعقوبات للمجرمين بحسب جرائمهم؟

فلو وكل الناس إلى عقولهم في هذه الأمور لصارت تبعًا للأهوية والأغراض وحصلت الفوضى بحسب ما ترك من نظامات الشريعة، وكل قاعدة نافعة موجودة عند الأجانب وكل نظام نافع عندهم فإنما أصله مأخوذ من الدين الإسلامي، فليذكر لنا المنحرفون أصلًا نافعًا ومعاملة نافعة وعملًا نافعًا خارجًا عن الدين الإسلامي، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلًا، وكيف يجدون السبيل والذي أنزله وشرعه للخلق هو الرب الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء وأحاط بكل شيء وعلم أحوال الخلق؛ ماضيها ومستقبلها فلا يخفى عليه منها مثقال ذرة، وأحكم ما شرعه غاية الإحكام، كما أحكم ما قدره في أحسن نظام، أليس من أجل طرق الصلاح الشكر عند النعماء والصبر عند المصائب والضراء؟! الأمران اللذان لم يزل ولا يزال الخلق في هذه الدنيا بينهما يتقلبون، ولا يمكن أن يخلو منهما مخلوق في وقت من الأوقات ولا حالة من الأحوال.

فسل الشاك في اشتمال الدين الإسلامي على غاية الصلاح؛ هل ما يدعو إليه الدين الإسلامي من مقابلة النعم والخيرات بالشكر والثناء على مُولِيهَا، والاستعانة بها على ما يحبه ويرضاه في صرفها في الوجوه النافعة، ومقابلة المكاره والمصائب بالصبر والرضا عن الله والتسليم لأقداره؛ فيكون العباد عند النعم من الشاكرين وعند المكاره من الصابرين، ويكسب الحياة الطيبة في الدنيا مع ما يدخره الله له في الآخرة، أم مقابلة النعم بالأشر والبطر والمكاره بالسخط والآلام القلبية والزلازل الروحية، كما هو أمر لازم للمنحرفين، فالعاقل لا يشك أن الأمرين لا يستويان، وقل له: أي الأمور خير؛ ما دعا إليه الدين من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧]. الذي به صلاح الأمور أم طريقة الإسراف والتبذير وطريقة البخل والتقتير، وما دعا إليه الدين من الإحسان في عبادة الخالق وإيقاعها على أحسن الوجوه وأكملها والإحسان إلى الخلق بكل وسائل الإحسان، أم ما يدعو إليه المنحرفون من الإعراض عن عبادة الله وحده والإقبال التام على شهوات النفوس الخسيسة، وجعلها هي مبلغ علم الإنسان، وكل همه منع الإحسان إلى الخلق، بل مقابلة الإحسان بالإساءة؟!

فلا بد أن يقول العقل الصحيح: هذا الأمر الجلي لا يحتاج إلى طلب ترجيح، وقل للشاك في حسن الدين الإسلامي: هل ما دعي إليه من وجوب بر الوالدين وصلة الأرحام وأداء حقوق الأصحاب والجيران، والمعاملين بطريقة العدل والفضل خير أم طريق الأثرة والعقوق والقطيعة والجور في المعاملات؟ وقل له: الله قد وهبنا عقولًا وقوى ظاهرة وباطنة نتمكن بها من إدراك سعادتنا ودفع شقاوتنا؛ فهل إذا استعملنا ما وهبنا ربنا من ذلك فيما خلقنا له من عبادة ربنا والقيام بحقوقه وحقوق عباده ورضوخ تلك المواهب والقوى لأحكام من أنعم بها ووهبها، والسلوك من ذلك الطريق المستقيم إلى ربنا، والاستعانة بما أعطانا من المنافع الدنيوية إلى صلاح ديننا ومصالحنا الكلية، أم الأولى بنا أن نستعمل العقول والقوى في أمور تافهة طفيفة لا تغني عن صاحبها شيئًا إن لم يؤسسها ويبنها على الدين، ويجعلها تبعًا لشهواته ووقفًا على مراداته ولو أهلك وضر أخراه؟! فالدين الصحيح

يدعو إلى الأول، وطرق الانحراف تدعو إلى الثاني، وقل له أيضًا: أيما أولى بالعبد أن يتبع ما دعا إليه الدين؛ من إخلاص الدين لله وحده وتعليق الرغبات والرهبات بالله، وألا يرجو ولا يطيع إلا بفضل الله وكرمه وتعليق ذلك بالمخلوقين، والذين لا يملكون لأنفسهم- فضلًا عن غيرهم- نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

وقل له: إذا كان الرب هو الذي خلقنا ورزقنا وهدانا وعافانا وتفضل علينا بالنعم الظاهرة والباطنة، ألا يجب علينا أن يكون هو معبودنا، وهو الذي نحمده ونشكره ونبذل له ما في وسعنا واجتهادنا؟ ومع ذلك فإننا لا نبلغ بذلك مقابلة أدنى نعمة من نعمه علينا، فهل يليق بنا أن نصرف شيئًا من ذلك في شكر غيره وعبودية غيره؟ لا والله إن هذا أمر يستقبحه الشرع والعقل والفطرة.

وقل للشاك في تعاليم الدين الراقية: أليس الدين الإسلامي يحث المسلمين أن يكونوا إخوة متآلفين متفقين على دينهم وعلى أصوله وعلى جميع مصالحه ويرغبهم في هذا الأصل غاية الترغيب ويذكر لهم ثمرات ذلك العاجلة والآجلة ويزجرهم أشد الزجر عن كل ما ينافي ذلك من التباغض والتدابر والتقاطع، ويخبرهم أن إصلاح ذات البين هو السبب والطريق لصلاح الأحوال، كما أن فساد ذات البين هو السبب في الأضرار الدينية والدنيوية، فهل يوجد طريق لصلاح الأحوال الكلية غير هذا الطريق الذي يرشد إليه الدين بجميع وجوهه؟

وقل للشاك في كمال الدين إذا قال: نحن نعترف بما احتوى عليه الدين الإسلامي من الإصلاحات الدينية والقلبية أو الأخلاقية، وما احتوت عليه أحكامه من العبادات والمعاملات من الحسن الذي لا مزيد عليه ولا يمكن أن تقترح العقول أحكامًا مثل أحكامه فضلًا عن كونها تقترح أعلى من أحكامه، ولكن نشك في احتوائه على المنافع الدنيوية وعلى الصناعات وعلى علوم السياسة .

فأجبه قائلًا: أليس فيه قواعد وأصول من علم الاجتماع والسياسة لا يمكن أن يخترع المخترعون أحسن منها؟ أليس فيه الأمر بالمشاورة في جميع الأمور الداخلية والخارجية؟ فما

المقصود من المشاورة إلا النظر في المصالح والمضار والخير والشر وتقديم ما تعينت مصلحته أو ترجحت، واجتناب ما تعينت مضرته أو ترجحت، فالسياسة الحكيمة كلها ترجع إلى الشورى في الأمور، ألم يقل الله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ١٣]. ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠]؟ أي سخر لنا جميع ما في الأرض لننتفع بغرسها وزرعها وحرثها واستخراج معادنها والانتفاع بصناعاتها، وكذلك قال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]. فأطلق المنافع فشملت المنافع الدينية والمنافع الدنيوية خصوصًا منافع الأسلحة المتنوعة التي تجري مع الزمان والأحوال والصناعات التي ينتفع بها الناس في كل شيء، ألم يقل الله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]؟ فهذا يدخل فيه كل قوة عقلية وسياسية وتعلم الفنون الحربية والركوب والرمي وتوابع ذلك، وكذلك أمر بأخذ الحذر من الأعداء، وذلك بالتخلص والتحصن والتحرز منهم بكل وسيلة تحصل بها الوقاية والتحرز، وكم في كتاب الله وسنة رسوله من الأمر بالجهاد ومقاومة الأعداء فيدخل في ذلك كل وسيلة تعين على الجهاد في سبيل الله؛ فعلم بذلك أن الدين الإسلامي قد احتوى على جميع المصالح والخيرات العاجلة والآجلة والنفع الكلي والجزئي والديني والدنيوي، فهذه كلمات كليات يعرف تحقيقها بتتبع الأنواع والأجناس والأفراد وتحقيق الأمر فيها، وهذا من أكبر الآيات والبراهين أنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

ومما يدل على عظمة هذا الدين أن الله أباح جميع الطيبات من المآكل والمشارب والملابس والمناظر والمناكح والتمتعات، وحرم كل خبيث من هذه الأمور ضار لصاحبه وللمصلحة العمومية، وأنه ما أمر بشيء فقال العقل الصحيح الحر: ليته نهى عنه. ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته أمر به. ولا أخبر بما تحيله العقول، بل إخباره نوعان: نوع تشهد العقول بصحته وكماله وفضله، ونوع لا تهتدي إليه ولا تعرفه لعدم وصولها إليه؛ لكونه من عالم الغيب الذي لم تشاهده ولا شاهدت نظيره، وهذا النوع قد أرى الله عباده في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات ما يدل على صدق ما أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب السماوية.

من نظر وأمعن النظر في هذه الأصول التي تلوناها ونبهنا عليها تنبيهًا مختصرًا علم علمًا يقينيًّا أن الدين الإسلامي هو الدين الحق في علومه وعقائده وأخلاقه وأعماله وسياسته وحسن معاملته للخلق، وإحسانه إلى الموافق والمخالف، وأنه يدعو إلى سبيل الحق بالحكمة التي هي سلوك الطرق والوسائل القولية والفعلية التي يستعان بها على الدعاية إلى سبيل الله الذي هو الصراط المستقيم، وأنه يأمر باللين وعدم المخاشنة في مخاطبة المحاربين للدين، فكيف بذلك مع المؤمنين؟ فيقول لرسوله ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]. ثم انظر إلى ما يخاطب الله به أعداءه الكفار وتخاطبهم الرسل فإنه الطريق الأقوم لهذا الطريق والدعاية إلى الخير، وبه يحصل من المنافع ودفع المضار ما لا يحصل بالمخاشنة والمشاتمة؛ فإنها طريقة الجاهلين الحمقى وإن حسنت مقاصدهم، فقد ساءت طرائقهم.

وهذا آخر ما يسر الله من هذه الرسالة الأصولية المحتوية على قواعد وأصول مختصرة جامعة، ونسأله تعالى أن يثبتنا على دينه وصراطه المستقيم إنه جواد كريم، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

قال ذلك وكتبه الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين، ونقلته من خط شيخنا المكرم متع الله لنا بحياته، وأنا الفقير إلى رب البريات عبده وابن عبده عبد العزيز بن صالح بن دامغ، وذلك بغاية من العجلة.

حرر في ١ جمادى الثاني سنة ١٣٦٦هـ.



مجموع مؤلفات ابن سعدي (٢٣)

توضيح معاني الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية

لشمس الدين ابن القيم

تعليق واختصار
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

تحقيق
ناصر محمدي محمد جاد

يطبع لأول مرة

وصف النسخة المعتمدة في التحقيق

اعتمدتُ في إخراج هذا الكتاب على نسخة خطية بخط الشيخ السعدي - رحمه الله- كتبت بخط النسخ، نسخت سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م، وعدد أوراقها ٣٩ لوحة وجه وظهر، بحبر أسود، وبعض العناوين كتبت بالمداد الأحمر، وبعضها بالأزرق، وهي محفوظة بدارة الملك عبد العزيز، بالمملكة العربية السعودية، بمسلسل رقم ٣٤، وأشير في بطاقة الكتاب المحفوظة بالدارة إلى أن مصدرها هو الشيخ مساعد بن عبد الله السعدي.



نماذج المخطوط المعتمد في التحقيق

بسم الله

ولتعلم ان هذا التعليق على اختصاره قد حوى جميع المقاصد والعقائد الدينية
وحصل به التوضيح التام للكافية الشافية حيث اخترت فيه اسهل العبارات
واوضحها فأغنى عن شرح كبير وعمل كثير وتضمن من البراهين النقلية
والعقلية والرد على أصناف المبتدعين وسياق الحجج على وجه واضح قاطع للأباطيل
ومتى أردت معرفة مقداره فتأمل كل فصل من فصول الكافية واستعن
عليه بما يقابله من هذا التعليق [illegible] وضحها توضيحا بعبارة سهلة
لا تعقيد فيها ولا اشكال وذلك فضل الله ومنه واحسانه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

أما بعد فقد أردت أن أستعين الله تعالى على توضيح معاني الكافية الشافية
في الانتصار للفرقة الناجية لشمس الدين ابن القيم على وجه الاقتصار
وحل نظمها الى معناه المنثور فقط من غير زيادة على ذلك الا ان اقتضت الحال
الزيادة ولم اشتغل بحل لفظها لتيسر حلها على الراغب من كتب اللغة
ومعاجم العربية لأن الكتاب المذكور حوى من علم الأصول الدينية
والعقائد الشرعية والأخلاق المحمدية والعلوم الأخروية والدلائل القواطع
والبراهين السواطع ما يحقق عليه [illegible] الكتاب وارجو الله تعالى أن يعينني
على ما قصدت وينفعني وإخواني بما أردت ويجعل عملنا خالصا لوجهه
موافقا لمرضاته وأن ينزل علينا من بركاته وخيره وجوده ما تصلح به
أمورنا وييسر لنا الطريق الموصل الى رحمته وكرامته
إنه جواد كريم

[illegible]

صورة اللوحة الأولى من المخطوط

١٢

كغلاة الجهمية ونجى الله أهل السنة المحضة من هذه الأقوال الباطلة والمذاهب الفاسدة وتبرءوا منها كما تبرأ موسى بن عمران من اليهود الذين يزعمون أنهم أتباعه وهم من أكبر أعدائه وكما تبرأ علي بن أبي طالب من الرافضة الذين هم إخوان اليهود الذين يزعمون أنهم أتباعه وشيعته فأهل السنة من الله عليهم بما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات ما لله من الأسماء الحسنى والصفات العظيمة العليا وما لله من الأفعال المتعلقة بمشيئة الله وقدرته التي حقيقتها أنه فعال لما يريد ومع ذلك قالوا فقد جعل الله للعباد قدرة ومشيئة تقع بها أفعالهم بالاختيار لا بالاضطرار وقدرتهم ومشيئتهم مخلوقة لله تعالى فأثبتوا الشرع والقدر والحكمة وصدقوا بكل ما أخبر الله به ورسوله عن الله وعن مخلوقات الله والحمد لله رب العالمين

فصل في مقدمة نافعة قبل التحكيم

وذلك أن المؤلف رحمه الله جعل هذا الكتاب حكماً بين مذهب أهل السنة والجماعة المثبتين وبين الجهمية وغيرهم من المعطلين ولا يمكن الإنسان أن يحكم بالحق والعدل ولا يقبل ذلك حتى يتخلق بالأخلاق الجميلة ويتخلى عن الأخلاق الرذيلة فأعظم الأخلاق الجليلة الواجبة خصوصاً في هذا المقام هو التمسك بكتاب الله وسنة رسوله وأن يكون هذا الأمر هو قاعدة العبد وأخيته التي يرجع إليها ويرد ما تنازع فيه المتنازعون إليه فما وافق ذلك فهو الحق المقبول وما نافاه وضاده فهو الباطل المردود وما لا يعلم موافقته ولا منافاته توقف فيه حتى يتبين أمره فإذا بنى العبد أقواله وأفعاله ونظره ومناظرته على هذا الأصل أفلح ونجح وكان على ثقة من أمره ويقين من مذهبه ولكن لا يعلم هذا الأمر إلا من كان عارفاً بالأدلة الشرعية ومراتبها وأما الجاهل بها فيغلط أكثر مما يصيب فعليه أن يتعلم ثم يتكلم فالجاهل المركب الذي لا يدري ولا يدري أنه لا يدري والجاهل البسيط الذي لا يدري

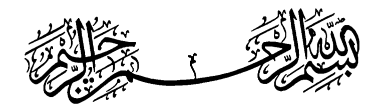
وهو

صورة لوحة من داخل المخطوط

٧١

لها ثلاث مقامات: إما أن يشهد بما دل عليه الشرع وذلك ما اشتمل
عليه الشرع وذلك بما اشتمل عليه الدين من المحاسن والأحكام
ودرء المصالح وإما أن لا يهتدي العقل لتفاصيلها كأمور
البرزخ والجنة والنار مما ليس للعقول مجال في معرفتها
وإنما العقل يسلم فيها للشرع لتيقنه لصدق الشارع
وأنه لا يقول إلا الحق وإما أن يأتي الشرع بما تحار
فيه العقول ولا تعرف وجهه ولا حكمته وهذا
الذي اصطلح الفقهاء على تسميته بالتعبدي
فهذه الأمور الثلاثة هي التي ترد الشرائع
بها وأما أنها ترد بأمر يشهد العقل الصريح ببطلانه
فهذا من المحال الممتنع لكون الحق لا يتناقض والأمور
اليقينية لا تتعارض فحيث توهمت التعارض
في ذلك فهو لأحد أمرين لا ثالث لهما
إما أن العقل فاسد ليس بصحيح يظنه صاحبه
عقلاً وإنما هو جهل وخيال حقيقة وهو
خيال مخالفة ما هذا شأنه لا عبرة به وإما
أن النقل غير صحيح فالنقل غير الصحيح ليس
من الشرع فلا تتصور المعارضة وإذ لا ...

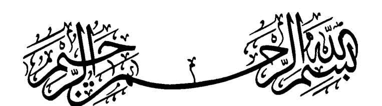
صورة اللوحة الأخيرة من المخطوط



وليعلم أن هذا التعليق على اختصاره قد حوَى جميع المقاصد والعقائد الدينية، وحصل به التوضيح التام **للكافية الشافية**؛ حيث اختير فيه أسهل العبارات وأوضحها، فأغنى عن شرح كبير، وعمل كثير، وتضمن من البراهين النقلية والعقلية، والرد على أصناف المبتدعين، وسياق [الحجج][1] على وجه واضح قاطع لكل مُبطِلٍ، ومتى أردتَ معرفة مقداره فتأملْ كل فصل من فصول **الكافية**، واستَعِنْ عليه بما يقابله من هذا التعليق تجده وضّحها توضيحًا بعبارة سهلة لا تعقيد فيها ولا إشكال، وذلك فضل الله ومنه وإحسانه.



(١) في المخطوط: «الحج»، والمثبت هو الصواب.



الحمد لله والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فقد أردتُ أن أستعينَ الله تعالى على توضيح معاني **الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية** لشمس الدين ابن القيم على وجه الاختصار، وحَلِّ نظمها إلى معناه المنثور فقط من غير زيادة على ذلك، إلا إذا اقتضتِ الحال الزيادة، ولم أشتغلْ بحل لفظها؛ لتَيَسُّرِ حلها على الراغب من كتب اللغة ومعاجم العربية؛ لأن الكتابَ المذكورَ حوَى من علم الأصول الدينية والعقائد الشرعية والأخلاق المحمدية والعلوم الأخروية، والدلائل القواطع والبراهين السواطع ما لم يحتوِ عليه كتابٌ.

وأرجو اللهَ تعالى أن يُعينَني على ما قصدتُ، ويَنفعَني وإخواني بما أوردتُ، ويَجعلَ عملَنا خالصًا لوجهه، موافقًا لمَرضاته، وأن يُنزِلَ علينا من بركاته وخيره وجوده ما تَصلُحُ به أمورُنا، ويُيسر لنا الطريق الموصل إلى رحمته وكرامته... إنه جواد كريم.



فصل

أما مقصودُ هذا الكتاب ومضمونه فهو:

- معرفة الله تعالى؛ بإثبات ما لله من صفات الكمال، ونعوت الجلال.
- وتنزيهه عن كل نقص وعيب ومشابهة المخلوقات.
- وتقرير هذا الأصل العظيم بأدلته من الكتاب والسنة والعقل والفطرة وعبودية الله ومحبته والإنابة إليه.
- ودفع ما يعارض هذا الأصل.
- والرد على المبتدعين المعارضين.
- وذم الغافلين المعرضين.
- ومدح أهل السنة القائمين بهذا الأمر علمًا وعملًا وحالًا ودعوةً، وما لهم عند ربهم من الكرامة.

ولا ريب أن هذا أصل العلوم كلها وأساسها وقاعدتها، كما أنه أفضلها وأفرضها وأشرفها وأنفعها.

ولما كان هذا الموضوع لهذا الكتاب ومبناه على تقرير صفات الكمال ونعوت ذي العظمة والجلال، وكان هذا أقوى الدواعي إلى محبة الله؛ ذكَر المصنف - رحمه الله - في الفصل الأول منها أن حكم المحبة ثابت الأركان؛ لتوفر شروطه، وانتفاء موانعه، وأنه

لا سبيل للعذّال واللوّام إلى نقضه؛ لأنه قد تم وانبرم[1] ونفذ، فلم يبقَ طريق إلى حله، بل هو على الدوام في نموٍّ وازدياد.

ثم شبب[2] - رحمه الله - بالمحبة كعادة الشعراء يُشبِّبون بأعلى محبوباتهم، ثم ينتقلون منها إلى الأغراض التي يقصدونها في غاية اللطف، فيقع ذلك من الحُسن في أعلى المراتب وأعذب المشارب:

- فإن كان **الغرض مدحًا** انتقلوا إليه من المحبوب الموصوف بالصفات التي يذكرونها، فيكون مضمون ذلك أن الغرض المنتقل إليه أعلى وأشرف من المنتقل منه.
- وإن كان **الغرض** الذي يقصدونه **ذمًّا وقدحًا**، وتخلصوا إليه من وصف ذلك المحبوب، كان ذلك المنتقَلُ إليه فيه من القبح والذم والقدح أبلغ مما في هجر المحبوب، وصدِّه المنتقَلِ إليه منه.

فلذلك سلَك المؤلف هذا المسلك، فلما شبَّبَ بالمحبوبة المذكورة، وشدة تعلّق القلب بها، وتمنّى وصْلَها في الخيال، وأن مُحِبَّها اندهش في جمالها، وهام في حبّها، وأنها مَنَّتْه الوصالَ، وظنَّ ذلك صِدقًا وحقيقة - والحال أنه خيالٌ رآه في المنام أو تخيله في الوهم - فقال لها في تلك الحال[3]:

إن كنتِ كاذبةَ الذي حدَّثْتِني[4] ....

---

(١) انبرم: أحكم. المصباح المنير مادة (ب ر م).

(٢) شبب بالمرأة قال فيها الغزل والنسيب. والمقصود قال كلامًا جيدًا مستحسنًا. لسان العرب مادة (ش ب ب).

(٣) الشعر من قصيدة ابن زفيل الحنبلي التي رد فيها على الأشاعرة وأضرابهم. غاية الأماني في الرد على النبهاني ١/ ٥٤٦.

(٤) صدر وعجزه:

.... طَمَعا وَلَكِن الْمَنَام دهاني

جهمِ بنِ صفوانٍ[1] وشيعته [الألى]   فعليكِ إثمُ الكاذبِ الفتانِ

ثم جعل يذكر مذهب الجهمية[2] المنتسبين إلى ذلك الرجل المسمى بجهم بن صفوان، وكان معروفًا بين الأمة والأئمة بهذه البدعة الشنعاء الجامعة لشرور كثيرة؛ أعظمها نفي الصفات لله تعالى التي تواترت في الكتاب والسنة، واتفق عليها جميع أهل السنة إلا هؤلاء المبتدعة ومن سلك سبيلهم؛ حيث زعموا أن الله معطَّل عن صفات الكمال، وأنه ليس على العرش ربٌّ يُعبد، وأن حظَّ العرش منه كحظِّ الأرض السابعة السفلى - تعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا - وأنه ليس له سمعٌ ولا بصرٌ، ولا قدرة ولا علم ولا إرادة ولا رحمة، ولا وجه ولا يَدانِ، ولا له صفة تقوم به؛ إنما هو ذات مجردة عن الأوصاف، خالية عن النعوت.

وهذا مُجرد تصورِه يُعلم بطلانهُ ومخالفتهُ للسمعِ والعقلِ.

وزعموا مع هذا أنه ليس له خليل من خلقه؛ فنفوا محبة الله وخُلَّته لمن يختاره من خلقه، وأنه لم يتخذ إبراهيم خليلًا[3]، ولا كلَّم الله موسى تكليمًا[4]، فأنكروا صريح الكتاب والسنة،

---

(١) جهم بن صفوان أبو محرز الراسبي مولاهم السمرقندي، قال عنه الذهبي: الكاتب المتكلم، أس الضلالة، ورأس الجهمية، كان صاحب ذكاء وجدال، وكان ينكر الصفات وينزه الباري عنها بزعمه، ويقول بخلق القرآن، ويقول: إن الله في الأمكنة كلها (ت١٢٨هـ). سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٦، والأعلام ٢/ ١٤١.

(٢) هم المنسوبون إلى جهم بن صفوان المقتول سنة ١٢٨هـ، وهو من أهل خراسان، سموا جهمية؛ لأن الجهم اشتق كلامه من كلام (صنف من العجم بناحية خراسان)، ويقال: إنهم شككوه فى دينه حتى ترك الصلاة أربعين يومًا. وقال: لا أصلي لمن لا أعرفه. ثم اشتق هذا الكلام وبنى عليه ما بعده، وتطلق الجهمية أحيانًا بمعنى عام ويقصد بها نفاة الصفات، وتطلق أحيانًا بمعنى خاص، ويقصد بها الذين تابعوا جهمًا في آرائه، وأهمها نفي الصفات، والقول بالجبر، والقول بفناء الجنة والنار. الملطي: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص٩٦، البغدادي: الفرق بين الفرق ص٢١١، الإسفرائيني: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ص٦٣.

(٣) راجع سورة النساء، الآية: ١٢٥.   (٤) راجع سورة النساء، الآية: ١٦٤.

وفسروا الخليل خليل الله بأنه الفقير إلى الله، ومن المعلوم أن هذا الوصف يدخل فيه الأبرار والفجار، وأهل الجنة وأهل النار؛ فكلهم مفتقرون إلى الله، ليس لأحد غِنًى عنه طَرْفَةَ عين، فلزم من هذا مساواة خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الخلة لكل أحد، وهذا من أبطل الباطل.

ولما كان هذا القول متقرِّرًا قبحُه عند سلف الأمة وأئمتها وأمرائها وعامتها، وأظهر الجعد بن درهم[1] شيخ الجهم بن صفوان هذا القول؛ طلبه ولاة أمر المسلمين، فأخذه خالد بن عبد الله القسري[2] فأوثقه وخرج به للمصلى يوم عيد الأضحى فقال: أيها الناس اذبحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم؛ فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولا كلم الله موسى تكليمًا. ثم نزل فذبحه بالمصلى فشكر الناس له ذلك[3].

ثم تمَّمَ المؤلفُ مقالة الجهمية في الفصول التي بعد هذا، فذكر أن مذهبهم الجبر[4]، وأن

---

(١) الجعد بن درهم مؤدب مروان الحمار، هو أول من ابتدع بأن الله ما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولا كلم موسى، وأن ذلك لا يجوز على الله. قال المدائني: كان زنديقًا، قتله خالد بن عبد لله القسري يوم العيد. (ت نحو ١١٨هـ). سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٣٣، والأعلام ٢/ ١٢٠.

(٢) خالد بن عبد الله بن يزيد أبو الهيثم البجلي القسري الدمشقي، أمير العراقين لهشام، وولي قبل ذلك مكة للوليد بن عبد الملك، ثم لسليمان.كان جوادًا ممدحًا معظمًا عالي الرتبة من نبلاء الرجال، لكنه فيه نصب معروف، سجن وعذب بالحيرة، ثم قتل في أيام الوليد بن يزيد،(ت١٢٦هـ) سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٢٥، والأعلام ٢/ ٢٩٧.

(٣) أخرجه البخاري في أفعال العباد قال: حدثنا قتيبة، حدثني القاسم بن محمد، ثنا عبد الرحمن بن حبيب، عن أبيه عن جده، ثم ذكره، انظر: عقائد السلف، كتاب خلق أفعال العباد ص ١١٨، والدارمي في الرد على الجهمية ص ١١٣-١١٤. وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص٢٥٤ بسنده إلى عبد الرحمن بن حبيب بن أبي حبيب، عن أبيه عن جده، ثم ذكره. وأورده الذهبي في العلو: مراجعة وتصحيح عبد الرحمن عثمان، ص ١٠٠، وعزا القصة أيضًا إلى ابن أبي حاتم في الرد على الجهمية، انظر: مختصر العلو للألباني ص ١٣٣-١٣٤.

(٤) الجبر هو القول بأن الإنسان مجبر في أفعاله، وأنه لا اختيار له ولا قدرة على فعل شيء؛ =

العبد ليس بفاعل عندهم على الحقيقة، وأن فعله بغير اختيار، بل هو بمنزلة هبوب الرياح، وتحرك الأشجار، وحركة النائم، ونحوها من الحركات الحاصلة بغير اختيار العبد.

ومن المعلوم الفرق بين الحركة الاختيارية الواقعة بقدرة العبد وإرادته، والحركة القسرية التي لا إرادة له فيها ولا اختيار، وأن هذا الفرق ثابت بالشرع والعقل والحس، وأن من سوى بين ذلك فقد خالف الشرع والعقل والفطرة، وأنه يلزم من قوله: إن الله يعاقب العبد على ما ليس من فعل العبد، بل هو من فعل الله، ولكنهم يجيبون عن هذا بجواب باطل؛ فإنهم إذا قيل لهم: هذا ظلم يُنَزِّه اللهُ عنه ويتحاشى، فسَّروا الظلم بأنه التصرف في ملك الغير، وأما الله فإنه مالك كل شيء، متصرف في العباد ليس بظلم على أي وجه كان، فيكون الظلم عندهم محالًا غير ممكن، ويكون تنزيه الله نفسه عن ظلم العباد تنزيهًا عن أمر غير ممكن.

وهذا معلوم البطلان بضرورة الشرع والعقل؛ فإن الظلم الذي تنزه الله عنه أن يهضم أحدًا من حسناته أو يعذبه بغير جناياته؛ لأنه حَكَمٌ عَدْلٌ على صراط مستقيم في أقواله وأفعاله وثوابه وعقابه، فهذا التنزيه الحقيقي المتضمن الثناء على الله بالعدل الكامل والحمد، لا ما يقوله الجهم؛ فإنه لا يتضمن المدح، بل يتضمن القدح، هذا هو المعقول[1].

= فهو كالريشة المعلقة في الهواء تقذف بها الرياح كيف تشاء.

والجبر في اصطلاح أهل الكلام يستعمل كثيرًا بمعنى إسناد فعل العبد إلى الله سبحانه وتعالى، وهو خلاف القدر؛ وهو إسناد فعل العبد إليه لا إلى الله، فالجبر إفراط في إلغاء إرادة العبد بحيث يصير العبد بمنزلة الجماد؛ لا إرادة له ولا اختيار، والقدر تفريط في ذلك بحيث يصير العبد خالقا لأفعاله بالاستقلال عن إرادة الله تعالى.

البغدادي: الفرق بين الفرق ١٢٨، التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٢٨٢، ٢٨٣.

(١) قلت في بحث لي (رسالة الماجستير: التحقيق في تقرير أدلة الإكفار والتفسيق للإمام يحيى بن حمزة، دراسة مقارنة وتحقيق ١/ ١٥٤ وما بعدها):

والبحث فى هذه القضية بدأ مبكرًا عند العرب قبل الإسلام كما قال الحسن البصري: فالله سبحانه وتعالى بعث محمدًا ﷺ إلى العرب وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله، ويقولون: =

ثم ذكر في الفصل الذي بعده أن الجهمية كما نفوا صفاته فإنهم نفوا حكمة الله وغاياته

= إن الله سبحانه وتعالى قد شاء ما نحن عليه وأمرنا به.

والله سبحانه قد رد على أمثال هؤلاء المحتجين بعمل آبائهم، وبأن الله أمرهم بها فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف، الآية ٢٨].

وقد كانت هذه القضية مثار جدل وخلاف أيام الرسول ﷺ حين توجهت إليه استفسارات الصحابة بشأن هذه المسألة، فكان النبي ﷺ ينهى القوم أحيانًا عن الخوض في مثل هذه الأمور، فيقول لهم: **«إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه»**. [أخرجه الترمذي، كتاب القدر - باب ما جاء في التشديد في الخوض فى القدر ٤/ ٤٤٣ (٢١٣٣)].

وكان يبين لهم أحيانًا وجه الصواب على حسب ما يقتضيه الموقف، فيقول لهم: **«اعملوا فكل ميسر لما خلق له»**. [أخرجه البخارى كتاب القدر - باب وكان أمر الله قدرًا مقدورًا ٨/ ١٥٤، ومسلم، كتاب القدر - باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ٤/ ٢٠٤٠ (٢٦٤٧)].

وفى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ظهرت نزعة تحتج بالقدر؛ حيث أتي بسارق، فقال له: ما حملك على سرقتك؟ فقال: قضاء الله عليَّ يا أمير المؤمنين. فأمر بقطع يده، ثم ضربه ثلاثين جلدة، ثم قال: قطعت يده بسرقته وضربته لكذبه على الله تعالى [انظر ينابيع النصيحة لشرف الدين ص ١٨٥].

ومع الابتعاد عن عصر النبوة أطلت هذه القضية مرة أخرى على المسلمين، حين تحولت الدولة الإسلامية إلى دولة أموية، فظهر أعوان لدولة بني أمية يؤصلون فكرة أن الإنسان مجبر على فعله، وأن أفعال الخلفاء فى الرعية إنما هو من قضاء الله. فحدث نوع من التسلط السياسي على الرعية.

وقد أراد الجهم بن صفوان أن يسوغ مسلك بني أمية مع الرعية، فحاول أن يؤول الكثير من الآيات القرآنية لتؤيد مسلكهم، فادعى أن مسلكهم هذا هو من قضاء الله، وأن من تمرد فإنما يتمرد على قضاء الله، فذهب إلى أن الإنسان كالريشة المعلقة في الهواء تصرفها الرياح كيف تشاء، والأعمال كلها مخلوقة لله، ونسبتها إلى العبد ليست إلا على سبيل المجاز كما يقال: طلعت الشمس، وجرى الماء، وأثمرت الشجرة.

واستمرت هذه الدعوة فترة إلى أن زاد ظلم بعض الولاة، فظهر التيار المضاد الذي نادى بحرية الإرادة الإنسانية ليكون الإنسان مسئولًا عن أفعاله، فالإنسان مسئول عن أفعاله، ولو كان مجبرًا لكان ظلمًا من الله تعالى أن يحاسبه على فعله، وأنه منزه عن الظلم، بل إن الله سبحانه أمر الإنسان ونهاه، فلا بد أن يمنحه القدرة والاستطاعة والحرية التي يستطيع بها أن يباشر أفعاله. =

المقصودة في أمره وخلقه[1]؛ فإن الله تعالى حكيم، ووصف نفسه بالحكمة فاتفق السلف

= وهؤلاء هم المعتزلة الذين تبنوا هذه الآراء في هذه القضية، وقد ظهر اتجاه آخر كرد فعل لآراء المعتزلة، وهو الاتجاه الأشعري، حيث قال بالكسب بدلًا من الجبر، فالإنسان كاسب لأفعاله غير مجبر عليها، ليصح أن يُسأل، لكن لو أجبر على فعل معين فلا تصح مساءلته.

فالإنسان عند أصحاب هذا الاتجاه كاسب وليس فاعلًا ولا خالقًا على الحقيقة، وتعنى نظرية الكسب مباشرة القدرة الحادثة لأفعالها، فالفعل لا يقع بالقدرة، بل يقع مصاحبًا لها، كالري لا يقع بالشرب بل مصاحبًا له.

وأما سلف الأمة فقد ذهبوا إلى أن أفعال العباد خلق لله سبحانه وتعالى وكسب للعباد كمنزلة الأسباب للمسببات؛ فقدرة العباد ومشيئتهم تحت قدرة الله ومشيئته.

فالسلف يؤمنون بأن الإنسان فاعل حقيقة، وموصوف بفعله حقيقة، فهو الصادق وهو الكاذب، وقدرته مؤثرة فى فعله، ولكن الله تعالى هو الخالق لفعله؛ لأن الإنسان يباشر فعله بأدوات خلقها الله، فكلمة الخلق وصفة الخلق تنسب إلى الخالق، وأوصاف الأفعال تنسب إلى مَن وقع منه الفعل فالله خالق والإنسان فاعل.

راجع: الإمام يحيى بن الحسين: الرد على المجبرة القدرية (مطبوع ضمن رسائل العدل والتوحيد، التي نشرها الدكتور محمد عمارة) ٢/ ٤٤ وما بعدها، القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل ٨/ ٣، ٥٤، وفضل الاعتزال ص ١٤٣، الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٣٦، الدكتور محمد السيد الجليند: قضية الألوهية بين الدين والفلسفة ص ٢٢٥، الدكتور محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ص ١٤٧.

وراجع أيضًا: السفاريني: لوامع الأنوار ١/ ٣٠٥. وانظر د. حمودة غرابه: أبو الحسن الأشعري (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) ص١١٠).

وابن تيمية: مجموع الفتاوى ١/ ٣٨٩، ٣٩٣، ١٦/ ٢٣٧، وابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٦٤١، ٦٤٢.

(١) قال ابن القيم: قال نفاة الحكمة: لو وجب أن يكون خلقه وأمره معللًا بحكمة وغرض لكان خلق الله العالم في وقت معين دون ما قبله ودون ما بعده معللًا برعاية غرض ومصلحة، ثم تلك المصلحة والغرض إما أن يقال كان حاصلًا قبل ذلك الوقت أو لم يكن حاصلًا قبله، فإن كان ما لأجله أوجد الله العالم في ذلك الوقت حاصلًا قبل أن أوجده فيلزم أن يقال: إنه كان موجودًا له قبل أن لم يكن موجدًا له وذلك محال، وإن قلنا: إن ذلك الغرض والمصلحة لم يكن حاصلًا قبل ذلك الوقت، =

والأئمة أن حكمته تعالى وصف قائم به كسائر صفاته، وأنها وضْعُ الأشياء مواضعها وتنزيلُ الأمور منازلها، وأن الله أَحْسَنَ ما خَلَقَه، وأتقن ما صَنَعه، وله في ذلك من الأسرار والحكم ما لا يُدركه الوصف ولا يحيط به الفكر.

وخالف الجهمية ومن تبعهم في ذلك؛ فلم يثبتوا لله حِكمةً حقيقيةً، بل جعلوا حكمته هي مشيئته، وأنه يجمع بين المختلفين من كل وجه، ويفرق بين المتماثلين من كل وجه، وأنه يرجح مثلًا على مثل بلا مُرجِّح[1].

= وإنما حدث في ذلك الوقت فنقول: حصول ذلك الغرض فى ذلك الوقت. إما أن يكون مفتقرًا إلى المحدث أو لا يفتقر، فإن لم يفتقر فقد حدث الشيء لا عن موجد ومحدث وهو محال، وإن افتقر إلى محدث؛ فإن افتقر تخصص إحداث ذلك الغرض بذلك الوقت إلى غرض آخر عاد التقسيم الأول فيه ولزم التسلسل، وإن لم يفتقر إلى رعاية غرض آخر فحينئذ تكون موجدية الله سبحانه وخالقيته غنية عن الأغراض والمصالح وهذا هو المطلوب. قالوا: وهذه الحجة كما أنها قائمة فى اختصاص العالم بذلك الوقت المعين فهي قائمة في اختصاص كل حادث من الحوادث بوقته المعين. قال ابن القيم: فغاية هذا أنه تسلسل في الآثار لا في المؤثرات وتسلسل في الحوادث المستقلة، وذلك جائز، بل واجب باتفاق المسلمين سوى قول جهم والعلاف، وغاية الأمر أن يكون في الحوادث ما يراد لنفسه وفيها ما يراد لغيره، والحكمة المطلوبة لا تفتقر إلى أخرى تراد لأجلها، وهذا يدل على أن أفعاله تعالى لا يجب تعليلها.

انظر: شفاء العليل ص ٢١٥، وانظر أساس التقديس للرازي ص ٧٨، ٧٩، وغاية المرام ص ٢٦٢.

(١) وقع الخلاف في مسألة تعليل أفعال الله على أقوال:

١- قول من نفى الحكمة وأنكر التعليل، وهؤلاء يقولون: إن الله تعالى خلق المخلوقات، وأمر المأمورات، لا لعلة ولا لداع ولا باعث، بل فعل ذلك لمحض المشيئة، وصرف الإرادة، وهذا مذهب الجهمية والأشاعرة وهو قول ابن حزم وأمثاله.

٢- إن الله فعل المفعولات وخلق المخلوقات، وأمر بالمأمورات لحكمة محمودة، ولكن هذه الحكمة مخلوقة، منفصلة عنه، لا ترجع إليه، وهذا قول المعتزلة ومن وافقهم.

٣- قول من يثبت حكمة وغاية قائمة بذاته تعالى، ولكن يجعلها قديمة غير مقارنة للمفعول.

٤- إن الله فعل المفعولات وأمر بالمأمورات لحكمة محمودة، وهذه الحكمة تعود إلى الرب =

ومع هذا فهذه الحكمة التي يثبتونها ليست صفة قائمة بالله، بل إما أنها مجرد الذات العارية عن الصفات، وأنها راجعة [إلى][1] المفعولات كما قالوا ذلك في كلامه، وأن كلامه مخلوق خلقه في بعض الأجسام كسائر المخلوقات؛ لأن كلامه -على قولهم- غيره، وما كان غيره كان مغايرًا له مخلوقًا له.

وهذا معلوم البطلان؛ فإن صفات الله- التي من جملتها الكلام- داخلة في ذاته، فهو تعالى بأسمائه وصفاته الخالق، وما سواه مخلوق، وسيأتي- إن شاء الله- الكلام في الغيرية هل تطلق على الصفات أم لا؟

ومن مقالة الجهمية التي لم يسبقهم إليها أحد من سلف الأمة وأئمتها قولُهم في مسألة

= تعالى، لكن بحسب علمه، والله تعالى خلق الخلق ليحمدوه ويثنوا عليه ويمجدوه، فهذه حكمة مقصودة واقعة، بخلاف قول المعتزلة فإنهم أثبتوا حكمة هي نفع العباد. وهذا قول الكرامية الذين يقولون: من وجد منه ذلك فهو مخلوق له وهم المؤمنون، ومن لم يوجد منه ذلك فليست مخلوقة له.
٥- قول أهل السنة وجمهور السلف وهو أن لله حكمة في كل ما خلق، بل له في ذلك حكمة ورحمة - كما سبق بيانه في بداية هذه المسألة.
هذه خلاصة الأقوال في هذه المسألة، ويلاحظ أنها تنتهي إلى قولين:
أحدهما: نفاة الحكمة، وهو قول الأشاعرة ومن وافقهم.
والثاني: قول الجمهور الذين يثبتون الحكمة. وهؤلاء على أقوال: أشهرها قول المعتزلة الذين يثبتون حكمة تعود إلى العباد ولا تعود إلى الرب، وقول جمهور السلف الذين يثبتون حكمة تعود إلى الرب تعالى.
ويلاحظ أن من نفى الحكمة والتعليل - كالأشاعرة - دفعه إلى ذلك إلى الميل إلى الجبر وإثبات الكسب والقدرة غير المؤثرة للعبد. ومن أثبت حكمة تعود إلى العباد، جعلوا هذه الحكمة لا تتم إلا بأن يكون العباد هم الخالقين لأفعالهم وهذا قول المعتزلة.
أما أهل السنة فلم يلزمهم لازم من هذه اللوازم الباطلة، ولذلك جاء مذهبهم وسطًا في باب القدر.
عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود: موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٣/ ١٣١١.

(١) ليس في المخطوط، والمثبت يقتضيه السياق.

الإيمان، وأن الإيمان هو إقرار العبد بأن الله خالقه، ومدبره، وأن أعمال القلوب؛ من محبة الله وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتوكل عليه وأعمال الجوارح[1]، وأقوال اللسان في الصلاة والزكاة والصوم والحج، وغيرها من أمور الطاعات؛ غير داخلة في مسمى الإيمان[2].

فلزم من قولهم هذا أن إيمان أصلح الناس وأكملهم إيمانًا، وإيمان أفسق الناس وأقلهم إيمانًا على حدٍّ سواء، فمن لوازم هذا القول الفاسد - المعلوم فساده بالضرورة - أن مَن عرَف الله خالقه فهو مؤمن؛ فإيمان إبليس وفرعون وقارون وعاد وثمود وأبي جهل وسائر الكفرة الذين يعرفون أن الله خالقهم - إيمان تام، ليسوا كفارًا[3]، وهذا اللازم معلوم أنه منكر باطل عند جميع الأمة، حتى الجهمية بأنفسهم ينفون الإيمان عن هؤلاء المذكورين، ويعتذرون عن هذا بأنه ليس في قلوب من حكم الشارع بكفرهم شيء من الاعتراف؛ وإنما هم جاهلون بربهم غير مقرين بربوبيته، وهذا من أبطل الباطل، وهو نوع من المكابرة والسفسطة[4].

---

(١) المعروف عن عامة فقهاء السلف أنهم يُدخلون أعمال الجوارح في مسمى الإيمان إلا أبا حنيفة وحماد بن أبي سليمان والحسين بن الفضل البجلي وصنفًا من المرجئة والغيلانية، فهؤلاء جميعًا لم يُدخلوا عمل الجوارح في مسمى الإيمان، وقد بين ابن تيمية وشارح العقيدة الطحاوية أن الخلاف بين أبي حنيفة وسائر أهل السنة خلاف صوري، وأن النزاع لفظي لا يترتب عليه فساد اعتقاد، وإن كان يترتب عليه خلاف نظري؛ فإن كون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب أو جزءا من الإيمان مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان بل هو في مشيئة الله؛ نزاع لفظي.
الآمدي: أبكار الأفكار ٥/ ٨، ابن تيمية: الإيمان ص١١٤، ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٤٦٢.

(٢) انظر الأشعري: مقالات الإسلاميين ١/ ٢١٤، وابن حزم: الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٣/ ١٨٨، والشهرستاني: الملل والنحل ١/ ٨٨، وابن تيمية: الإيمان ص ١٠٠، والجرجاني: شرح المواقف ٨/ ٣٢٣.

(٣) راجع ردودًا قوية على هذا في شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ١/ ٢٥.

(٤) السفسطة: قياس مركب من الوهميات، والغرض منه إفحام الخصم وإسكاته. والسوفسطائية: لفظ يطلق على من ينكرون الحسيات والبدهيات وغيرها، ولا يثبتون حقائق الأشياء. الخوارزمي: =

فقول المؤلف: «هم عند جهم كاملو الإيمان»[1]. أي: هذا لازم قوله، وإلا فلو قال ذلك وصرح به لكان كفره ظاهرًا لكل أحد، ولكن يستدل بفساد اللازم على فساد القول الملزوم[2].

وأما الإيمان عند الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين فإنه الذي فسره الله ورسوله بالإقرار والاعتراف، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، كما تواترت بذلك النصوص من الكتاب والسنة[3].

وعلى هذا القول الصحيح الصواب المقطوع به؛ فإن الناس يتفاضلون في الإيمان تفاضلًا عظيمًا؛ ولهذا كان من أصول السلف أن الإيمان قول وعمل؛ قول القلب واللسان، وعمل

= مفاتيح العلوم ص٣٩، ١٥١، التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون ٣/ ١٧٣.

(١) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم ١/ ٦٥، وفيه: أي أن الجهمية نفت الحكمة في خلقه تعالى، فعندهم أنه لا حكمة في الأمر والنهي، بل ما ثم إلا الترجيح بمجرد المشيئة، بل خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لمحض المشيئة وصرف الإرادة، وهذا قول جمهور من يثبت القدر وينتسب إلى السنة من أهل الكلام والفقه وغيرهم، وهو قول أبي الحسن الأشعري وأصحابه، وهو قول كثير من نفاة القياس في الفقه من الظاهرية كابن حزم وأمثاله.

(٢) انظر المحصول ١/ ٤١٥، وإرشاد الفحول١/ ٦٥.

(٣) تختلف عبارات السلف فى التعبير عن هذا المعنى. فتارة يقولون: هو قول وعمل، وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية، وتارة يقولون: قول وعمل ونية واتباع سنة، وتارة يقولون: قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح. وكل هذا صحيح. وقد بينه ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٧/ ١٧٠، والإيمان ص١٢٢.

وراجع: ابن أبي شيبة: الإيمان ص ٥٠، والبغوي: شرح السنة ١/ ٣٨، ٣٩، والنووي: شرح صحيح مسلم ١/ ١٤٦، واللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٤/ ٨٣٢، وابن عبد البر: التمهيد ٩/ ٢٣٨، وابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ١٩٤، ١٩٥، وابن تيمية: مجموع الفتاوى ٧/ ١٧٠، وابن حجر: فتح الباري ١/ ٤٧، وابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٤٥٩، والسفاريني: لوامع الأنوار ١/ ٤٠٣.

القلب واللسان والجوارح، وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأن المؤمن الفاسق ناقص الإيمان؛ مؤمن بما معه من الإيمان، فاسق بما معه من المعاصي، تتجاذبه الأوصاف، وله من الثواب، وعليه من العقاب بحسب ما قام به من الخير والشر.

وهذا كما أنه القول الذي أجمع عليه السلف الصالح مستندين فيه إلى نصوص الكتاب والسنة؛ فإنه القول الموافق للعقل والفطرة التي فطر الله عليها عباده، وتفريقهم بين المؤمن المطلق وبين من معه مطلق الإيمان، وسيأتي التنبيه على ذلك إن شاء الله تعالى.

ثم ذكر المؤلف في الفصل الذي بعد هذا أن الجهمية ومن تبعهم أن مذهبهم في أفعاله الاختيارية[١] المتعلقة بمشيئته وقدرته من أفسد المذاهب، وأبعدها عن الصواب؛ فزعموا أن الله كان معطَّلًا في الأزل عن الأفعال، والفعل ممتنع على الله غاية الامتناع، ثم استحال عن هذا الامتناع فصار قادرًا على الفعل من غير صفة تقوم بالله، ومن غير موجب لحدوث هذا الإمكان، وأن حاله قبل ذلك ومعه وبعده على حد سواء.

والذي قادهم إلى هذا القول الباطل نفيهم للتسلسل[٢] في أفعال الله؛ زعمًا منهم أن

---

(١) أفعال الله الاختيارية هي الأمور التي يتصف بها عز وجل فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته، مثل كلامه وسمعه وبصره وإرادته ومحبته ورضاه ورحمته وغضبه وسخطه، ومثل خلقه وإحسانه وعدله، ومثل استوائه وإتيانه ونزوله، ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب والسنة. التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية ٢/ ١٤.

(٢) جاء في شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ١/ ١٣٠: قالوا: والتسلسل لفظ مجمل، لم يرد بنفيه ولا إثباته كتاب ولا سنة، ليجب مراعاة لفظه، وهو ينقسم إلى واجب وممتنع وممكن، فالتسلسل في المؤثرين محال ممتنع لذاته، وهو أن يكون مؤثرون كل واحد منهم استفاد تأثيره مما قبله لا إلى غاية. والتسلسل الواجب: ما دل عليه العقل والشرع، من دوام أفعال الرب تعالى في الأبد، وأنه كلما انقضى لأهل الجنة نعيم أحدث لهم نعيما آخر لا نفاد له، وكذلك التسلسل في أفعاله سبحانه من طرف الأزل، وأن كل فعل مسبوق بفعل آخر، فهذا واجب في كلامه، فإنه لم يزل متكلمًا إذا شاء، ولم تحدث له صفة الكلام في وقت، وهكذا أفعاله التي هي من لوازم حياته، فإن كل حي فعال، =

إثبات التسلسل يقتضي قدم المخلوقات، وأنه لا يمكنهم إثبات حدوثها إلا بهذا الأصل الذي أصلوه، وخالفوا به الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة، وطردوا[1] أصلهم هذا فقالوا: كما أن التسلسل منفي في الماضي فإنه منفي في المستقبل؛ فإن أفعال الله- على قولهم- في المستقبل تعدم كما كانت معدومة عندهم في الماضي، فتفنى الجنة والنار[2]، وأهلهما وما

= والفرق بين الحي والميت: الفعل، ولهذا قال غير واحد من السلف: الحي الفعال، وقال عثمان بن سعيد: كل حي فعال، ولم يكن ربنا تعالى قط في وقت من الأوقات معطلًا عن كماله، من الكلام والإرادة والفعل.

وأما التسلسل الممكن: فالتسلسل في مفعولاته من هذا الطرف، كما تتسلسل في طرف الأبد، فإنه إذا لم يزل حيًا قادرًا مريدًا متكلمًا، وذلك من لوازم ذاته، فالفعل ممكن له بموجب هذه الصفات له، وأن يفعل أكمل من أن لا يفعل، ولا يلزم من هذا أنه لم يزل الخلق معه، فإنه سبحانه متقدم على كل فرد من مخلوقاته تقدمًا لا أول له، فلكل مخلوق أول، والخالق سبحانه لا أول له، فهو وحده الخالق، وكل ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن.

قالوا: وكل قول سوى هذا فصريح العقل يرده ويقضي ببطلانه، وكل من اعترف بأن الرب تعالى لم يزل قادرًا على الفعل لزمه أحد أمرين، لا بد له منهما: إما أن يقول بأن الفعل لم يزل ممكنًا، وإما أن يقول لم يزل واقعًا، وإلا تناقض تناقضًا بينًا، حيث زعم أن الرب تعالى لم يزل قادرًا على الفعل، والفعل محال ممتنع لذاته، لو أراده لم يمكن وجوده، بل فرض إرادته عنده محال وهو مقدور له، وهذا قول ينقض بعضه بعضًا.

والمقصود: أن الذي دل عليه الشرع والعقل، أن كل ما سوى الله تعالى محدث كائن بعد أن لم يكن، أما كون الرب تعالى لم يزل معطلًا عن الفعل ثم فعل، فليس في الشرع ولا في العقل ما يثبته، بل كلاهما يدل على نقيضه.

(١) اطرد الكلام أو الحديث: جرى مجرى واحدًا متسقًا. المعجم الوسيط مادة(ط ر د).

(٢) اعتقاد أهل السنة والجماعة؛ أنَّ الجنة والنار مخلوقتان للبقاء أبدًا. والمقصود بالنار هنا في الإجماع جنس النار، فإنَّ الإجماع مُنْعَقِد على أنَّ جنس النار باقٍ أبدًا. والفِرَق المخالفة لهم عدة أقوال في هذه المسألة تبلغ ستة أقوال أو أكثر، وأهمها قولان:

١- القول الأول من الأقوال الضالة:

أنَّ الجنة والنار تفنيان في وقتٍ؛ ويبقى نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار بالاستصحاب، لا بِتَجَدُّد=

فيهما، والنعيم والعذاب.

= النعيم؛ يعني يحصل لهم نعيمٌ تَتَنَعَّم به أبدانهم ثم يَقِف، وتفنى الجنة. وهذا منهم لأَصْلِ أَصَّلُوه، وهو أنَّ العقل اقتضى أنَّ الحركة التي تبدأ فإنها ستنتهي، وكُلُّ مُتَحَرِّكٍ بَدَأَ بحركة فلا بد أن ينتَهِيَ بلا حركة، لهذا قالوا: أهل النار أيضًا لا يستمرون في العذاب، بل تفنى النار ويبقى أهل النار ليسوا في نعيم، وبذلك يَصِحُّ أنْ يُقَال عنهم: إنهم في عذاب دائم. وهذا منسوب إلى بعض الفِرَق كالجهمية وطائفة أيضًا من غيرهم.

٢- القول الثاني من الأقوال الضالة:

أنَّ الجنة تبقى والنار تبقى، لكن النعيم ينقطع والعذاب ينقطع، وتكون الجنة يفعل الله - عز وجل - بها ما يشاء، والنار يفعل الله بها ما يشاء، وهذا لأجل الأصل السابق ولأجل النظر في القَدَر؛ حيث إنَّ استدامة النعيم عندهم على عملٍ صالحٍ قليل لا يُوَافِقُ العدل، واستدامة العذاب على عمل سَيِّئٍ قليل الزمن لا يوافق العدل، ولهذا نفوا هذا الأصل.

أمَّا قول أهل السنة المعروف هو أنَّ الجنة والنار مخلوقتان لا تبيدان ولا تفنيان أبد الآبدين، يُنَعَّمُ أهل الجنة في الجنة أبد الآبدين، ويُعَذَّب الكفار في النار أبد الآبدين. وقد صح عنه ﷺ أَنَّهُ قال: «**يؤتى يوم القيامة بالموت على هيئة كبش فيُذْبَح بين الجنة والنار، ثم ينادي المنادي: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت**». والتنصيص على الأبدية في نعيم أهل الجنة وخلودهم فيها يدل على أنَّ المكان الذي يخلدون فيه يبقى، حيث قال - عز وجل - في الجنة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وقال في النار: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾. فَهُمْ خالدون في المكان فيقتضي أنَّ المكان أيضًا يبقى أبد الآبدين.

ومن أهل السنة من قال: إنَّ النار منها ما يَفْنَى وينتهي بإنهاء ربِّ العالمين له وهو طبقة أو دَرَكُ الموحّدين من النار، وهي الطَّبَقَةُ العليا من النار؛ لأنَّ الموحدين موعودون بأن يخرُجُوا من النار، فلا يَخْلُد في النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، لا بد لهم من يوم يخرجون منها؛ لأنَّ معهم التوحيد ولو طالت مدتهم، ثم تبقى تلك الطبقة لا أحد فيها فيُفنيهَا الله - عز وجل. وهذا منسوبٌ إلى بعض السلف، وجاء في الأثر عن عمر، وفي إسناده مقال وضعف: أنَّ أهل النار لو لبثوا فيها كقدر رمل عَالج -موضع فيه رمل كثير- لكان لهم يوم يخرجون منها، وليأتين عليها يوم تَصْطَفِقُ أبوابها ليس فيها أحد.

ومما يُنسَبُ أيضًا إلى بعض أهل السنة أنَّ فناء النار ممكن وأنَّ فناءها لا يمتنع، وهو القول المشهور عن الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله وعن غيره كابن القيم وجماعة من المتقدمين، شرح =

وزعم أبو الهُذَيل العَلَّاف المعتزلي[1] أن الفناء يكون في الحركات لا في الذات، وأن أهل الجنة والنار سيأتي عليهم زمان تنقطع حركاتهم، ويبقون في سكون أبدًا، وهذا مما يضحك السفهاء، فلذلك صوَّر المؤلف قوله هذا، وأنه بمجرد تصوره يكفي الإنسان معرفة بسخافته وهُجْنته، وأنه إذا جاء الوقت الذي يزعم العَلَّاف وأتباعه أن من هو في الجنة والنار يكونون كالحجارة والصور، وأن من صادفه ذلك الزمان، وقد امتدت يده إلى ثمرة في الجنة تبقى يده ممتدة على الدوام، ومن رفع لقمة إلى فمه فأبى عليه ذلك الوقت بقيت يده مرفوعة فيها اللقمة وفمه مفتوحًا مستعدًّا لتناولها، وكذلك من كان في تلك الحال مواقعًا لأهله وزوجته بَقِيَا حَجَرَيْن متناكحين على الدوام، فتبًّا لهذه العقول والأذهان، والحمد لله على نعمة السنة والقرآن.

أما مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة العظيمة فهي ما دلّ عليه الكتاب والسنة والعقول السليمة؛ أن الله تبارك وتعالى لم يزل ولا يزال كاملًا متصفًا بجميع صفات الكمال، فيما لم يزل ولا يزال، ولم يزل تبارك وتعالى يفعل ما يشاء في الوقت الذي يشاء؛ فإنه لم يزل فعّالًا لما يريد، والفعل من أعظم صفات الكمال، فكيف يمكن أن يكون في وقت من الأوقات خاليًا من هذا الكمال؟! وهذا يقتضي أنه ما من مخلوق إلا وقبله مخلوق، وما من محدث إلا وقبله حوادث صادرة عن كمال قدرة الله وإرادته.

وهذا لا يقتضي كون شيء من أعيان العالم قديمًا، بل هذا الأصل أكبر دليل على حدوث

= العقيدة الطحاوية للشيخ صالح آل الشيخ ص ٥٤٦.

(١) محمد بن الهذيل بن عبد الله البصري، من متكلمي المعتزلة ورءوسهم، يقال: إنه قارب المائة، وكان مولده سنة خمس وثلاثين ومائة، ومات سنة خمس وثلاثين ومائتين، له من الكتب ولم يصلنا منها شيء: ميلاس، وكتاب في متشابه القرآن.
ترجمته عند ابن النديم: الفهرست ص٢٠٤، الخطيب: تاريخ بغداد ١١/ ٥٥، ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ٣٢٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ١٨٣.

العالم؛ فالتسلسل الباطل باتفاق العقلاء هو التسلسل في العلل والمؤثرين هذا المحال الممتنع، وأما التسلسل في الآثار فإنه ثابت بالأدلة السمعية والأدلة العقلية لا يمكن غيره؛ فالله تعالى لم يزل قادرًا على الفعل، ولم يزل يفعل ولا يزال يفعل.

ثم ذكر المصنف في الفصل الذي بعد هذا مذهب الجهمية في المعاد، وأنه مذهب باطل؛ فإنهم زعموا أن الله تعالى يعدم الخلق عدمًا محضًا العالم العلوي والسفلي، وما [فيهما](١) من المخلوقات كما يزول الظل بالشمس، ثم يعيد هذا المعدوم ثانيًا فيكون المعاد بعينه هو المفنى.

فقالوا: هذا القول الفاسد الذي مجرد تصوره يعلم به بطلانه، ونسبوه للقرآن فجرأ ذلك الفلاسفة(٢) الملاحدة (٣) المنكرين للمعاد؛ كابن سِينا(٤)، ومن قال مقالته على الكفر به، والتكذيب بما جاء به الرسول، فإن الأذهان لا تقبل هذا القول ولا تتصوره بل تحيله، فلما ظنوا أن الرسول جاء بهذا القول أوجب لهم التمسك بما هم عليه من الكفر وإنكار المعاد رأسًا.

---

(١) في المخطوط: «فيها».

(٢) الفلسفة باليونانية: محبة الحكمة، والفيلسوف: محب الحكمة، والحكمة قولية وفعلية، والفلاسفة تطلق على مجموعة من اليونان والمنتسبين إلى الأديان أعملوا عقولهم حتى أنكروا الغيبيات وأصبحوا لا يؤمنون إلا بالمحسوسات. انظر الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٥٨ وما بعدها.

(٣) جمع ملحد والملحد العادل عن الحق، ومن الإلحاد: التكذيب بالبعث والجنة والنار. لسان العرب (ل ح د)، وتفسير القرطبي ١٥/ ٣٦٦.

(٤) الحسين بن عبد الله بن الحسن أبو علي بن سينا البلخي ثم البخاري، صاحب التصانيف في الطب والفلسفة والمنطق، قال عنه ابن القيم: وكان ابن سينا كما أخبر عن نفسه قال: أنا وأبي من أهل دعوة الحاكم. فكان من القرامطة الباطنية الذين لا يؤمنون بمبدأ ولا معاد ولا رب خالق ولا رسول مبعوث جاء من عند الله تعالى. صنَّف القانون في الطب، والشفاء في الحكمة، (ت٤٢٨هـ). سير أعلام النبلاء١٧/ ٥٣١، وإغاثة اللهفان٢/ ٢٦٦، والأعلام٢/ ٢٤١.

فليس هذا القول الذي قاله جهم وأتباعه في كتاب الله، ولا سنة رسول الله، ولا قاله الصحابة رضي الله عنهم، ولا التابعون لهم بإحسان، بل مذهب سلف الأمة وأئمتها ما دلّ عليه الكتاب والسنة؛ أن حقيقة المعاد إعادة الله ما تفرق من أجزاء الأموات، وردَّ ما استحال منها من عين إلى أخرى؛ فإنه جل جلاله لما كان واسع العلم، يعلم ما تنقص الأرض منهم، ولا يخفى عليه ما تفرق في ظلمات الأرض وقَرار البحار، ولا ما استحال في الفيافي[1] والقفار[2]، ولا ما أحالته بطون السباع والطيور والنار، وهو مع ذلك كامل القدرة نافذ المشيئة، إنما أمره إذا أراد شيئًا قال له: كن. فيكون، فإنه يعيد العالمين بجمع ما تفرق، ورد ما استحال، فيكونون هم بأعيانهم.

وهذا القول هو الذي تقبله الأذهان، وتعترف به العقول بأن المعادين هم بأعيانهم الذين أماتهم الله ثم أحياهم، وهو الذي دلّ عليه الوحي؛ فإنه صرّح بأنه يغير هذه الأكوان، وينقلها من صفة إلى صفة، لا يفنيها فناءً محضًا ثم يعيدها، فأخبر تعالى أنه يبدل السماوات غير السماوات والأرض[3]، وهذا تبديل لصفاتها لا لذاتها، كما يبدل الله جلود أهل النار إذا احترقت واستحالت فحمًا يعيدها كما كانت[4].

وإخباره تعالى أنه يقبض السماوات والأرض بيده وهما السماوات والأرض المعروفة[5]، لأنهما لو كانتا فانيتين لم يتصور أن يخبر أنهما[6] يقبضهما، بل يخبر أنه يقبض غيرهما.

---

(١) الفيافي: الصحراء الواسعة المستوية. المعجم الوسيط مادة(ف ي ف).

(٢) القفار: الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا ناس ولا كلأ. المعجم الوسيط مادة(ق ف ر).

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

(٤) كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

(٥) كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧].

(٦) كذا، ولعلها: «أنه».

وكذلك أخبر أن الأرض ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾[1]، وتشهد بما عمل عليها من خير وشر، فلو كانت غيرها من كل وجه لم يكن الخبر على حقيقته، وكان الذي يتحدث ويشهد غيرها، وإنما الله تعالى يسويها ويبسطها، ويبدل صفتها، ويكون لها أحوال متنوعة، وصفات متعددة.

وكذلك السماوات يحصل لها تغير في الصفات وتنوع في الهيئات، فتكون الجبال كثيبًا مهيلًا[2]، ثم تكون كالعهن[3]، وكالهباء المبثوث، ويمد الله الأرض فيجعلها صفصفًا[4] مستويًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا[5]، وتخرج كنوزها من الذهب والفضة كالأسطوان[6] العظيم، وتسجر[7] بحارها فتجعل بحرًا واحدًا.

وكذلك يأذن الله للشمس والقمر فيجتمعان ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾[8]. فالشمس تكور، والقمر يخسف، ويطرحان في النار ليعلم عُبّادهما أنهم كانوا كاذبين، وأنهما مخلوقات مسخرات مدبَّرات لا مدبِّرات.

---

(١) سورة الزلزلة، الآية: ٤.

(٢) أي رملًا متراكمًا. المفردات للراغب ص ٤٢٦.

(٣) يعني: قد صارت كأنها الصوف المنفوش، الذي قد شرع في الذهاب والتمزق. تفسير ابن كثير٨/ ٤٦٨.

(٤) صفصفًا: مستوى من الأرض، أملس، لا نبات فيه. غريب القرآن لأبي بكر السجستاني ص٢٩٩.

(٥) ارتفاعًا وهبوطًا. غريب القرآن لأبي بكر السجستاني ص٦٩.

(٦) الأسطوان جمع أسطوانة وهي السارية والعمود، وشبهه بالأسطوان لعظمه وكثرته. شرح النووي على صحيح مسلم٧/ ٩٨. وهو يشير إلى الأثر الذي أخرجه مسلم٣/ ٤٨(١٠١٣) وفيه: قال رسول الله ﷺ: **«تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت. ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي. ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي. ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئًا»**.

(٧) أي أضرمت نارًا. المفردات في غريب القرآن ص٢٢٤.

(٨) سورة القيامة، آية: ٩.

وكذلك تنشق السماء فتكون وردة كالدهان[١]، وتمور مورًا[٢] فتنثر[٣] كواكبها، وهذا كله تغير لصفاتها، خلاف ما يقول جهم وأصحابه.

ومما يدل على بطلان قول جهم أن جميع العالم العلوي والسفلي يفنى فناءً محضًا؛ أنه قد دلّت الأدلة الشرعية أن العرش والكرسي والجنة وما فيها من الولدان والحور، كل ذلك مخلوق للبقاء لا تفنى ولا تبيد، وهذا متفق عليه بين سلف الأمة إلا الجهمية؛ فإنهم زعموا أن الجنة والنار لم تُخلقا، وأنهما لا يخلقان إلا يوم القيامة[٤]، وبعد ذلك يَفنيان، وهذا من أبطل الباطل.

ومما يدل على فساد قول الجهمية؛ أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا تأكل الأرض أجسامهم، وأن عجب الذنب[٥] لا يَبلى كما يبلى الجسد، بل يبقى منه يركب الله خلقة

---

(١) تصير في حمرة الورد وجريان الدهن، أي تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم، وتصير مثل الدهن لرقتها وذوبانها. الجامع لأحكام القرآن١٧/ ١٧٣.

(٢) تنشق شقًّا بلغة قريش، أي تدور بما فيها، ويقال: تمور تكفأ أي: تذهب وتجيء. التبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم ص٣٩٢.

(٣) أي: تساقطت. تفسير ابن كثير٨/ ٤٦٨.

(٤) يرى أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان كائنتان في الحاضر، وهذا ما قرره الصابوني في كتابه عقيدة السلف أصحاب الحديث؛ حيث قال: «ويشهدون - أهل السنة - ويعتقدون أن الجنة والنار مخلوقتان وأنهما باقيتان لا تفنيان أبدًا، ويؤمر بالموت فيذبح على سور بين الجنة والنار، وينادي منادٍ يومئذ: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. على ما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ».
وقد عقد الإمام الحافظ الأصبهاني التيمي في كتابه الحجة في الرد على الجهمية الذين يقولون: إن الجنة والنار لم تُخلقا، وأورد فيه الأدلة من الكتاب والسنة لبيان بطلان مذاهب الجهمية واختار دليلًا واحدًا من كل منهما. عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني ص ٦٦، الحجة ١ / ٤٧١. اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث، لمحمد بن عبد الرحمن الخميس ص ١٦٠.

(٥) العظم الذي في أسفل الصلب عند العجز وهو العسيب من الدواب. النهاية في غريب الأثر =

الإنسان، فلو كان الفناء يعم الأشياء لاضمحلت أجساد الأنبياء وعجب الظهر من الإنسان[1]، فعلم بذلك بطلان قولهم.

ومما يدل على فساد قولهم ما تواترت به النصوص من بقاء الأرواح بعد الموت في البرزخ[2] منعمة أو معذبة إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة وأراد الله إخراج الموتى من قبورهم أمطر على الأرض مطرًا عظيمًا أربعين يومًا، مطرًا غليظًا كمني الرجال، لا يَكُنَّ منه بيت مدر ولا بيت شعر، فينبت الخلق من ذلك كنبات الطرائيث[3]، فإذا استتمت الأجساد نفخ الروح بالصور، فدخلت كل روح في جسدها الذي كانت تعمره[4].

فهذا هو المعاد الذي دلّ عليه القرآن والنشأة الأخرى، وهذا الذي تصوره الأذهان؛ فلم يقل الله ورسوله: إن الله يعدم خلقه عدمًا محضًا كما قالته الجهمية؛ ولذلك لما كان هذا القول هو الذي عليه سلف الأمة وأئمتها، وكانت أدلته وبراهينه النقل المؤيد بالعقل، لم يمكن ملحدًا ولا زنديقًا أن يقاوم هذا القول أو يورد عليه إشكالًا، وتمكن أهل السنة من كسر الفلاسفة وإبطال قولهم، والحمد لله رب العالمين.

= ٣/ ١٨٤. وهو يشير إلى الأثر الذي في البخاري٦/ ١٦٥(٤٩٣٥م)، ومسلم٨/ ٢١٠(٢٩٥٥). وفيه: «ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا وهو عَجْب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة».

(١) ورد في نونية ابن القيم:

وَكَذَاكَ عَجْبُ الظَّهْرِ لَا يَبْلَى بِلَى ... مِنْهُ تُرَكَّبُ خِلْقَةُ الْإِنْسَانِ

متن القصيدة النونية، ص ١٢.

(٢) يعني القبر؛ لأنه بين الدنيا والآخرة. وكل شيء بين شيئين فهو برزخ. غريب القرآن لأبي بكر السجستاني ص ١٢٦.

(٣) نبت ينبسط على وجه الأرض كالفطر. والطَّرْثُ كل نبات طري غض.لسان العرب، والقاموس المحيط مادة(ط ر ث).

(٤) وهو يشير إلى الأثر الذي في الأحاديث الطوال ص١٠٤(٤٨)، وشعب الإيمان١/ ٥٣٧(٣٤٧)، والبعث والنشور١/ ٣٣٥(٦٠٩)، والمستدرك (٨٧١٨).

ثم ذكر في الفصل الأخير مذهب الجهمية في أفعال الله وأفعال العبيد، وأن مذهبه[1] في الحقيقة نفيُهما؛ فإن قوله في أفعال الله: إن الله لا تقوم به صفة ذات، ولا صفة فعل، وإن فعله عين مفعوله، وإن فعل العبد غير حقيقة- كما تقدم- بل هو مجبور على أفعاله، واقعة بغير اختياره.

وبذلك تجرَّأ العصاة على المعاصي؛ حيث حمل الجهمية أفعالهم على الله، وأنها أفعال الله لا أفعال للعبيد، ومع ذلك ما قضوا للناس بالأمان من عذاب الله، بل يعاقبهم على فعله بهم، والعبد قد كلفه الله ما لا يطيق، والعبد على قولهم يشبه النعامة التي تكلف بحمل الأثقال وبالطيران كما تطير الطيور الجوية؛ لأن صورتها تدلّ على الأمرين، كبيرة الجسم فتكلف بحمل الأثقال، وذات أجنحة فتكلف بالطيران، ومع ذلك لا قدرة لها على واحد منهما، فكذلك العبد على قولهم يكلف بفعل الطاعات، وهو لا قدرة له على فعلها، وعلى ترك المعاصي، وهو لا قدرة له على تركها.

فإذا كان الأمر كما زعموا لزمهم أمران باطلان ونفيان فاسدان؛ تُنفى قدرتهم عليها، ويُنفى صدورها منهم؛ فيصح أن يقال: لم يقدروا على الإسلام والإيمان والصلاة والصيام وغيرها من الطاعات، وكذلك ما صدرت منهم ولا وقعت منهم على وجه الحقيقة، بل ذلك كله مجاز يصح نفيه؛ لأنها قامت بهم كما يوصف المحل بأنه أسود وأبيض ونحوهما من الألوان لقيامه به.

فتصور هذا القول بهذه اللوازم التي يعلم فسادها بأدنى تأمل يكفي العبد في ردها، فإذا اجتمعت [مقالتاه][2] وهما نفي أفعال الله على الحقيقة ونفي أفعال العبد؛ لأن الأفعال واقعة من العبد لا يمكن إنكارها، وهي ليست أفعاله ولا أفعال الله؛ عرفت أن هذا من الأمور الممتنعة؛ لأن وقوع الفعل من غير فاعل يعلم بطلانه ببداهة العقول.

(١) أي: مذهب جهم.

(٢) في المخطوط: «مقالتيه».

فعلم من مجموع أقوال الجهمية المذكورة، وهي نفيهم لصفات الله ولكلامه ولأفعاله، وكذلك لأفعال الإنسان أنه يلزم منه بطلان الخلق والأمر والوحي والشرع والتكاليف، فإذا ضَممتَ إلى ذلك قولَ غُلاتهم بنفي الأسماء الحسنى عرفت أن هذا القول مفضٍ إلى تعطيل رب العالمين والكفر به. فهذا حقيقة هذا القول.

ولكنهم مَوَّهوا هذا النفي والتعطيل، وكَسَوه العبارات المزخرفة التي يغترُّ بها ضعفاءُ العقول، وزعموا أن قصدهم ومرادهم بها تنزيه الله عن المماثلة، فافتتن بمذهبهم من افتتن لهذا السبب، وإلا فلو أصور هذا المذهب بحقيقته لم يقبله أحد وعرف كل أحد أنه كفر برب العالمين.

ولكن نظير افتتان المعطلة[1] بهذا المذهب - حيث زخرفت له العبارات - نظير افتتان بني إسرائيل بالعجل لمّا أخرج لهم السَّامريُّ عجلًا جسدًا له خوار[2]، فافتتنوا بعبادته كما افتتن هؤلاء بعبارته، وأكثر الناس تغرهم الألفاظ وتخدعهم، فلذلك أخذ كل طائفة من طوائف المبتدعة من قول جهم شعبة، وطائفة منهم من أثبت الأسماء والصفات الذاتية دون الصفات الفعلية[3] ....

---

(١) المعطلة قسمان:
معطلة الذات: أي الذين ينكرون وجود خالق للكون.
ومعطلة الصفات: الذين ينفون الصفات الإلهية عن الله وتنكر قيامها بذاته كالجهمية والمعتزلة؛ فإنهم يصفون الله تعالى بما لم يقم به بل بما قام بغيره، أو بما لم يوجد ويقولون: هذه إضافات لا صفات.
ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١٧/ ١٤٨.

(٢) الخوار: صوت البقر. التبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم ص ٢١٠.

(٣) صفات الذات: هي ما يستحقه تعالى فيما لم يزل ولا يزال وهو على قسمين:
أحدهما: عقلي.
والآخر: سمعي. =

فنفوها كالأشعرية[1]، ومنهم من أثبت الأسماء ونفى الصفات والأفعال كالمعتزلة[2]، ومنهم

= **فالعقلي**: ما كان طريق إثباته أدلة العقول مع ورود السمع به، وهو على قسمين:

أحدهما: ما يدل خبر المخبر به عنه ووصف الواصف له به على ذاته؛ كوصف الواصف له بأنه شيء ذات موجود قديم إله ملك قدوس جليل عظيم متكبر، والاسم والمسمى في هذا القسم واحد.

والثاني: ما يدل خبر المخبر به عنه ووصف الواصف له به على صفات زائدة على ذاته قائمة به، وهو كوصف الواصف له بأنه حي عالم قادر مريد سميع بصير متكلم باق. فدلت هذه الأوصاف على صفات زائدة على ذاته، قائمة به كحياته وعلمه وقدرته وإرادته وسمعه وبصره وكلامه وبقائه، والاسم في هذا القسم صفة قائمة بالمسمى. لا يقال: إنها هي المسمى ولا أنها غير المسمى.

وأما السمعي: فهو ما كان طريق إثباته الكتاب والسنة فقط كالوجه واليدين والعين، وهذه أيضًا صفات قائمة بذاته لا يقال فيها: إنها هي المسمى ولا غير المسمى، ولا يجوز تكييفها، فالوجه له صفة وليست بصورة واليدان لهما صفتان وليستا الجارحتين، والعين لها صفة وليست بحدقة وطريق إثباتها له صفات ذات ورد خبر الصادق به.

وأما صفات فعله: فالتي تتعلق بمشيئته، أو التي تنفك عن الذات: كالاستواء، والنزول، والضحك، والإتيان، والمجيء، والغضب والفرح. فهي تسميات مشتقة من أفعاله ورد السمع بها مستحقة له فيما لا يزال دون الأزل؛ لأن الأفعال التي اشتقت منها لم تكن في الأزل، وهو كوصف الواصف له بأنه خالق رازق محي مميت منعم متفضل. فالتسمية في هذا القسم إن كانت من الله عز جل فهي صفة قائمة بذاته وهو كلامه لا يقال: إنها المسمى ولا غير المسمى وإن كانت التسمية من المخلوق فهي فيها غير المسمى.والله أعلم. انظر الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف، للبيهقي ص ٧٢، مجموع الفتاوى ٦/ ٦٨، ٥/ ٤١٠.

(١) نسبة إلى أبي الحسن الأشعري، حاولوا التوفيق بين العقل والنص، فانتهوا إلى أن العقل الإنساني قاصر عن الإحاطة بالحكمة فى أفعال الله، وأن الفعل الإلهي لا يخضع لتقييم العقل البشري وموازينه. من أئمتهم الباقلاني والجويني والغزالي.
الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٤٩، ابن المرتضى: المنية والأمل ص٢٧، والدكتور أحمد صبحي: في علم الكلام (٢) «الأشاعرة» ص٤٧.

(٢) اختلف في سبب تسميتهم المعتزلة؛ فقيل: نسبة إلى اعتزال واصل بن عطاء - أو عمرو بن عبيد =

من نفى الجميع كغلاة الجهمية.

ونجى الله أهل السنة المحصنين من هذه الأقوال الباطلة والمذاهب الفاسدة، وتبرءوا منها كما تبرأ موسى بن عمران من اليهود الذين يزعمون أنهم أتباعه وهم من أكبر أعدائه، وكما تبرأ علي بن أبي طالب من الرافضة[1] الذين هم إخوان اليهود الذين يزعمون أنهم أتباعه وشيعته.

فأهل السنة منّ الله عليهم بما دلّ عليه الكتاب والسنة من إثبات ما لله من الأسماء الحسنى والصفات العظيمة العليا، وما له من الأفعال المتعلقة بمشيئة الله وقدرته التي حقيقتها أنه فعّال لما يُريد، ومع ذلك قالوا: فقد جعل الله للعباد قدرة ومشيئة تقع بها أفعالهم بالاختيار لا بالاضطرار، وقدرتهم ومشيئتهم مخلوقة لله تعالى، فأثبتوا الشرع والقدر

= مجلس الحسن البصري بسبب اختلافهم حول مسألة مرتكب الكبيرة، وقيل: نسبة إلى من اعتزلوا عليًّا رضي الله عنه وامتنعوا عن محاربته أو المحاربة معه، كما فعل ابن عمر وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة، وقيل: نسبة لمن اعتزلوا الحسن بن علي ومعاوية وتفرغوا للعبادة. وقيل: نسبة لمن اعتزلوا رأي الأمة في الحكم على مرتكب الكبيرة، وقد انقسم المعتزلة إلى فرق كثيرة، وهم على تعدد فرقهم ومدارسهم متفقون على خمسة أصول هي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذه الأصول يجمع الكل عليها، ومن لم يقل بها جميعًا فلا يكون معتزليًّا.

المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٢٢٢. الملطي: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص٤١، النوبختي: فرق الشيعة ص٥، والبغدادي: الفرق بين الفرق ص٨١، ويمكن الرجوع إلى كتاب الدكتور: عبد الرحمن بدوي: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ص١٧٣، والدكتور أحمد صبحي: في علم الكلام: المعتزلة (١) ص١٠٥.

(١) الرافضة الذين رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وذلك أنهم أرادوه على أن يتبرأ من أبي بكر وعمر رضى الله عنهما فلم يفعل فرفضوه وتركوه، وهم الذين يشتمون أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ورضي عن محبيهما، ويرون السيف على الأمة. الحجة في بيان المحجة٢/ ٥١٤.

والحكمة، وصدقوا بكل ما أخبر الله به ورسوله عن الله وعن مخلوقات الله والحمد لله رب العالمين.



فصل

في مقدمة نافعة قبل التحكيم

وذلك أن المؤلف- رحمه الله- جعَل هذا الكتاب حَكَمًا بين مذاهب أهل السنة والجماعة المثبتين، وبين الجهمية وغيرهم من المعطلين، ولا يمكن الإنسان أن يحكم بالحق والعدل ولا يقبل ذلك حتى يتخلق بالأخلاق الحميدة، ويتخلى عن الأخلاق الرذيلة؛ فأعظم الأخلاق الجميلة الواجبة؛ خصوصًا في هذا المقام هو التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، وأن يكون هذا الأمر هو قاعدةَ العبد وأَخْبِيَتَه[1] التي يرجع إليها، ويرد ما تنازع فيه المتنازعون إليه؛ فما وافق ذلك فهو الحق المقبول، وما ناقضه فهو الباطل المردود، وما لا يعلم موافقته ولا مناقضته وقف فيه حتى يتبين أمره.

فإذا بنى العبد أقواله وأفعاله ونظره ومناظرته على هذا الأصل أفلح وأنجح، وكان على ثقة من أمره ويقين من براهينه، ولكن لا يصلح هذا الأمر إلا لمن كان عارفًا بالأدلة الشرعية ومراتبها، وأما لجاهلٍ فما يصلح أكثر مما يُصلحه، فعليه أن يتعلم ليتكلم؛ فالجاهل المركب الذي لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، والجاهل البسيط الذي لا يدري وهو يدري أنه لا يدري، كلاهما إذا تكلم بلا علم كان مع تحريم كلامه ضرره أكثر من نفعه، سواء انتسب إلى الحق والباطل.

فإذا وفِّق العبد للعلم، ورزقه الله الخشية والإنصاف بأن يعطي ما عليه كما يأخذ ما له، ويقبل الحق ودليله معه ومع مناظره، فهذا الموفق المحمود. فإذا رزق مع ذلك الهجرة

(١) الأخبية: البيُوت.

إلى الله كل وقت بالإخلاص في سره وعلنه، وأقواله وأفعاله الظاهرة والباطنة، والهجرة إلى الرسول ﷺ في متابعته، ودورانه مع سنته، فقد تم فلاحه وتحقق نجاحه، وحينئذ لا يبالي بكثرة الخصوم، وكلما تكاثروا عليه ازدادت شجاعته، وعرف أن ما معه من الحق لا تثبت له الجبال الرواسي؛ وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم وحزب الله المفلحين لا يقاتلون بكثرة عَدد، ولا قوة عُدد، وإن قتالهم بالإيمان والأعمال الصالحة، ولذلك نصرهم الله على أعدائهم وهم أضعاف أضعافهم، ففتحوا القلوب بالعلم والإيمان، وفتحوا البلدان بالسيف والسنان؛ لأنهم جمعوا بين أنواع الشجاعة؛ فإن الشجاعة حقيقتها هو الزهد في النفس، فالجبان لعدم زهده في نفسه لا يكاد يقدم في موضع واحد، وأما من هانت عليه نفسه وزهد فيها في جانب الحق، وعرف أن إهانتها هو عين إكرامها، فإنه تسهل عليه المشقات، ويهون عليه اقتحام الكربات، فإذا جمع مع هذا الزهد في الثناء الباطل، ولم يبال بلوم اللائمين، وعذل[1] العاذلين، وقدح القادحين، وكان عنده كل مدح سوى مدح الله ورسوله باطلًا، وكل ذم غير ذم الله ورسوله سدًى عاطلًا حصل على الشجاعتين، وفاز بالسعادتين، وكان في جميع أوقاته في سير وسُرر إلى ربه، ووصل بذلك إلى أعلى المقامات وغاية الغايات، ولكنه لا بد أن يُبتلى بالمعرضين، والمعارضين له، الرادين لما قاله، فإذا تيقن أن ما هو عليه هو الحق، وأن ما معهم باطل؛ ما بين بدعة، وفرية، أو رأي مخالف للشرع، أو تشكيك يشكك في الإيمان، أوجب له أن يصدع بأمر الله، وألا يخشى إلا الله.

ولكنه يحتاج مع ذلك إلى صبر جميل وصفح جميل، والجميل من ذلك ضد القبيح، فهو الخالص لوجه الله الموافق لمرضاة الله، الخالي من هوى النفس، وحَمِيَّة الشيطان، والتسخط والشكاية إلى المخلوقين، بل إذا اشتكى فإلى رب العالمين، ويستعمل الهجران في محله حيث كان فيه مصلحة ونصر للحق وتخفيف للباطل، ويحمد الله تعالى على الهداية إلى الصراط المستقيم، فيعلم الحق، ويرحم الخلق؛ فإنه إذا نظر إلى أقدار الله عليهم؛ حيث

(١) العذل: اللوم. المصباح مادة (ع ذ ل).

خذلهم وولاهم ما تولوا، وأبقاهم على ضلالهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، رحمهم ودعا لهم، وحرص على هدايتهم، وبذل ما استطاع في ذلك، فإذا نظر إليهم بعين الأمر والشرع أقام عليهم الشرع وحملهم على أحكامه، وخشي مع ذلك على إيمانه؛ فإن الله مقلب القلوب.

فما استبقيت نعم الله بمثل حمده والثناء عليه، والخوف منه، والحذر من زوالها، والسعي في الأسباب الجالبة لها، والبعد عن كل معصية تزيلها، وخصوصًا الشر المنطوية عليه النفوس، فيستعيذ من نفسه التي بين جنبيه، ويهين نفسه، وإياه والانتصار لها؛ فإنها تقوى وتستفحل على صاحبها حتى يعجز عنها فتجره إلى شرور عظيمة، فإذا جمع الله للعبد هذه الأمور التي أوصى بها المؤلف، ووثق بربه، وأحسن ظنه به، وعلم أن الله ينصر دينه وكتابه وعباده المؤمنين، وأن مَن عمل خيرًا فله، ومن عمل سوءًا فعليه، نشطت همته، وقويت عزيمته، والله تعالى هو المعز المعين الموفق، لا رب غيره، ولا إله سواه.



فصل

وهذا أول عقد مجلس التحكيم

ذكر المصنف- رحمه الله- في هذه الفصول حقيقة مذاهب المبتدعين من أنواع المعطلين على وجه الشرح لها والتصوير؛ ليكون ذلك داعيًا لأولي الألباب إلى معرفتها على وجه الحقيقة؛ فإنها إذا عُرفت مذاهبهم بلوازمها لم يمكن أن تَرُوجَ على مَن له أدنى مُسْكَةٍ من عقل، وهذا أحد الأدلة على إبطال المذاهب الفاسدة؛ فإن الله فطر عباده على قَبول الحق وإيثاره على ردّ الباطل إذا تبين لهم بطلانه، وإنما يروج الباطل إذا بقي ملتبسًا، ملبسًا فيه، غير مكشوف عن حقيقته.

ثم ذكر بعدها مذهب أهل السنة والجماعة، فضرب لذلك مثلًا برَكْبٍ اتفقت مقاصدهم أولًا، وافترقت طرقهم ومذاهبهم ثانيًا، وكل سلك طريقًا، ورضي لنفسه مذهبًا، ورجعوا من سفرهم، وعرضوا ما معهم وما أداهم به سيرهم وجدّهم واجتهادهم على الحاكم العادل ليحكم بينهم بالحكم الموافق للنقل والعقل والفطرة وجميع أنواع الأدلة.

فذكر مذهب الاتحادية[1] الذين هم في الحقيقة أئمة الجهمية المعطلين الذين ينتسبون إلى أئمتهم؛ كابن عربي الطائي[2] صاحب **الفصوص** وغيرها من المصنفات المشحونة بالاتحاد

---

(١) الاتحادية: هم القائلون بوحدة الوجود من الصوفية. وحقيقة مذهبهم أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى ليس وجودها غيره، ولا شيء سواه البتة. وهم أتباع ابن عربي. انظر مجموع الفتاوى ٢/ ١١١ - ٨٤.

(٢) محمد بن علي بن محمد ابن العربي، أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي المعروف بمحيي الدين بن عربي، الملقب بالشيخ الأكبر فيلسوف من أئمة المتكلمين في كل علم، قال عنه الذهبي: قدوة =

والتعطيل، وابن سبعين[1]، والعفيف التلمساني[2]، ونحوهم ممن يجمعهم هذا المذهب الخبيث؛ وهو أن الوجود شيء واحد، ما ثَم خالق ولا مخلوق، ولا رب ولا مربوب؛ لأن الخالق عندهم هو عين المخلوق، والرب عين المربوب، فليس موجود سوى الله، وإنما تكثر الموجودات على وجه الوهم والغلط، وتارة يطلقون هذه العبارات، وتارة يقولون إنها مظاهر للتجليات؛ فيتجلى الحق في أصناف المخلوقات، فهو فقير إليها لأجل ظهوره وتجليه فيها، وهي فقيرة إليه لكونه هو ذاتها وهي صفاته، فتارة يلبس الموجودات وذلك هو الاتحاد، وتارة يخلعها، وهذا إذا عدمت، فالموجودات قد لبسها والمعدومات قد خلعها بحسب المظاهر والتجليات.

وتكثر الموجودات- على قولهم- كتكثر أعضاء الحيوان؛ فهو حيوان واحد وأعضاؤه متنوعة، فكذلك الخالق عندهم هو واحد بالعين، والموجودات من السماوات وما فيها والأرضين وما فيها صفات له، وأن ذلك شبيه بالقوى النفسية، إما أن يكون كلًّا وأجزاؤه الموجودات، أو كليًّا وجزئياته هذا الوجود.

فهذان قولان لهذه الطائفة، ولم يرفض التلمساني هذين القولين، بل قال: هذا غلط وإن الجميع شيء واحد، ليس فيه تقسيم، ولا تجزئة، ولا تعدد؛ فالآكل والمأكول شيء واحد، والواطئ والموطوء شيء واحد، وقالت طائفة رابعة منهم: كل هذا غلط؛ وإنما الموجودات

= القائلين بوحدة الوجود. ومن أردأ تواليفه كتاب الفصوص، فإن كان لا كفر فيه فما في الدنيا كفر. وله أيضا الفتوحات المكية وغيره (ت٦٣٨هـ). سير أعلام النبلاء٢٣/ ٤٨، والأعلام٦/ ٢٨١.

(١) عبد الحق بن إبراهيم بن محمد ابن سبعين الإشبيلي المرسي الرقوطي قطب الدين أبو محمد من القائلين بوحدة الوجود، اشتهر عن ابن سبعين أنه قال: لقد تحجر ابن آمنة واسعًا بقوله: لا نبي بعدي، له كتاب الحروف الوضعية في الصور الفلكية وغيره(ت٦٦٩هـ). تاريخ الإسلام٤٩/ ٢٨٣، والعبر٣/ ٣٢٠، والأعلام٣/ ٢٨٠.

(٢) سليمان بن علي بن عبد الله بن علي الكومي التلمساني عفيف الدين، أحد زنادقة الصوفية، وقد قيل له مرة: أأنت نصيري فقال: النصيري بعض مني. له شرح مواقف النفزي وشرح الفصوص وغيرهما(ت٦٩٠هـ). تاريخ الإسلام٥١/ ٤٠٦، والعبر٣/ ٣٧٢، والأعلام٣/ ١٣٠.

مظاهر للذات الواحدة بالعين.

ومضمون كلام جميع هذه الطوائف الخبيثة: أن وجوده تعالى العالق في الذهن والخيال لا حقيقة لوجوده، ولا وجود له في الخارج، وهذا هو التعطيل المحض، وهذا القول مجرد تصوره كافٍ في رده؛ فإن هؤلاء القوم ما صانوه عن المحال التي يرغب عن ذكرها، فهذا مضمون توحيدهم وعقيدتهم، وعندهم أن العابد والمعبود شيء واحد؛ فالكفار عندهم لا يذمون إلا على تخصصهم، وإلا فلو عبدوا كل شيء لكانوا مهتدين؛ فالكفر عندهم هو التخصيص لبعض المعبودات دون بعض، وعندهم أن قول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[1] ليس بكفر، وتغريقه في البحر تطهير له من الوهم والحسبان الذي ظنه بسبب رياسته وعلو منصبه، وزعموا أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أنكر على أهل العجل حين عبدوه، إنما أنكر على من لا يعبده، حين أنكر عليهم لم يكن إنكاره على العابدين للعجل؛ ولذلك جر بلحية أخيه هارون ورأسه، حيث أنكر عليهم.

وفي هذا القول من المكابرة، وقلب الحقائق، وجحد الضروريات ما لا يخفى على أحد إلا على ملبوس عليه.

وتنتهي بهم الحال إلى أنهم يتظاهرون بالسجود لكل شيء، حتى إن بعض أكابرهم رأى إبليس فسجد له فأنكر عليه من معه، فقال لهم: ما سجدتُ إلا لله؛ فليس موجود سوى الله، فإن شئتم فاسجدوا للشمس أو للقمر أو للأصنام أو للشيطان؛ لأن الجميع عين الله عند هذا المحقق منهم.

سبحان الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، ولعنهم الله لعنًا كثيرًا؛ فلقد تجرءوا على الله، وقالوا مقالة لا ترتضيها اليهود والنصارى وغيرهم من الملل الكافرين، فحقيقة الأمر أن كل طائفة من طوائف الكفار والمشركين جزء من أجزاء كفر هذه الطائفة الملعونة، وإنما راج مذهبهم

---

(١) سورة النازعات، آية: ٢٤.

على كثير من الناس لانتسابهم للصوفية، والتأله والتعبد والزهد، وإلا فلو علم الناس حقيقة أمرهم لرجموهم بالحجارة.

نسأل الله العافية ونحمده على نعمه الظاهرة والباطنة.

ثم ذكر المصنف في الفصل الثاني رَكْبًا آخر: وهو ركب الجهمية الأولى الذين في زمن الإمام أحمد وأصحابه، وأن حقيقة مذهبهم أن الله جل جلاله في كل مكان، وأنهم لم يصونوه عن بئر ولا قبر ولا حُش ولا أعطان، بل هو عندهم حالٌّ في كل مكان حلول الروح في البدن، ولم يصرّح هؤلاء الجهمية بما صرّح بهم من بعدهم من الجهمية؛ بأنه لا داخل العلم ولا خارجه ولا مباينا له؛ لأنهم لم يتجاسروا على هذا القول في ذلك الزمان خوفًا من السيف، ولقد ذكر المصنف من مقالة هؤلاء في أول نظمه كما سبق التنبيه عليه.

وأما الركب الثالث: فهم الجهمية المتأخرون الذين نفوا علو الله على خلقه، ومع هذا قالوا: فليس بداخل العالم ولا خارجه، ولا بائن عنه، وليس على العرش عندهم إلا العدم المحض، وحظ العرش من الله كحظ ما تحت الأرض السابعة السفلى، وقالوا: إنما قلنا ذلك لأنه لو كان فوق العرش لكان جسمًا وذلك محذور، فنفوا ما تواترت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية من علو الله على خلقه واستوائه فوق عرشه؛ حذرًا بزعمهم من تشبيهه بالمخلوقات فنفوا الضدين. وكأن حقيقة قولهم تشبيهه بالمعدومات، ولذلك يقول بعض الفضلاء: لو قيل: صفوا لنا العدم المحض؛ لم يمكن أن يوصف بأزيد مما قالت الجهمية النافون لعلو الله على خلقه واستوائه على عرشه.

ومن الغرائب العجائب استدلال بعض فضلاء الجهمية بقصة يونس عليه السلام، وأن النبي ﷺ[1] عرج به إلى فوق السماوات السبع ويونس في قرار البحر، ومع ذلك فكلاهما

(١) ورد على هامش المخطوط: قال: «لا تفضلوني على يونس بن متى». فقال هذا لرجل منهم. وجه هذا الاستدلال؟

في القرب من الله على حد سواء، وهذا قد بلغ من التحريف وتفسير اللفظ بما لم يدل عليه بوجه من الوجوه إلى أسقط درجة.

ثم ذكر في الفصل الرابع الركب الرابع: وهم طائفة من أذكياء الفلاسفة مضمون مذاهبهم وخلاصتها أنهم لما رأوا مذاهب الجهمية والمتكلمين متناقضة متضاربة؛ ينفون الشيء ويثبتون نظيره، ويقطعون بالشيء في موضع وينفونه في موضع آخر، ويتناقضون فيما يثبتونه وينفونه من أسماء الله وصفاته وأحكامه، ووردت مذاهب أهل السنة والجماعة مُحْكمة متناسبة دائرة على ما قاله الله وقاله رسوله - فعرفوا بذكائهم وفطنتهم أن القول الحق هو قول أهل السنة والجماعة، وما سواه فمعروف بطلانه ببداهة العقول، ولكن حال بينهم وبين اتباع هذا القول الحق تنفيرُ الناس عنه، وتلقيبهم أهله بأنهم مُجَسِّمَة[١] حَشَوِيَّة[٢] مُمَثِّلَة[٣]

---

(١) المجسمة يقصد به من وصف الله بأنه جسم وشبهوه بخلقه ويقال لهم: المشبهة، وقد ذكر الأشعري وغيره منهم: هشام بن الحكم الرافضي وداود الجواربي ومقاتل بن سليمان وهشام بن سالم الجواليقي والكرامية. انظر: مقالات الإسلاميين ١/ ٢٨٢، ٢٨٣، الملل والنحل بهامش الفصل ١/ ١٣٩، الفرق بين الفرق ص ٢١٦/ ٢٢٧/ ٢٢٨.

(٢) يطلق هذا الوصف على الذين ردهم الحسن البصري إلى حشا (جانب) الحلقة، وتطلقه بعض الفرق الكلامية على بعض أهل الحديث ممن بالغوا في الإثبات والتمسك بالظواهر؛ لأنهم يثبتون الصفات ويفوضون التأويل إلى الله، ولا يرون البحث في الصفات التي يتعذر إجراؤها على ظاهرها، فذهبوا إلى التجسيم وغيره، والبعض أراد بهذا الوصف المجسمة، وقد أطلقه المعتزلة على كل من قال بالصفات وأثبت القدر.
التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ١٦٦، ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث ص٩٦، السكسكي: البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ص٣٨، ابن تيمية: بيان تلبيس الجهمية ١/ ٢٤٤.

(٣) الممثلة: الذين مثلوا أو شبهوا الله بخلقه، وجعلوا صفاته سبحانه من جنس صفات المخلوقين، وأول من قال هذه المقالة هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقي وغيرهما. عقيدة أهل البيت ص ١١٠.

ونحوها من الألقاب التي ينفر عنها، ويهابها أكثر الخلق، فلم يرتضوا لأنفسهم أن يتبعوهم، وقد عرفوا بطلان قول الجهمية ونحوهم، فانحلوا من الشرائع كلها وصرّحوا بمذاهب القدماء من الفلاسفة الدهرية[1] ومن على شاكلتهم من التعطيل التام، وقالوا: إذا لم نتبع المجسمة المثبتة للأسماء والصفات والأفعال، ونقول بقولهم فلا نرضى لأنفسنا التناقض.

فتأمل كيف صارت البدع -خصوصًا بدعة التجهم- سببًا لتمسك الملحدين بأديانهم، ولظنهم أن ما عليه أهل البدع هو الذي جاء به رسول الله ﷺ؛ لأنهم رأوا من تناقضهم وفساد كثير من أقوالهم ما لا يمكن أن يأتي به الرسول، وصار المتكلمون يخضعون لبعض أصول هؤلاء الملاحدة، فنشأ من ذلك لزومهم لمذهبهم وتمسكهم بالكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وإلا فلو قابلهم أهل السنة المحضة بالأدلة النقلية الموافقة لصرائح العقول لقامت عليهم الحجة، واهتدى من أراد الهدى بما اشتمل عليه من الحق المبين وقواطع البراهين.

هذا مضمون ما ذكره وبسطه المؤلف في هذا الفصل.

ثم ختم هذه الفصول بذكر ركب الإيمان وعسكر القرآن، وأنهم أخبروا أن مذهبهم وعقيدتهم مبنية على الحق والصدق واليقين؛ حيث كان أساسها كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، وما كان عليه الصحابة، والتابعون لهم بإحسان.

---

(١) طائفة من الأقدمين الذين جحدوا الصانع المدبر العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه لا بصانع، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان، كذلك كان وكذلك يكون أبدًا، وحكى الله عنه فى القرآن الكريم أنهم قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] . كما جحدوا الله سبحانه وتعالى، واعتقدوا جهلًا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها فرد الله تعالى عليهم باطلهم، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يس: ٣١].
الخوارزمي: مفيد العلوم ومبيد الهموم ص١٠٦، الغزالي: المنقذ من الضلال ص٤٧، التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ٢٧٤، ٢٧٥.

وذلك موافق للعقل الصريح والفطرة، فتوافق في إيمانهم وعقد عقيدتهم جميع الأدلة؛ النقل والعقل والفطرة.

وهاك حاصل عقيدتهم؛ فإنهم:

يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله.

- **وأن الله تعالى متفرد بالخلق والملك والسلطان والتدبير؛ فليس له في ذلك مشارك ومعاون.**
- **وأنه الإله الحق الذي لا معبود سواه، وأن كل معبود سواه من ملك مقرب أو نبي مرسل أو غيرهما فعبادته من أبطل الباطل وأعظم الشرك.**
- **ويعبدون الله تعالى بكل ما يُحبه ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة يخلِّصونها لله، ويتابعون فيها رسول الله، ويتقربون بها إلى ربهم على وجه المحبة التامة والذل الكامل؛ فإن عبودية الله تعالى مبنية على هذين الأصلين العظيمين؛ الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، الناشئين عن محبة الله وتعظيمه، فجميع العبادات تدور على هذا الأصل، ولا سبيل إلى النجاة من سخط الله وعذابه والفوز برضاه وثوابه إلا لمن اتصف بما ذكر.**
- **ويرون أعظم القربات لرب العالمين إحسان الأعمال وبذل الجد والنصيحة في إيقاعها على أكمل الوجوه وأتمها، مع استحضار مقام المراقبة «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1]، فيجتهدون على تنقية العمل وإتقانه وإحسانه إذا اجتهد الجهال على كثرته، ويعلمون أن هذا مراد الله منهم، كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2].**

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٦، رقم ٩٤٩٧)، والبخاري (١/ ٢٧، رقم ٥٠)، ومسلم (١/ ٣٩، رقم ٩)، والنسائي (٨/ ١٠١، رقم ٤٩٩١)، وابن ماجه (١/ ٢٥، رقم ٦٤).

(٢) سورة هود، آية: ٧.

- ويُقرُّون ويعتقدون بما ثبت به الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته فيقولون: إنه عليٌّ على خلقه، مستوٍ على عرشه، يراهم ويسمعهم؛ فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى خائنة الأعين، ويسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه كثرة السائلين ولا يتبرم بإلحاح الملحين، وهو العليم الذي أحاط بكل شيء علمًا فيعلم ما توسوس به الصدور، ويعلم الخفيات والجليات والأمور الظاهرة والباطنة، ويعلم ما فوق السماوات السبع وما تحت الأرضين السبع، والقريب والبعيد عنده على حد سواء، ويعلم العالم العلوي والعالم السفلي، فلا تسقط ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، ويعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وهو القدير على كل شيء؛ فكل الأشياء منقادة لقدرته، تابعة لمشيئته لا تستعصي عليه، ولا تمتنع منه. قالوا: وهذا العموم يتناول كل شيء ويدخل في ذلك أفعال العباد؛ فإنها داخلة تحت قدرة الله من الطاعات والمعاصي[1]، وكما أنه هو القادر عليها الخالق لها فهم الفاعلون لها الواقعة بقدرتهم ومشيئتهم.

لكن الجبرية والقدرية[2] لم يُوفَّقوا للجمع بين إثبات القدر والقضاء وبين إثبات أفعال

---

(١) اختلفت المعتزلة في قدرة الله على جنس ما أقدر عليه عباده إلى فرقتين:
الأولى: زعمت أنه إذا أقدر عباده على حركة أو سكون أو فعل من الأفعال لم يوصف بالقدرة على ذلك، ولا على ما كان من جنس ذلك، وأن الحركات التى يقدر البارئ عليها ليست من جنس الحركات التي أقدر عليها غيره من العباد.
الثانية: زعمت أن الله إذا أقدر عباده على حركة أو سكون أو فعل من الأفعال فهو قادر على ما هو جنس ما أقدر عليه عباده، وهذا قول الجبائي وطوائف من المعتزلة.
انظر: مقالات الإسلاميين ١/ ٢٧٤.

(٢) القدرية مصطلح يطلقه الأشاعرة على المعتزلة لإنكارهم القول بالقدر، وأن أفعال الإنسان واقعة منه بقدرته واستطاعته المستقلة عن قدرة الله تعالى، وهم يقولون: لا قدر والأمر أنف. والمعتزلة=

العباد وأنها فعلهم حقيقة، بل لم تتسع عقولهم للجمع بين الأمرين؛ فالجبرية أثبتوا عموم القدر، ولم يثبتوا الحكمة، وأن أفعال العباد هي أفعال لهم حقيقة، وقابَلهم القدرية فزعموا أن قُدرة الله لا تتناول أفعال العباد، وهاتان الطائفتان نظرت كل واحدة [منهما][1] نظرًا قاصرًا، ولو آمنوا بالكتاب كله الدال على إثبات عموم مشيئة الله وقدرته، والدال على أن الأفعال واقعة من العباد بقدرتهم ومشيئتهم لَهُدوا إلى الرشد، ولذلك قال الإمام أحمد رحمه الله: القدر هو قدرة الله[2]. واستحسن هذا الكلام ابن عقيل[3] من الإمام أحمد لما حكاه عنه، وقال: إنه شفى [بهذه][4] الكلمة وكفى؛ فإن هذه الحقيقة هي التي افترقت الناس فيها كما تقدم[5].

فالحاصل: أن أهل السنة أثبتوا عموم قدرة الله، وتمام حكمته، والشرع والقدر، ويقولون: إن الحي القيوم الذي له صفات الحياة كلها بأجمعها؛ من السمع والبصر والعلم والقدرة، وغير ذلك من المعاني العظيمة والنعوت الكاملة، التي لا تتم الحياة الكاملة إلا بإثباتها لله على أكمل الوجوه وأتمها، فلا يعرض لها ما يُضادّها من الممات والعجز والنقص لوجه من الوجوه. والقيوم الذي له العظمة كلها، الذي قام بنفسه وقام به كل شيء،

= يتهمون الأشاعرة بأنهم أولى بأن يسموا بالقدرية لقولهم: إن الإنسان ليس خالقًا فعله، وإنما تقع أفعاله بقدرة الله تعالى، والعبد ليس خالقًا لها، وأول من قال بنفي القدر هو معبد الجهني على الأرجح، وتبعه على هذا القول غيلان الدمشقي المقتول في عهد عبد الملك بن مروان، وأشار أبو الحسن الأشعري في المقالات إلى أن بعض الرافضة تابعوا المعتزلة في القول بالقدر. انظر عنهم مقالات الإسلاميين ١/ ١٠٥، والفرق بين الفرق ص ١٧٠، وشرح النووي على صحيح مسلم ١/ ١٥٠.

(١) في المخطوط: «منها».
(٢) أخرجه الخلال في السنة٣/ ٥٤٤.
(٣) انظر: متن القصيدة النونية ص٣٦.
(٤) في المخطوط: «بهذا».
(٥) انظر: شفاء العليل ص٢٨، وطريق الهجرتين ص ١٦٣، وشرح النونية لابن عيسى ١/ ٢٥٤-٢٥٥.

الفعَّال لما يريد، الذي إذا أراد شيئًا قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾[١]. وكذلك لله تعالى كل صفة مجد وعظمة وجلال وجمال وكمال. ومرجع صفات الكمال كلها إلى الحي القيوم؛ ولذلك ورد الحديث بأنه «**اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»[٢]، [لاشتمالهما][٣] على جميع الكمالات كلها؛ فصفات الذات ترجع إلى الحياة، ومعاني الأفعال ترجع إلى القيوم.

ويعتقدون:

- أن له الإرادة [٤] النافذة في جميع الموجودات خصص بها من شاء من المخلوقات بأنواع التخصصات.
- وأنه يُحبُّ الصالحين من عباده، ويُحبُّ الأعمال الصالحة، ويكره الكفر والفسوق [وأهله][٥].
- وأن إرادته ومشيئته غير كراهته ومحبته؛ فالإرادة عامة لكل ما وُجِد من محبوب أو مكروه، والمحبة والكراهة خاصتان كما تقدم.
- وأن له الرحمة الواسعة والإحسان العظيم الذي ملأ العالم العلوي والسفلي؛ فهو الجواد المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٧.

(٢) أخرجه أبو داود ٢/ ١١٤(١٤٩٦)، والترمذي ٥/ ٤٦٤(٣٤٧٨)، وابن ماجه ٥/ ٣٧١(٣٨٥٥).

(٣) في المخطوط: «لاشتمالها».

(٤) الإرادة: ميل يعقب اعتقاد النفع، وإرادة القصد: ما نجده من أنفسنا حال الإيجاد لا عزمًا عليه، أما العزم فيقبل الشدة والضعف حتى يبلغ درجة الجزم، ومع ذلك قد لا يكون قصدًا بل جزمًا بأنه سيقصد، وربما يزول لزوال شرط أو حدوث مانع. انظر المواقف للإيجي ص ١٤٨، ١٤٩، والتعريفات للجرجاني ص٦.

(٥) في المخطوط: «وأهلها».

- وله الكمال المطلق التام الكامل الذي لا يعتريه نقص، ولا يشابهه ولا يماثله أو يقاربه في كماله أحد؛ فإنه الكامل الذي ليس كمثله شيء في كماله وتفرده به.

ومن الأدلة العقلية على كماله: أنه تعالى خلق أجناس المخلوقات وأودعها ما اقتضته حكمته وحمده من الكمال اللائق بها، ومن المعلوم أن مَن أعطى الكمال أحق بالكمال من المعطَى، فهل يُتصور أن يكون قد أعطى عباده الكمال وهو خالٍ منه؟! هذا من أمحل المحال، فكيف يعطي الله الإنسان الحياة والسمع والبصر والعلم والقدرة والكلام والأفعال والله خال من ذلك؟! هذا لا يكون أبدًا، وهذا بخلاف اللوازم البشرية التي لا ينفك الإنسان عنها؛ كالنوم والأكل والشرب والجماع والحاجات، ونحوها من لوازم المخلوق المحدث، فإن الله تعالى يتقدس عنها ويتنزه عن جميع خصائص البشر.

ومن أقوال أهل السنة والجماعة: قولهم في الكلام: إن الله لم يزل ولا يزال متكلمًا؛ فإن الكلام من صفات الكمال، والله تعالى لم يزل ولا يزال له الكمال المطلق؛ فكلامه تعالى هو المقروء المحفوظ المسموع، وهو من جملة صفاته وليس مخلوقًا له؛ لأن الكلام صفة المتكلم، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[1]. صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأوامر والنواهي، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾[2]. وهذا الوصف لا يكون للمخلوق.

وكذلك النبي ﷺ قد استعاذ «**بكلمات الله التامة من شر ما خلق الله**»[3]. والاستعاذة لا تكون بالمخلوق، بل استعاذ بالخالق وصفاته؛ فدلّ ذلك على أن الكلام صفة متعلقة بمشيئته وقدرته، والقرآن كلام الله غير مخلوق ألفاظه ومعانيه، فهو كلام رب العالمين وتنزيله ووحيه.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١١٥.

(٢) سورة لقمان، آية: ٢٧.

(٣) أخرجه مسلم ٨/ ٧٦(٢٧٠٨).

وأما أفعال العباد؛ كأصواتهم ومِدادهم الذي يكتبون به القرآن ووَرَقهم، فإنها من جملة المخلوقات؛ ولذلك يقولون: الكلام كلام الباري والصوت صوت القارئ، هذا إذا كانت القراءة بواسطة المخلوق فإنه يفرق هذا التفريق، فأما إذا سمع الكلام من الرب الذي تكلم به كما سمعه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام بلا واسطة؛ فإن المخلوق في هذه الحال هو سمع العبد، وأما الكلام وصوت المتكلم به فإنه من نعوت الله وصفاته، وهذا الفرق ثابت عن الإمام أحمد ومحمد بن إسماعيل البخاري[1] وغيرهما من أئمة السنة، واتفق على ذلك أصحابهم وأتباعهم، وخالفهم في هذا الأمر طائفتان من الناس:

إحداهما: الجهمية كما تقدم عنهم أنهم يزعمون أن القرآن مخلوق ألفاظه ومعانيه، والثانية الكُلّابية[2] ومن تبعهم من الأشعرية القائلين بأن القرآن نوعان ألفاظ ومعاني:

فالألفاظ: مخلوقة وهي هذه الألفاظ الموجودة.

والمعاني: قديمة قائمة في النفس، وهي معنى واحد لا تبعض فيه ولا تعدد، ولكنه معنًى واحد؛ إن عُبِّر عنه بالعربية كان قرآنًا، أو بالعبرية كان توراةً، أو بالسريانية كان إنجيلًا، ونحو ذلك مما يقولونه ويزعمون أن لهم دليلًا على هذا القول الباطل الذي يعرف بطلانه بأدنى تأمل، وهو بيت نُسب للأخطل النصراني[3]:

---

(١) السنة لعبد الله بن أحمد ١/ ١٦٣، ١٦٤، وخلق أفعال العباد ص ١٠٨.

(٢) نسبة إلى عبد الله بن كلاب القطان المتوفى بعد سنة خمسين ومائتين، وهو متكلم دافع عن عقائد السلف بحجج المتكلمين، وهم معروفون بالصفاتية مشهورون بمذهب الإثبات لكنْ في أقوالهم - كما يقول ابن تيمية - شيء من أصول الجهمية، وقد وصفهم القاضي عبد الجبار بقوله: كلام الكلابية بمنزلة كسب النجار وطبع أصحاب الطبائع وتثليث النصارى في أنه لا يعقل.
القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل ٧/ ١١٠، الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٣٤ وابن تيمية: مجموع الفتاوى ١٢/ ٢٠٦.

(٣) غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو أبو مالك، من بني تغلب، شاعر، مصقول الألفاظ، نشأ على المسيحية، اتصل بالأمويين فكان شاعرهم، (ت٩٠هـ).

إن الـــكلام لفي الفـــؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلًا[1]

وتركـوا لأجل هذا البيت ما هو المعـروف المفهوم من الكلام في اللغة العربية والمخاطبات العرفيـة، وكثيـر من أهل العربية لا يثبتون هذا البيت للأخطل، وعلـى تقدير ثبوته عنه فليس قول الأخطل معيارًا وميزانًا لكلام الله وكلام رسوله، ويردون لأجله النصوص الشرعية، فإن النصارى برمتهم لا يستغرب عليهم الغلط حتى إنهم غلطوا في أوضح الأشياء وأجلاها وهو الله تبارك وتعالـى؛ حيث قالوا في المسيح: إنه ابن الله وثالث ثلاثة[2] حين سـمعوا قولـه: (كلمة الله)[3].

---

(١) لم أجد هذا البيت في ديوان الأخطل المطبوع، وفي ثبوت نسبته إليه نظر، بل أنكر بعضهم أن يكون من شعره، وقال آخرون: إنهم فتشوا ديوان الأخطل ولم يجدوه. قال ابن تيمية: وهذا يروى عن أبي محمد الخشاب. انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز، ص ٩٨.
وهذا البيت يورده متكلمو الأشاعرة في مصنفاتهم للاستدلال به على الكلام النفسي، وقد ذكره منهم أبو بكر الباقلاني مع بيت قبله في كتاب الإنصاف، ص ١١٠ فقال: وأنشد الأخطل:

لا تـعـجـبـنـك مـن أثـيـر خطبة حتـى يـكـون مـع الـكـلام أصـيـلاً
إن الـكـلام لـفـي الـفـؤاد وإنـمـا جعـل اللسـان علـى الفـؤاد دليلا

وأوردهما أيضا الغزالي في الاقتصاد في الاعتقاد، ص ٥٩، ولم ينسبهما للأخطل. وأورد البيت الأول غيرهما، كالآمدي في غاية المرام، ص ٩٧. وذكر المحقق في الحاشية أن بعض طابعي ديوان الأخطل أضافوا هذا البيت إلى ما نسب إليه. وانظر الرد على من أنكر الحرف والصوت (ص:٩٢، ٩٣) - حاشية المحقق. وقال شيخ الإسلام في الإيمان، ص١٣٢، ط المكتب الإسلامي: «من الناس من أنكر أن يكون هذا من شعره، وقالوا: إنهم فتشوا دواوينه فلم يجدوه. وهذا يروى عن أبي محمد الخشاب. وقال بعضهم: لفظه: إن البيان لفي الفؤاد... ». وانظر: مجموع الفتاوى ٦/ ٢٩٦، ٢٩٧.

(٢) انظر نقد ابن تيمية لهم في: الجواب الصحيح ٢/ ١١٢، وقد علّق على هذه العقيدة الفاسدة أحد مَن أسلم منهم قائلًا: «ويقولون: إن الله واحد في ثلاثة أقانيم هم الأب (الله) والابن (الله) والروح القدس (الله) وهؤلاء الثلاثة هم الله كيف؟ هذا هو سر الثالوث الأقدس الذي لا يستوعبه عقل بشري؛ لأنه فوق مستوى إدراكه». واصف الراعي: كنت نصرانيًّا ص١١٠ مطابع الفرزدق، الرياض ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٣) يشير إلى قوله تعالى في سورة النساء، الآية: ١٧١: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

فزعموا أن الكلمة حلَّت في عيسى وصيَّرته إلهًا فيه معنى اللاهوت[1]، فصار عيسى مشتملًا على اللاهوت بما فيه من الكلمة، والناسوت[2] بما فيه من البشرية[3]؛ فهو على قولهم قديم محدث بالنظر إلى هذين الأمرين.

ونظيرُ قول النصارى في عيسى عليه السلام هذا القول؛ قول هذه الطائفة في القرآن: إن شطره مخلوق وشطره قديم وهو المعنى النفسي.

ولكن اختلف القائلون بهذا القول هل هو معنى واحد؟ وأنه يتنوع بحسب ما يظهر فيه كما تقدم، أو أنه خمس معانٍ:

- الأمر بكل مأمور.
- والنهي.
- والاستفهام.
- والإخبار.
- ومعنى خامس جامع لهذه الأمور الأربعة.

---

(١) يؤمن النصارى بالاتّحاد: وهو اتّحاد اللاهوت الجزء الإلهي مع الناسوت الجزء الإنساني في المسيح عليه السلام. قالوا: لأن طبيعة اللاهوت تركبت مع طبيعة الناسوت كما تركبت نفس الإنسان بجسده فصار إنسانًا واحدًا فكذلك المسيح. فالمسيح عندهم إله كلّه وإنسان كلّه وله طبيعة واحدة. وهو يفعل بها ما يشبه أفعال الإله وما يشبه أفعال الإنسان وهو أقنوم واحد، والأقنوم هو الشخص، والأقانيم هي: الأشخاص. ومجرد حكاية هذا المذهب يكفي في الرّدّ عليه؛ إذ حاصله أنّ الإله هو الإنسان والإنسان هو الإله. تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ١/ ٤٧٧.

(٢) راجع الحاشية السابقة.

(٣) وقد ناقش علماء المسلمين فكرة الجوهرية عن الله لدى المسيحية مناقشة دقيقة ورائعة. يراجع على سبيل المثال، الباقلاني: التمهيد ص٧٨ - ٩٦، القاضي عبد الجبار: المغني ٥/ ٨٠ ١٥١، وابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١/ ٨٤ وما بعدها.

فتكون هذه الأقسامُ أنواعًا للكلام، وعلى قول الأوَّلين تكون أوصافًا له، ولكن اتفقت الطائفتان أن الذي جاء به جبريلُ محمدًا ﷺ مخلوق خلقه، إما في اللوح المحفوظ، أو أن جبريل هو الذي ألهمه الله إياه فأنشأه، أو أنه محمد ﷺ.

وحقيقة هذا القول موافق لمذهب المعتزلة؛ فإنه لا فرق بينهم وبين المعتزلة من هذه الجهة إلا بالاختلاف اللفظي، وأما أهل الحق فإنهم يقولون كما قال الله ورسوله: إن كلام الله حقيقة غير مخلوق، نزل به جبريل من عند الله، وسمعه من الله، فنزل به على محمد ﷺ.

فصل

في مجامع طرق أهل الأرض واختلافهم في القرآن

ذكر المصنف في هذا الفصل أصلًا جامعًا تُبنى عليه جميع أقوال أهل الأرض في القرآن، وإنها ستة أقوال أو سبعة تدور على أصلين:

- هل قوله يتعلق بمشيئته وقدرته أم لا؟
- وهل قوله في ذاته قائم به، أم هو خارج الذات منفصل عنه؟

فبهذين الأصلين ينشأ اختلاف الناس في القرآن؛ فالقائلون إنه لا يتعلق بمشيئته ولا إرادته طائفتان؛ إحداهما الكُلّابية، ومن تبعهم من الأشعرية كما تقدم مذهبهم قريبًا، وأنه معنًى واحد قائم بالنفس، أو خمسة معان عبر عنها بهذه الألفاظ المخلوقة عندهم؛ كي تدل على تلك المعاني أو المعنى، وتعبر عنه، فتارة يقولون: إن هذه الألفاظ عبارة عن القرآن، وتارة يقولون حكاية؛ فالحكاية قول أبي سعيد بن كلاب[1]، والعبارة قول أبي الحسن الأشعري[2].

---

(١) عبد الله بن سعيد بن كلاب، أبو محمد القطان صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة، وربما وافقهم، وكان يرد على الجهمية. وكان يقول بأن القرآن قائم بالذات بلا قدرة ولا مشيئة. وهذا ما سبق إليه قط، له الصفات وخلق الأفعال والرد على المعتزلة، (ت٢٤٥هـ). سير أعلام النبلاء١١/ ١٧٤، والأعلام ٤/ ٩٠.

(٢) أبو الحسن علي بن إسماعيل شيخ الأشاعرة، ومؤسس مذهبهم، ينتهي نسبه إلى أبي موسى الأشعري، ولد سنة ستين ومائتين، وقد تعلم الكلام على مذهب الاعتزال على يد أبي علي الجبائي إلى أن بلغ سن الأربعين، ثم تحول وأعلن مذهبه الجديد وكانت وفاته سنة عشرين وثلاثمائة. =

وبعض أصحاب هؤلاء يقولون هذا الخلاف لفظي لا طائل تحته، والطائفة الأخرى من القائلين بأنه لا يتعلق بمشيئته قالوا: إن ألفاظه ومعانيه قديمة قائمة بالنفس لا تقبل الحدوث، ومع ذلك فالحروف كلها قديمة، ما زالت موجودة في الأزل والقدم.

فلما قيل: هذا مخالف للمحسوس المعلوم بالبديهة أن الحروف بالطبع لا بد أن يسبق بعضها بعضًا قالوا: إنما ترتبها هو بالنسبة إلى سمع الإنسان، وإلا فهي ما زالت متصاحبة مقترنة؛ الباء من بسم الله، والسين مع الباء، وهكذا بقية الحروف.

ولا شك أن هذا القول في التخليط والهذيان أقرب منه إلى التحقيق والبرهان، وهذا القول قول طائفة من أصحاب الأئمة وأتباعهم، خالفوا به أصل الأئمة، ووافقوا بعض قول الكُلّابية.

وذكر المصنف أن ابن الزاغوني[1] المشهور فرَّق بين ذوات هذه الحروف ووجودها، وزعم أنها مقترنة بذواتها مترتبة بوجودها، وهذا قول باطل؛ فإنما ذات الشيء وحقيقته ووجوده وماهيته شيء واحد، لا فرق بين هذه الحقائق، سواء قدرت في الأعيان أو في الأذهان، ولكن إذا اختلف التقدير أمكن افتراق التعبير؛ فإذا قيل: إن الحقائق الخارجية غير الوجود الذهني فهذا أمر معروف عند العقلاء؛ فإن ما في الأذهان فقط ليس له حقيقة خارجية، وبهذا التفريق تزول إشكالات المتكلمين في قولهم: هل وجود الله غير ذاته أو غير

= له من المؤلفات: «مقالات الإسلاميين»، و «الإبانة» وغيرهما.

ترجمته عند الخطيب: تاريخ بغداد ١١/ ٣٤٦، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٢٨٤، الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٨٥.

(١) علي بن عبيد الله بن نصر أبو الحسن ابن الزاغوني مؤرخ فقيه، من أعيان الحنابلة، قال عنه الذهبي: رأيت لأبي الحسن بخطه مقالة في الحرف والصوت عليه فيها مآخذ، والله يغفر له فيا ليته سكت. له الإقناع والواضح وغيرهما.(ت٥٢٧هـ). ذيل طبقات الحنابلة١/ ٤٠١، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٦٠٥، والأعلام ٤/ ٣١٠.

حقيقته أم لا؟ وأنه يقال: إذا اتحدت الاعتبارات فهما شيء واحد، وإذا اختلفت الاعتبارات اختلفت من جهة الفرق بين الوجود الذهني والخارجي واللفظي والرسمي.

فصل

وأما القائلون بأن القرآن متعلق بمشيئة الله وإرادته فهم أيضًا طائفتان:

إحداهما: الجهمية المعتزلة القائلون بأن القرآن مخلوق، خلقه الله كما خلق السماوات والأرض، وأنه خارج عن ذات الله، لا يقوم بالله من الكلام شيء.

فلما قال الناس لهم: هذا أمر معلوم بطلانه؛ لأن الكلام صفة للمتكلم، والله تعالى قد أضافه لنفسه زعموا أن إضافته إليه إضافة تشريف وعلو رتبة؛ كإضافة البيت إلى الله، وناقة الله ونحوها من الأعيان.

فأجابهم الناس بما هو معروف ومتقرر عند كل أحد أن الإضافة نوعان:

- **إضافة أعيان:** فهذه الإضافة تقتضي التشريف؛ كبيت الله، وناقة الله ونحوها.
- **وإضافة معان وأوصاف:** كعلم الله وقدرته وكلامه، فهذه الإضافة صفة إلى من اتصف بها تقتضي قيامها به واتصافه بها، ومن خالف هذا الفرق فهو مكابر مُنْكِر للمحسوسات، وهذه المقالة مقالة الجهمية ومتأخري المعتزلة.

وأما متقدمو المعتزلة؛ عمرو بن عبيد[1]، وواصل بن عطاء[2]، وأصحابهم الذين اعتزلوا

(١) عمرو بن عبيد بن باب أبو عثمان البصري، كبير المعتزلة وأولهم، قال ابن علية: أول من تكلم في الاعتزال واصل الغزال، فدخل معه عمرو بن عبيد، فأعجب به، وزوجه أخته. له كتاب العدل، والتوحيد، وكتاب الرد على القدرية، يريد السنة.(ت ١٤٤هـ). وفيات الأعيان٣/ ٤٦٠، وسير أعلام النبلاء ٦/ ١٠٤، والأعلام ٥/ ٨١.

(٢) أبو حذيفة ولد سنة ثمانين ولقب بالغزال، وهو مؤسس مذهب الاعتزال مع عمرو بن عبيد، وبعث =

عن مجلس الحسن البصري[1] حين قرر مذهب الجماعة في الإيمان، ولم يرتضوه، واعتزلوا عن مجلسه لذلك - كما سيأتي إن شاء الله - وسماهم الحسن البصري المعتزلة، فإنهم لا يقولون بهذا القول الباطل، بل يوافقون الناس على قولهم في القرآن: إنه كلام وصفته غير مخلوق كما هو الحق الذي لا ريب فيه.

وسيأتي إن شاء الله كلام المؤلف في القول وتفصيله في تكفير أهل البدع.

والفرقة الثانية من القائلين: إنه يتعلق بمشيئة الله وإرادته فإنهم أيضًا طائفتان: إحداهما الكَرّامية[2] قالوا: إن الكلام متعلق بمشيئة الله وقدرته، وهو مع ذلك حادث النوع. وقصدهم بهذا الحذر من التسلسل في الآثار، وأنهم إذا أثبتوا التسلسل أفسدت عليهم الطريق التي

= أصحابه إلى الأقطار لنشر مذهبه، من تصانيفه «كتاب الألف مسألة» في الرد على المانوية، «كتاب أصناف المرجئة»، «كتاب المنزلة بين المنزلتين»، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة.

ترجمته عند المسعودي: مروج الذهب ٤/ ٢٢، ابن النديم: الفهرست ص٢٠٢، القاضي عبد الجبار: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ١٦٣، ١٦٤ وما بعدهما، وابن المرتضى: المنية والأمل ص١٢، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٦/ ٧.

(١) أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، مولى زيد بن ثابت الأنصاري، حبر الأمة في زمنه ولد بالمدينة، وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب، قال عنه الغزالي: كان الحسن البصري أشبه الناس كلامًا بكلام الأنبياء، وأقربهم هديًا من الصحابة، له كتاب في فضائل مكة، (١١٠هـ). وفيات الأعيان٢/ ٦٩، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٥٦٣، والأعلام٢/ ٢٢٦.

(٢) أتباع محمد بن كَرَّام السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥هـ وهم ثلاث فرق، وقيل: بلغ عددهم إلى اثنتي عشرة فرقة، واتفقوا مع السلف في إثبات الصفات، إلا أنهم بالغوا في الإثبات إلى حد التشبيه والتجسيم، ووافقوا السلف في القول بإثبات القدر والحكمة، إلا أنهم وافقوا المعتزلة في وجوب معرفة الله تعالى بالعقل، وقد عدهم الأشعري من المرجئة؛ لقولهم: إن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب.

الأشعري: مقالات الإسلاميين ١/ ٢٢٣، الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٨٠، البغدادي: الفرق بين الفرق ص٢٥.

احتجوا بها على إثبات وجود الخالق، وجعلوا كلام الله وأفعاله في هذا على حد سواء، كلها حادثة بعد أن لم تكن، ولكنها لا تزال فيما لا يزال من المستقبل، فلها مبتدأ وليس لها منتهى.

قالت الكرامية: ولم تنصف الكُلّابية والأشعرية؛ حيث شنعوا علينا هذا القول وأقاموا علينا بسببه القيامة، فإنهم جعلوا الفعل عين المفعول، والقول عين المقول، فهذا هو التعطيل في الحقيقة لأفعال الله؛ حيث قالوا: لم يقم بالله لا فعل ولا قول، فهذان التعطيلان أبطل من قولنا بحلول الحوادث؛ حيث عبروا بهذا اللفظ البشع.

وحقيقة الأمر أن الكَرَّاميَّة في هذه المسألة - مسألة الكلام والأفعال- أقرب إلى الحق من الجهمية ومن تبعهم في هذا الأصل من الكُلَّابية والأشعرية، ولم يبق عليهم من الصواب إلا مرتبة لو قالوها واعتقدوها لَهُدوا إلى الرشد، وهو قول أهل السنة والحديث[1]؛ كالإمام أحمد والبخاري وبقية الأئمة، وهم الطائفة الآخرون من القائلين بأن القرآن يتعلق بمشيئة الله وإرادته؛ فإنهم قالوا: إن الله لم يزل متكلمًا، ولا يزال متكلمًا إذا شاء وكيف يشاء، فإن الكلام صفة كمال للمتكلم، والله تعالى لم يزل كاملًا موصوفًا بكل صفة كمال، فكيف يخلو الله في

(١) أهل الحديث هم المتمسكون بالكتاب وآثار النبي ﷺ نصًّا لا تأويلًا، وقد سموا أصحاب الحديث لأن عنايتهم متجهة إلى تحصيل الأحاديث، ونقل الأخبار النبوية، وبناء الأحكام على النصوص، ولا يرجعون إلى القياس الجلي والخفي ما وجدوا خبرًا أو أثرًا، فمن اقتصر على هذه الآثار كان من المتبعين، وكان أولى الناس بهذا الاسم وأحقهم بهذا الوسم «أصحاب الحديث» كما يقول اللالكائي، فهؤلاء يعرفون ربهم تبارك وتعالى بصفاته التي نطق بها كتابه وتنزيله، وشهد له بها رسوله ﷺ على ما وردت به الأخبار الصحاح، ونقله العدول الثقات؛ فلا يعتقدون تشبيهًا لصفاته بصفات خلقه، ولا يكيفونها تكييف المشبه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه (نسأل الله أن يجعلنا منهم بمنه وكرمه).

اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٤١، ٤٢، ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٤/ ٥.

وقت من الأوقات من هذا الكمال في زمن الأزمنة الماضية أو المستقبلية، ويعود ممكنًا بعد أن كان ممتنعًا؟! هذا محال. بل القول الحق الذي دل عليه النقل وأيده العقل أن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلمًا، وأنه يتكلم بكلامه بمشيئته شيئًا بعد شيء، وأن تعاقب الكلمات ثابت لذواتها مثل ثبوت تعاقب الأزمنة؛ فكل زمان قبله زمان، وقبل هذا الزمان إلى غير غاية ونهاية، فالكلام كذلك، وإن الأحرف مترتبة في مسمع الإنسان؛ فإن هذا من لوازمها وصفاتها الثابتة لها، خلاف ما يقول الاقترانية[1]؛ فإن الاقتران كما تقدم غير معقول.

كما أن قول القائلين بأن القرآن مخلوق، خلقه الله في بعض الأعيان يقتضي أن صفة الكلام قائمة بذلك المحل، وأنه هو الذي يتكلم، فهذا أيضًا محال في العقل، كما أنه باطل في النقل؛ فلا يعقل الكلام إلا لمن قام به وتكلم به حقيقة، كما أنه لا يكون حيًّا عالمًا سامعًا مبصرًا إلا لمن قامت به هذه الصفات، فلو وصف المحل بحياة أو علم أو سمع أو بصر قائم بغيره، لعلم الناس إحالة هذا الكلام، وهكذا سائر الصفات.

والله تعالى موصوف بأنه متكلم بإجماع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين، وقد شهدت بذلك العقول الصحيحة والفطر المستقيمة والبراهين والأدلة القواطع، وكلامه من جملة صفاته قائم بذاته، فلو كان لم يقم بذاته لم يكن في الحقيقة متكلمًا، وقد وصف الله نفسه بالكلام والتكلم والتكليم والقول. والنداء الذي يعقل هو الذي يسمع بالآذان؛ فالنداء الصوت الرفيع، والنجاء ضده، وكلاهما من الكلام والأصوات، وأنه تعالى موصوف بجميع ذلك على وجه الحقيقة، والقرآن سور وآيات وكلمات وحروف كما وردت بذلك الآثار كما هو معروف بين الناس.

---

(١) الاقترانية الذين يقولون: إن الله يخلق عند السبب لا بالسبب. الضياء الشارق لابن سحمان ٥/ ٤٧.

فصل

في إلزامهم القول بنفي الرسالة إذا انتفت صفة الكلام

هذا الفصل مشتمل على أمرين:

أحدهما: أن الرسالة والنبوة من أكبر الأدلة على أنه تعالى متكلم؛ لأن حقيقة رسالة الرسل عليهم الصلاة والسلام تبليغ كلام الله للخلق، فجميع أنواع الكلام من الكلام والقول والخبر والخطاب والتحذير والاستفهام ونحوها حقيقة الرسالة تبليغ هذه الأمور للناس بواسطة الرسل، فيلزم من ثبوت الرسالة ثبوت صفة الكلام، ويلزم من انتفاء الرسالة انتفاء صفة الكلام.

وهذا الأمر الثاني: وهو إلزام من نفى عن الله صفة الكلام، وزعم أنه مخلوق من مخلوقاته، وأنه لا يتعلق بمشيئته وإرادته يلزم من قوله نفي الرسالة، ومن المعلوم أن فساد الملزوم دليل على فساد اللازم(١).

ويوضح هذا أن حقيقة الرسالة هو خطابه سبحانه للمرسلين إما بغير واسطة؛ كخطابه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وجبريل عليه السلام، ومحمد ﷺ من وراء حجاب؛ لأنه في الدنيا لا تراه العيون، وأما خطابه بواسطة وهو أيضًا نوعان:

- إما وحي.
- وإما إرسال الملك إلى الأنبياء، كما ذكر الله ذلك في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ

---

(١) انظر المحصول ١/ ٤١٥، وإرشاد الفحول١/ ٦٥.

ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾[1].

---

(١) سورة الشورى، آية: ٥١.

فصل

في إلزامهم التشبيه للرب بالجماد الناقص إذا انتفت صفة الكلام

وهذا الإلزام الذي ألزمه أهل السنة والجماعة للجهمية ومن تبعهم معروف مشهور وهو واضح؛ فإنه إذا انتفت صفة الكلام، وصار الله بزعمهم غيرَ متكلم، لزم منه أن الحيوان الذي يتكلم أكمل منه، ولزم من ذلك مشابهته للجمادات، ففروا من تشبيهه بزعمهم [بالكلمات][1] التي تتكلم، ووقعوا في شرٍّ مما فرّوا منه، ولكنهم يقولون: إن الكمال إنما يكون صفة كمال، وضده صفة نقص إذا كان مَن نفى أو أثبت له يقبل الكلام ويَصِح منه، أما من لا يقبله ولا يصح منه فليس في إثباته ونفيه من نقصان، فيقال: كلامهم هذا أوجب لهم أن وقعوا في شر مما فروا منه، وهذا الوهم الفاسد الذي أوجب لهم الفرار من إثبات صفات الله وأفعاله وكلامه؛ ظنوا أن إثبات ذلك يقتضي التشبيه بالإنسان فنفوها، فوقعوا في تشبيهه بالجماد الكامل النقصان، فبطل قولهم عقلًا كما هو باطل فطرة ونقلًا.



(١) في المخطوط: «بالكاملات». والمثبت يقتضيه السياق.

قال المصنف رحمه الله:

فصل

في إلزامهم بالقول
بأن كلام الخلق حقه وباطله عين كلام الله

قد قامت الأدلة والبراهين من وجوه متعددة كثيرة جدًّا أن أفعال العباد خلق الله، وأن الله هو الذي خلق أفعالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وجميع أحوالهم، فيلزم - على قول الجهمية ومن تبعهم أن كلام الله خلقه في بعض الأجسام - أن يكون كلام الخلق كله حقه وباطله هو عين كلام الله؛ لأنه على قولهم مخلوق وهذا مخلوق، فكل كلام أنطق الله به مخلوقًا فإنه كلام الله على زعمهم؛ لأنه منسوب إلى الله من جهة خلقه، وإن نسبته إليه كنسبة بيت الله ونحوه من الأعيان التي يعلم أن نسبتها نسبة تشريف وتكريم.

وهذا اللازم من أقرب اللوازم وألزمها لقولهم وأوضحها، وهو أفسد ما يكون، ويلزم منه أشر الأقوال وهو قول الاتحادية؛ ولذلك التزموا بهذا القول الباطل الذي هو كفر بالله العظيم.

فإن قالوا: إن هذا غير لازم لقولنا؛ فإننا خصصنا الإضافة كما خص بيت الله وناقة الله.

فيقال: هذا التخصيص لا ينافي التعميم، كما في تخصيص ربوبيته بالعرش في قول: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾[1]، أو بالبيت: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾[2]، فإنه لا ينفي

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٩.

(٢) سورة قريش، آية: ٣.

ربوبيته لجميع الخلق كرب العالمين، هكذا قولهم: إن إضافة القرآن إليه لا تعدى إلى غير القرآن لا يمنع التعميم من الإضافة، وهذا واضح جدًّا، فلم ينجُ من هذا الإلزام إلا أهل السنة، القائلين بأن القرآن صفة حقيقة لله تعالى، قائم به متعلق بمشيئته. والله أعلم.

قال المصنف:

فصل

في التفريق بين الخلق والأمر

مذهب سلف الأمة وأئمتها بأن الخلق غير الأمر[1]، وأن الفعل غير المفعول؛ فالفعل صفة الله، والمفعول هو المخلوق المنفصل عن الله تعالى، وعند الجهمية ومن تابعهم من طوائف البدع أن الخلق والأمر شيء واحد، وأن الفعل هو عين المفعول.

والكتاب والسنة يدلان على مذهب السلف دلالة لا تقبل الريب قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[2].

---

(١) قال ابن بطة في ٢/ ١٦٩: فكذلك لما كان الأمر غير الخلق، فصل بالواو، فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾. فالأمر أمره وكلامه، والخلق خلقه، وبالأمر خلق الخلق؛ لأن الله -عز وجل- أمر بما شاء وخلق بما شاء.
فزعم الجهمي أن الأمر خلق، والخلق خلق، فكأن معنى قول الله عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ وإنما هو: ألا له الخلق والخلق، فجمع الجهمي بين ما فصله الله.
وقال الآجري في كتاب الشريعة ١/ ٥٠٤، ٥٠٥ رقم: ١٧١: أخبرنا أبو القاسم أيضًا قال: حدثني سعيد بن نصير أبو عثمان الواسطي في مجلس خلف البزار. قال: سمعت ابن عيينة يقول: ما يقول هذا الدويبة؟ يعني: بشرًا المريسي؟ قالوا: يا أبا محمد، يزعم أن القرآن مخلوق، فقال: كذب، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فالخلق: خلق الله. والأمر: القرآن.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٥٤.

فتدبر هذه الآية الكريمة تجدها مصرحة بأن الخلق غير الأمر، كما هو الأصل في العطف أن المعطوف غير المعطوف عليه. والجهمية يقولون باتحاد المعطوفين، وأن عطف الأمر على الخلق من باب عطف الخاص على العام. وهذا ممتنع امتناعًا ظاهرًا؛ فإنه صرّح بأن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، وذلك بعدما أخبر بخلقها، فدَلّ على أن الأمر غير الخلق، والأمر سواء كان مصدرًا أو مفعولًا [من][1] المأمور، فالغرض حاصل؛ فإن كان مصدرًا كان وصفًا ظاهرًا، وإن كان مفعولًا فإن المأمور ناشئ عن الأمر وحاصل عنه، كالمصنوع ناشئ عن الصنعة وحاصل عنها، فلزم من وجود المأمور وجود الأمر، ومن انتفاء المأمور انتفاء الأمر، كما يلزم من وجود المخلوق وجود الخلق، وفي نفيه نفيه.

وتدبر في هذه الآية سرًّا عجيبًا؛ فإنه ذكر في أولها خلقه للسماوات والأرض خصوصًا، وتسخيره الشمس والقمر والنجوم بأمره خصوصًا، وصرح بالفعل فيهما، وذكر في آخرها الوصف والتعميم في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾. فجمع بين فعله ووصفه على وجه الخصوص وعلى وجه العموم، فالمثبتون للخلق والأمر، المفرقون بينهما قولهم هو الحق المحكم الذي يصدق بعضه بعضًا، وقول الجهمية قول باطل متناقض فاسد عقلًا أو نقلًا.

ثم ذكر المصنف - رحمه الله - **فصلًا وقاعدة في التفريق بين ما يضاف إلى الرب من الأعيان والأوصاف**، وكذلك ما أخبر تعالى بأنه منه.

وحاصل ذلك إنما يضاف إلى الله نوعان:

أعيان تدل إضافتها إلى الله على شرفها وفضلها، كما يقال: بيت الله، وناقة الله، وروح الله. فهذه أعيان قائمة أضافها إلى نفسه، واختصها من بين مخلوقاته بخصيصة الإضافة فتكتسب شرفًا وفضلًا بذلك.

وأما إضافة الأوصاف إلى الله تعالى؛ كعلم الله وحياته وقدرته وإرادته وكلامه، فهذه

(١) في المخطوط: «أمن»، والمثبت هو الصواب.

إضافتها إليه تقتضي قيامها بالله واتصافه بها، وأنها داخلة في ذلك ومن جملة أوصافه، ونظير هذا ما أخبر بأنه منه، فإن كانت أعيانًا كانت مخلوقات منفصلات عنه كما قال: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[1]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[2]. وإن كانت صفات كما قال في القرآن: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾[3]. دل على الصفة، فهذا الفرق يحصل به الفرق بين الحق والباطل في هذا المقام؛ ولذلك لم يهتدِ الجهمية لهذا الفرق، وجعلوا ذلك واحدًا ففاتهم الحق، وحُرموا الوصول حين ضيعوا الموصول. والحمد لله رب العالمين.

ذكر المؤلف في هذا الفصل قول أبي محمد ابن حزم[4] الظاهري[5] في القرآن، وأنه ابتدع فيه قولًا لم يوافقه عليه أحد؛ فزعم أن مسمى القرآن يطلق على أربعة أشياء:

- يطلق على المصحف الذي جمعه عثمان بن عفان أمير المؤمنين.

---

(١) سورة النساء، آية: ١٧١.

(٢) سورة الجاثية، آية: ١٣.

(٣) سورة الزمر، آية: ١.

(٤) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام. كانت له ولأبيه من قبله رياسة الوزارة وتدبير المملكة فزهد بها وانصرف إلى العلم والتأليف، أشهر مصنفاته المحلى، والفصل في الملل والأهواء والنحل وغيرهما (ت٤٥٦ هـ).وفيات الأعيان ٣/ ٣٢٥، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ١٨٤، والأعلام ٤/ ٢٥٤.

(٥) أهل الظاهر: هم أصحاب المذهب الظاهري الذي نشأ على يد الفقيه البغدادي داود بن علي (المولود سنة ٢٠٢هـ)، وبلغ ذروته بالمغرب على يد ابن حزم السابق ترجمته، وهو يمثل مع الحنابلة النزعة النصية؛ حيث يقرر أن المصدر الفقهي هو النصوص فلا رأي في حكم من أحكام الشرع، ونفى المعتنقون لهذا المذهب الرأي بكل أنواعه؛ فلم يأخذوا بالقياس ولا بالاستحسان ولا بالمصالح المرسلة ولا الذرائع، بل أخذوا بالنصوص وحدها، وإذا لم يكن النص أخذوا بحكم الاستصحاب الذي هو الإباحة الأصلية، وقد قرروا أحكامًا كثيرة خالفوا بها سائر الفقهاء.
الإمام محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية ص٥٤٤، الدكتور: حسن الشافعي: المدخل إلى دراسة علم الكلام ص٨١.

- ويطلق على هذا الذي نتلوه ونقرؤه.
- ويطلق على ما هو محفوظ في الصدور.

فهذه الثلاثة عنده مخلوقة.

- ويطلق على المعنى القديم[1] القائم بذاته؛ كقيام علمه بحيث لا يتعلق بالمشيئة فهذا غير مخلوق.

وذكر المؤلف أن الظاهر أن الذي أوجب له هذا القول أنه لما أنه رأى مراتب الوجود أربعة للمعينات؛ وجود في الخارج، ووجود في اللفظ، ووجود في الرسم، ووجود في الذهن.

فوجود الشيء يطلق على أحد هذه الأمور الأربعة، وأن أولاها بالقرآن الوجود الخارجي، وهو المعنى القديم، وأن وجوده الرسمي كوجوده في المصحف، واللفظي كما نقرؤه ونتلوه، والذهني كما نحفظه أنه عبارة عنه ووسيلة ليس مقصودًا.

وخالفه أبو عبد الله الرازي[2]، فزعم أن الأَوْلى بهذه المراتب الوجود الذهني، وهذا

(١) في إطلاق صفة «القديم» على الله تعالى نظر وهو مناف لقاعدة التوقيف المعمول بها لدى أهل السنة والجماعة؛ فهذه الصفة لم يرد إطلاقها على الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة، وإنما الذي ورد للتعبير عن معناها لفظ «الأول» كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، وقول النبي ﷺ في ثنائه على الله سبحانه وتعالى: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء**» [أخرجه مسلم ٢٧١٣]. فهذا اللفظ مما أدخله المتكلمون في أسماء الله تعالى، وليس هو من الأسماء الحسنى؛ وذلك لأنه يحتوي على معنى الزمن، فإذا كان «قديمًا» فهناك «أقدم» قياسا على صيغة أفعل. أما لفظ القرآن والسنة «الأول» فكان أدق في التعبير عن هذا المعنى. انظر شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٧٤ـ٧٧.

(٢) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين فخر الدين الرازي، من أئمة علماء الكلام على مذهب الأشاعرة وفي الفروع على مذهب الشافعي، وقد خلط الكلام بالفلسفة وتأثر بالمعتزلة وكان معظمًا عند ملوك الخوارزمية وغيرهم، له من المصنفات «التفسير الكبير» و «أساس التقديس» و«الأربعين في أصول الدين»، و«محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين» وغيرهما. توفي سنة ست وستمائة. =

غلط وقلة فُرقان[1]، وإلا فالشيء واحد في نفسه حيثما تصرف، فالقرآن كلام الله حيث تلاه التالون، أو حفظه الحافظون، أو كتبه الكاتبون، أو قام بالله وتكلَّم به بمشيئته؛ فهو في هذه المراتب شيء واحد؛ فليست مرتبة منها عبارة عن الأخرى، وإنما هو حقيقة في الجميع؛ ولذلك أخبر الله تعالى أنه تكلم في الوحي وقام به، وأخبر أنه محفوظ بصدور أهل العلم، وأنه مكتوب في صحف مطهرة، وأنه متلو مقروء، وكل ذلك على وجه الحقيقة، وهذا بخلاف تلاوة العبد؛ فإنها غير المتلوّ؛ فالتلاوة مخلوقة والمتلو كلام الله غير مخلوق؛ ولذلك فرّق أئمة أهل السنة بين ما هو كلام الله حقيقة، وما هو أفعال للعباد؛ فقالوا: القرآن المكتوب كلام الله، والمقروء كلام الله، والمحفوظ كلام الله، وأما كتابة العباد وأصواتهم وأمدادهم والرَّق[2] الذي يكتب به فإنه مخلوق؛ لأن الذي يرجع ويعود إلى صفة العباد فإنه تابع لهم ومخلوق، كما أن جميع صفاتهم مخلوقة.

وأما الذي يرجع إلى الله ويضاف إليه فإنه كلامه منه غير مخلوق، وهذا الفرق من أوضح الفروق، والتلاوة قد يعنى بها المتلو فهو كلام الله غير مخلوق، وقد يعنى بها أصوات العباد وأداؤهم للقراءة فهذه مخلوقة، وهذا الفرق الذي ذكره البخاري[3] ووضحه، وحيث لم يَفهم مراده بعض أهل العلم، أنكر ذلك عليه، وجرى ما هو معروف مشهور.

ونظير هذا لما قال الإمام أحمد[4]: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع. ومنع من الإطلاقين، أشكل قوله على بعض

= ترجمته عند ابن الساعي: الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ٩/ ٣٠٦، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٨١، الداوودي: طبقات المفسرين ٢/ ٢١٣.

(١) أي تفريق ضعيف.

(٢) الرق: جلد رقيق يكتب فيه. المعجم الوسيط مادة (ر ق ق).

(٣) خلق أفعال العباد ص١٠٨.

(٤) انظر: السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد ١ / ١٦٤، ١٦٥.

الأئمة، ومراد الإمام أحمد رضي الله عنه أن اللفظ له إطلاقان؛ يطلق على الملفوظ الذي هو كلام الله، ويطلق على فعل العبد الذي هو مخلوق، فلما كانت العبارة يدخل فيها حق وباطل منع الإطلاق.

هذا من أحسن المقاصد ومن أعظم الأدلة على نصح الأئمة وكمال علمهم ومعرفتهم بمراتب الأمور، فرضي الله عنهم وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خيرًا، ونحمد الله تعالى على منته بهم ورحمته وحفظ دينه.



فصل

في مقالة الفلاسفة والقرامطة[1] في كلام الرب جل جلاله

ذكر المصنف في هذا الفصل مضمون قول الفلاسفة المنتسبين للإسلام، وهم من أبعد الناس عنه؛ كابن سينا وأحزابه ممن حقيقة مذهبهم مذهب فلاسفة الدهريين الذين لا يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، لكنهم دلَّسوا ومَوَّهوا على الناس، وتلطفوا بعباراتهم إلى موافقة العبارات الإسلامية، لكن لهم فيها مرادات كفروا بها، وهذا في جميع أصول الدين، ومن جملتها: مسألة النبوة والكلام، فإنهم بنوهما على أصلهم الذي هو أعظم المسائل بطلانًا، وهو قولهم بقدم العالم، وأن العقل الفعال وهو فلك القمر أو غيره من الأفلاك التي يُعيِّنونها، هو المحدث لكل ما تحته، وأنه دائم الفيض على المحال المستعدة للفيض، ففيض الوجودات وأوصافها وأفعالها وآثارها، ويفسرون كلام الله على هذا الأصل الباطل، ويقولون: إن العقل الفعال أفاض هذا الكلام الذي أتى به محمد ﷺ حيث كان

---

(١) يقال لهم: القرامطة نسبة إلى رجل يقال له: حمدان قرمط، ويطلق عليهم: الباطنية؛ لأنهم يظهرون الرفض ويبطنون الكفر المحض، وقيل: لزمهم لقب الباطنية لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنًا ولكل تنزيل تأويلًا، ويقال لهم: الخرمية والبابكية نسبة إلى بابك الخرمي الذي ظهر فى أيام المعتصم فلم يزل يبعث خلفه الجيوش حتى جيء به أسيرًا فقتله، ويقال لهم: المحمرة لاتخاذهم صبغ الحمرة شعارًا لهم مضاهاة لسواد بني العباس، ويقال لهم: التعليمية نسبة إلى التعلم من الإمام المعصوم وترك الرأي ومقتضى العقل، ويقال لهم: السبعية نسبة إلى القول بأن الكواكب السبعة المتحيزة السيارة مدبرة لهذا العالم.

تفصيل ألقابهم عند الغزالي: فضائح الباطنية ص١١ - ١٧، ابن كثير: البداية والنهاية ١٤/ ٦٣٦.

كلامًا من أرقى الكلام، وهو رجل زكي قابل لهذا الفيض، فتلقاه وأتى به للعالمين ألفاظًا وخطابة ومواعظ خالية من البراهين، لم تصرح بالحق، بل أشارت إليه ورمزت إليه، وأنهم لم يمكنهم مخاطبة جمهور الناس إلا بهذه الطريق؛ طريقة التخييل والمثال، وأن هذه الطريق أصلح للناس بزعمهم، ولذلك يحرمون تأويل النصوص؛ لأنها تخالف ما قصده الرسول إلا لمن بلغ مبلغهم من التحقيق؛ فإنهم يؤولونها بتأويل يعلم بالضرورة وبداهة العقول فسادها، وحقيقة الأمر عندهم أن الرسل كذبوا لأجل المصلحة، وعندهم أن الفيلسوف أعلى رتبة من النبي؛ فإن النبي نبي العوام، والفيلسوف نبي الخواص، وإنما راج أمر هؤلاء على كثير من الناس لما فيه من التمويه والتلبيس والانتساب للإسلام، وإلا فهم أعداء الإسلام، وأهله يعرفون ذلك من خبر حقائقهم وتتبع طرائقهم[1].



(١) راجع ردوده عليهم في دراسة بعنوان: الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في تو ضيح العقيدة، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، ص ١٣٧.

فصل

في مقالات طوائف الاتحادية في كلام الرب جل جلاله

ذكر المصنف في هذا الفصل مضمون قول الاتحادية في كلام الله تعالى، وهو مبني على أصلهم الفاسد الذي هو أفسد الأقوال وأبطلها بأن الوجود كله وجميعه واحد، وأن الرب غير العبد، والخالق غير المخلوق، فبناءً على هذا الأصل أن جميع كلام الموجودات هو كلام الله؛ لأنه هو عينها لا غيرها.

هذا حاصل قولهم.

فهذه المقالات التي أشرنا إليها قال المصنف فيها[1]:

هــذي مقالات الطوائــف كلها ....

لا تكاد توجه مجموعة في غير هذا الموضع.

ثــم إن المصنــف عطف يردُّ علــى الجهمية في إنكارهــم لصفات الله تعالــى، وأن قولهم مناقض للمنقول والمعقول وأهل اللســان، فإنه من المعلوم والضرورة بالدلالات المذكورة أنه لا يصح وصف الشــيء بوصف مشــتق عنه وثابت لغيره؛ فيقال: هذا عالم والعلم وصف غيره، وهذا سميع وبصير والسمع والإبصار قام بغيره، صبار شكور بأوصاف لغيره، هذا من أبطل الباطل؛ فإنهم إذا قالوا ذلك لزم منه محذوران:

(١) صدر بيت من النونية، وعجزه

.... **حملــت اليك رخيصــة الأثمان**

إحداهما: نفيه عمن أثبتته النصوص له.

والثاني: إثباتها لمن لم تقم به.

فإن هذا من باب قلب الحقائق ومكابرة الأمور المحسوسة، فنظير هذا في المكابرة كأخوين مبصر وأعمى، إذا سمي المبصر أعمى، وسمي الأعمى بالبصير.

فإن قالت الجهمية: إن هذا ثابت في الأفعال؛ فإنه يوصف بأنه الخالق، وإنما خلقه قائم بغيره؛ لأنه لو قام به لكان محلًّا للحوادث وذلك محال. فأثبتوا له الخالق والخلق قام بغيره[1]، فكذلك الكلام[2] هو فاعل للكلام وخالق له وهو قائم بغيره، وأيدوا هذا الإيراد بردهم لمذهب من قال: إن كلامه قديم، والكلمات والحروف مقترن بعضها ببعض، وردهم أيضًا لمذهب الكلّابية والأشعرية القائلين بأنه معنى واحد أو معان خمسة قديمة قائمة بالله، وأنه ليس للقرآن كل ولا بعض، ولا فيه تعدد، وأن الأمر عين النهي، والاستفهام عين الخبر، وأن قيام الكلام بذات المتكلم كقيام الحياة، فإن هذين المذهبين باطلان مخالفان للعقل والنقل كما تقدم، وأنه بمجرد تصورها يجزم بفسادها.

قالوا: وأما نحن فقد قلنا قولًا يوافق العقل؛ فإننا قلنا: إن كلامه كلمات وحروف مرتبة، وأنه متعلق بمشيئته وإرادته بمنزلة فعله. قالوا: فلأي شيء ينكر علينا ويرجح المرجح أحد المذهبين مذهب الاقترانية والكلابية؟! فنحن أحق بالعقل والنقل منهما، وإذا كان لا بد من الترجيح فرجحوا بالدليل والفرقان لا بمجرد الدعاوى؛ فإنها لا تسمن ولا تغني من جوع. هذا مضمون إيرادهم.

وتأصيل الجواب عن هذا الإيراد: أن الخلاف المذكور مبني على أصلين تكرر ذكرهما؛

(١) علق في حاشية المخطوط بقوله: «بغيره؛ لأنه لو قام به لكان محلًّا للحوادث، وذلك محال، فاشتق له الخالق، والخلق قام بغيره».

(٢) أشار عليها بحاشية، ولم توجد في هامش المخطوط.

وهما هل الفعل عين المفعول أو غيره، وهل هو قائم بذاته أو منفصل عنه؟

فإنهم توهموا أن هذا يقتضي حلول الحوادث بالله، ووصفه بالحدوث. لكن إذا قالوا هذا ونفوا الفعل القائم بالله، ولم يثبتوا إلا المفعول المنفصل؛ لزم منه أن يكون الله معطّلًا عن أفعاله وهذا محال؛ لأنه إذا لم يمكن فعل قائم به فبأي شيء وجد المفعول؟! ولزم أن تكون المحدثات حدثت بأنفسها من دون محدث، وهذا معلوم البطلان.

وأما القائلون بأن الفعل غير المفعول فهم طائفتان:

إحداهما: قالت: إن الفعل قديم وعبروا عن ذلك بمسألة التكوين، وأن تكوين الله تعالى قديم، قائم بذاته كقيام قدرته، متعلق بكل مكون مخلوق، وهذا مذهب الحنيفية[1]. وبقي عليهم بقية وهي أن الفعل مع قيامه بالله متعلق بمشيئته وقدرته. والطائفة الأخرى من القائلين بأن الفعل غير المفعول قالت: إن الفعل له ابتداء وافتتاح، ولا يقولون: إنه لم يزل يفعل خوفًا من التسلسل، وهذا مذهب الكرامية.

والطائفة الأخرى: أهل السنة والجماعة والحديث فإنهم قالوا: إن صفات الفعل قائمة بالله، فالله منعوت بها فيما لم يزل ولا يزال، وهي متعلقة بمشيئته؛ فإنه لم يزل ولا يزال يتكلم إذا شاء ويفعل ما يشاء، فقد نص الإمام أحمد رضي الله عنه على هذا، وسبقه إليه ابن عباس وجعفر الصادق وغيرهما، وكذلك قال عثمان بن سعيد الدارمي: إن الفعل ملازم للحياة.

وصدق رحمه الله؛ فإن الحياة الكاملة تمامها القدرة على الفعل، وكون الحي يفعل ما يريد إلا إذا كانت الحياة ناقصة، والله جل جلاله كامل الحياة، كامل الصفات، فإنه فعال لما يريد، لا مانع لما أراده، ولا صعب على قدرته. وإذا كان من المعلوم ضرورة أن الرب تعالى

---

(١) كذا ولعلها الحنفية، انظر: قدم العالم وتسلسل الحوادث بين شيخ الإسلام ابن تيمية والفلاسفة ص٢٣٧.

لم يزل على كل شيء قدير، ولم يزل نافذ الإرادة، فلأي شيء يمتنع الفعل عن الله في وقت من الأوقات؟!

وهذا الذي فطر الله عباده عليه؛ فكل مؤمن يقول: يا دائم الإحسان، يا قديم البر، يا دائم السلطان والجود والامتنان من غير أن ينكر بعضهم على بعض، بل هذا هو الحق الذي لا يقبل الريب، وإذا كانت أفعال الله تابعة لكماله ونعوت جلاله، فإن الله لم يزل كاملًا، ومن كماله دوام أفعاله، فإنه تعالى كمل ففعل، وخلقه لأفعال العباد وللمخلوقات حصل به كمال آخر ومجد وعظمة.

قال أهل الحديث: وقد خالف المعقول والمنقول من قال: إن الفعل يمتنع عليه في الأزل، ثم صار بعد ذلك ممكنًا، فما الموجب لهذا الإمكان؟! وما الذي تجدد له من الكمال حتى تمكن؟! فإن الرب فعَّال غير معطل عن كماله وفعله في كل وقت، فكل يوم هو في شأن يدبر الأمور ويفعل ما تقتضيه حكمته، ومن المتقرر أنه لو فرض وجود القدرة على الكلام والتكوين وعدم القدرة على ذلك لكان الأول هو الكمال، وإن كان هو الكمال فكيف يتخلف التأثير بعد وجود موجبه وسببه ومقتضيه؟! وإذا كان الله تعالى لم يزل موصوفًا بتمام القدرة ونعوت المشيئة وإحاطة العلم والحياة الكاملة - لأنها أوصاف ذاتية لله ومع وجودها يمتنع امتناع الفعل؛ لأن تمام الفعل بوجودها - فلأي شيء قد تأخر فعله مع وجود سببه التام؟!

فالفعل لم يمتنع على الله، بل لم يزل ممكنًا ولا يزال؛ لأن الله جعل عدم الفعل نقصًا، ونعت به آلهة المشركين، فكيف يتصف بها رب العالمين وهو ينعي عليهم اتخاذ الأصنام آلهة تعبد وهي لا تسمع ولا تبصر، ولا لها كمال ولا فعال؟ فيدل على أنها لا تستحق من الألوهية شيئًا، وأما الله تعالى فلم يزل هو الإله الحق، فهل يمكن أن يسلب عنه الفعل والتكليم؟! فإذا كان الله لم يزل إلهًا، فكذلك لم يزل فاعلًا متكلمًا.

هذا وليس في العقل ما ينافي هذا، بل ليس في العقل إلا ما يطابقه ويؤيده؛ فإن هذا القول من أعظم الأدلة على حدوث الممكنات وحدوث أفعالها وصفاتها.

وإن الله بصفاته قديم، وما سواه مُحْدَث، والله تعالى الأول الذي [ليس][1] قبله شيء، السابق لكل شيء؛ فليس شيء من مفعولاته مقارنًا له كما يقوله الزنادقة[2] الدهرية من الفلاسفة وغيرهم؛ فإنهم يقولون: لم يزل هذا العالم المشاهد قديمًا، وصرّحوا بذلك.

وأتى بعدهم ابن سينا وهو موافق لهم على قولهم، ولكنه أراد مصانعة المسلمين وتقريب مذهبهم من الإسلام، فعبر بالعبارات الإسلامية عن المعاني الكفرية، وتلطف بجده واجتهاده، وزعم أن العالَم ممكن بمعنى أنه معلول عن العلة التامة التي تقتضي مقارنة معلولها بحيث لا يتأخر عنها، وزعم أن هذا معنى الإمكان ونحوه من الألفاظ الدالة على الحدوث، وفعل ذلك ليقرب المذهب الإسلامي إلى المذهب الدهري.

وهذا من العجائب الغرائب أن يقرب بين مذهبين متباينين غاية التباين؛ مذهب الرسل الذي هو دين الإسلام في الأولين والآخرين، المبني على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والتوحيد القولي والعملي[3]، وعبادة الله وحده لا شريك له، والاعتراف بانفراده تعالى بالخلق والإحداث والتدبير والسلطان والملك والربوبية – من

---

(١) ليس في الأصل، وأثبتناها لاستقامة المعنى.

(٢) الزنديق: القائل ببقاء الدهر. لسان العرب مادة(زندق).

(٣) **التوحيد القولي**: المراد به توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وسمي بالقولي لأنه في مقابل توحيد الألوهية الذي يشكل الجانب العلمي من التوحيد، وأما هذا الجانب فهو مختص بالجانب القولي العلمي.

التوحيد العملي: المراد به توحيد الألوهية، وسمي بالعملي، لأنه يشمل كلًّا من عمل القلب وعمل اللسان وعمل الجوارح التي تشكل بمجموعها جانب العمل من التوحيد، فالتوحيد له جانبان: جانب تصديقي علمي، وجانب انقيادي عملي. انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات لمحمد بن خليفة التميمي ص٣٩، ٤٠.

مذهب الفلاسفة الدهرية المباين لهذا المذهب في جميع هذه الأصول؟

هذا أمحل الأشياء وأبعدها، ولم تزل الحرب بين الأنبياء وأتباعهم وبين أهل هذا المذهب الملعون، فكيف يمكن الجمع والإصلاح بينهما؟!

وجرى على مذهب ابن سينا كل قُرمطي وباطني[1] ومُلحد، ومن أعظم من نصر قوله النصير الطوسي[2] الذي كان كالوزير لملك التتار[3] حين خرجوا على المسلمين وقتلوا ملوكهم وخلفاءهم وعلماءهم، ورأى الفرصة في الإسلام فعَمَر المدارسَ لتعليم الإلحاد والفلسفة، وصرف لها الأوقاف الإسلامية، وأراد أن يجعل إشارات ابن سينا محل القرآن، وأن يقرّر من القواعد والنواميس[4] ما يكون هادمًا للدين الإسلامي، وعَلم أن مقصوده لا يتم بدون إتلاف رؤساء الدين، فأشار على التَّتَر بوضع السيف فيهم، فقتلوا من القضاة والعلماء والخلفاء وغيرهم ما لا يعد ولا يحصى، وجرى على الإسلام من المصائب والرزايا ما يفجع القلوب، ولولا حفظ الله لدينه لجرى عليه ما جرى على الأديان السابقة من الاضمحلال، والحمد لله رب العالمين.

واعلم أن أدلة الخلق والحدوث على هذا العالم المشاهَد ظاهرة واضحة عقلًا ونقلًا،

---

(١) الباطنية: مجموعة فرق إسلامية مبتدعة تعتقد أن للشريعة ظاهرًا وباطنًا، وأن لكل ظاهر باطنًا ولكل تنزيل تأويلًا. معجم اللغة العربية المعاصرة ١/ ٢٢١.

(٢) محمد بن محمد بن الحسن أبو جعفر، نصير الدين الطوسي، فيلسوف. كان رأسًا في العلوم العقلية، علت منزلته عند هولاكو فكان يطيعه فيما يشير به عليه. له تحرير أصول إقليدس وتجريد العقائد وغيرهما (ت٦٧٢ هـ). الوافي بالوفيات١/ ١٥٠، والأعلام ٧/ ٣٠.

(٣) هولاكو بن تولى قان بن جنكيز خان ملك التتار ومقدمهم، كان طاغية من أعظم ملوك التتار، وكان شجاعًا مقدامًا حازمًا مدبرًا ذا همة عالية وسطوة ومهابة وخبرة بالحروب ومحبة في العلوم العقلية من غير أن يتعقل منها شيئًا، قتل الخليفة المستعصم وأمراء العراق وصاحب الشام ميافارقين. (ت٦٦٤هـ). تاريخ الإسلام(وفيات سنة٦٦٤هـ) ٤٩/ ١٨٠، والوافي بالوفيات٢٧/ ٢٣٣.

(٤) النواميس: القوانين أو الشرائع. الوسيط مادة(ن م س).

وجميع الأدلة الدالة على توحيد الله بصفات الكمال وبديع الأفعال تدل على حدوث كل ما سواه، فلو كان مع الله شيء قديم لزم أن يساوي الله في غناه، فيكون ربَّان متكافئان متمانعان مستقلان وهذا أمحل المحال؛ فإن استقلالهما ينافي استقلالهما، واستقلال أحدهما ينافي استقلال الآخر، فيلزم واحد من أحد ثلاثة أمور:

- إما أن يستقلا فيتمانعان ويتساقطان، وهذا محال باطل.
- وإما أن يذهب كل واحد منهما بما خلق، ويستقل بتدبير ملكه ويبقى الأمر هكذا فهذا أيضًا باطل؛ لأنه يلزم من ذلك المغالبة، وأن يعلو بعضهم على بعض.
- وإما أن يكون الرب واحدًا قاهرًا لكل شيء، والكل مقهور بقهره، داخل تحت نفوذه وتدبيره، وهذا هو الحق؛ قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1].

سبحانه وتعالى عما يشركون؛ ولذلك أخبر تعالى بأنه الواحد القهار في عدة مواضع من القرآن؛ لأن الوحدة والقهر متلازمان، فلا يكون منفردًا بالوحدانية حتى يكون منفردًا بالقهر، ومن انفرد بالقهر فقد تفرد بالوحدانية، فمحال أن توجد الصفتان وتجتمعان في ذاتين، وإنما هما الله الواحد القهار.

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٩١.

فصل

في اعتراضهم على القول بدوام فاعلية الرب وكلامه والجواب عنه

ذكر المؤلف في هذا الفصل أن الذي حَمل المتكلمين من الكلّابية وأتباعهم على القول بعدم دوام فاعلية الرب، وأن أفعاله حادثة بعد أن لم تكن - هو خشية التسلسل؛ فإن التسلسل باطل.

وحاصل الجواب عن هذا الإيراد: التزام القول بالتسلسل في الماضي، كما قالوا بجوازه، بل وقوعه في المستقبل، ففي الحقيقة لا فرق بين الأمرين، فمن زعم أن لفعل الله مبتدأ، وهو يقول: ليس له منتهى. فقد تناقض؛ لأنه لا فرق بين الأمرين في النقل والعقل والنظر والدليل؛ فكلاهما متساويان في الإمكان والوجوب.

وقد طرد هذا القول الجهمية ونفوا التسلسل في الماضي والمستقبل، وبنَوا على هذا بناء الجنة والنار كما تقدم؛ فالجهمُ شيخ الجهمية أفنى ذاتهما، والعلاف شيخ المعتزلة أفنى حركاتهما كما تقدم شرح مقالهم، وأما أبو الحسن الأشعري وأبو علي الجبائي[1] وابنه[2]،

(١) محمد بن عبد الوهاب بن سلام أبو علي الجبائي، شيخ المعتزلة كان رأسًا في الكلام، له مقالات مشهورة وتصانيف، أخذ عنه ابنه أبو هاشم، والشيخ أبو الحسن الأشعري، وكان الجبائي زوج أمه ثم أعرض عنه الأشعري وإليه نسبت الطائفة الجبائية (ت٣٠٣هـ).وفيات الأعيان ٤/ ٢٦٧، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ١٨٣، والوافي بالوفيات ٤/ ٥٥، والأعلام ٦/ ٢٥٦.

(٢) عبد السلام بن أبي علي الجبائي المعتزلي، وإليه تنسب البهشمية من المعتزلة، كان مولده سنة سبع وأربعين ومائتين، وتوفي في شعبان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة. =

وأبو بكر ابن الطيب[1] ومن بعدهم من أهل الكلام الباطل، فإنهم فرقوا بين الأمرين؛ فأبطلوا التسلسل في الماضيات، واعترفوا به في المستقبلات، وزعموا أن الماضي يقتضي الحدوث لو قلنا به، ويلزم حلول الحوادث في الله، والمستقبل لا ينافي ذلك.

وهذا الفرق فيه من التلبيس والتمويه ما لا يخفى؛ فإنه لم يقل أحد من أهل السنة والجماعة المثبتين للتسلسل في الماضي والمستقبل: إن شيئًا من الأعيان والأفراد [قديمٌ][2]، وإنما التسلسل الذي لا يدل النقل والعقل إلا عليه أن نوع الفعل لله تعالى لم يزل ولا يزال؛ فلم يزل الله يفعل، وكل فرد من مفعولاته قبله فرد، وقبل ذلك فرد إلى غير نهاية، وكذلك كل فرد بعده فرد إلى غير نهاية؛ فالأفراد تفنى ولها مبتدأ ومنتهى، وأما النوع فلا له منتهى، كما أنه ليس له مبتدأ؛ لأنه كما تقدم أنه من صفات الكمال، والله تعالى لا يمكن أن يخلو بوقت من الأوقات عن الكمال من كل وجه، ونظير تعاقب الأعيان المخلوقة نظير تعاقب الأزمان المخلوقة؛ كل وقت قبله وقت إلى غير نهاية، كما أن كل وقت بعده وقت وزمان إلى غير نهاية، وهذا معروف بأدنى تأمل وتفكر.

فإن قالوا: إننا نمنع التسلسل أيضًا في الأزمنة.

فيقال لهم: ما تعنون بالأزمنة؟ هل تعنون بها المدة والزمان الكائن منذ خلق الله هذا

= ترجمته عند الخطيب: تاريخ بغداد ١١/ ٥٥، والقاضي عبد الجبار: فضل الاعتزال ص ٣٠٤، ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ٣٢٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ١٨٣.

(١) أبو بكر محمد بن الطيب البصري، الباقلاني نسبة إلى الباقلاء أو الباقلي، رأس المتكلمين على مذهب الأشعري، من أكثر الناس تصنيفًا في علم الكلام، كان يضرب به المثل بفهمه وذكائه، وكان مالكي المذهب، له من التصانيف «التمهيد» و «البيان» وغيرهما. توفي سنة ثلاث وأربعمائة.
ترجمته عند الخطيب: تاريخ بغداد ٥/ ٣٨٢، القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ٤/ ٥٨٥، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٠، الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٩٠.

(٢) في المخطوط: «قديمًا»، والمثبت هو الصواب.

العالم؛ السماوات والأرض وهذا مرادهم؟ أو أنه لم يكن قبلها شيء من المخلوقات؟ فهذا لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا نقل ولا عقل، بل الدليل منها يدل على أن الله تعالى قد خلق مخلوقاتٍ قبل السماوات والأرض؛ فإن الله أخبر أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وهذه الأيام التي خلق الله بها السماوات والأرض مقدرة بزمان غير هذا الزمان المقدر بسير الشمس والقمر، فإن في هذه الأيام الستة خلق الله في ضمنها الشمس والقمر، فدل على أنه مقدّر بحركة أخرى غير سير الشمس والقمر، وذلك دليل على وجود زمان ومخلوقات قبل ذلك؛ فإن الأزمنة تقدر فيها الحوادث، وقد ثبت في الحديث الصحيح: «**إن الله لما خلق القلم قال له: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**». وذلك قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام، كما ثبت به الأثر[١].

هذا وعرش الرب قبل ذلك فوق الماء كما في آخر الحديث[٢]؛ فكان عرشه على الماء، وهذا صريح في وجود مخلوقات قبل السماوات والأرض، وقد اختلف الناس أي العرش والقلم خلق أولًا؟ على قولين[٣]، حكاهما أبو العلاء الهمذاني[٤]، والراجح أن العرش قبل القلم؛ لأنه أخبر في الحديث الذي فيه: «**أول ما خلق الله القلم...**» إلى أن قال: «**وكان عرشه على الماء**».

---

(١) أخرجه أحمد ٣٧/ ٣٧٨ (٢٢٧٠٥)، وأبو داود ٥/ ٥٢ (٤٧٠٠)، والترمذي ٤/ ٢٩ (٢١٥٥)، والدارمي في الرد على الجهمية ص٣٨(٤٤).

(٢) أخرجه مسلم٨/ ٥١(٢٦٥٣).

(٣) انظر: بغية المرتاد لابن تيمية ص٢٨٥.

(٤) أبو العلاء الهمذاني هو: الحسن بن أحمد بن الحسن العطار اشتغل بعلم القراءات واللغة حتى صار أوحد زمانه في علمي الكتاب والسنة، وصنف الكتب الكثيرة المفيدة، وكان على طريقة السلف، له تصانيف منها زاد المسير في التفسير والوقف والابتداء وغيرها(ت٥٦٩هـ).سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٠، والوافي بالوفيات ١١/ ٢٩٥، والبداية والنهاية ١٦/ ٤٩٦، والأعلام ٢/ ١٨١.

فهذا ظاهر في تقدم العرش؛ فإن الحديث صريح في أن العرش قبل الكتابة، والكتابة تعقبت إيجاد القلم من غير مهلة، فهذا ونحوه من الآثار يدل على أن الله تعالى لم يزل يفعل، ومما يدل عليه عقلًا وفطرة ما تقدم من القاعدة التي تكررت مرارًا، وهو أنه تعالى موصوف بالكمال المطلق من جميع الوجوه في جميع الأوقات، ومن كماله تمام القدرة ونفوذ المشيئة، فهذا الكمال محال وممتنع أن يخلو الله منه في وقت من الأوقات، وهذا ظاهر لا يقبل الريب والشك.

ولكن أهل الكلام لما أصَّلوا أصولًا فاسدة وقواعد باطلة اعتقدوها وبنوا عليها النصوص، وردوا لأجلها ما خالفها من النصوص أو تأولوه أوجب لهم أن يشتبه الأمر عليهم، وإلا فاتصاف الباري بأنه على الدوام فعَّال لما يريد لا يحتاج إلى كثير نظر؛ لأن أهل الكلام يتوهمون أنهم لو قالوا بهذا القول انسد عليه الدليل الذي استدلوا به على التوحيد وحدوث العالم، وهذا مجرد توهم واشتباه؛ فلذلك عقد المصنف بعد هذا فصلًا ردَّ فيه دليلهم هذا وأبطله، وذكر أنه لم يزل أمر الناس مستقيمًا حتى ابتدعوا هذا الدليل الباطل فتمكن من القلوب، وعز عليها التخلص منه، ورفعوا لأجله كثيرًا من قواعد الإيمان، وزعموا أنهم ينصُرون الإسلام، وهم في الحقيقة - في هذه الأبواب - ضَرَرٌ محضٌ على الإسلام؛ خذلوا أولياءه، وتجرأ عليهم أعداؤه ورأى الملاحدة والزنادقة فساد أدلتهم، وتناقض أحوالهم ومخالفتها للمعقول، وظنوا أن هذا الذي جاء به الرسول فأغراهم بلزوم ما هم عليه من الإلحاد والقدح في الدين الإسلامي وأهله، ولولا أن الله ناصر دينه ومقيم له حفظة يحفظونه لجرى عليه ما يحزن القلوب، هذا ومن أعظم المحال وأكبر الدليل على بطلان هذا الدليل أن يكون إيمان القرون المفضلة الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان - وهم أكمل الخلق إيمانًا - غير مبنيٍّ عليه، ولم يعرفوا الله بالأجسام والأعراض[1] والجواهر ونحوها، ويفوز

---

(١) العرض الصفات القائمة بالجوهر، وهي عبارة عما يقال على الشيء، وفهمه غير ضروري السبق من فهم ذلك الشيء عليه؛ كالأسود والأبيض بالنسبة للإنسان والفرس. انظر المبين في شرح معاني =

به هذا الخلف السوء، فيكون إيمان السابقين مبنيًّا على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية المؤيدة بالعقل، وإيمان هؤلاء على هذا الدليل الباطل؛ دليل الأعراض الذي ليس يذكر في كتاب ولا سنة ولا أثر عن أحد من السلف، بل قد اعترف كثير من فضلائهم كالأشعري وغيره أنه دليل مبتدع، وصرح بعضهم بالحق وأنه دليل باطل مفسِد للدين محبِط للإيمان، والله ورسوله قد بيَّن جميع الطرق المعرفة بالله ونوَّعها، ولم يذكر الله ورسوله هذا الدليل، فلو كان حقًّا نافعًا لذكره الله ورسوله، فعُلم أنه باطل ضار، ولذلك لما اطلع الأئمة على حقيقة هذا الدليل أنكروا على أهله غاية الإنكار، وحذروا منه غاية التحذير لعلمهم بما يفضي إليه.



= ألفاظ الحكماء والمتكلمين، للآمدي ص ٧٢.

قال المصنف رحمه الله:

فصل

في الرد على الجهمية المعطلة القائلين بأنه ليس على العرش إله يعبد ولا فوق السماوات رب يصلى له ويسجد، وبيان فساد قولهم عقلًا ونقلًا وفطرة

قد عُلم أن الله تعالى كان وليس شيء غيره من المخلوقات، ثم خلق الله المخلوقات وأوجدها.

فيقال للمعطل: هل خَلَق المخلوقاتِ بائنةً عنه؟ أم خَلَقها حالّةً فيه؟ فلا بد من أحد الأمرين، إلا أن يزعم أن الخالق عين المخلوقات كما قال ذلك غلاتهم أهل الوحدة.

فإن قالوا: خلق الله المخلوقات في ذاته حالَّةً فيها حلول الروح في الجسم؛ فقد زعموا أنه محتاج ومفتقر إليها.

وإن قالوا: لا داخل العالم ولا خارجه؛ فقد حكموا عليه بالعدم؛ لأنهم إذا رفعوا النقيضين لم يكن ذلك إلا معدومًا.

وإن قالوا ما هو الحق، وهو أنه خلقها بائنة عن ذاته وهو بائن عنها؛ فقد أقروا بالحق، ويلزم على هذا أن يكون عليًّا على خلقه، مستويًا على عرشه.

فإن قالوا: إن هذا النفي لدخوله في العالم وخروجه منه إنما يكون يطلق عليه حد المعدوم إذا كان يقبل الدخول والخروج، وأما الله فليس بقابل لواحد منهما؛ إذ هذا من خصائص الأجسام، والله منزَّه عن هذا.

- **فيقال أولًا**: هذه دعوى مجردة عن الدليل فهي ممنوعة فلا تقبل؛ فإن هذه دعوى المذهب والاصطلاح الذي اصطلح عليه هؤلاء المتكلمون، فتكون الدعوى باطلة.

- **ويقال ثانيًا**: بل يصدق الشيء نفيه عن القابل وغير القابل لغة وشرعًا؛ فإن نفي الظلم عن نفسه وهو محال عند الجهمية؛ لأنه تقدم قولهم: إنه من باب نفي الممتنع.

هذا وإن كان تفسيرًا باطلًا فإنهم يعتقدونه، فيذكر في محل الإلزام، وكذلك نفى عن نفسه النوم والسِّنة(1) والطعم والولادة والزوجية وهذه ممتنعة على الرحمن، وكذلك نفى عن بعض الجمادات السمع والبصر والنطق والشعور، وأنها لا تخلق شيئًا، وليست بقابلة لشيء من ذلك.

- **ويقال ثالثًا**: لو صح ما قالوه: إن الشيء لا ينفى إلا عن المحل القابل؛ فإنما ذلك في الضدين اللذين لا يجتمعان وقد يرتفعان، لا في النقيضين اللذين لا يجتمعان ولا يرتفعان، والمسألة من هذا الباب من باب النقيضين.

- **ويقال رابعًا**: نفيكم لقبوله للدخول والخروج يزيل وصفه بأنه واجب الوجود، بل يزيل إمكانه؛ لأنه إذا لم يقبل الدخول والخروج كان ممتنعًا عقلًا وفطرة.

فإذا قال المعطل: إن نفي الأمرين القيام بالنفس والقيام بالغير باطل؛ إذ لا يقبل أحد الأمرين إلا الممكنات، والله ليس بقابل للأمرين؛ كان هذا من أعظم نعوت العدم الممتنع.

فلو قيل: صفوا لنا المعدوم؟ ما وصف بأبلغ من هذا، وهذا في الحقيقة نفي لوجود الله تعالى، فلا يمكنه التفريق بين الأمرين أبدًا، وإن طرد الأمرين ظهر إلحاده وكفره والله أعلم.

---

(١) السنة: ابتداء النعاس في الرأس فإذا خالط القلب صار نومًا. التبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم ص١٣٥.

فصل

في سياق هذا الدليل على وجه آخر

وهذه العادة في أدلة الحق وشواهده حيث صُرفت وأُديرت إلى وجه ومن عبارة إلى عبارة؛ فإن دلالتها واحدة إلا أن العبارات تختلف في زيادة الوضوح وخفائه؛ لأن المعنى الحق هو الثابت المستقر الموافق للمعقول بكل وجه، بخلاف أدلة الباطل فإنها لا تكاد تُقبل إلا إذا نظمت بعبارة مخصوصة مموهة مزخرفة، فإذا أُديرت إلى سياق آخر بان بطلانها بمنزلة الشيء المغشوش يظهر غشه بأدنى اختبار، فتقدم الإلزام للمعطل واستخباره: هل برأ الله البرية[1] في نفسه أو خارجًا عنه أو ينفي الأمرين؟ وأنه يلزم الاعتراف بأنه خلقها بائنة منه وهو بائن عنها عالٍ عليها، وأنه إذا قال بغير هذا فقد كابر وغالط.

وهذا سؤال آخر: فإنه يقال للمعطل أولًا: هل الرب تعالى ثابت في الأذهان أم لا؟

فإن قال: لا. فهو جاحد لرب العالمين، فإن الذي لا وجود له في الأذهان لا وجود له حقيقة.

فإن قال: نعم، هو موجود في الأذهان. فإنه يقال له ثانيًا: هل هو هذه الأكوان أو غيرها؟

فإن قال: هو هي، وهي هو. فقد قال بقول الاتحاديين الذين هم أكفر الناس برب العالمين.

---

(١) البَرِيَّة: الخلقُ، وهو من بَرَأَ الله الخلق، أي خلقهم، وقال الفراء: فإن أخذت البَرِيَّة من البَرَى، وهو الترابُ، فَأَصلها غير الهمز. إصلاح المنطق، ص ١٢١.

فإن قال: بل هو غيرها. فإنه يقال له: هل هو حال في الأكوان وهي حالة فيه؟

فإذا أقر بأحد الأمرين فقد أشبه النصارى القائلين بإلهية المسيح، وأن اللاهوت حل بالناسوت، وهؤلاء أبلغ؛ فإنهم زعموا أنه حال في جميع المخلوقات.

فإن نفى الأمرين وقال: لم يحل فيها، ولم تحلل به. فيقال له رابعًا: هل هو قائم بنفسه، غني عن الأكوان والخلق، أم هو قائم بغيره كقيام الأكوان والأعراض بمحالها؟

فإذا أقر بالحق وقال: بل هو قائم بنفسه غني عن الأكوان والخلق، أم هو قائم بغيره كقيام الألوان والأعراض بمحالها؟

فإذا أقر بالحق وقال: بل هو قائم بنفسه مستغن عن جميع خلقه. فيسأل خامسًا ويقال له: هل ذاته تماثل الذوات أو تضادها أو تغايرها؟

وعلى هذه التقادير الثلاثة فإنه:

- لولا أنه بائن عنها لم يكن شيئان متماثلين أو متضادين أو متغايرين؛ لأن كل واحد من الثلاثة بالنسبة إلى قسيمه يكون غيره لا يمكن أن يتحد فيه.

فتعين عليه أن يختار:

- إما أنه هو هذه المخلوقات، وينفي التماثل والتضاد والتغاير، ويصرح بقول الاتحاديين وينسلخ من رِبْقَة الدين[1].
- وإما أن يعترف بالحق الواضح وهو أن الخالق غير المخلوق، وأنه بائن عن مخلوقاته، متوحد في صفاته، منفرد بربوبيته وألوهيته علي على جميع بريته.

فهذه إشارة إلى تقاسيم عقليته، تلجئ المنصف إلى الاعتراف بالحق، ويعلم أن من خالف الحق فهو مكابر للعقل كما أنه مخالف للنقل.

---

(١) رِبقة الدين: عقد الدين. المصباح المنير. (ر ب ق).

ولذلك عقد المؤلف هذه الفصول في الإشارة إلى الأدلة النقلية فقال له:

فصل

في الإشارة إلى الطرق النقلية الدالة على أن الله فوق سماواته على عرشه

فذكر منها إحدى وعشرين نوعًا من الأدلة؛ كل نوع تحته من الأفراد ما لا يُعد ولا يُحصى:

الأول: الإخبار بأنه تعالى استوى على عرشه في سبعة مواضع من القرآن معروفة، كلها اطردت بـ«على» الدالة على العُلُوِّ والارتفاع، وهذا نص لا يَقبل الاحتمال في معناه؛ فإنها لو كانت بمعنى اللام ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[1]. أي: لو كان معنى استوى: استولى لأتت في موضع فأكثر لأجل أن يُحمل المطلق منها على مقيَّد النظائر، فلما لم تجئْ في موضع واحد بلفظ «استولى» كانت نصًّا صريحًا في العلو والفوقية؛ فإن العرب تُضمر بعض القيود في بعض المواضع وتذكره في أخر، فيحمل المطلق على المقيد. وأما في مثل هذا الموضع فالحمل متعذر. وقد أبطل شيخ الإسلام ابن تيمية تفسير الجهمية أن معنى استوى على العرش استولى بعشرين وجهًا، كل واحد كاف شافٍ[2].

الثاني: التصريح بلفظ العلو، وقد تكرر في الكتاب وصفه بـ«العلي»، وبـ«الأعلى»، وذلك يدل على أنه العلي الأعلى بكل وجه، واعتبار علو الذات والصفات وعلو القدر والعظمة، وعلو القهر والجبروت.

---

(١) سورة طه، آية: ٥.

(٢) مجموع الفتاوى ٥/ ١٤٤.

لكن المعطلة على أصْلهم الفاسد يَنفون عنه علوَّ الذات، ويُفسرون علوه بعلو القدر والقهر. وهذا أهضم للمعنى، وإنكار منهم لعلوه ولِمَا فطر الله عليه عباده؛ فإنه ما توجه متوجه من البرية إلا رأى في قلبه طلبًا لربه في العلو، وهذه الفطرة لا يستطيع المعطِّلون تبديلها حتى هم بأنفسهم لو رجعوا إلى حالهم لرأوها تناقض أقوالهم، ونهاية ما يورده المبطل في هذا الموضع إنما هو شبهات وشكوك لا تعارض العلم واليقين؛ فإن عُلُوَّه تعالى معلوم بالضرورة نقلًا وعقلًا وفطرة، وما يعارض هذا نهايته شبهة، وكلام مموه لا يعارض المعلوم، فإذا تقابل ما يعلم ببداية العقول وهذه الشبهات لم تقاوم الشبهات للبدايات والبينات.

الثالث: التصريح بالفوقية لله تعالى تارة مقرونة بـ«من» كقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[1]. وتارة غير مقرونة كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[2]. فالمجرور بـ«من» نصٌّ في معناه لا يقبل التأويل.

وأما الذي لم تدخل عليه «من» فهو ظاهر أيضًا بمجرده في المراد، وأصل فيه، وقد يقبل التأويل على وجه ضعيف، لكن لا بد فيه من الدليل، ولكن هذا بالنظر إلى مجرد الألفاظ، وإلا فإذا أتى الكلام بسياقه ونظمه وتعبيره عن المراد والمقصود، فإنه يكون نصًّا قاطعًا في المراد، لا يقبل التأويل لسياقه ونظمه إن كان يقبله إذا جرد عن ذلك، وهذه حالة فرضية غير موجودة في كلام الله وكلام رسوله، وإنما المدار على السياق؛ فإن سياق الكلام مثل شواهد الأحوال تدل على معناها دلالة قاطعة، فالتأويل إذا أتى بعد سياق الكلام يكون في غاية الهُجْنة[3]، كالكتمان إذا أتى بعد رؤية شواهد الأحوال كان كتمانًا قبيحًا، والفوقية وصف ثابت لله لا يمكن أن يكون إلا كذلك، وله الفوقية المطلقة بكل وصف واعتبار؛ فوقية الذات، وفوقية القدر، وفوقية القهر، فمن أنكر واحدًا من هذه الأمور كان مبطلًا مكابرًا

---

(١) سورة النحل، آية: ٥٠.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٨.

(٣) الهجنة في الكلام العيب والقبح. المصباح المنير مادة (هـ ج ن).

متناقضًا كما هو قول المعطلة النافين لفوقية الذات، وأن المراد بفوقيته فوقية القدر كما يقول الناس: الذهب فوق الفضة، وهذه دعوى بلا دليل بل قام البرهان على نقيضها.

الرابع: التصريح بعروج بعض المخلوقات إليه؛ كقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[1]. وذكر المؤلف كلام المفسرين على هذين الموضعين من القرآن؛ قوله تعالى في سورة ذي المعارج: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾. وقوله تعالى في سورة السجدة قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾[2].

فقيل: إن تقرير خمسين ألف سنة المراد به يوم القيامة، وتقديره بالألف في الدنيا.

وقيل: إنهما يعودان إلى يوم واحد، ويكون التقدير بالألف من أوجه الأرض إلى سماء الدنيا، ثم من كل سماء كذلك كما وردت به الآثار، وتقدير الخمسين ألف سنة في المركز الذي هو أسفل الأرضين إلى ما فوق هذا العالم ومنتهى العرش.

وقال بعضهم: إن هذا التفاوت يرجع إلى اختلاف السير والله أعلم.

الخامس: التصريح بصعود بعض المخلوقات والأعمال إلى الله من العمل الصالح والكلم الطيب والكسب الطيب والملائكة والأرواح والأعمال، كما وردت بذلك النصوص الكثيرة، وكذلك تواتر معراج الرسول ﷺ إلى ما فوق السماوات العلى، وأن عروجه إلى الله، وكذلك رفع عيسى عليه السلام إلى الله، وكذلك دعوات المضطرين والمظلومين، وذلك كله صريح في علو الله تعالى على خلقه ومباينته لهم.

السادس والسابع: إخباره تعالى أن القرآن العظيم نزل منه، وأنه تنزيل منه كما هو في عدة آيات، ومن المعلوم أن النزول لا يكون إلا ممن هو فوق عباده وعالٍ عليهم مباين لهم،

---

(١) سورة المعارج، آية: ٤.

(٢) سورة السجدة، آية: ٥.

وكذلك ما تواترت به الأحاديث من نزوله تعالى إلى السماء الدنيا إذا بقي ثلث الليل الأخير فيقول: «**من يسألني فأعطيه، من يدعوني فأجيبه، من يستغفرني فأغفر له**»(١).

فهذا دليل على علوه وارتفاعه فوق خلقه، وعند الجهمية أنه لا ينزل، وإنما ينزل أمره. وهذا باطل لا يدل عليه بوجه من الوجوه، وإنما هو نص في نزوله تعالى حقيقة نزولًا يليق بجلاله، وأنه هو الذي يقول: «**من يسألني فأعطيه**...» إلى آخر الحديث، ولا يمكن أن يأتي تصريح أبلغ من هذه الألفاظ النبوية.

الثامن: ما أخبر به في سورة غافر في قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾(٢) فإن فَعِيلًا فيها بمعنى مَفْعُول، وأن معناه مرفوعة درجاته لكماله وارتفاعه وعلو شأنه وعظمته، كما في قوله في سورة سأل سائل: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾(٣). فإن هذه فسرت تلك وأزالت ما فيها من الاشتباه، ودلت على كمال رفعته وعظمة سلطانه.

التاسع: إخباره بأنه في السماء كقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾(٤). ونحوها؛ فإنها لا تدل على أن الله محصور في السماء عقلًا ولا عرفًا ولا لغة، وإنما معناها بإجماع المفسرين معنى فوق، أو أن معنى العلو أي: أأمنتم من هو عالٍ على خلقه، وأن الرب في العلو وليس يحصره العلو؛ لأن الله تعالى أجل وأعظم من ذلك، فإن الجهات كلها تنعدم بالنسبة إليه، فإنه قد بان عنها كلها وأحاط بها وليست تحيط به، وبعضهم يرى أن (في) بمعنى (على) ولكن الصحيح الأول.

العاشر: إخبار النصوص باختصاص بعض المخلوقات بأنها عند الله كقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾(٥)، وقول النبي ﷺ: «**إن الله كتب كتابًا فهو عنده على العرش: إن رحمتي سبقت غضبي**»(٦).

---

(١) أخرجه البخاري ٢/ ٥٣(١١٤٥)، ومسلم ٢/ ١٧٥(٧٥٨).

(٢) سورة غافر، آية: ١٥.

(٣) سورة المعارج، الآيتان: ٣، ٤.

(٤) سورة الملك، آية: ١٦.

(٥) سورة الأنبياء، آية: ١٩.

(٦) أخرجه البخاري ٩/ ١٢٥ (٧٤٢٢).

فإن هذا دليل وبرهان على علوه تعالى على عباده؛ لأنه لو لم يكن كذلك لكان جبريل وإبليس في هذه العندية سواء، وجميع الذوات في القرب منه سواء كما قال ذلك الجهمية.

ومن تمام قولهم أن محبة الله عندهم عين إرادته، فكل ما أراده فقد أحبه، والكون كله مراده فيكون محبوبًا لله، وتأولوا النصوص المتواترة المخبرة باختصاص محبة الله ببعض الأعمال والأشخاص تأويلات فاسدة[1]، فإذا كان من قولهم: إن الجميع بالنسبة إلى

(١) تأويل تعلق المحبة بالإرادة هو رأي المعتزلة وأكثر أصحاب الأشعري، حيث يقولون: إن المحبة هي عين الإرادة والمشيئة، ومن الناس مَن نفى أن تكون له محبة أو رضا أو غضب غير الإرادة؛ لأن المحبة ميل القلب إلى ما يلائم الطبع، والله تعالى منزه عن ذلك، وحينئذٍ فمحبة الله تعالى للعبد إرادة اللطف به والإحسان إليه، ومحبة العبد لله هي محبة طاعته في أوامره ونواهيه والاعتناء بتحصيل مراضيه، فمعنى يحب الله: أي يحب طاعته وخدمته أو يحب ثوابه وإحسانه، وهذا مذهب جمهور المتكلمين.

وقد ذهب طوائف من المتكلمين والفقهاء إلى أن الله تعالى لا يُحَبّ وإنما محبته محبة طاعته وعبادته. وقالوا أيضًا: هو لا يحب عباده المؤمنين، وإنما محبته إرادته الإحسان إليهم، والذي دلّ عليه الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها أن الله تعالى يُحِبُّ ويُحَبُّ لذاته، وأما حب ثوابه فدرجة نازلة، قال ابن تيمية: للناس فى هذا الأصل العظيم ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الله تعالى يُحِبُّ ويُحَبُّ كما قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] فهو المستحق أن يكون له كمال المحبة دون ما سواه، وهو سبحانه يحب ما أمر به ويحب عباده المؤمنين، وهذا قول سلف الأمة وأئمتها.

والقول الثاني: أنه يستحق أن يُحَب ولكنه لا يحِب إلا بمعنى أن يريد، وهذا قول كثير من المتكلمين ومن وافقهم من الصوفية.

القول الثالث: أنه لا يُحِب ولا يُحَب وإنما محبة العباد له إرادتهم طاعته، وهذا قول الجهمية ومن وافقهم من متأخري أهل الكلام، كالرازي.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: وقد فسر بعض المفسرين محبته تعالى للمطهرين برضاه عنهم وإحسانه إليهم وهو تأويل فسر به اللفظ ببعض لوازمه، فإن كان هربًا من نظرية من قال من المتكلمين: =

محبة الله سواء، وجميع الذوات في القرب منه سواء؛ كان هذا الباطل البالغ لنهايته وغايته، فإن قالوا: المراد بالعندية عندية التكوين كانت الذاتان كلاهما مخلوقتين، وإن قالوا: المراد بالعندية عندية التقريب والشرف؛ فالمحبة عندهم هي الإرادة، فيستحيل هذا التأويل ويتبين أنه مكابرة للمعقول كما هو مخالفة للمنقول.

الحادي عشر: إشارته ﷺ إلى العلو بإصبعه حين خطبة الناس بعرفة وقال: «**هل بلغت؟**»[1]. قالوا: نعم. فأشار بإصبعه نحو السماء مستشهدًا لربه تعالى، وذلك برهان لعلوه وارتفاعه تعالى.

الثاني عشر: أن الله وصف نفسه بالظاهر وهو العالي فوق مخلوقاته، كما فسره رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم وفيه: «**أنت الأول الذي ليس بعده شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء**»[2].

= إن اتصاف الله تعالى بالحب محال؛ لأنه انفعال نفسي يستحيل على ذي الجلال فيجب تفسيره بلازمه المذكور كما قال بعضهم فى الرحمة وغيرها من الصفات، فهو هروب من مذهب السلف الحق ووقوع فيما فروا منه من التآويل، وهو تشبيه الله بخلقه، إذ يقال لهم: إن الرضا عاطفة نفسية كالحب، والإحسان عمل بدني كبسط اليد بالبذل، وهما يسندان إلى الناس فلا يصح أن يوصف بهما الخالق عز وجل، لأنه تشبيه له بالخلق، وكذا العلم والقدرة والمشيئة والكلام وغيرها من صفات الذات، فإن كلا منها وضعت في اللغات لمعانيها المعروفة في المخلوقات ككون العلم صور المعلومات المنتزعة منها في الذهن، وهو بهذا المعنى محال على الله عز وجل، وإذا كان الأمر كذلك فالحق أن يوصف تعالى بما وصف به نفسه على ظاهره بقيوده الثلاثة التى قررها السلف الصالح، أي بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل، فعلمه تعالى انكشاف يليق به، وحبه معنى نفسي يليق به.

ينظر تفصيل هذه المسألة عند ابن تيمية: دقائق التفاسير ٢/ ١١١، السفاريني: لوامع الأنوار ١/ ٢٢١، الشيخ محمد رشيد رضا: تفسير المنار ١١/ ٣٤.

(١) أخرجه البخاري ١/ ٢٤(٦٧)، ومسلم ٤/ ٣٨(١٢١٨).

(٢) مسلم ٨/ ٧٨(٢٧١٣).

فهذا تفسير صريح من المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وقرر ذلك وأكده بنفي ضده، حيث قال: «**الذي ليس فوقه شيء**». وهو المفهوم من هذا اللفظ؛ فإنه كلما علا الشيء ظهر وبان، كما أنه كلما سفل خفي واستتر، كما هو مشاهد في مركز هذا العالم وسفله، وأنه أخفى الأمكنة وأضيقها ومحيطه أظهرها وأعظمها وأوسعها، فالله جل جلاله أعظم من ذلك وأعلى، فالعلو والظهور كل منهما مقتضٍ للآخر فهما متلازمان.

الثالث عشر: ما تواترت به الأحاديث عن النبي ﷺ مع دلالات الآيات القرآنية في رؤية أهل الجنة ربهم تبارك وتعالى[1]، فإن هذه النصوص من أعظم البراهين على علو الله تعالى، ولذلك لا يمكن المعطل أن يثبت الرؤية إثباتًا على وجه الحقيقة المفهومة حتى يثبت علو الله على خلقه؛ فإنه إذا أثبت الرؤية ونفى العلو كقول بعض الأشاعرة، فإنه يسأل ويقال: من أين يرى؟ هل يرى من تحتنا أو يمينًا أو يسارًا أو خلفًا أو أمامًا؟!

فإنه طبعًا يقول: لا. ولا بد أن يقول: بل يرى من فوقنا؛ لأن الرؤية تقتضي مقابلة الرائي للمرئي، فمتى زعم خلاف ذلك فقد كابر المحسوس وغالط في أمره، ولذلك عرف المحققون من أهل هذا القول أنه لا فرق بين مذهبهم ومذهب المعتزلة النافين لرؤية الله تعالى، وهذا في الحقيقة لازم لهم إذا لم يقروا بالحق الذي هو علو الله على خلقه، ورؤيتهم لله من فوقهم تبارك وتعالى وعظم شأنه وتقدست أسماؤه وصفاته.

الرابع عشر: أنه قال ﷺ للجارية: «**أين الله؟**»[2].

وأجاب السائل له لما قال: أين الله؟ بجواب الأين فقال: في السماء. ولم يجبه بجواب من الله كما هو قول الجهمية، وهذا الذي أراد ﷺ وفهمه السائل والمجيب، فدل ذلك

---

(١) يشير إلى الأثر الذي في البخاري ١/ ١١٥(٥٥٤)، ومسلم ٢/ ١١٣(٦٣٣) وفيه: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته». وإلى قوله تعالى في سورة القيامة، الآيتان: ٢٢، ٢٣: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

(٢) أخرجه مسلم ٢/ ٧٠(٥٣٧).

دلالة قاطعة على علو الله تعالى على خلقه، وأن الجواب لمن قال: أين الله؟ أن يقال: فوق عرشه، عالٍ على خلقه. بخلاف قول الجهمية؛ فإن الأين عندهم ممتنع على الله، فلا يصح السؤال عندهم بالأين ولا بالجواب، وإن ورد ذلك كان معناها معنى من الاستفهام، وهذا معلوم البطلان؛ فإنهم يصرحون بنفيه، والرسول ﷺ يصرح بإثباته فعلًا وإقرارًا، فعُلم مباينتهم للرسول ومخالفتهم للمعقول؛ فإن الرسول مع كمال علمه ونصحه وبيانه محال أن يعدل عن لفظ «من» وهي أخصر وأوضح وأفصح إلى لفظ «أين» وهي بخلاف ذلك، هذا ممتنع شرعًا.

الخامس عشر: إجماع الرسل عليهم السلام، والكتب السماوية على التصريح بعلوّ الله على خلقه وفوقيته: حكى ذلك غير واحد من العلماء المعتبرين؛ كالشيخ عبد القادر الجيلاني في غنيته[١] وأبي الوليد ابن رشد، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] صاحب الاطلاع الواسع الذي لا يوجد له نظير فيه، وكذلك المؤلف[٣] قطع باتفاق الرسل على أصول الدين التي أصلها إثبات صفات رب العالمين؛ علوه على الخلق، وأنه المتكلم حقيقة، وأن الله تعالى المعبود وحده، وأن القضاء خيره وشره من الله، والإيمان باليوم الآخر حق، فجميع الأنبياء والمرسلين متفقون في أصول الدين والشرائع التي لا تختلف باختلاف الأزمنة وهي الشرائع الكبار كأصول الإيمان، وشرائع الإسلام، والعدل في معاملات الخلق، وتحريم الظلم والكذب والغيبة والنميمة والفحشاء ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق، والقول على الله بلا علم، فكل هذه الأصول والشرائع قد اتفق عليها الأنبياء والمرسلون؛ لأنه محال وممتنع أن تأتي شرائعه الإلهية بخلاف ذلك، فهذه الأصول الحقة التي هي الأصول النافعة لأهلها، وأما أصول مذهب المعتزلة فإنها منافية لهذه الأصول؛ فعندهم أصول خمسة[٤] من خصائص مذهبهم؛ القول بخلق القرآن،

---

(١) الغنية لطالبي طريق الحق ١/ ٥٤-٥٧، ط. الحلبي.

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٥/ ٣١٢.

(٣) مدارج السالكين ٣/ ٤١٦.

(٤) هي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذه الأصول يجمع الكل عليها، ومن لم يقل بها جميعًا فلا يكون معتزليًا.

وجحودهم لصفات الله وعلوه على خلقه، ورؤيته في الدار الآخرة، والذي سموه العدل؛ الذي مضمونه أن أفعال العباد من الطاعات والمعاصي لم يخلقها الله، ولم تتعلق بقدرته ومشيئته، وبنوا على ذلك أن أهل المعاصي الكبار الذين لم يتوبوا منها ونفيهم للشفاعة فيهم وقالوا: إن الله لا يقدر على إصلاح العاصين ولا هداية الكافرين.

ولأجل هذه الأصول قالوا بوجوب الصلاح والأصلح على الله بحسب ما اقتضته عقولهم، وقد علم ضرورة منافاة هذه الأصول للشرع والعقل.

السادس عشر: إجماع أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أئمة المسلمين المعتبرين الذين إجماعهم هو الحجة[1] والعصمة، وأما من سواهم ممن هو معروف ببدعة وإلحاد ومخالفة لطرائق المسلمين، فوجود خلافهم لا يقدح في الإجماع[2].

---

(١) اختلف القائلون بحجية الإجماع هل هو حجة قطعية أو ظنية، فذهب جماعة إلى أنه حجة قطعية، وبه قال الصيرفي وابن برهان والدبوسي وشمس الأئمة، وقال الأصفهاني: إن هذا القول هو المشهور، وإنه يقدم الإجماع على الأدلة كلها ولا يعارضه دليل أصلًا، بحيث يكفر مخالفه أو يضلل أو يبدع، وقال جماعة منهم الرازي والآمدي: إنه لا يفيد إلا الظن، وقال جماعة بالتفصيل بين ما اتفق عليه المعتبرون فيكون حجة قطعية، وبين ما اختلفوا فيه كالسكوتي وما ندر مخالفه فيكون حجة ظنية، وقال آخرون: الإجماع مراتب؛ فإجماع الصحابة مثل الكتاب والخبر المتواتر، وإجماع من بعدهم بمنزلة المشهور من الأحاديث، والإجماع الذي سبق فيه الخلاف في العصر السابق بمنزلة خبر الواحد. فهذه مذاهب أربعة، ويتفرع عليها الخلاف في كونه يثبت بأخبار الآحاد والظواهر أم لا، فذهب الجمهور إلى أنه لا يثبت بهما، وذهب جماعة إلى ثبوته بهما في العمل خاصة.
القاضي عبد الجبار: المغني ١٧/ ١٦٠، ابن حزم: الإحكام ١/ ٢١٨، الجويني: البرهان ١/ ٦١٨، الغزالي: المستصفى ١/ ١٩٨، الرازي: المحصول ١/ ٢١٨، الآمدي: الإحكام ٢٥٦، الشوكاني: إرشاد الفحول ص٧٨، الدكتور: عبد الكريم النملة: المهذب في علم أصول الفقه المقارن ٢/ ٩٠٦.

(٢) الإجماع لغة العزم على الشيء ويطلق على الاتفاق. وفي اصطلاح أهل الشريعة هو: اتفاق مجتهدي العصر من أمة محمد ﷺ بعد وفاته على أي أمر كان من أمور الدين. ينظر لسان العرب (ج م ع)، =

وقد قرر هذا الإجماع كثير من الأئمة بالنقل المتواتر[1] عنهم بالألفاظ المتنوعة على علو الله على خلقه واستوائه على عرشه، وتتبع ذلك كثير جدًّا في كتب الأصول والتفسير والآثار والفقه، لم يخالف منهم مخالف، بل كلهم مقرون لذلك، منكِرون على من تأول وأنكر وتنكر فيه، وأطال المؤلف في ذكر هذا الإجماع من الأئمة، وسرد أقوالهم على وجه الإشارة، وذكر أنهم أهل العقول الكاملة المؤيدة بنور الوحي أهل البصائر، فهل يساوي هذه العقول التي ترجح بالجبال الرواسي عقول سفهاء الأحلام، أرباب الكلام الباطل وقشور الفلسفة، الذين كذبوا بالحق فهم في أمر مريج، الذي لا يفرح بوفاقهم ولا يحزن على خلاقهم.

السابع عشر: ما أخبر به تعالى عن موسى عليه السلام وفرعون اللعين لما دعاه موسى إلى ربه وأنكر دعوته وموه على قومه، وقال لوزيره هامان على وجه التهكم بموسى: ﴿ٱبۡنِ لِي

= والمهذب في علم أصول الفقه المقارن للدكتور عبد الكريم النملة ٢/ ٨٤٥.

وهو حجة عند أهل السنة، إلا أن النظام قد شذ؛ إذ عرف الإجماع بأنه كل قول قامت عليه الحجة والحجة عقلية في المقام الأول عنده وإن كان واحدًا، وتعريف النظام وإن خالف المألوف يتسق مع موقفه من أن الحجة في إمام معصوم لا في أحكام المجتهدين، ويتفق كذلك مع موقفه في إنكار حجية الإجماع، موافقًا في ذلك الشيعة الإمامية كما وافقه بعض الخوارج وأهل الظاهر. ينظر البغدادي: الفرق بين الفرق ص ١٤٣، ١٤٤، الغزالي: فضائح الباطنية ص ١٤٨، الدكتور/ محمد عبد الهادي أبو ريدة: إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية ص١٩، الدكتور/ أحمد صبحي: في علم الكلام المعتزلة (٢) ص٢٣٣.

(١) اختلف العلماء في شرط نقل الإجماع بالتواتر على مذهبين:

المذهب الأول: لا يشترط ذلك؛ فالإجماع يثبت بخبر الواحد ويجب العمل به، وهو مذهب أكثر الحنفية وبعض المالكية كابن الحاجب وجماعة من الشافعية كالجويني وذهب إليه الماوردي.

والمذهب الثاني: يشترط نقله بالتواتر، فالإجماع لا يثبت بخبر الواحد والإجماع المنقول عن طريق الآحاد لا يوجب العمل، وهو مذهب بعض الحنفية وبعض الشافعية كالغزالي وبعض الخوارج.

الشوكاني: إرشاد الفحول ص٨٩، وعبد الكريم النملة: المهذب في علم أصول الفقه المقارن ٢/ ٩١٢، ٩١٣.

صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾[١].

فكَذَّب موسى في قوله: إنه فوق عباده، علي على خلقه[٢]. وتبعه على قوله هذا الجهمية الفرعونية، ورموا ببلائهم أهل السنة والجماعة، وقالوا: إن مذهبهم مذهب فرعون المعتقد لعلو الله تعالى! وهذا من العجائب وقلب الحقائق؛ فإنه لا يشك أحد أن معنى ذلك أن هذا الفعل إنكار من فرعون لما قال موسى، وأنه أراد أن يموه على قومه، فيصعد السماء ليصل إلى إله موسى، الذي قال له موسى عنه ودعاه إلى عبادته، فموسى عليه الصلاة والسلام إمام المثبتين لعلو رب العالمين، وفرعون إمام كل معطل لرب العالمين، فمقصود فرعون - قبحه الله - تكذيب موسى في علوّ ربّ العالمين كما كذبه برسالته وأنكر تكليم الله لموسى، فالمسألة أوضح من أن تحتاج إلى كل هذا التقرير؛ فإن أعداء الرسل كفرعون وقومه ونحوهم قد أيقنوا أن الرسل جاءوا بهذا الأصل العظيم، وصار ظهوره لكل أحد لا يخفى.

الثامن عشر: أن الله تعالى قد نزّه نفسه عن النقائص والعيوب، وعن التمثيل والتشبيه، كما نزه نفسه عن الشريك والعوين[٣] والظهير والوزير والولد والصاحبة والحاجة، وأن يواليَ أحدًا من الذلّ[٤]، وكذلك نزّه نفسه أن يكون أحد يشفع عنده إلا بإذنه، بل نزّه نفسه عن الأمور التي ما قالها أحد من المكذبين خوفًا من وقوعها في وهم أحد؛ فإنه نزّه نفسه عن الطعم ولم ينسب له أحد ذلك، وعن الموت والنوم والسِّنَة والنسيان، ولم ينسبه أحد بشيء من ذلك، وكذلك نزّه نفسه عن الظلم وإرادته عن العبث والباطل، وعن التعب والعجز

(١) سورة غافر، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٢) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية ص ١٧٣.

(٣) جاء في القاموس المحيط (ع و ن): العون: الظهير، للواحد والجمع، والمؤنث، ويكسر أعوانًا. والعَوين: اسم للجمع. واستعنته، وبه فأعانني وعوَّنَني، والاسم: العَوْن، والمَعَانة والمَعْوُنَة والمَعُونَة والمَعُون. وتعاونوا واعْتَوَنُوا: أعان بعضهم بعضًا. وعاونه معاونة وعِوانًا: أعانه.

(٤) كما في سورة الإسراء، الآية: ١١١: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾.

المنافي لقدرة الله، وعن كل ما لا يليق بجلاله، ونزّه نفسه عن مقالة بعض طوائف اليهود القائلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[1]. وقول من قال: إن العزير ابن الله[2]، ومع ذلك فأكثر اليهود على خلاف هذا القول.

فكل نقص أو تمثيل ونحوهما قد نفاه عن نفسه، فلو كانت مقالة هؤلاء المعطلين النافين لعلوّ الله على خلقه، ومباينته لهم حقًّا لنزّه نفسه عن العلو والفوقية، بل هو دائم يبدئ ويعيد في ذكر علوّه وفوقيته، ويقرر ذلك بكل دليل وبرهان، فلو كانت النصوص خالية من ذكر العلو والفوقية بالكلية لكان تركه [تنزيهًا][3] عن ذلك أكبر دليل على تقرير ذلك ورضاه به، والعلم بأنه غير مناف لكماله، فكيف مع هذا والأدلة الشرعية على هذه المسألة إذا بُسطت أفرادها زادتْ على ألف دليل؟!

فإن كان يمكن تأويلها وإنكارها مع هذا البيان والوضوح وتنوع الأدلة أمكن تأويل الدين كله وإنكاره كما فعل ذلك الملاحدة الزنادقة من القرامطة والباطنية[4] والإسماعيلية[5]، فإذا

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨١.

(٢) كما في سورة التوبة، الآية: ٣٠.

(٣) في المخطوط: «تنزيهه». والمثبت أنسب للسياق.

(٤) للاطلاع على عقائدهم وآرائهم وحيلهم يراجع الغزالي: فضائح الباطنية ص٣٨-٥٤، ويحيى بن حمزة العلوي: مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار، والإفحام لأفئدة الباطنية الطغام فى الرد عليهم فى الأسرار الإلهية والمباحث الكلامية، والتهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون ٤/ ٣، ٤.

(٥) إحدى فرق الإمامية، وسميت بالإسماعيلية لإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر، وهم يقولون: نحن إسماعيلية؛ لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم وهذا الشخص، ولهم أسماء عدة فيسمون القرامطة والتعليمية والملحدة وأشهر ألقابهم الباطنية، لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنًا، ولكل تنزيل تأويلًا، وقد تشعبت الأقوال فى مصادر أفكار هذه الفرقة، فمنهم من يعزو بعض آرائهم إلى عبد الله بن سبأ، ومنهم من يعزوها إلى غيره.
الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ٤٢١، الغزالي: فضائح الباطنية ص١١ - ١٧، جولد تسهير: العقيدة والشريعة في الإسلام ص٢١٢.

كان قولهم باطلًا في تأويلهم للشرائع والمعاد والتوحيد معلومًا بطلانه ضرورة فكذلك قول المتأولين للعلو، ولا فرق في الحقيقة بين الأمرين، والحمد لله على نعمه الظاهرة والباطنة.

التاسع عشر: أن يقال للمعطل: هل تعترف بأن محمدًا ﷺ يعرف ربه؟

فلا بد أن يقول: نعم.

فيقال: هل كانت نصيحته لأمته كاملة تامة لا يمكن أن يساويه فيها أحد؟

فلا بد أن يقول: نعم.

فيقال له: هل كان بليغًا مقتدرًا على التعبير عن المعاني المقصودة بالألفاظ الجلية الفصيحة، فمعاني كلامه أجل المعاني، وألفاظه أفصح الألفاظ؟

فلا بد أن يقول: نعم.

لأن هذه الأمور الثلاثة لا يمكن أن ينازع فيها مسلم يعظم الرسول، فإذا كان معلومًا بالضرورة أن هذه الأشياء الثلاثة قد كملت فيه ﷺ على أتم الوجوه وأكملها؛ كان من أعظم المحال أن يكتم ﷺ ما يجب لله من العلو والفوقية وصفات الكمال، ويفصح بضد ذلك، بل لما كان ﷺ كامل العلم بربه ودينه فهو أعلم الخلق وأخشاهم، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾[1]، أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم، بل ومن أنفسهم، وأبلغ الخلق وأفصحهم، علّمهم ﷺ ما لم يكونوا يعلمون، وقد بيَّن للناس جميع ما يحتاجون إليه خصوصًا الأمور المهمة والعقائد الدينية والأصول الإيمانية، وقد فعل ﷺ، فلو كان الحق فيما يقوله النفاة، والنبي ﷺ لم يصرح بشيء منه، بل صرّح بضده، وكان ذلك موكولًا لعقول الناس وآرائهم الضعيفة؛ لزم انتفاء هذه الأمور الثلاثة أو بعضها عنه، وهذا لا يفوه به مسلم يؤمن بالله ورسوله.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٤٣.

بل لما كان هذا الباب أنفع أصول الإيمان وأفرضها، والناس محتاجون، بل مضطرون إليه أحوج من كل شيء، صرّح ﷺ بأنواعه وتفاصيله، حتى إن كثيرًا من العلماء لم يقل جميع ما قال ﷺ لا كتمانًا منهم، بل مراعاةً لأحوال وقتهم، وأن أهل زمانهم لا تكاد عقولهم تحتمل كثيرًا من الدقائق الإيمانية فلم يخبروا به للمصلحة، فالعلم يَجِب بيانه إلا إذا اقتضت المصلحة السكوت عن بعضه مراعاة لما هو أهم؛ فإن الشرع دائر مع أكبر المصالح وأهمها، والله تعالى أعلم[1].

---

(١) يدور ذلك حولة القاعدة الأصولية التي تقول: (لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة):
فكل ما يحتاج إلى البيان من مجمل وعام، ومجاز ومشترك، وفعل متردد ومطلق، إذا تأخر بيانه فذلك على وجهين:
الوجه الأول: أن يتأخر عن وقت الحاجة، وهو الوقت الذي إذا تأخر البيان عنه لم يتمكن المكلف من معرفة ما تضمنه الخطاب، وذلك في الواجبات الفورية. فهذا النوع من التأخير لا يجوز؛ لأن الإتيان بالشيء مع عدم العلم به ممتنع عند جميع القائلين بمنع التكليف بما لا يطاق.
وأما من جوز التكليف بما لا يطاق فهو يقول بجوازه عقلًا، لا بوقوعه، فكان عدم الوقوع متفقًا عليه بين الطائفتين. ولهذا نقل أبو بكر الباقلاني إجماع أرباب الشرائع على امتناعه.
الوجه الثاني: تأخير البيان عن وقت ورود الخطاب إلى وقت الحاجة إلى الفعل، وذلك في الواجبات التي ليست بفورية، حيث يكون الخطاب لا ظاهر له، كالأسماء المتواطئة والمشتركة، أو يكون له ظاهر وقد استعمل في خلاف الظاهر، كتأخير البيان بالتخصيص. ومثله تأخير النسخ ونحو ذلك، وفي ذلك اتجاهات أهمها ما يلي:
أ - الجواز مطلقًا، قال ابن برهان: وعليه عامة علمائنا من الفقهاء والمتكلمين. ونقله القاضي عن الشافعي، واختاره الرازي في المحصول، وابن الحاجب. وقال الباجي: عليه أكثر أصحابنا، وحكاه القاضي عن مالك.
ب - المنع مطلقًا، نقل ذلك عن أبي إسحاق المروزي وأبي بكر الصيرفي وأبي حامد المروزي وأبي بكر الدقاق وداود الظاهري والأبهري، قال القاضي: وهو قول المعتزلة وكثير من الحنفية.
ج - أن بيان المجمل إن لم يكن تبديلًا ولا تغييرًا جاز مقارنًا وطارئًا، وإن كان تغييرًا جاز مقارنًا ولا يجوز طارئًا بحال. نقله السمعاني عن أبي زيد من الحنفية.
وتنظر مراتب البيان للأحكام وسائر التفاصيل المتعلقة بالموضوع في الملحق الأصولي. =

العشرون: من البراهين الدالة على علوّ الله تعالى على خلقه واستوائه على عرشه الدليل العظيم والبرهان القاطع، وهو ما يحصل من مجموع الأدلة السابقة وغيرها؛ فإنه يحصل من سردها وتنوعها ونصوصها وقواطعها سرد الأنواع والأفراد ما يوجب اليقين الاضطراري والعلم الضروري، الذي لا يمكن دفعه بالجزم بعلو الله وارتفاعه واستوائه على عرشه.

وأشار المؤلف إليها إشارة لطيفة في هذا الموضوع؛ وذلك أن الأدلة كل واحد منها يفيد دلالة على المقصود، ثم الآخر كذلك، ثم يستفاد من انضمام أحدهما للآخر دلالة أخرى، ثم من مجموع الجميع دلالة هي أقوى أنواع الدلالات، فتزايد شواهد الإيمان وتعاون أدلته حتى يكون الإيمان في القلب أرسخ من الجبال.

الحادي والعشرون: أنه ورد في الكتاب والسنة ذكر مجيء الله للفصل بين عباده كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الآية[1].

فهذا التنويع والتقسيم الصريح بمجيء الملائكة، ثم مجيء الله، ثم مجيء بعض آياته يمنع تأويل ذلك بأنه يأتي أمره أو ملك من ملائكته، ويعلم أن هذا من باب تحريف الكلم عن مواضعه؛ لأن الأمرين صرح بذكرهما، وصرح بينهما بذكر مجيئه، فلم يبق للاحتمال موضع بوجه، فإذا ثبت وتقرر مجيئه كان من المعلوم أنه يأتيهم من فوقهم لا من باقي جهاتهم كما تقدم.

= راجع: إرشاد الفحول ص ١٧٣ - ١٧٥ ط الحلبي، والتبصرة في أصول الفقه للشيرازي بتحقيق حسن هيتو ص ٢٠٧ ط دار الفكر، والمستصفى ١ / ٣٦٨، وأصول السرخسي ٢ / ٢٨. نقلًا عن الموسوعة الفقهية الكويتية ٨/ ٢٢٣ وما بعدها.

(١) سورة الأنعام، آية: ١٥٨.

فصل

في الإشارة إلى ذلك من السنة

أشار المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذا الفصل إلى بعض ما تضمنته الأحاديث النبوية من علو الله تعالى واستوائه على عرشه، وقد بسط الأدلة في ذلك والآثار في كتابه **الجيوش الإسلامية**[1]، فليرجع إليه من أحب الوقوف على ذلك.

وذكر في آخر الفصل أن هذه الأدلة الكثيرة المتنوعة لا تقبل التأويل بوجه من الوجوه، وأن تأويلها من باب تحريف الكلم.



(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ١٠٦.

فصل

في جناية أهل التأويل(1) على ما جاء به الرسول والفرق بين المردود منه والمقبول

ذكر المصنف- رحمه الله- وأشار إلى المصائب الحاصلة في صدر الإسلام وبعد ذلك،

(١) يستعمل التأويل عند علماء اللغة بمعنيين:
الأول: المرجع والمصير والعاقبة.
والثاني: التفسير والتدبر والبيان.
وهذان المعنيان هما اللذان استعملا في عصر الصحابة والتابعين.
وقد ورد في لسان العرب معنى للتأويل لم يكن معروفًا في عصر الصدر الأول، وهو نقل ظاهر اللفظ إلى ما يحتاج في إثباته إلى دليل.
وبذلك استعمل لفظ التأويل في ثلاثة معان:
أحدها: وهو اصطلاح كثير من المتأخرين المتكلمين في الفقه وأصوله، أن التأويل هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو الذي عناه المتأخرون في تأويل نصوص الصفات وترك تأويلها.
والثاني: بمعنى التفسير، وهو الغالب على اصطلاح مفسري القرآن.
والثالث: الحقيقة التي يئول إليها الكلام.
ولا بد أن يكون التأويل موافقًا لما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، فهذا هو التأويل الصحيح، وأما ما خالف مدلولات النصوص ومفاهيمها فهو تأويل باطل.
راجع: لسان العرب (أ و ل)، والدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل ص٣١ ، وابن تيمية مجموع الفتاوى ١٣/ ٢٧٠. والفتوى الحموية الكبرى (دار فجر الإسلام - تحقيق: شريف هزاع) ص٧٠، ٧١. ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٢٥٦.

وأن سببها التأويل بالباطل كما هو معروف لمن تتبعها وعرف الدواعي والأسباب الجالبة لها، فكان التأويل الباطل سبب الفتنة في الأقوال كالبدع الباطلة، وفي الأفعال كالفتن الواقعة، حتى إنه لم يزل التأويل يتوسع، وكل بدعة متأخرة تحدث من التأويلات الباطلة غير ما أحدثت التي قبلها، حتى وصلت النوبة إلى ابن سينا وأتباعه، فتأوَّلوا جميع الشرائع العلمية والعملية، وأبطل القرامطة جميع الشرع، وفسّروا شرائعه الكبار بتفاسير وتآويل يعلم بطلانها الصبيان.

فهذه البدع ونحوها أساسها التأويل الباطل المردود، وأما التأويل الذي يُراد به تفسير مراد الله ومراد رسوله بالطرق الموصلة إلى ذلك، فهذه طريقة الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهي التي أمر الله ورسوله بها، ومدح الله أهلها، وكذلك التأويل الذي هو بمعنى ما يئول إليه الأمر من العمل بأمر الله، ومن وقوع نفس ما أخبر به، فإن هذا هو المراد بلفظ التأويل في أكثر نصوص الكتاب والسنة.

فتبيَّن أن التأويل المردود والباطل الذي اصطلح عليه أهل البدع، الذي يراد به صرف النصوص عن معناها الذي أراده [الله][1] ورسوله إلى بِدَعهم وطرائقهم وجعلها تابعة لها، وأن المحمودَ المقبول الذي كان السلف يعبرون به وهو تفسير كلام الله وكلام رسوله على الوجه الذي يوصل إلى معرفة مراد الله ورسوله.

وكذلك يراد بالتأويل الصحيح العمل بالشريعة؛ فإن العمل يراد به ويطلق عليه أنه تأويل أمر الله ورسوله، وكذلك يراد بالتأويل نفس حقيقة ما أخبر الله به ورسوله من الوعد والوعيد والجزاء، فهذا باتفاق الأئمة أنه التأويل الصحيح الذي جاء به الكتاب والسنة، وهذا من تمام فهم ما أنزل الله على رسوله.

وأما التأويل الباطل - تأويل أهل الباطل - فمع بطلانه يتضمن عدة محاذير؛ الكذب على الله وعلى رسوله، والقول على الله بلا علم، وكذلك الكذب على ألفاظ العربية،

(١) ليست في المخطوط.

وحملها على اصطلاحهم الحادث.

وكل من ادعى تأويلًا يخالف ظاهر اللفظ لم تصح دعواه إلا بأربعة أمور لو اختل منها واحد فتأويله باطل:

أحدها: أن يأتي بدليل يدل على قوله؛ لأنه خلاف الأصل؛ لأن الأصل حمل اللفظ على ظاهره وحقيقته، فمن ادعى سواه فعليه البرهان، فإذا أتى بدليل على الفرض والتنزيل طولب بأمر ثانٍ: وهو أن هذا اللفظ الذي تأوله إلى ذلك المعنى فيه احتمال له؛ لأنه لا بد أن يكون بين الألفاظ والمعاني ارتباط وتناسب؛ لأن الله ورسوله إنما تكلما باللسان العربي ليعقل العباد معاني تلك الألفاظ، وينتقلوا من اللفظ إلى المعنى المراد بأيسر طريق، فإن أتى بما يدل ويحتمل ذلك المعنى وهيهات له ذلك؛ طولب بأمر ثالث: وهو تعيينه المعنى الذي تأول اللفظ له، فهب أن ظاهره غير مراد فلا بد من دليل يعين المعنى الذي صرفه إليه ويخصصه به، فإن تخصيصه من دون دليل من باب التكهن والتخرص[1]؛ لأن اللفظ لا يدل عليه بخصوصه، فقد يكون القصد به معنى غير الذي عينوه، وقد يكون اللفظ متعبدًا بتلاوته ولفظه، مجردًا عن المعاني، وهذا أولى من تحريفهم وإتيانهم بمعانٍ ما أنزل الله بها من سلطان، وإن كان الأمران ينافيان حكمة الباري، لكن التعبد أهون من التحريف، فإن فرض أنه تأول على غير ظاهره، وأتى بدليل على الاحتمال وعلى التعيين؛ طولب بأمر رابع: وهو الجواب عن المعارض؛ لأن الدعوى لا تتم إلا بذلك، والمعارض للنفي هو جميع الأدلة النقلية من الكتاب والسنة والعقلية والفطرة كما تقدمت الإشارة إلى بعضها، ومن المحال أن يعارض قول الله ووحيه وتنزيله وقول رسوله، وأصحابه والتابعين لهم بإحسان بأقوال النفاة البانين مذاهبهم على المحال، فتبين أن المعطلين النافين لا سبيل لهم إلى إثبات قولهم أبدًا بوجه من الوجوه، وهو المطلوب.

---

(١) التخرص: القول بالظن. القاموس المحيط مادة(خ ر ص).

فصل

في شبه المُحَرِّفين للنصوص وإرثهم التحريف منهم وبراءة أهل الإثبات مما رموهم به من هذه الشبه

ذلك أن المحرّفين من الجهمية ونحوهم رمَوا أهل السُّنة أنهم ممثلون بأنهم مشابهون لليهود؛ لأن اليهود على زعمهم ممثلون لله، وكذلك أهل السنة ممثلون مشبِّهون عندهم؛ حيث أثبتوا لله صفات الكمال التي نطق بها الكتاب والسنة، ودلت عليها العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة لعقول الجهمية ومن دان بدينهم، الظانين أنهم بإثباتهم لصفات الله قد شبهوه بخلقه، فتوهموا هذا بعقولهم، ولم يكن لهم بد من البهت والرمي لأهل السنة بمشابهة اليهود.

وفي الحقيقة المشابهة التامة لليهود منطبقة على هؤلاء النافين المحرفين؛ فإن اليهود قد جمعوا بين تبديل النصوص وبين كتمانها، وبين تحريف ما لا يمكن فيه أحد الأمرين، وهؤلاء لما لم يمكنهم التبديل ولا الكتمان - لأن الله نزل الذكر وحفظه فمحال فيه التبديل والكتمان - عمدوا إلى تحريف النصوص وتبديل معانيها؛ فنفوا المعنى الذي أراده الله ورسوله، وأثبتوا لها معاني من تلقاء أنفسهم، فهذا هو الشبه الحقيقي باليهود، وأيضًا اليهود لما قيل لهم: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾[1]. دخلوا على استاههم وقالوا: حبة حنطة؛ تهكمًا وجراءة على الله، فكذلك هؤلاء لما ذكر الله أنه استوى على العرش قالوا: معنى استوى استولى، فاليهود زادوا النون في قولهم: حنطة بدل ﴿حِطَّةٌ﴾. وهؤلاء زادوا

(١) سورة البقرة، آية: ٥٨.

اللام في قولهم: استولى بدل ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾. وهذا قول باطل قد أبطله الأئمة من وجوه كثيرة، وقد ذكر المصنف في كتابه **الصواعق**[1] أكثر من أربعين وجهًا في إبطال هذا التحريف، واليهود قد وصفوا الله بالنقائص والعيوب، وهؤلاء نفوا صفاته، وهذا حقيقة التنقيص.

(١) الصواعق المرسلة ١/ ١٩٥.

فصل

في بيان بهتانهم في تشبيه أهل الإثبات بفرعون وقولهم: إن مقالة العلو عنه أخذوها وأنهم أولى بفرعون

وذلك أن الجهمية رموا أهل السنة وسموهم فرعونية يقولون: إن مذهبهم مذهب فرعون؛ لأنهم يعتقدون أن الله فوق خلقه كما اعتقد فرعون ذلك، حتى طلب من هامان أن يبني له صرحًا ليبلغ الأسباب أسباب السماوات فيطلع إلى إله موسى، ومن المعلوم أن الجهمية أولى بفرعون في هذه الحالة؛ فإن فرعون قال تلك المقالة تهكمًا وإنكارًا لرب العالمين وتمويهًا على قومه، فأنكر علوه وكلامه لموسى ليتدرج بذلك إلى إنكار رسالة موسى، وكذلك الجهمية حقيقة قولهم هو إنكار كلام الله وعلوه على خلقه إلا أن الفرق بينهم وبين فرعون أن فرعون صرح بذلك النفي والإنكار، وهم لم يصرحوا، بل موهوا العبارات وزخرفوا الألفاظ وقبحوا الحسن وحسنوا القبيح، وسموا أنفسهم أهل الحق، وسموا أهل السنة أهل الباطل، فاغتر بذلك من لا بصيرة له، وانخدعوا بتلك الزخارف والتمويهات والله المستعان.



فصل

في بيان تدليسهم وتلبيسهم الحق بالباطل

وذلك أن كل صاحب بدعة يقصد نصر مقالته يأتي إلى الحق الصريح فيستخرج له الاحتمالات البعيدة والتحريفات الإجمالية، فإن هؤلاء الجهمية موَّهوا وقالوا لإخوانهم: إذا قال لكم المجسم: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[1]. فهذا لفظ مجمل؛ فإن العرش له عدة معان، والاستواء له عدة محامل، فأي المعاني تريد؟ وأي المحامل تقصد؟ و(على) أيضًا لها عدة معان في العربية، فإذا سمع الجاهل هذا التلبيس والتمويه استعظم ذلك ورآه إشكالًا واردًا يعسر الانحلال عنه، وأما المتبصر الذي نور الله قلبه وبقي سالمة فطرته، فإن هذا اللفظ عنده ليس فيه إشكال ولا لبس، بل هو من أوضح الأشياء وأبينها؛ فإن الألف واللام في العرش للعهد الذي يفهمه كل مسلم أنه عرش الرب العظيم لا غيره من عروش الكرم ونحوها، ولو قيل له يحتمل واحد غير هذا لبادر لإنكاره، هذا مع اتفاق جميع الرسل وشهادتهم أنه استوى على العرش العظيم، فكل مؤمن يفهم المعنى من قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾. وكذلك لفظ الاستواء المعدى بـ(على) فإنه واضح جدًّا دال على العلو والظهور، فإن الاستواء حيث عدي بـ(على) فإنه يدل على العلو والظهور، وأما إذا عدي بـ(إلى) نحو: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[2]. فإنه يدل على القصد، وإذا قيل: استوى كذا وكذا دل على معية الأول للثاني كقولهم: استوى الماء والخشبة، وإذا لم يعد فإنه يدل على

(١) سورة طه، آية: ٥.

(٢) سورة البقرة، آية:٢٩.

الشدة والقوة كقوله لموسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾[1].

فهذه المعاني المتباينة بحسب تعدية هذا الحرف كما ذكر، فعلم علمًا يقينًا أن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾. أنه لا إشكال ولا إجمال فيه، خصوصًا وقد اطرد إتيانه بهذا السياق في جميع موارده ومصادره، ولم يأت هذا المعنى بلفظ فيه إجمال، فلو كان المراد ما قصده الجهمي لأتى به ولو في موضع واحد ليستبين المراد، والمقصود أن الجهمي من تلبيسه جعل هذه الألفاظ محتملة لعدة معان، فينبغي أن يقول: والرحمن له عدة معان حتى يستريح ويجعل قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾. ليس له معنى، وإنما يتبرك بتلاوته والله أعلم. ويترتب على هذا الفصل الذي بعده وهو قوله:

(١) سورة القصص، آية: ١٤.

فصل

في بيان سبب غلطهم في الألفاظ
والحكم عليها باحتمال عدة معانٍ حتى أسقطوا الاستدلال بها

ذكر في هذا الفصل أن النصوص الشرعية من الكتاب والسنة تأتي حيث أتت مركبة صريحة في مدلولها لا تحتمل غيره بوجه، هذا حالها في نفسها وهي كذلك عند العلماء المحققين الذين عرفوا مقاصد الشارع في مصادره وموارده وتمرنوا على ألفاظه ومعانيه، فكما لا يستريبون في نصوصه في الأحكام الفروعية فلا يستريبون أيضًا في نصوصه في الأصول، بل هذا النوع أكثر وأعظم بيانًا وأشد إيضاحًا لأهميته وشدة الحاجة، بل الضرورة إليه.

ودون هؤلاء مرتبة من لم يصل إلى ما وصلوا إليه لكونه لم يكن له من الاهتمام والاعتناء بكلام الشارع مثلهم، فنصوص الشارع عنده ظواهر ظاهرة في معناها في فهمه، وربما وقع له بعض الاحتمالات المخالفة لما عنده من الظاهر.

فهذا وإن كان غير مذموم لكن لم يصل إلى مرتبة الأولين ولم يقاربها، وبينهما فرق عظيم في أبواب العلوم الشرعية، وليس هذا لقصور فهمه وعدم ذكائه، وإنما هو لعدم اعتنائه بكلام الشارع، وبهذا تجده في مذهب إمامه الذي تفقه به جازمًا بمقاصد إمامه ومراده بألفاظه لكونه بذل جده واجتهاده[1] في ذلك.

---

(١) الاجتهاد: هو بذل المجهود واستفراغ الوسع في فعل من الأفعال، ولا يستعمل إلا فيما فيه كلفة وجهد، فيقال: اجتهد في حمل حجر الرحا، ولا يقال: اجتهد في حمل خردلة، لكن صار اللفظ في عرف العلماء مخصوصًا ببذل المجتهد وسعه في طلب العلم بأحكام الشريعة. المستصفى ٢/ ٣٦٢.

وأما القسم الثالث المذموم فهو جمهور أهل الكلام الباطل الذين أصّلوا أصولًا ما أنزل الله بها من سلطان حالت بينهم وبين مراد الله ورسوله، حتى جعلوا كلامهم أصلًا واضحًا محكمًا، وكلام الله ورسوله تابعًا مجملًا مشتبهًا، وموّهوا على الناس أنهم أهل الحق ومن سواهم أهل الباطل، وسموا مقالاتهم بأسماء ممدوحة راجت على أكثر الخلق، الذين يغترون بزخارف الألفاظ دون النفوذ إلى بواطن المقالات، وسموا أهل الحق الذين هم أهل السنة والجماعة بالأسماء المذمومة؛ كالمجسمة والمشبهة[1]، وسموا مقالاتهم تجسيمًا وتنقيصًا.

ثم عمدوا إلى ألفاظ الكتاب والسنة الصريحة الواضحة المركبة ففكوا تركيبها، وتكلموا على مفرداتها أنها تحتمل عدة معان من حيث كونها مفردة فأسقطوا الاستدلال بها؛ وذلك أن المجردات اللفظية والمعنوية لا وجود لها في الخارج والأعيان وإنما يفرضها الذهن فرضًا، وهو غالط في ذلك الفرض؛ فإنه لا يستفاد من لفظ مجرد عن التركيب والقيود معنًى وأصلًا، وإنما تستفاد المعاني بانضمام الألفاظ بعضها إلى بعض تركيبًا صحيحًا، فهؤلاء المنحرفون من أهل الكلام عمدوا إلى المركبات فأفردوها، ثم حكموا على مفرداتها بعدة احتمالات، ثم نقلوا المفردات إلى المركبات فجعلوها تحتمل تلك الاحتمالات، فأسقطوا الاستدلال بها بجهلهم وتجهيلهم وتدليسهم على الناس.

وهذا كما فعل الفلاسفة في المعاني المجردة كالوجود المطلق عن كل قيد، فحكموا بوجوده خارجًا فضلوا وأضلوا كثيرًا؛ فزعموا وجودًا مطلقًا مجردًا عن كل قيد، وحيوانًا مجردًا، وإنسانًا مجردًا، ونحو ذلك مما هو مفروض ومقدر في الأذهان فرض محال؛ لأنه

---

(١) المشبهة: مَن يسوون بين الخالق والمخلوق فيما يختص بأحدهما، فيصفون الله بصفات المخلوقين على المعنى الذي يوصف به المخلوق، وقد ظهر التشبيه على يد أصناف من الروافض الغلاة.
البغدادي: الفرق بين الفرق ص٢٢٥، الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٧١، ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٥٧.

لا وجود له في الخارج، وكلما تصوره الذهن مما لا يمكن وجوده كان خيالًا لا حقيقة له، والحاصل أن الألفاظ المجردة كالمعاني المجردة عن كل وصف وقيد مفروض بالذهن غير موجود أصلًا، والله أعلم.



فصل

في بيان تناقضهم وعجزهم عن الفرق بين ما يجب تأويله وما لا يجب

وذلك أن المتكلمين؛ من جهمية ومعتزلة وقدرية وكلابية وأشعرية قد اشتركوا في نفي صفات الباري، وإن كانوا مختلفين متفاوتين في كثرة المنفيات وقلتها، وكل فريق منهم فيما ينفيه من الصفات إذا وردت عليه النصوص من الكتاب والسنة في إثباتها أولها تأويلًا ينفي ما تدل عليه من المعاني الصريحة الظاهرة الحقيقة، وصرفها لمعان باطلة لأجل موافقة نحلته، وشجعهم على هذا التأويل الباطل أنهم سموا المعاني الفلسفية والأصول اليونانية قواطع عقلية أو براهين يقينية، وأدلة الكتاب والسنة ظواهر لفظية قابلة للتأويل.

فسطَوا عليها بالتأويلات الباطلة التي يجزم كل صحيح الفطرة، سليم العقل أنها خلاف مراد الله ورسوله منها، ثم إنهم لا بد أن يثبتوا أشياء ويمنعوا من تأويلها، ومن تأولها أنكروا عليه غاية الإنكار فصاروا بهذه الحال مذبذبين؛ لا من النافين للرب، المعطلين له كالفلاسفة ونحوهم؛ من كل زنديق خارج من الدين، ولا من أهل السنة والجماعة المثبتين ما أثبته الله لنفسه، وأثبته له رسوله على الوجه الذي يفهمه كل أحد لم تفسد عقيدته القواعد الباطلة والمقالات الفاسدة، فصاروا أعداءً للطائفتين وانقطعوا حين مخاصمتهم لكل من الفريقين.

وكانت الفلاسفة تعترض عليهم بما وافقوهم عليه من الأصول الباطلة، كيف لا يطردونها ويصيرون مثلهم، ويلزمونهم بأن تأويلاتهم لما تأولوه كتأويلات الفلاسفة لجميع نصوص

الكتاب والسنة، فلأي شيء ساغ تأويل الجهمية وأتباعهم، ولم يسغ تأويل الفلاسفة الزنادقة؟! فأخذوا بخناقهم وألزموهم بلوازمهم فلم يتمكنوا من الرد عليهم؛ لأنهم بنوا مذهبهم على أصول الفلاسفة، وقاتلوا إخوانهم المسلمين بذلك السلاح فسلطوا عليهم أعداء الإسلام، وقالوا: إما أن توافقونا في كل ما قلناه ونتفق معكم على حرب المجسمة الذين هم أهل السنة والجماعة، الذين أثبتوا كل ما جاء في الكتاب والسنة، وإما أن توافقوهم، وإما أن تكونوا مذبذبين لا منا ولا منهم.

ومعلوم أن مقالة تسلط أعداء الإسلام عليهم إلى هذا الحد لمن أبطل المقالات وأشنعها، وكان أهل السنة والجماعة ينكرون عليهم النفي والتعطيل ويقولون لهم: هذا خلاف ما أتى به البرهان والدليل، ويقولون لهم: جميع الصفات من العلوّ والاستواء والكلام وغيرها في الوحيين صريحة لا ريب فيها، ولم يفرق الكتاب والسنة بينها، بل ولا العقل الصحيح والفطر المستقيمة تفرق بينها، فبأي شيء فرقتم بينها؟! فأثبتم أشياء ونفيتم أشياء ومصدرها واحد وموردها واحد! فعجزوا عن الفرق الصحيح، وتشبثوا بفروق لفظية لا حقائق لها، فادعى بعضهم ما أشير إليه في هذا الفصل.



فصل

في المطالبة في الفرق بين ما يتأول وما لا يتأول

وهذه المطالبة للكُلّابية ومن تبعهم من الأشعرية والماتريدية[1] الذين يثبتون الصفات السبع؛ وهي الحياة والعلم والكلام والقدرة والإرادة والسمع والبصر، وينفون ما عداها من الرحمة والرضا والغضب والعلو والاستواء على العرش وغيرها.

فإذا قيل لهم: فرّقوا بين ما أثبتم وما نفيتم؛ إذ الجميع وردت كلها في الكتاب والسنة ورودًا واحدًا مثبتة لله تعالى كسائر ما يثبت له من الأسماء والأوصاف. فكيف تأولتم ما نفيتم وتركتم [ما أثبتم][2]؟!

فقالوا: ما يفضي إلى التجسيم تأوّلناه؛ لأن الجسم[3] من خصائص المحدثات المخلوقة،

(١) الماتريدية: فرقة كلامية (بدعية) تنسب إلى أبي منصور الماتريدي، قامت على استخدام البراهين والدلائل العقلية والكلامية في محاججة خصومها من المعتزلة والجهمية وغيرهم، لإثبات حقائق الدين والعقيدة الإسلامية. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة١/ ٩٥.

(٢) ما بين المعكوفين لم يرد في المخطوط، وزيد لاستقامة السياق.

(٣) الجسم عند الأشاعرة هو المتحيز القابل للقسمة من جهة واحدة أو أكثر، وأقل ما يتركب منه الجسم جوهران فردان، أي مجموعهما لا كل واحد منهما، وقيل: الجسم هو كل واحد من الجوهرين؛ لأن الجسم هو الذي قام به التأليف اتفاقًا، والتأليف عرض لا يقوم بجزأين لامتناع قيام العرض الواحد الشخصي بالكثير، فوجب أن يقوم بكل من الجوهرين المؤلفين على حدة فهما جسمان لا جسم، والجسم عند المعتزلة هو الطويل العريض العميق، واعترض عليه بأن الجسم ليس جسمًا بما فيه من الأبعاد بالفعل، واختلفت المعتزلة في أقل ما يتركب منه الجسم من الجواهر المفردة، وقالت الصالحية من المعتزلة الجسم: هو القائم بنفسه، وقال بعض الكرامية: الجسم هو الموجود، =

فهذا الذي أولناه ما نعقل منه إلا التجسيم فيتعين فيه التأويل، بخلاف الصفات السبع؛ فإنها لا تدل على التجسيم، بل تثبت لله على الوجه اللائق بجلال الله تعالى.

فقال لهم أهل الإثبات: هلا سلكتم هذا المسلك في الصفات الأخر، وأثبتموها لله على وجه لا يماثله فيه أحد من خلقه بوجه من الوجوه كما هو الحق؛ فتفريقكم بين الأمرين تفريق بين متماثلين؟!

فإذا قلتم: ما نفهم من هذا الذي تأولناه إلا التجسيم؛ فتعين نفيه.

قال لهم النفاة من الجهمية ونحوهم: ما نفهم من الصفات السبع إلا التجسيم فتعين نفيها، فما أجابوا به الجهمية من أنهم يثبتونها وينفون عنها خصائص المخلوقين.

يقول لهم أهل السنة: فاطْرُدوا[1] هذا في باقي الصفات وإلا بيِّنوا الفرق. ومن المعلوم أنهم لا يهتدون إلى الفرق، ولو نشرت شيوخهم لعلمنا أن المماثلة بين الأمرين أمر يقيني قطعي لا تؤثر فيه الشبهات والفروق الخيالية.

فلذلك فر بعضهم إلى فرق آخر، فقال: ما دل عليه العقل وهي الصفات السبع أثبتناها؛ فإن وجود المخلوقات دال على القدرة، وما فيها من التخصيصات دال على الإرادة، وذلك دليل العلم، والعلم والقدرة والإرادة تدل على الحياة، والحياة الكاملة تدل على السمع والبصر والكلام، وما لا يدل عليه العقل نفيناه، وهو ما سوى الصفات السبع.

فقال لهم أهل السنة: هذا عجيب منكم، كيف أنكرتم التجسيم غاية الإنكار وقامت لذلك قيامتكم، وزعمتم أن كل موصوف فهو جسيم، ثم أثبتم هذه الصفات السبع، ولم تتحاشوا

= وقال هشام بن الحكم: هو الشيء، وذهب النجار والنظام إلى أن الجسم مجموع أعراض مجتمعة وأن الجواهر مطلقا أعراض مجتمعة. انظر التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٣٦٨ - ٣٧١.

(١) أي: عمموا.

من كونها دالة على التجسيم؟!

فإن كان في العقل ما يدل على التجسيم فانفوا هذه الصفات السبع وكونوا كالجهمية، وإن كان فيه ما يدل على ثبوته فلأي شيء تفرون من إثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبته له أعلم خلقه وأتقاهم وأورعهم؟! وإذا قلتم: إنه منفي في شيء دون شيء فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

ويقال أيضًا: نفي الدليل المعين لا يدل على نفي المدلول، فقدروا أن هذه الأوصاف لم يدل عليها العقل، فالسمع قد دل عليها دلالة جلية قاطعة، ودلالة السمع دلالة شرعية يقينية متفق عليها بين حملة الشريعة، فيجب اتباع الدليل السالم عن المعارض المقاوم.

ثم يقال أيضًا: قد ثبتت كثير من الصفات الخبرية بأمور عقلية عيانية؛ فما في المخلوقات من أنواع المنافع والمصالح والنعم يدل ذلك على رحمة الخالق، وما فيها من إكرام أوليائه وإهانة أعدائه أكبر دليل على رضاه وعلى سخطه، وما فيها من أحكام المخلوقات والشرائع دال على كمال حكمة الله تعالى، فهذه الصفات ثابتة شرعًا وعقلًا وفطرة، فعلم أن المفرقين في ضلال مبين.



فصل

في مخالفة طريقهم لطريق الاستقامة عقلًا ونقلًا

ذكر المصنف - رحمه الله - أن طريق أهل الكلام الباطل مخالف لطريق أهل الاستقامة من جهة التأصيل والتفريع؛ وذلك أن أصل طريقهم الذي بنوا عليه قواعدهم وأقوالهم وأعمالهم أن رأي متبوعهم وشيوخهم وعقولهم هو الأصل الأصيل، وهو النص الواضح الذي توزن به جميع المقالات، فإذا جاءهم كلام الله وكلام رسوله مخالفًا لهذا الأصل قالوا: هذا متشابه يحتمل عدة معان، وكلام متبوعنا نص لا احتمال فيه، فإن أمكنهم التأويل والتحريف أولوا وحرفوا، وإلا قالوا: متشابه لا يعلمه إلا الله، وإذا قيل لهم: هذا بيان الله ورسوله ما فيه اشتباه ولا إشكال، أجابوا بأننا مقلدون[1] ومتبوعنا أعلم منا بمراد الله ومراد

(١) المقلد هو من يقلد الغير - غير النبي - من غير دليل في الأقوال والأفعال والاعتقادات، والمؤمن من يقبل قول الغير بدليله، وقد اختلف المتكلمون في إيمان المقلد هل هو صحيح أم ناقص الإيمان؟ على عدة أقوال، فمنهم من صحح إيمانه، ومنهم من قال بعدم صحته. «قال ابن تيمية: والذين أوجبوا النظر من الطوائف العامة نوعان: أحدهما: من يقول إن أكثر العامة تاركوه وهؤلاء على قولين فغلاتهم يقولون: إن إيمانهم لا يصح، وأكثرهم يقولون: يصح إيمانهم تقليدا مع كونهم عصاة بترك النظر، وهذا هو قول جمهورهم، وقد ذكر هذا طوائف من الحنفية فى شرح الفقه الأكبر؛ فقالوا: قال أبو حنيفة وسفيان ومالك والأوزاعي وعامة الفقهاء وأهل الحديث بصحة إيمان المقلد ولكنه عاص بترك الاستدلال.

قال الشارح: وهذا يفيد فائدتين إحداهما: أن الإيمان بالتقليد صحيح وإن لم يهتد إلى الاستدلال خلافًا للمعتزلة والأشعرية؛ فإنهم لا يصححان إيمان المقلد بالتقليد ويقولون بكفر العامة، قال: وهذا قبيح من أقبح القبائح؛ لأنه يؤدي إلى تفويت حكمة الله تعالى في الرسالة والنبوة؛ لأنه من =

رسوله، فهذا من أعجب العجب، كيف اهتدوا مع اعترافهم بالتقليد والعجز عن الاستدلال بتعيين أولوية ذلك المتبوع على غيره، بل بوجوب اتباعه وأهدروا أقوال من سواه؟!

كيف نهض بهم الاستدلال إلى هذا الحد وهو من أصعب الأشياء، وعجزوا عن الأخذ عن الله ورسوله مع استيلاء ذلك على غاية البيان والبلاغة؟!

ولا شك أن هذا غاية ما يكون من الحرمان.

والمقصود أن طريقة هؤلاء المتكلمين أخبث الطرائق؛ حيث جعلوا أصولهم التي تلقوها عن المنحرفين ميزانًا لكلام الله وكلام رسوله، أما طريقة أهل الاستقامة فإنها بالعكس في هذه الطريق، بل سلكوا الصراط المستقيم، واتبعوا بذلك سيد المرسلين وأصحابه والتابعين لهم بإحسان؛ حيث كان أصل دينهم الذي إليه يرجعون، وإيتاؤهم الذي عليه في أصولهم وفروعهم يعتمدون، هو ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله؛ حيث فيها الهدى التام والشفاء والكفاية والغنى عما سواهما، فصدقوا أخبارهما، وحققوا أوامرهما بالامتثال ونواهيهما بالاجتناب، وعلموا أن الحق ما اشتملا عليه وليس بعد الحق إلا الضلال، وعرضوا جميع العقائد والمقالات عليهما، فما وافق ذلك قبلوه، وما خالفه ردوه على من قاله، وعلموا أن كل أحد من الخلق يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، وما أشكل عليهم هل هو موافق أو مخالف من المقالات الغامضة والألفاظ المشتبهة توقفوا فيه ولم يحكموا له بقبول ولا رد

= أعطى الرسالة والنبوة أُمر بعرض الإسلام أولًا على الكفار، فلو كان الإسلام لا يصح بالعرض والتقليد لفات الحكمة من الرسالة، إلا أن درجة الاستدلال أعلى من درجة التقليد ألف مرة، وكل من كان في الاستدلال والاستنباط أكثر كان إيمانه أنور، وذكر كلامًا آخر. قلت: القول القبيح الباطل تكفير من حكم الشارع بإيمانه وهم المؤمنون عامة وغيرهم الذين لم يسلكوا الطرق المبتدعة كطريقة الأعراض ونحوها، وأما كون إيمان العامة تقليدًا أو ليس تقليدًا، وهل هم عصاة أو ليسوا عصاة فهذا كلام آخر، وأما المعتزلة والأشعرية فلهم فى ذلك نزاع وتفصيل معروفٍ».

ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل ٧ / ٤٤١، أبو إسحاق الشيرازي: الإشارة إلى مذهب أهل الحق ص ١١٢، السفاريني: لوامع الأنوار ١/ ٢٦٧.

حتى يتبين حاله، فهذه الطريق هي المنجية العاصمة من المهالك، الكفيلة ببيان الحقائق وهدي الخلائق، التي من استمسك بها فقد استمسك بالعروة الوثقى والسبب الأقوى؛ فإن النقل نقل مصدق والقائل معصوم، وأما غيره فنقل غير مصدق، بل يعتريه الكذب والتغيير شيء كثير، ثم القائل غير معصوم لا وثوق لأحد بقوله في أدنى مسألة من مسائل الدين، فضلًا عن أصوله، فضلًا عن تقديمه على الأصول الكبار، فهذا تحقيق الفرق بين الطريقين، وإليكم الترجيح يا أولي الألباب.



فصل

في بيان كذبهم في رميهم أهل الحق بأنهم أشباه الخوارج[1] وبيان شبههم المحقق بالخوارج

قال المصنف: من العجائب أنهم قالوا لأهل السنة والجماعة الآخذين لكتاب الله وسنة رسوله: إنكم مثل الخوارج؛ حيث أخذوا بظواهر النصوص فكفروا أمة محمد، وأنتم أخذتم بظواهرها فأثبتم ما هو ممنوع إثباته من صفات الله المقدسة، فضللتم كما فعل الخوارج.

هذا وجه تشبيههم لأهل الحق بالخوارج.

والعجب أنهم كما قال القائل: رمتني بدائها وانسلت[2]؛ فإنهم بهتوا أهل السنة بذلك وهم أحق الناس بمشابهة الخوارج؛ فإنهم سَلُّوا على سُنن الرسول وأتباعها سيفين؛ سيف

---

(١) هم الذين خرجوا على عليّ بن أبي طالب بسبب مسألة التحكيم في موقعة صفين، وصاروا يحكمون بكفر مرتكب الكبيرة، وقد افترقوا على نحو عشرين فرقة منهم الأزارقة والعجاردة، وقد اتفق - كما قال الشهرستاني - على أن كل من خرج على إمام الحق يسمى خارجيًا سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم في كل زمان.
الأشعري: مقالات الإسلاميين ١/ ١٦٧، الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٩٥، البغدادي: الفرق بين الفرق ص٧٢، التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ١٨٢.

(٢) هذا المثل قيل لرهم بنت الخزرج من كلب. وكانت امرأة سعد بن زيد مناة بن تميم. وكان لها ضرائر فسابتها إحداهن يومًا فرمتها رهم بعيب هو فيها. فقالت ضرتها: «رمتني بدائها وانسلت». فذهبت مثلًا.
الأمثال لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم الهروي، ص ٧٣.

اللسان بتبديعهم وتكفيرهم وتضليلهم ومحاربة ما هم عليه، وسيف اليد، فكم لهم على هذا من قتيل وجريح وسجين وطريد كما هو معروف في سيرهم في زمن الإمام أحمد وبعده، بل الخوارج وإن سلوا على المسلمين سيف يد وسيف لسان فهم أعذر منهم؛ من جهة أن الخوارج كفّروا من ارتكب الجرائم والمعاصي، وأما هؤلاء فكفروا بمحض اتباع السنة.

ويتميز أهل الكلام على الخوارج:

- بالتعطيل والتحريف، وأولئكم الخوارج مثبتون لصفات ربهم خير من الجهمية من هذه الجهة.
- وأيضًا فالخوارج تركوا نصًّا لنص آخر ضلّوا فيه ولم يهتدوا إلى الصواب، وهؤلاء تركوا النصوص للشُّبَه العقلية والآراء الفلسفية.
- والخوارج قدموا ما فهموه من الكتاب وإن كانوا فيه ضالين، وهؤلاء قدموا ما أصلوه من آراء الرجال.

فعلم من هذه الأمور أنهم يشاركون الخوارج في ضلالهم وبدعهم، ويزيدون عليهم في الضلال والشر أضعافًا مضاعفة، وأهل السنة وإن كانوا برآء من الطائفتين ويدينون الله ببغضهم ومعاداتهم، فالحق أحق أن يقال، والواجب معرفة مراتب الأقوال، وتنزيل الأمور منازلها والله أعلم.

ثم ذكر المصنف تفاصيل أخر تحقق مشابهتهم للخوارج:

- حيث قال الخارجي لرسول الله ﷺ: يا محمد اعدل[1]. وقال أيضًا: هذه قسمة ما

---

(١) يشير إلى الأثر الذي أخرجه البخاري ٤/ ٩١(٣١٣٨)، ومسلم ٣/ ١٠٩(١٠٦٣)، وفيه: عن جابر قال: أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة منصرفه من حنين وفي ثوب بلال فضة، ورسول الله ﷺ يقبض منها يعطي الناس فقال: يا محمد اعدل. قال: «**ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل، لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل** »...الحديث.

أريد بها وجه الله[1]. فاستدركوا على الرسول في عدله وحكمه وقسمه.

- وهؤلاء الجهمية استدركوا على الله وعلى رسوله أمورًا كثيرة؛ فلما أخبرهم في غير آية أنه استوى على العرش قالوا: الصواب أنه استولى، ولما أخبرهم أنه ينزل إلى السماء الدنيا زعموا - قبحهم الله - أنه ينزل أمره لا ينزل بنفسه، وأن الرسول شوش على الناس في إخباره في نزول ربه، وأنه يقتضي التحرك، وكذلك لما نفوا نصوص العلو التي من جملتها صعود الملائكة والأرواح والأنبياء، وعروج الرسول إليه قالوا في ذلك كله: الصواب أنه يعرج إلى محل كرامته، وأن توجه العباد إلى العلو؛ لأنه قبلة الداعين ليس توجههم إلى رب العالمين، وأنه لا يشار إلى الله إشارة حسية، وأن إشارة الرسول أوقعت الناس في لبس عظيم؛ حيث علموا منها علو الله على خلقه، وأن الصواب أنه لا داخل العالم ولا خارجه، ونحو ذلك من التحريفات التي حرفوها واستدركوا بها على الله ورسوله.

ولما فصل المؤلف تلك التفاصيل وأبداها بحقيقتها التي يشيرون إليها ولا يصرحون قال:

يا من يظن بأننا حفنا عليـ ـــهم كتبهم تنبيك عن ذا الشان

إلى آخر ما ذكره حتى ذكر - رحمه الله - أنه وقع في شباكهم في أول أمره ومبتدأ طلبه للعلم حتى منَّ الله عليه بالهداية التامة بسبب شيخ الإسلام ابن تيمية؛ حيث بين له ولغيره حقيقة الدين وقول الحق في جميع أصول الدين، ورد أقوال المبطلين حتى ظهرت بصورتها القبيحة فتبين ظلال رؤساء أهلها وسفههم، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء.

---

(١) أخرجه البخاري ٤/ ٩٥(٣١٥٠)، ومسلم ٣/ ١٠٩(١٠٦٢)، وفيه: عن عبد الله قال: قسم رسول الله ﷺ قسمًا، فقال رجل: إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله... الحديث.

والحاصل: أن أهل السنة والجماعة تبعوا ما قاله الله ورسوله، وهم أعلم الناس بمراد الله ومراد رسوله ولم يزيدوا على ذلك شعرة، ولم ينقصوا منه ذرة، وكلام الله وكلام رسوله أجل في صدورهم وأعظم في نفوسهم من كل شيء، وأسهل شيء عليهم رد كلام الناس كلهم من أولهم إلى آخرهم إذا خالفوا نصًّا واحدًا من الكتاب والسنة، فبالله عليك أيهم أشبه بالخوارج وأولاهم بهم؟!

والجواب: لا يحتاج إلى ذكر؛ لأنه قد ذكر من تحقيق مشابهتهم بهم وزيادتهم عليهم أمورًا كثيرة، فحيث تبين الحق فإن كنتم منصفين فاتبعوا الصواب، وإن أبيتم إلا الرضا بما أنتم عليه فاعذروا أهل السنة والجماعة بإبداء معائبكم وذم مقالاتكم، وإن عارضتم فابرزوا لأهل السنة والجماعة وأجمعوا أمركم وشركاءكم وكيدكم؛ فقد تبين الحق من الباطل، والحمد لله على منته وتوفيقه.



فصل

في تلقيبهم أهل السنة والجماعة بالحشوية[1] وبيان من أولى بهذا الوصف المذموم من الطائفتين

سبب تلقيبهم أهل السنة بالحشوية أنه تقرر عندهم أنهم أهل العلم والإيمان والتوحيد؛ إذ التوحيد والإيمان عندهم نفي الصفات، فمن لم يتصف بوصفهم فليس له من العلم والإيمان إلا اسمهما ولا من الحقائق إلا رسمها، فلذلك كان أهل السنة حشو الوجود وفضلة في الناس، وغثاء كغثاء السيل، وبعض جهالهم يظن أنهم يعتقدون أن البارئ تعالى في جوف السماوات والأرض وأنه حشوها، وهذا غاية ما يكون من الجهل؛ إذ لم يقل بهذه المقالة أحد من الناس.

وأبعد الناس عن هذا القول هم أهل السنة والجماعة؛ فإن من اعتقادهم أن السماوات وما فيها من العوالم، والأرضين وما فيها من المخلوقات في قبضة الرحمن أصغر من خردلة في كف ممسكها، وله من العظمة والكبرياء والقدس ما لا تدركه عقول العالمين ولا تناله صفات الواصفين، فكيف ينسب إليهم هذا القول الدال على أن من قاله لم يقع في قلبه من عظمة الرب أدنى شيء، ولا قدر الله حق قدره؟!

المقصود أنهم اختلفوا في وجه تسمية أهل الحق بهذا الاسم هل هم حشو زائد في الإنسان؟ أو كما قاله جهالهم من تلك المقالة التي لم تخطر بقلب إنسان، ولأهل السنة أسوة بأمثالهم من الصحابة؛ فإنه ذكر أن أول من سمي بهذا الاسم عمرو بن عبيد المعتزلي؛ سمي

---

(١) تقدم التعريف بالحشوية فيما سبق.

عبيد الله بن عمر بن الخطاب[1]. فإن كانت تسميتهم لأهل السنة بهذا الاسم لأجل اتباعهم ما قال الله وقاله رسوله ﷺ، فأهل السنة ولله الحمد لا يتركون السنة لأجل تشنيع المشنعين، وإن كان من اتبع الكتاب والسنة حشويًّا فإنهم يشهدونهم وغيرهم أنهم حشوية بهذا المعنى، والشأن في المعاني لا في الأسماء، أما الذين هم أحق بهذا اللقب المذموم فإنهم أهل الكلام والباطل الذين حشوا القلوب والأوراق من الهذيان والافتراء، وفرحوا بما عندهم من العلوم الباطلة المخالفة لعلوم الرسل، هؤلاء الحشوية لا أهل السنة الذين حشوا القلوب علمًا وإيمانًا، وأناروا الوجود صدقًا وإيقانًا، ووردوا عذب المناهل وهو عين الشريعة، حيث ورد غيرهم زبالة الأفكار ونتن الآراء، ولله في خلقه حكم وأسرار.

وشبيه هذا الفصل الفصل الذي بعده في تلقيبهم أهل السنة والجماعة بالمجسمة والمشبهة ونحوهما من الأسماء؛ حيث أثبتوا لله صفاته التي نطق بها الوحي، ويجيبونهم أهل السنة بأن إثباتنا ذلك إما أنه لا يقتضي ما قلتم من التجسيم، فيكون رميهم لنا من باب البهت والافتراء، وإما أن يقتضي ذلك فإن اقتضاه لم نترك ما دل عليه الكتاب والسنة لأي لازم يلزم ولا لأجل شناعة المشنعين.

وذكر - رحمه الله - أن بين أهل السنة والجماعة وبين أهل الباطل فرقًا عظيمًا جدًّا، وأن أهل السنة يقولون: ما دلت عليه النصوص فهو حقيقة مرادة مبينة غاية التبيان؛ فلا بعد بيان الله ورسوله بيان، وما خالف هذا الحق فهو باطل، وهذا هو التوحيد والدين الذي بعث الله له جميع الرسل، ونزلت به جميع الكتب، بخلاف توحيد المتكلمين؛ حيث جعلوا ظواهر النصوص غير مرادة وهو مجاز، مع أن المجاز يصح نفيه، وفي نفيه من الكفر

---

(١) عبيد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، أمه أم كلثوم بنت جرول الخزاعية، وهو أخو حارثة بن وهب الصحابي المشهور لأمه، ولد في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كان عبيد الله من شجعان قريش وفرسانهم. ولما قتل أبو لؤلؤة عمر عمد عبيد الله ابنه هذا إلى الهرمزان وجماعة من الفرس فقتلهم، قتل بصفين مع معاوية. الإصابة٥/ ٤١.

ما لا يخفى، مع قولهم أيضًا: إن حقائق الألفاظ منتفية بالعقل، فإذا انتفت الألفاظ والمعاني فما بقي من الدين؟! وما بقي من كلام رب العالمين ونصوص سيد المرسلين؟! فالنفي والتعطيل للحق والحقائق سيما هؤلاء المتكلمين، والذم نعت لهؤلاء المبتدعين، والحمد لله رب العالمين.



فصل

في بيان موارد أهل التعطيل
وأنهم تعوضوا بالقَلُوط عن مورد السلسبيل

قال المصنف - رحمه الله - في هذا الفصل: إن أهل التعطيل صار موردهم أخبث الموارد وأنتنها؛ حيث اختاروا الشرب من القلوط - وهو النهر المعروف في دمشق المار على أوساخها وأنتانها، الحامل لها، الذي اختلط به كل عذرة وبول وأمور خبيثة - فاغترّوا بصفاء ظاهره ولم يدروا أن الدواهي في بواطنه، وكسلوا عن ورد رأس الشريعة ومنبع النهر.

فهذا مَثَل ضَرَبه المصنف ليقرب الأمور المعنوية من الأمور الحسية فيحصل زيادة فهمها؛ وذلك أن الشريعة، وهي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هي أطيب الموارد وأهنأها وأمرأها بسهولته وسعته وقربه وتيسيره؛ فإن فهم الأصول والفروع والحلال والحرام والهدى والضلال في الوحيين أيسر الأشياء كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[1].

ومع ذلك فإن آثاره في القلب واللسان في الإنابة إلى الله والتحلي بالإيمان به، وتوحيده العلمي والعملي، وفي اللسان من الثناء على الله وذكره وذكر صفاته ودينه، والجوارح في اشتغالها بطاعة الله وطاعة رسوله أحسن الآثار؛ فإن القلب متى صلح بالإيمان الصحيح صلحت جميع الجوارح، وعكس ذلك متى فسد القلب بالعقائد الباطلة والآراء الزائغة عن الاستقامة؛ فسدت الجوارح واختلت عن استقامتها، وانحرفت إلى كل خلق ذميم وعمل

(١) سورة القمر، آية: ١٧.

قبيح، نسأل الله السلامة والعافية.



فصل

في بيان هدمهم لقواعد الإسلام والإيمان بعزلهم نصوص السنة والقرآن

حقق المؤلف - رحمه الله - في هذا الفصل عزلهم للنصوص القرآنية والأحاديث النبوية بما أصلوه من الأصول الباطلة؛ حيث أصّلوها ثم قدموها عليهما، فإنهم أصّلوا أن ما هم عليه من علوم الفلاسفة واليونان ونحوهم أمور يقينية وصرائح عقلية، وما دل عليه الكتاب والسنة أدلة لفظية تحتمل عدة معان.

وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل قدم العقل؛ لأنه أصل النقل وبه يعرف النقل، ثم إنهم جعلوا ما دلت عليه عقولهم التي ما استنارت بنور الإيمان ولا وصل لها شيء من الإيقان، بل استمدت من زبالات الآراء ونحاتة الأفكار، والعقائد الباطلة جعلوها هي العقول التي توزن بها النصوص، فتولد من ذلك عزل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية عما دلت عليه من الحق، ولكن جعلوا لها الاسم والرسم، وسموا أنفسهم أتباعها، وجعلوا الطاعة والحكم لغيرها، فما وافقهم منها قبلوه، وما خالف رأيهم حرفوه وبدلوه.

أما أهل السنة والجماعة: فقد بينوا ما في هذا الأصل الباطل من الضلال، وما اشتمل عليه من المحال، وقرروا أن أدلة الكتاب والسنة لا تتناقض؛ لأنها من عند الله، وما كان من عند الله لا يمكن أن يحصل فيه أدنى تناقض ومخالفة، وكذلك العقل الصريح وهي القضايا التي اتفق العقلاء على مضمونها، لا تأتي بما يخالف النص، بل العقل مع النقل له ثلاث مقامات:

- إما أن يشهد بما دل عليه الشرع؛ وذلك بما اشتمل عليه الدين من المحاسن والأحكام ومن المصالح.
- وإما ألا يهتدي العقل لتفاصيلها؛ كأمور البرزخ والجنة والنار مما ليس للعقول مجال في معرفتها، وإنما العقل يسلم فيها للشرع؛ لتيقنه لصدق الشارع وأنه لا يقول إلا الحق.
- وإما أن يأتي الشرع بما تحار فيه العقول، ولا تعرف وجهه ولا حكمته، وهذا الذي اصطلح الفقهاء على تسميته بالتعبد.

فهذه الأمور الثلاثة هي التي ترد الشرائع بها، وأما أنها ترد بأمر يشهد العقل الصريح ببطلانه فهذا من المحال الممتنع؛ لكون الحق لا يتناقض، والأمور اليقينية لا تتعارض، فحيث توهمت التعارض في ذلك فهو لأحد أمرين لا ثالث لهما:

- إما أن العقل فاسد ليس بصحيح، يظنه صاحبه عقلًا وإنما هو جهل، ويخاله حقيقة وهو خيال، فمخالفة ما هذا شأنه لا عبرة به.
- وإما أن النقل غير صحيح، فالنقل غير الصحيح ليس من الشرع، فلا تتصور المعارضة.

وإذا بنى المؤمن إيمانه على هذا الأصل العظيم فقد استقام إيمانه وتم إيقانه، واهتدى للحقائق، وسلك حسن الطرائق، ومتى سلك الطريق المخالف لهذا فهو ضال زائغ، والله يهدينا وإخواننا المسلمين لما يحبه ويرضاه من العلم بالحق واتباعه،ومعرفة الباطل واجتنابه، إنه جواد كريم سبحانه.

فصل

في بطلان قول الملحدين القائلين: إن الاستدلال بكلام الله وكلام رسوله لا يفيد العلم واليقين

وهذا الفصل شبيه بالذي قبله إلا أنه قرر في هذا الفصل وجه استدلال الملحدين وأتى به على صورته ثم نقضه؛ فإنهم قالوا: إن الهدى والعلم واليقين والقطع لا يستفاد من الكتاب والسنة؛ لأنها أدلة لفظية لا تدل على يقين، وفيها من الاشتراك والإجمال والاحتمالات والمجازات والإضمار والحذف والتخصيص ما يوجب التوفيق في مدلولها، وأيضًا فالسنة أغلبها آحاد[1]، والآحاد عندهم لا تفيد سوى الظن[2].

---

(١) خبر الآحاد، هو: ما قصر عن صفة التواتر، ولم يقطع به العلم وإن روته الجماعة. الكفاية ص ١٦.

(٢) مسألة إفادة خبر الواحد العلم أو الظن من المسائل الخلافية، وقد تباينت أقوال العلماء فيها، ويمكن حصرها في أربعة مذاهب:

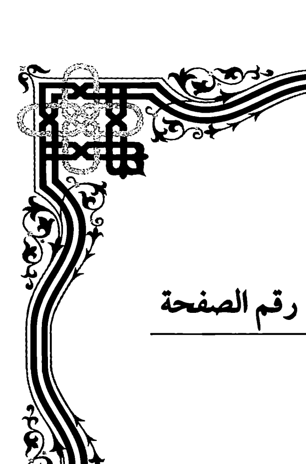
المذهب الأول: مذهب الذين قالوا بأن خبر الآحاد لا يفيد العلم وإنما يفيد الظن مطلقا، أي سواء احتفت به القرائن أم لا. وهذا مذهب أكثر الأصوليين وجملة الفقهاء.

المذهب الثاني: مذهب الذين قالوا بأن خبر الواحد يفيد العلم مطلقًا، سواء احتفت به القرائن أم لا. وهو مذهب جمهور الظاهرية والمحاسبي والكرابيسي وابن حزم، وبعض أهل الحديث وجماعة من الحنابلة، ونسبه البعض كالآمدي وابن الحاجب والشوكاني إلى الإمام أحمد ولا يصح، فقد نفى ابن بدران في شرحه لروضة الناظر نسبة هذا القول إلى الإمام أحمد.

المذهب الثالث: وهؤلاء قالوا بأن خبر الواحد يفيد العلم إذا احتفت به القرائن غير اللازمة؛ أي القرائن المنفصلة: مثل البكاء وشق الجيوب والتفجع، وهذا مذهب النظام، واختاره الغزالي والآمدي وابن الحاجب والكمال بن الهمام.

المذهب الرابع: قالوا: إنه يفيد العلم لاحتفافه بقرائن متصلة؛ من كون الرواة من أهل الصدق =

= والضبط والإتقان، وكون الخبر موافقًا لما تهدف إليه الشريعة مؤيَّدًا بنصوص أخرى تشهد بمعناه، وكونه مما تلقته الأمة بالقبول كأخبار الصحيحين. وهذا مذهب جماعة من أهل الحديث؛ منهم أبو عبد الله الحميدي وأبو طاهر السلفي وابن الصلاح وغيرهم، وبه قال جماعة من الحنابلة.
يمكن الرجوع إلى الإمام الشافعي: الرسالة ص ٣٦٩، وابن حزم: الإحكام ١/ ١٠٣، القاضي أبي يعلى: العدة ٣/ ٨٥٩، ابن عبد البر: التمهيد ١/ ٧، آل تيمية: المسودة ص٢١٩، الآمدي: الإحكام ٢/ ٣٢، ابن الصلاح: مقدمة ابن الصلاح ص٤٣، النووي: شرح صحيح مسلم ١/ ٩، ابن حجر: نزهة النظر ص٢٢، الكتاني: نظم المتناثر من الحديث المتواتر ص٢١.



فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

الأدلة القواطع والبراهين
في إبطال أصول الملحدين

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

النصيحة الربانية في الرد على المغترين
بدعاة الإلحاد والمدنية الغربية
(انتصار الحق)

الموضوع رقم الصفحة

التوضيح والبيان لشجرة الإيمان

تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله

فتنة الدجال

الموضوع　　　　رقم الصفحة

يأجوج ومأجوج

مختصر
في أصول العقائد الدينية

أصول عظيمة
من قواعد الإسلام

الموضوع	رقم الصفحة

توضيح معاني الكافية الشافية
في الانتصار للفرقة الناجية
لشمس الدين ابن القيم

الموضوع	رقم الصفحة

